رواية

د. خَولَة حَمْدي

أينَ المفرّ



أينَ المَفَرّ

رواية

أينَ المَفَرّ

رواية

تأليف :

د.خولة حمدي

تصميم الغلاف:

عبد الرحمن الصواف

مراجعة لغوية :

أحمد سعيد

رقم الإيداع: 2017/26716

الترقيم الدولي: 2-049-820-977-978

إشراف عام :

محمد جميل صبري

نيفين التهامي

أينَ المَفَرّ

د.خولة حمدي

رواية

كيان للنشر والتوزيع

إهداء

إلى الذين قالوا، قد كانت ثورة!

وإلى الذين قالوا، لم تكن ثورة!

اجمعوا كلماتكم، آراءكم ومراءكم.. وانصرفوا!

آن أن تنصرفوا!

إهداء ثانٍ

إلى المزوِّرين الذين سرقوا رواية تحمل العنوان ذاته

لقد أعدت كتابتها، خصيصًا لأقول:

موتوا بغيظكم!

موطني.. موطني!

الجلال والجمال، والسّناء والبهاء

في رباك، في رباك!

-١-

حطّت طائرة الخطوط التّونسيّة القادمة من جنيف في رحلتها رقم ٧٠١ في مطار تونس قرطاج، في السّاعة الثّانية ظهرا، يوم ٢٢ مارس ٢٠١١. كانت رحلة هادئة تخلّلتها اضطرابات جويّة خفيفة، والطّقس في الخارج ربيعيّ مشمس. ترجّل نجيب كامل، الرّجل السّتينيّ، وابنته الشّابة ليلى من مقصورة الدّرجة الأولى، وتقدّما في اتّجاه مكتب الجمارك. تأبّطت ليلى ذراع والدها، ورنت إليه بنظرة مشفقة. هذه الحماسة التي تقرؤها في عينيه، تكاد تنفجر بها تقاسيمه، لا يمكنها أن تتماهى معها بعد. لم يكن الرّبيع في نظرها سوى فصل قد حلّ منذ أيّام، أمّا الرّبيع العربيّ الذي لم يفتر عن ذكره لأسابيع، فدخيل على قاموسها!

لم يدم انتظارهما سوى دقائق قليلة، حتى يحين دورهما للتثبّت من هويّتيهما. استظهر نجيب بجوازات السّفر الدّيبلوماسيّة، ثمّ وقف مترقّبا. كانت الوثيقة التي بحوزته سارية المفعول، رغم انقضاء فترة تكليفه كسفير للبلاد التّونسيّة في سويسرا منذ فترة.

استلم منه موظّف الجمارك الوثائق، رقن الأسماء على جهازه، ثمّ عبس. استدار ليوشوش زميله في المكتب المجاور، ثمّ عاد ليرقن على الجهاز.

ـ هل كلّ شيء على ما يرام؟

بادره نجيب مستفسرا.

ـ لحظة واحدة يا سيّدي.

بينما كان الموظّف يتابع عمليّاته المعقّدة التي لا تنتهي، اقترب رجلا

أمن بالزيّ الرّسميّ من المكتب ووقفا يترقّبان في صمت بدورهما. انحنت ليلى على والدها وهمست في قلق باللغة الفرنسيّة:

- ما الذي يجري؟

- لا تقلقي.. لعلّها إجراءات أمنيّة روتينيّة.. بسبب الثّورة!

هزّت رأسها في تفهّم، بينما رسم والدها على شفتيه ابتسامة مطمئنة.

صار مولعا بمصطلح «الثورة» في الفترة الأخيرة. كلّ نشاط يقوم به وكلّ فكرة ترد على خاطره متّصلة سببًا أو نتيجة بالثّورة! لقد حسبت ليلى أنّ السّياسة انسحبت من حياة والدها منذ انتهت مهمّته الرّسميّة بالسّفارة، بعد عقدين من التّكليف في مختلف المناصب الدّيبلوماسيّة. كانت السّنتان الأخيرتان هادئتين بشكلّ خاصّ، دون كثير لغط ولقاءات وندوات وسفرات خارجيّة. لكنّ رجل الأعمال ارتدى فجأة عباءة السّياسيّ مرّة أخرى، وصارت الثّورة كلّ ما يشغله.

في الحقيقة، لقد تحوّل كلّ تونسيّ عرفته في المهجر إلى سياسيّ محنّك في ظرف أيّام من اندلاع الحركة الثّوريّة في تونس! منذ أحرق البائع المتجوّل الشّابّ «محمّد البوعزيزي» نفسه في السّوق الأسبوعيّة بسيدي بوزيد، انطلقت الألسن بالتّحليل والتّنظير كما لم تفعل من قبل.

- سعادة السّفير، هلّا تبعتنا رجاء؟

كان ضابط يحمل نجمتين على كتفيه قد اقترب من نجيب الآن. رمقه نجيب بنظرة متفحّصة. جواز سفره غير المختوم بين كفّي الضّابط، وذراعه تشير إلى المكتب الدّاخليّ لحرس الحدود. ما إن قدم الضّابط حتّى أحاط به رجلا الأمن من الجانبين، لتشجيعه على الانصياع دون مقاومة.

ـ آنستي، من هنا أرجوك.

تسلّمت ليلى جواز سفرها المختوم في ذهول، بينما كان والدها يتحرّك مبتعدا محفوفا بحارسيه. كان الموظّف يشير إليها لتسير في اتّجاه قاعة تسلّم الأمتعة! ارتبكت نظراتها، وهتفت في صرامة:

ـ سأنتظر والدي.. إلى أين تأخذونه؟

التفت نجيب، وقال مطمئنا:

ـ لا تخافي، سيكون كلّ شيء على ما يرام!

كان عليها أن تثق في ملامح والدها المطمئنة، وعينيه المشجّعتين. لم يفعل شيئا يستحقّ القلق. إنّه مجرّد إجراء روتينيّ. هزّت رأسها موافقة، وازدردت ريقا مرّا علق بحلقها. تابعته بعينين فزعتين حتّى اختفى بالدّاخل. جلست في قاعة الانتظار، ضامّة كفّيها في حجرها، ساقها ترتجف في حركة لا إراديّة، وعيناها معلّقتان بالباب. هذا الإجراء الرّوتينيّ قد دام طويلا. مرّت ساعة مذ اختفى والدها داخل المكتب المغلق.

تفكّر الآن، ما الذي يكون سبب احتجاز والدها. لقد حاولت أن تقنعه بألّا يستخدم جواز السّفر الدّيبلوماسيّ! خمّنت أنّ كلّ مسؤول ذي علاقة بالنّظام المنهار لن يكون محلّ ترحاب من قبل مواطنيه الثّائرين والغاضبين. لكنّه لقّنها درسا طويلا في الولاء للوطن والبراء من النّظام! كان يعتبر ولاءه للوطن وحده، لا لنظام أو رئيس. هكذا هي المهمّات الدّيبلوماسيّة. وهكذا يشهد له كلّ من عرفه. لقد خدم البلاد، رغم استيائه من النّظام الدّيكتاتوريّ وتبرّئه من ممارساته المخزية. والآن، وقد انزاحت الغمامة، ألا يحقّ له الاحتفال مع مواطنيه ومشاركتهم نشوة الحريّة؟ كان يطمع في تقاعد هادئ ووديع في كنف الوطن المحرّر.

لكنّها كانت على حقّ. لقد جاهر بهويّته أكثر ممّا يجب.

الحركة لا تتوقّف في المطار. طائرات تحطّ وأخرى تقلع. مسافرون يجيئون، وآخرون يرحلون. مرّت عليها ثلاث ساعات وهي تصارع القلق والتّوتّر. ثمّ أدركت أنّ أمرا ما يحصل. وقفت، وسارت في اتّجاه المكتب المغلق. أوقفها رجل أمن بحدّة:

ـ هذه مساحة ممنوعة على غير الموظّفين!

هتفت بصوت قويّ رغم ارتجافها:

ـ لقد أخذوا والدي إلى هناك منذ ثلاث ساعات.. أريد أن أعرف ماذا يجري!

التفت إلى زميله الواقف غير بعيد عنه وقال مستفسرا:

ـ هل هي أجنبيّة؟ ما شأنها؟

انتبهت إلى أنّ لغتها الفرنسيّة لم تكن تناسب الموقف، أعادت عليه طلبها بعربيّة متردّدة، ذات لكنة أجنبيّة. كانت تجتهد لتنطق الحروف بوضوح. رمقها الموظّف بنظرة متعاطفة، ثمّ قال:

ـ ما اسم والدك؟ سأستطلع الأمر من أجلك.

بعد دقيقتين، عاد يجرّ قدميه ببطء، ثمّ قال معاتبا:

ـ ما كان عليك الانتظار كلّ هذا الوقت.. لقد أخذوا والدك منذ زمن!

ـ أخذوه؟ إلى أين؟ لم أره يخرج!

ـ لا شكّ أنّهم أخرجوه من الباب الخلفيّ!

ـ باب خلفيّ؟ لماذا لم يخبرني أحد؟ إلى أين ذهب؟

ـ لا أدري، عودي إلى البيت يا آنستي، واسألي عنه صباحا في دائرة التّفتيش والمحاسبة.

ـ تفتيش ومحاسبة؟ ما الذي تعنيه؟

ـ هـذا كلّ مـا عنـدي.. انـصرفي الآن! هنـاك حظـر تجـوّل بعـد السّـاعة التّاسـعة.

تجاهلهـا، وسـار مبتعـدا، يجـرّ قدميـه بنفـس السّـماجة. بينمـا توقّـف الزّمـن بالنّسـبة إلى ليـلى عنـد تلـك اللّحظـة. تجمّـدت مكانهـا وقـد سـيطر عليهـا الجـزع، ثـمّ هرولـت بـين المكاتـب. سـألت موظّفـا آخـر، ثـمّ آخـر.. ولـم تختلـف الإجابـة كثـيرا. خرجـت أخـيرا، بعـد سـاعة أخـرى، لتجـد حقائبهـا مركونـة إلى جانـب شريـط النّقـل المتوقّـف. السّـاعة تشـير إلى السّـابعة مسـاء، وهـي تتضـوّر جوعـا.

وقفـت عـلى الرّصيـف أمـام المطـار، لا تـدري إلى أيـن تذهـب. لـم تكـن تعـرف أحـدا في تونـس. كانـت زيارتهـا الأولى خـلال الأربـع والعشريـن سـنة الماضيـة.. والـتي تمثّـل كلّ مـا انقـضى مـن عمرهـا. أو هـذا عـلى الأقـلّ مـا تذكـره. لـم تكـن قـد رافقـت والدهـا في سـفراته الحديثـة الخاصّـة بالعمـل، ولـم تكـن تحسـب أنّ لهـا عائلـة تجـدر بهـا زيارتهـا في الوطـن. أو لعلّهـا فعلـت في وقـت لا تذكـر عنـه شيئا؟ لـم تكـن واثقـة. لكـنّ وقوفهـا المرتبـك ذاك عـلى رصيـف المطـار كان يحمـل طعـم «المرّة الأولى».

هـذا وطنهـا الـذي لا تعرفـه، وهـي تواجهـه وحدهـا، بكفّيهـا العاريتـين. هـذه معركـة غـير متكافئـة!

كانـت الحركـة خفيفـة في بدايـة المسـاء، بسـبب حظـر التّجـوّل. لـم تكن بحوزتهـا أيّـة أرقـام هواتـف، فقـط عنـوان خالهـا الـذي لـم تلتقـه قـطّ. تذكّـرت حجـز الفنـدق. بطاقـة الحجـز مـع والدهـا، لكنّهـا تعـرف اسـم الفنـدق عـلى الأقـلّ. هـل يسـمحون لهـا بالـنّزول في الغرفـة، والحجـزُ باسـم والدهـا؟ كانـت بحوزتهـا بعـض العملـة السّـويسريّة.. يمكنهـا أن

تدفع ثمن إقامتها لبضع ليالٍ، لا أكثر. يجب أن تجد حلّا قبل أن ينفد ما لديها من مال. تذكّرت، لديها بطاقتها الائتمانيّة. يمكنها السّحب من رصيدها في البنك السّويسريّ متى شاءت! زفرت في ارتياح عند ذلك الخاطر. لم تسدّ أمامها كلّ السّبل بعد.

أوقفت سيارة أجرة، وأعطت السّائق اسم الفندق. الفندق الوحيد الذي تعرفه في العاصمة. كانت رؤيتها ضبابيّة طيلة الطريق. ليس بسبب دموعها، ولا سرحانها في أفكارها. كانت الطّريق مظلمة حقّا، وشبه مقفرة. ولم يتوقّف السّائق عن التّذمّر. كان يخاطر بحياته لإيصالها في مثل تلك السّاعة المتأخّرة.. إن واجهه كمين في طريق العودة، فسيكون ذلك بسببها! لحسن حظّها، كانت لافتة الفندق مضيئة عن بعد، وكان السّائق يعرف الطّريق. نقدته ورقة من فئة العشرين فرنك، فسارع يساعدها في إنزال الحقائب ويوصلها حتّى بوّابة الفندق الدّاخليّة، وقد أنساه كرمها أمر حظر التجوّل والكمين.

كانت هناك غرف شاغرة. حصلت على واحدة بسهولة. تذمّرت كذلك موظّفة الاستقبال. لم يكن الموسم سياحيّا بعد في بداية الرّبيع، والثّورة قد قضت على السّوق الفندقيّة تماما. دخلت الغرفة، وطلبت وجبة خفيفة من قائمة خدمة الغرف. عقلها يعمل بشكل أفضل حين لا تكون جائعة. تناولت طبقها على مهل وهي تفكّر.

يلزمها أن تبحث عن محامٍ. لكنّها غريبة، لا معارف لديها ولا صلات. ربّما إن تمكّنت من زيارة والدها، سيدلّها على بعض العناوين. في الانتظار، لم يكن بوسعها إلّا أن تتّصل بخالها. كان دليل الهاتف على منضدة الغرفة. فتحت الكتاب الضّخم وأخذت تبحث عن اسم نبيل القاسمي المقيم في ضاحية «سكّرة». لم تجد الرّقم في الدّليل. اتّصلت بمكتب الاستقبال وطلبت خدمة الدّليل الصّوتيّ. أملت الموظّفة الاسم وانتظرت. كان ردّها سالبا.

- نعتذر، الرّقم على اللّائحة الحمراء!

لعنت قانون الخصوصيّة الذي يسمح للأفراد بحجب أرقام هواتفهم من الدّليل. فلتجرّب الشّركة إذن. حاولت أن تتذكّر الاسم. القاسمي للتّجارة؟ القاسمي وشركاؤه؟ لم تكن واثقة. طلبت لائحة الشّركات التي تحوي اسم القاسمي. كان هناك حوالي عشرين اسما.. ولم يكن من بينها أيّ من تخميناتها! ماذا ستفعل الآن؟ هل تتصل بها كلّها، تطلب من الاستقبال أن يوصلها بسكرتيرة المدير، ثمّ تقنع السكرتيرة بأنّها ابنة شقيقة المدير، فإذا ما صدّقتها وقبلت تمرير الاتّصال مرّت باستجواب إثبات هويّة؟ عشرون مرّة.. كثير جدّا.

عليها أن تزور خالها في الغد.

***

توقّفت سيّارة أجرة أمام البوّابة الرّئيسيّة لقصر نبيل القاسمي، في ضاحية «سكّرة» بالعاصمة التّونسيّة. نزلت الرّاكبة الوحيدة ليلى كامل، نقدت السّائق أجره ثمّ تقدّمت لتضغط على الجرس. وقفت تنتظر لبرهة ريثما يطالع من بالدّاخل صورتها على الشّاشة الدّاخليّة، ويتّخذ قرارا باستقبالها. السّاعة مازالت لم تتجاوز السّابعة والنّصف صباحا. ليس وقتا مناسبا للزّيارة. لكنّه وقت تضمن فيه أن تجد خالها في قصره. إذا تأخّرت، سيكون عليها اللّحاق به إلى الشّركة.

حين فتحت البوّابة بشكل آلي، خالجها بعض التوتر. لقد خلّف حديث والدها عن عائلة خالها انطباعا غريبا لديها. لم تكن تشعر بالارتياح وهي تقطع المسافة التي تفصل بين البوّابة الخارجيّة والمدخل المفضي إلى البهو. لكنّها مضطرّة. لا يمكنها اللّجوء إلى أحد

آخـر. هـذا مقـرّ إقامـة خالـك يـا ليـلى، خالـك الـذي لا تعرفينـه. لـم ينتظـرك أحـد في المطـار، وهـا أنـت تصلـين مثـل الغربـاء. لكنّـك اليـوم لسـتِ بصـدد زيـارة عائليّـة ترتـق عـرى المـودّة المنبتّـة، بـل أنـت في مهمّـة. تذكّـري ذلـك.

ضغطـت عـلى حقيبـة يدهـا بأنامـل مرتجفـة، تلـك الارتجافـة الخفيّـة الـتي لا ينتبـه إليهـا إلّا مراقـب عـن كثـب، ثـم سـارت بخطـوات واسـعة في اتّجـاه المبـنى. ألقـت نظـرة شـاملة عـلى الحديقـة متراميـة الأطـراف، ثـم اسـتدارت لتتأمـل واجهـة القـصر الشـامخ المنتصـب أمامهـا. حاولـت أن تضبـط إيقـاع تنفّسـها. عـلى الأقـلّ، لـم يكـن عليهـا القلـق بشـأن ثقـوب ذاكرتهـا. لقـد تعرّضـت لمواقـف محرجـة كثـيرة منـذ حادثـة السـيّارة، عـلى الطريـق الجبليّـة، في سـويسرا. لكنّهـا لا تحمـل هـمّ المـآزق ذاتهـا في تونـس. هـذه بدايـة طازجـة، لا علاقـات سـابقة ولا سـجلّ تاريخـيّ مشـترك!

تحرّكـت أصابعهـا لتسـوّي مقدّمـة شـعرها في لازمـة لا إراديّـة، وتقدّمـت بخطـى ثابتـة لتصعـد درجـات السّـلم الرّخامـيّ المـؤدّي إلى المدخـل. انحـنى أمامهـا الخـادم العجـوز ثـم سـبقها إلى الدّاخـل. انتبهـت إلى الرّجل القصـير الأصلـع الـذي وقـف يترقّبهـا في البهـو، في بدلـة رسـميّة كاملـة، يدفـع كرشـا مسـتديرة أمامـه وعـلى شـفتيه ابتسـامة ودودة. خالهـا، نبيـل القاسـمي. تقدّمـت لتعانقـه في حـرارة متكلّفـة وتبـادلا عبـارات التّرحيـب.

ـ أعتذر على الزّيارة المبكّرة.. أرجو ألّا أكون قد أزعجتك!

ـ أبدا.. كنت أتناول قهوتي الصّباحية وأطالع الجريدة.

أشـار إلى الأريكـة حيـث كانـت الجريـدة، وفنجـان قهـوة مـليء إلى النّصـف، ودعاهـا إلى مشـاركته الجلسـة.

ـ أين نجيب؟ ظننتكما ستصلان معا!

- نعم، كانت تلك هي الخطّة.. لكن حصل ما لم يكن في الحسبان.

قصّت عليه تفاصيل مغامرتها في المطار باقتضاب. لقد ألقي القبض على والدها أثناء إجراءات الوصول. هذا ما كان يجب أن يعرفه. كانت تُنهي روايتها، حين تناهت إليها ضوضاء قادمة من الطّابق الأول، ثم ظهر شابّ ثلاثينيّ حنطيّ البشرة أخذ ينزل الدّرج. حدّق فيها في دهشة، قبل أن يبادر نبيل معرّفا:

- هذا ياسين ابني الأكبر.. تعال يا ياسين، هذه ليلى ابنة عمّتك نجاة.. لقد تعرّفت إليها بالتّأكيد.

تجاهلت ليلى ملاحظته الأخيرة. لقد كان وجهها مألوفا بالنّسبة إليهم جميعا. هذا مؤكّد. لكن لم يكن العكس صحيحا. بالنّسبة إليها، كانوا جميعا غرباء.

بعد لحظات شخوص وارتباك، استعاد ياسين هدوءه، وانضمّ إلى الجلسة. كان شبهها الشديد بشخص آخر يعرفه جدّ المعرفة، جعل ردود فعله تشهد حالة بطء وتبلّد. العينان اللّوزيّتان الخضراوان والشّعر الكستنائيّ السّبط، وتلك الملامح الدّقيقة والمتحفّزة. إنّه يعرفها كلّها حقّ المعرفة.

في كلمات قليلة، أوجز نبيل بدوره وصف المستجدّات. قال ياسين على الفور:

- لا تقلق، سأهتمّ بالأمر.

هزّ نبيل رأسه في استحسان. يعرف أنّ بإمكانه الثّقة في أكبر أبنائه حين يتعلّق الأمر بحلّ أزمات العمل أو غيرها من المهامّ. ليس غريبا أن يكون ذراعه اليمنى في الشّركة. قال مخاطبا ليلى بلهجة مطمئنة:

- أرأيت؟ ياسين سيهتمّ بهذه المسألة البسيطة.. والآن، أين حقائبك؟

ـ في النّزل.

ـ مـاذا؟ لا! هـذا غـير ممكـن! ابنـة أخـتي تقيـم في نـزل وفيـلا خالهـا مفتوحـة؟ سـتأتين للإقامـة معنـا، حـتّى يخـرج والـدك بالسّـلامة!

كان يتكلّم كمن يقرّر، لا يُخيّر. التفت إلى ياسين وقال آمرا:

ـ رافقهـا إلى الـنّزل، وأحـضر حقائبهـا وحاجياتهـا.. سـتقيم في غرفـة حنان مـن الآن وصاعـدا.. صابـر، اقـترب.. بلّـغ الآخريـن بالأمـر، يجـب أن تكـون الغرفـة جاهـزة فـور عودة الآنسـة.

انحـنى الخـادم العجـوز، ثـمّ ابتعـد ليلـبّي مطلـب سـيّده، بينمـا تمتمـت ليـلى في إحـراج:

ـ شكرا لك.. ولكن...

ـ ليـس هنـاك لكـن.. قُـضي الأمـر يـا عزيـزتي. هيّـا أحـضري حقائبـك! ياسـين، مـاذا تنتظـر؟

حين صارت وياسين أمام المدخل، التفتت إليه وقالت:

ـ يمكنني إحضار حقائبي بنفسي.. لا تتعب نفسك.

لـم تكـن فكـرة ركـوب سـيّارة رجـل غريـب، حـتّى لـو كان ابـن خالهـا، تروقهـا. ابتسـم ياسـين وأشـار بإبهامـه إلى الدّاخـل:

ـ أعرف أنّ بإمكانك تدبّر أمرك.. لكنّها أوامر الرّئيس!

ـ إذن، سأسبقك إلى النّزل، لأجمع حاجياتي.. ثمّ يمكنك اللّحاق بي.

فكّـر. لـم يكـن قـد تنـاول وجبـة إفطـاره بعـد. وهـي عـلى مـا يبـدو لا ترغـب في رفقتـه. يمكنـه أن يجاريهـا. قـال وهـو يهـزّ رأسـه:

ـ اسم النّزل؟ وأيّ ساعة تناسبك؟

***

عادت إلى النّزل وحيدة. جمعت حاجياتها بسرعة وتركت حقائبها عند مكتب الاستقبال. أنبأتهم أنّ سيّارة ستأتي لأخذها حوالى السّاعة العاشرة، وزوّدتهم بهويّة المستلم، ثمّ غادرت. ستترك لياسين توصيل الحقائب، وستهتمّ بالبحث عن والدها. كانت تشعر بالخيبة. لم يبد لها أنّ خالها وابنه يقدّران ما هي فيه من قلق. لن تستطيع الاسترخاء والاستمتاع بضيافتهما وهي لا تعلم بعد ما الذي حلّ بوالدها!

استقلّت سيّارة أجرة، وطلبت من السّائق إيصالها إلى دائرة التّفتيش والمحاسبة. سألها بشكل آليّ:

- التّابعة لأيّ منطقة؟

فأغلق عليها الأمر. قالت في ارتباك:

- أقرب واحدة للمطار!

فهزّ الرّجل رأسه في عجب.

سيكون عليها المرور على ستّ دوائر بالعاصمة الكبرى، دون نتيجة تذكر. تنتظر في كلّ مرّة ساعة أو نحوها حتّى يهتمّ بها أحد الموظّفين.. ثمّ ترجع خالية الوفاض. لا أحد يعلم شيئا عن والدها. سيفجعها عدد الأهالي المتكدّسين في قاعات الانتظار، يسألون عن ذويهم الغائبين أو المختطفين. سيفزعها قول امرأة متّشحة بالسّواد، بإيمان خالص وصوت ثابت:

- إنّهم يعلمون ولكنّهم لا يقولون شيئا! حسبي الله ونعم الوكيل!

عادت في المساء إلى قصر نبيل القاسمي، منهكة ومستنزفة. استقبلها خالها بنظرة لوم وعتاب:

- ليلى، ليلى! لقد أغضبت خالك اليوم! لماذا لم تتركي ياسين يتصرّف؟

التفتت إلى ياسين الذي عقد ذراعيه أمام صدره ولسان حاله يقول: ألم أقل لك؟

- لقد عرفنا مكانه.. إنّه في سجن الإيقاف. سيأخذك ياسين غدا لرؤيته ورؤية المحامي أيضا.

هزّت رأسها في استسلام. ستفعل. كان عليها أن تدرك أنّ صلات خالها ستجدي نفعا وهو يجلس إلى مكتبه، أكثر من جهودها الفرديّة وهي تركض دون توقّف من دائرة تفتيش إلى أخرى. فكّرت فجأة بالمرأة المتّشحة بالسّواد. كم عليها أن تنتظر، دون صلات وعلاقات، لتعرف مكان زوجها أو ابنها؟

- صابر، دلّ الآنسة على الغرفة المعدّة لها.. ليلى، لقد كان يومك طويلا، فلتستريحي حتّى موعد العشاء.

هزّت ليلى رأسها موافقة، وتبعت الخادم إلى سلّم الطابق الأوّل. اضطربت أنفاسها وهي تدلف إلى غرفتها.. غرفة حنان سابقا. كانت غرفة واسعة، بحمّام ملحق، وشرفة مظللة تطلّ على الحديقة الخلفيّة. تعرف حنان، شقيقتها التّوأم، من خلال حديث والدها. لم تلتقها قطّ. والداها انفصلا في وقت مبكّر، وعاشت كلّ واحدة من التوأمين مع أحد الوالدين. والدتها كانت تقيم هنا في قصر شقيقها، مع حنان.

استلقت على السّرير وهي تزفر في إعياء. عادت بأفكارها إلى الأسابيع القليلة الماضية، حين فاتحها والدها بموضوع العودة النّهائيّة إلى أرض الوطن. قال ببساطة: «تعالي نعش أجواء الثّورة!» كم كان رومانسيّا حالما! فكّرت في سخرية. هكذا يقابلك وطنك الذي جئته متلهّفا! بالشّكوك والتّخوين!

تمنّت لو تستيقظ صباحا، لتجد الكابوس قد انقضى.

لم تدرك كم مضى عليها من الزّمن في سرحانها، حتّى تناهى إليها صوت طرق خفيف على الباب. فتحت عينيها واستقامت في مجلسها. تناهى إليها صوت رجالي يقول:

- ليلى.. هل يمكنني الدخول؟

- من؟

- أنا أمين.. هل أنت نائمة؟

فتحت الباب ليطالعها وجه أمين المبتسم. ابن خالها الأصغر.

- هل أيقظتك؟ لم أستطع تأجيل التّرحيب بك حتّى موعد العشاء.. أنا أمين، ستّ وعشرون سنة، كليّة التّجارة.. مسرور لرؤيتك!

كان أمين فتى وسيما بأتمّ معنى الكلمة، ربّما بشكل مبالغ فيه بالنّسبة إلى ليلى. أدركت منذ الوهلة الأولى أنّه من النّوع الذي تلاحقه الفتيات في الجامعة، وتعتبر طلّته مثالا يحتذى ضمن شلّة الصّبيان الذين يتزعمهم. كان في عينيه السّوداوين العميقتين شيء من الطّفولة. يصفّف شعره الأسود الناعم بعناية، مستعينا بأطنان من الهلام المعطّر.. أمّا تلك البشرة البيضاء الصّافية، فإنّها تحسده عليها! ملامحه الحادّة لافتة، لكنّه بدا ودودا للغاية، مثل جرو صغير جذّاب.

- لا تتأخري عن موعد العشاء بعد نصف ساعة.. أراك لاحقا!

قبل أن يتوارى عن ناظريها، عاد ليطل برأسه من فتحة الباب وهمس:

- فراس سيكون معنا على العشاء!

طبعا، إنّها تعرف من يكون فراس. بوسعها أن تجهل كلّ شيء عن أمين وياسين، لكن ليس فراس! إنّه زوج حنان، أو أرملها بعبارة أدقّ.

كانـت توأمهـا قـد توفّيـت في حادثـة، منـذ ثـلاث سـنوات.. بعـد سـنة واحـدة مـن زواجهـا. تنهّـدت ثـمّ شرعـت في توضيـب ملابسـها في الصّـوان بتـأن وعقـل غائـب. لـم تكـن مسـتعدّة للقـاء درامـيّ مـن هـذا النّـوع. تمنّـت أن يكـون قـد عـاش حـداده بمـا يكفـي وانتقـل إلى محطّـة أخـرى. غـيرت ملابسـها وغـادرت الغرفـة.

حـين دلفـت إلى قاعـة الطّعـام، توجّهـت إليهـا الأنظـار. رمقهـا ياسـين بنظـرة جانبيـة، في حـين ابتسـم أمـين وأشـار إلى المقعـد المجـاور لـه يدعوهـا إلى الجلـوس. أمّـا فـراس فقـد أشـاح بوجهـه متجاهـلا وجودهـا. قـال نبيـل في اسـتياء:

ـ فراس.. ألن تلقي التّحيّة على ابنة عمّتك؟

اضطـرب تنفّـس ليـلى وهـي ترقـب ردّة فعلـه. لوهلـة شـعرت بـأنّ شـيئا مـا سـيحدث، لكـنّ فـراس لـم يرفـع عينيـه إليهـا أبـدا. كانـت قبضتـاه متشـنّجتين عـلى ركبتيـه، ورأسـه مطرقـا. أخـيرا تحرّكـت شـفتاه ليهمـس بصـوت بـارد وعـدائيّ:

ـ مرحبا.

غمغمـت في سرّهـا سـاخرة، يـا للحفـاوة! وقـف نبيـل ودعـا ليـلى إلى الجلـوس قربـه. كان يـترأّس المائـدة، عـلى يسـاره ياسـين، في حـين بقـي المقعـد عـلى يمينـه شـاغرا عـلى شرف الضّيفـة. جلسـت إلى جـوار أمـين، في حـين كان فـراس عـلى الجانـب الآخـر، إلى جـوار ياسـين.

استمعت إلى أمـين يثرثـر طيلـة العشـاء، في حـين أكل الباقـون في صمت. أمّـا ليـلى، فقـد انشـغل بالهـا باسـتقبال فـراس الغريـب. لقـد توقّعـت كلّ أنـواع ردود الفعـل.. مـن التأثّـر البسـيط إلى الاحتفـاء البالـغ انتهـاءً بالانهيـار العصـبي، بمـا يتناسـب مع عمـق العلاقـة الـتي جمعتـه بزوجتـه الرّاحلـة. لكـنّ مـا رأتـه لـم يكـن شـيئا ممّـا سـبق! فكّـرت.. إنّهـا تلتقيـه

للمـرّة الأولى، مثـل الآخريـن تمامـا، ولا تاريـخ مشـتركا أو علاقـة سـابقة بينهمـا. لكنّـه اتّخـذ منهـا موقفـا بالفعـل!

حالمـا رجعـت إلى غرفتهـا، فتحـت حاسـبها الآليّ المحمـول، ورقنـت اسـم حنـان عـلى محـرّك البحـث. لقـد مـرّت بهـذه الخطـوات نفسـها منـذ ثـلاث سـنوات، حـين عرفـت بأمـر حنـان للمـرّة الأولى. تتصفّـح مواقـع التّواصـل الاجتماعـيّ، وتميّز عـلى الفـور صفحـة حنـان مـن بـين مجموعـة الصّفحـات الـتي أفرزهـا البحـث. لقـد كانـت حنـان تشـبهها حـدّ التّطابـق. تـوأم حقيقـيّ.

عليهـا أن تعـترف، لقـد خبـا فضولهـا تجـاه شـقيقتها بسرعـة مثلمـا اشـتعل فجـأة! سـألت كثـيرا في الأيّـام الأولى، عـن الأسـباب والدّوافـع الـتي أدّت بـكلّ منهمـا لتعيـش في معـزل عـن الأخـرى. حاولـت أن تعـرف عنهـا مـا أمكنهـا، تريـد اكتشـاف أوجـه الشّـبه والاختـلاف بينهمـا. لكـنّ كلّ ذلـك تجـلّى سريعـا نوعـا مـن العبـث. تسـاءلت بعـد ذلـك، مـا جـدوى الفضـول تجـاه شـخص ميّـت؟ لـم تكـن قـد عرفـت بوجودهـا إلّا حـين طالعـت نعيهـا. كانـت لديهـا أخـت، وقـد توفّيـت. انطفـأت الإثـارة خـلال أسـابيع قليلـة، ونسـيت أمرهـا أو كادت.

مـرّة أخـرى، حملقـت بعينـين مأخوذتـين في صـور توأمهـا الـتي كانـت تبـدو في كلّ منهـا في كامـل زينتهـا وأناقتهـا، في حفـلات صاخبـة ومناسـبات باذخـة. تصفّحـت الصّـور ذاتهـا، باهتمـام أكـبر. لـم تكـن هنـاك صـورة واحـدة لفـراس. بعـد انجـلاء الصّدمـة، دقّقـت في التّفاصيـل. كان آخـر منشـور لهـا منـذ أربـع سـنوات تقريبـا. وكانـت صـور الحفـلات تتوقّـف منـذ خمـس سـنوات، قبـل زواجهـا. أمّـا المنشـورات الأخـيرة، فهـي سلسـلة مـن المقـولات المأثـورة، والاقتباسـات الحزينـة!

قبيل السّاعة السّابعة صباحا، كانت على أهبة الاستعداد. ترقّبت في غرفة الطّعام دون أن تلمس شيئا من الأكل أمامها. بعد نصف ساعة ثقيلة، ظهر خالها.

- أنت مبكّرة كعادتك!

قال ضاحكا. ربّما يجد لهفتها مسلّية! لكنّ قلقها لم يفتر منذ الأمس. لن تستريح قبل أن ترى والدها بأمّ عينيها. بعد دقائق قليلة، وصل ياسين هو الآخر، ليتناول إفطاره. نظر إلى ساعته وقال في برود:

- مكتب المحامي لا يفتح قبل التّاسعة! خذي وقتك، وتناولي إفطارا جيّدا.

بادره نبيل فجأة:

- أين زوجتك؟

- عند والدتها.

بدا الامتعاض على وجه نبيل، بينما شرع ياسين يأكل في لامبالاة. انتظرت ليلى في صبر وأناة، بينما استمرّا يدردشان بشأن أمور العمل، متجاهلين وجودها تماما. لم يظهر أمين أو فراس، حتّى صارت الثامنة والرّبع. نظرة أخرى من ياسين إلى ساعته، ثمّ غادر ثلاثتهم. ركبت ليلى في المقاعد الخلفيّة، إلى جوار خالها في سيّارته المرسيدس الفاخرة، وركب ياسين إلى جوار السّائق.

كان المحامي بانتظارهم. نبيل القاسمي يعتبر واحدا من حرفائه المهمّين، وكان بإمكانه تأجيل أيّ قضايا أخرى للنّظر في حاجته. تصافح الرّجلان، ثمّ جلس الأربعة حول طاولة اجتماعات مستديرة. قال المحامي مطمئنا:

- لقد اطّلعت على الملفّ.. إنّها مجرّد دعوى كيديّة! هذا أمر

متكرّر منذ بداية الثّورة. كثيرون وجدوا أنفسهم محلّ شكاوى لمجرّد اضطلاعهم بمهامّ رسميّة في ظلّ النّظام السّابق! لا شكّ أنّ أحد الحاقدين على السيّد نجيب كامل أراد أن يصفّي حسابات قديمة، فرفع دعوى ضدّه! سيتمّ التّحقيق في القضيّة وإطلاق سراحه سريعا حين يتجلّى الطّابع الكيديّ للقضيّة.. لا داعي للقلق!

تنفّست ليلى الصّعداء، ثمّ قالت:

- ألا يمكن إطلاق سراحه بكفالة؟ ريثما تنظر المحكمة في القضيّة؟

- للأسف، في هذه الفترة الحسّاسة، لا يمكن إطلاق سراح المتّهمين بقضايا فساد بكفالة ماليّة! سيكون علينا الانتظار قليلا، ريثما تستقرّ أوضاع البلاد.

صافح خالها المحامي مبديا امتنانه، ثمّ غادرهم إلى شركته وأعماله التي أجّل بعضها من أجل قضيّة صهره. بعد ذلك، خرجت ليلى برفقة ياسين والمحامي في اتّجاه سجن الإيقاف. لم يدم الانتظار طويلا، حتّى سُمح لليلى والمحامي بلقاء نجيب، بينما كان على ياسين البقاء خارجا.

عانقت ليلى والدها بحرارة وبكت بين ذراعيه. كان يبدو هزيلا، وهالات سوداء عميقة ترتسم أسفل عينيه. بدا مسنّا في ثياب السّجن، كأنّما قد شاب في يوم وليلة. لم يمض سوى ثمان وأربعين ساعة على فراقهما، لكنّها بدت دهرا لكليهما. إن كانت قد عانت في اليومين السّابقين، فمعاناته أشدّ. لقد كان يهتمّ بمظهره كثيرا، والإهمال جعل حالته تبدو أسوأ ممّا هي عليه في الحقيقة.

تكلّم المحامي ليشرح لنجيب نوع القضيّة ويطمئنه إلى بساطة المسألة. ثمّ تركت ليلى العنان لأسئلتها التي لا تنتهي، عن وجباته ونومه ونظافته الشّخصيّة، والمقيمين معه في الزّنزانة ومعاملة السجّان

وظـروف السّـجن، والفسـحات والزّيـارات وإمكانيـة توفـير طعـام مـن الخـارج، والرّعايـة الصّحيّـة.

وكان نجيـب يجيبهـا بابتسـامة لا تفـتر. كلّ شيء عـلى مـا يـرام. طالمـا أنّـه اطمـأنّ عليهـا، فهـو بخـير. كان كلّ مـا يشـغله في سـجنه هـو مصيرهـا. إنّهـا غريبـة، ولا تعـرف أحـدا. لكنّهـا تدبّـرت أمرهـا، وهـذا يشـعره بالرّاحـة. ولـم تسـتوعب ليـلى تفاؤلـه رغـم كلّ شيء. ألـم يخـب ظنّـه في هـذا الوطـن وثورتـه؟ أمـا زال يلمحهـا بعـين الرّضـا والأمـل؟ لقـد كان يومـا مشـؤوما يـوم فكّـر بالعـودة! لقـد كانـا بخـير في سـويسرا!

افترقـا بعـد سـاعتين، وأدهشـها أن تجـد ياسـين ينتظـر بالخـارج، حـتّى بعـد انـصراف المحامـي. قـال بلهجـة ودودة:

ـ تبدين مجهدة.. تعالي، سأوصلك إلى البيت.

كان السّـائق ينتظـر أمـام السّـجن. أرسـله خالهـا بعـد أن وصـل إلى الشّركـة. مـرّة أخـرى، جلـس ياسـين إلى جـوار السّـائق، وتـرك لهـا المسـاحة الخلفيّـة. نزلـت أمـام بوّابـة القـصر، ثـمّ انطلقـت السـيّارة مـن جديـد إلى الشّركـة. طـوال الطّريـق، لـم يسـألها سـؤالا واحـدا. فكّـرت ليـلى، هـذا شـخص يُعتمـد عليـه.

اجتمعـت العائلـة مـرّة أخـرى عـلى العشـاء، وكان موضـوع والدهـا حديـث الجلسـة. سـألها خالهـا مـرارا وتكـرارا عـن ظـروف نجيـب واحتياجاتـه، ووعدهـا بتوفـير كلّ سـبل الرّاحـة لـه حـتّى يتـمّ الإفـراج عنـه. ثـمّ قـال عـلى حـين غـرّة:

ـ ليلى، هل زرت شقّة والدك أم ليس بعد؟

ـ لم يتسنّ لي ذلك.. نظرا للظروف المفاجئة.

ـ طبعـا، طبعـا.. كمـا وعدتـك سـابقا، سـيهتمّ ياسـين بـكلّ شيء.. وسـيتابع القضيّـة مـع المحامـي ويمـدّك بالمسـتجدّات أوّلا بـأوّل.. لا

تشـغلي بالـك بـشيء.. اتّفقنـا؟

هزّت رأسها علامة الإيجاب، فأضاف:

- فـراس، ربّمـا يمكنـك أن تلقـي نظـرة عـلى الشّـقّة مـع ليـلى صبـاح الغـد؟

بوغـت كلاهمـا بالاقـتراح. علـت ملامـح فـراس نظـرة مكفهـرّة ولـم يعلّـق، في حـين واصـل نبيـل:

- فـراس مهنـدس معمـاريّ كمـا تعلمـين.. وقـد عرفـت أنّ نجيـب يريـد تجديـد الشّـقّة.. يمكـن لفـراس أن يمـدّ يـد المسـاعدة لتسريـع العمـل.

حين لم يصله ردّها، استطرد على الفور:

- أعلـم أنّـك لسـت في مـزاج لهـذا الآن، لكنّـني أؤكّـد لـك.. قضيّـة والدك بسـيطة.. ثـمّ، ألا تريـن أن مفاجأتـه بتجديـد الشـقة سريعـا ستسـعده؟ لقـد كان ينـوي ذلـك عـلى كلّ حـال.. سـنوفّر عليـه الجهـد والوقـت.. هـا، مـاذا قلـت؟

عرفـت ليـلى أنّ خالهـا مـن النّـوع الـذي يسـتمتع بأخـذ القـرارات عـن الآخريـن. لا يهـمّ اعتراضهـا، فسـيكون كلّ شيء حسـب رغبتـه. لكـنّ أمـرا واحـدا كان يقلقهـا. مشـاركة فـراس في العمليّـة.

- لا بـأس يـا خـالي.. لـديّ بعـض العناويـن، يمكنـني أن أهتـمّ بالأمـر بمفـردي إن كان ابـن خـالي مشـغولا.

- لا بأس، يمكنني تخصيص بعض الوقت.

قاطعها فراس بشكل غير متوقّع.

- إذا تركـت المفاتيـح مـع حـارس العمـارة بعـد زيـارة الشـقة، يمكنـني أن ألقـي نظـرة مـتى انتهيـت مـن مواعيـدي الصّباحيّـة.

هـزّت رأسـها في استسـلام. لكـنّ الأمـر لـم ينتـه عنـد ذلـك الحـدّ، إذ

أصرّ نبيـل:

ـ ولمـاذا تـترك المفاتيـح عنـد الحـارس؟ حـين تنتهـي مـن مواعيـدك، مـرّ عليهـا هنـا واذهبـا سـويًا إلى الشـقّة.. أنـت تحتـاج رأي صاحبـة الشـقّة في التغيـيرات الـتي سـتحدثها! أليـس كذلـك يـا ليـلى؟

شـعرت ليـلى بأنّهـا محـاصرة مـن العيـون الثمانيـة الـتي تترقّـب ردّهـا. لـم تكـن فكـرة مرافقـة فـراس إلى شـقّة والدهـا تبـدو مريحة عـلى الإطلاق! لقـد بـدا عدائيّـا بشـكل غـير مفهـوم، كأنّ وجودهـا نفسـه يضايقـه. أسـعفتها سرعـة بديهتهـا بـردّ لبـق ومناسـب، فقالـت عـلى الفـور:

ـ سـيكون مـن الأفضـل لـو يأخـذ المهنـدس مقاسـات الشـقّة بمفـرده، فهـذه عمليّـة شـاقّة وتحتـاج وقتـا، ثـمّ نناقـش التغيـيرات عـلى الـورق.. وعـلى كلّ حـال، سـأذهب لزيـارة والـدي صباحـا، وربّمـا أتأخّـر عليـه.

ـ كما تشائين يا ابنتي.

هـدأ تنفّـس ليـلى المضطـرب وأطلقـت زفـرة خافتـة وهـي تعـود إلى قطعـة الحلـوى في طبقهـا. لكـنّ التفاتـة منهـا إلى جانـب المائـدة جعلـت الدّمـاء تنسـحب مـن وجههـا دفعـة واحـدة. كانـت نظـرات فـراس موجّهـة إليهـا هـذه المـرّة بشـكل سـافر، وعـلى شـفتيه تكشـيرة جانبيّـة سـاخرة. هـل يـدرك المغـزى وراء تجنّبهـا التلفّـظ باسـمه، وذكـره بالـ«مهنـدس»، منـذ قليـل؟ لوهلـة، شـعرت بـأنّ جميـع الأفـكار الـتي دارت بخلدهـا منـذ لحظـات كانـت مكشـوفة تمامـا.

حين استيقظت، كانت السّاعة قد تجاوزت الثّامنة ببضع دقائق. كانت لا تزال تشعر بالتّعب وبحاجة ملحّة إلى النوم. كانت قد سهرت مرّة أخرى، تطالع تاريخ حنان على مواقع التّواصل. فضولها قادها إلى البحث عن صفحة فراس أيضا.. لكن بدا أنّه لا يملك واحدة! لا أثر له على الشّبكة على الإطلاق! تقلّبت في مكانها ولفّت الملاءة على جسمها من جديد. ثمّ تذكّرت مواعيدها الصّباحيّة، ففرّ النّوم من عينيها مباشرة. قفزت من مرقدها وسارعت بتغيير ملابسها.

لم يكن أحد قد نزل لتناول طعام الإفطار بعد. جلست إلى المائدة بمفردها. شربت قهوتها مع قطعتي كرواسان بالزّبدة، قبل أن يعلن العم صابر وصول سيّارة الأجرة التي طلبتها، فخرجت على عجل.

حالما ابتعدت سيّارة الأجرة لشارعين، اختفت ملامح حيّ خالها الرّاقي بقصوره ذات الأسوار العالية والحدائق الشّاسعة، وظهرت مبانٍ عشوائيّة متلاصقة، أغلبها آجر أحمر بغير طلاء. صارت الشّوارع أضيق، والنّوافذ المعوجّة تطلّ مباشرة على الشّارع، في مشهد غير حضاريّ. وقرب أحد المنعطفات، زكمت أنفها رائحة كريهة نفّاذة، قبل أن تبدو للعيان كومة نفايات لم يتمّ رفعها منذ أسابيع ربّما. انتبه السّائق إلى تكشيرة الازدراء التي ظهرت على وجهها فقال وهو يطالعها عبر المرآة العاكسة:

ـ عمّال البلديّة في إضراب!

ـ لماذا؟

ـ يطالبون برفع الأجور.. مثلما يفعل الجميع!

يطالبون برفع الأجور؟ فكّرت، هل يساومون الدّولة بصحّة أفرادها؟ سمعت السّائق يتمتم:

ـ البلد كلّه أصبح مزبلة ضخمة! شيء مقرف!

استعادت فجأة تفاصيل المطويّة التي ترسلها وزارة السيّاحة التّونسيّة كلّ عام، للتّعريف بمعالم البلاد وحضارتها وجلب السيّاح الأوروبيّين. تستحضر الصّور الخلّابة لتونس عرفتها طيلة حياتها بلقب «الخضراء».. شواطئ فردوسيّة رمالها بيضاء وبحرها فيروزيّ، ملاعب غولف فاخرة، وأشجار زيتون ولوز وخوخ وارفة الظّلال، صحارى صافية الرّمال جِمالها شاهقة ونخيلها باسق، آثار رومانيّة وفينيقيّة وبونيّة وإسلاميّة، فسيفساء دقيقة بألوان مبهجة، شاشية حمراء وخلخال فضيّ وجبّة حريريّة. كلّ شيء جميل في وطنها رأته على تلك المطويّة، لكنّها منذ وصولها لم تر إلّا سحبا ملبّدة من البشاعة!

على جوانب الطّرقات، شجيرات متفرّقة خضرتها شاحبة وأزهارها جافّة، حيطان مشوّهة بمخلّفات المتظاهرين الذين مرّوا من الشّارع، شعارات ورسومات متمرّدة، سواد يشهد على حريق غابر أضرم ها هنا، والمزيد المزيد من الفضلات المكوّمة في تحدّ صارخ لقواعد الصحّة والذّوق العام. إنّها لا ترى ربيعا! تنهّدت. هل كان ينبغي سحق الواقع الحاليّ، تدمير المدن، إبادة المجتمعات، حتّى تقوم الثّورة؟ كانت تتوقّع ألوانا أكثر وإشراقا أكبر. بريقا يليق بمسمّى الرّبيع. هل كانت جامحة في خيالها؟

توقّفت أمام سجن الإيقاف. كان المكان قد غدا مألوفا لديها بعد زيارة الأمس.. لكنّ الولوج إليه لم يكن بالبساطة التي حسبتها! أنبأها الموظّف الوقح بأنّ عليها الحصول على بطاقة زيارة أوّلا! كان قدومها

بدون المحامي مضيعة للوقت. ركبت سيّارة أخرى وقصدت مكتبه ثانية. لم يكن موجودا! يا لهذا الحظّ العاثر! لامت نفسها. ألم يكن عليها الاعتماد على ياسين كما أمر خالها؟ لم يكن بيدها أن تفعل شيئا ذلك الصّباح. مواعيد الزّيارة تنتهي قريبا، وهي لا تدري شيئا عن الإجراءات اللّازمة. قرّرت، ستطلب من ياسين الاهتمام بالأمر. نظرت إلى ساعتها. كانت تشير إلى الحادية عشرة صباحا. يمكنها أن تشغل نفسها بعمل آخر في الوقت الحالي. تناولت الهاتف واتّصلت ببعض الأرقام التي سجّلتها ليلة الأمس، ثمّ ركبت سيّارة أجرة ثالثة.

كان من العسير العثور على صديقات حنان، فصفحتها كانت مليئة بالشبّان، وصورها تحصد منهم عبارات الإعجاب وكلمات الإطراء والغزل. لكنّ المنشورات الأخيرة كانت أقلّ شعبيّة بكثير! كان عليها أن تنقّب باجتهاد حتّى تصل إلى بنات دفعتها في كليّة الفنون الجميلة، وقد كانت مهمّة عسيرة استنفدت ساعات السّهرة كلّها!

توقّفت السيّارة هذه المرّة أمام كليّة الفنون الجميلة، فنزلت وتوجّهت إلى كافيتيريا تقع قبالة الجامعة. حال دخولها، تناهى إليها صوت جوليا بطرس يصدح من مكبّرات الصّوت المبثوثة في الفضاء المفتوح:

أنا بتنفس حريّة.. لا تقطع عنّي الهوا.

انتظرت زهاء السّاعة وهي تتناول وجبة خفيفة، على نغمات الثّورة والحريّة، وتتوقّف من حين لآخر لتدوّن في مفكّرتها الأسئلة التي كانت تراودها بخصوص حنان. كانت قد أنهت شطيرتها حين وصلت فتاتان تماثلانها سنّا. ما إن وقعت نظراتهما على ليلى، حتّى صرختا في دهشة:

ـ أنت حقّا شقيقتها التّوأم!

تأمّلتا ليلى في ذهول، ولاحظتا مرارا وتكرارا كم تشبه حنان، حتّى أنّ إحداهما انفجرت باكية، وكان على ليلى تهدئتها لبضع دقائق.

- للأسف لم أعرف حنان مطلقا.. وكنت أريد التّواصل مع صديقاتها، لأعرف عنها أكثر.

تبادلتا نظرات أسف، ثمّ سكتتا. لم تبادر إحداهما، حتّى قالت ليلى مشجعة:

- أريد أن أعرف كلّ شيء.. مهما كان بسيطا.. أيّ ذكريات، صور، أحداث مميّزة.. لا شكّ أنّ الحياة الجامعيّة كانت حيويّة وزاخرة بما يستحقّ أن يُروى!

استمرّ الصّمت للحظات أخرى، ممّا أثار قلق ليلى. قالت إحداهما أخيرا:

- حنان المسكينة.. لم تكن محظوظة! لقد كانت على قدر وافر من الجمال والثراء.. لكنّها كانت تعيسة.

سكتت ليلى مبهوتة. لم تتوقّع أن يسير الحوار في هذا الاتّجاه منذ الكلمات الأولى. لكنّها بعد الاطّلاع على صور حنان كانت قد توصّلت إلى الاستنتاج نفسه.. حنان كانت تعيسة. ابتسامتها تعيسة، وتظاهرها بالسّعادة منتهى التّعاسة. لكن أن يكون هذا معروفا لدى زميلات الجامعة بشكل واضح، فهذا ما لم تتوقّعه.

- من المؤسف أنّها قد تزوّجت في سنّ مبكّرة.. لقد كان زواجا تعيسا!

أمّنت الثّانية على قولها:

- زواج الأقارب أمر سيّئ.. لكنّه في وضع حنان كان سيّئا تماما!

وهذه صدمة أخرى! هؤلاء البنات يعرفن أيضا أنّ حنان لم تكن سعيدة في زواجها؟ أغلقت مفكّرتها، ووضعت جانبا الأسئلة التي كانت

قـد أعدّتها وسـألت في اهتمـام:

ـ هـل كانـت حنـان تتحـدّث إليكمـا بأسرارهـا الشـخصيّة وتصارحكمـا بـكلّ شيء؟

كان الأمـر يثـير اسـتغرابها، فالفكـرة الـتي تكوّنـت لديهـا هـي أنّ حنـان لا تصاحـب البنـات، وليسـت لديهـا صديقـة مقرّبـة واحـدة. لـم تكـن تطمـع في أكـثر مـن بعـض الذّكريـات عـن فتـاة مـرّت مـن هنـا، وشـاركت ربّمـا في رحلـة جامعيّـة، أو أثـارت الانتبـاه في مسـابقة رياضيّـة أو فنيّـة!

ـ في الحقيقـة، حنـان كانـت مشـهورة جـدًا في الجامعـة.. الجميـع في دفعتنـا وفي الدّفعـات التاليـة يعـرف قصّتهـا.

ـ ماذا؟ أيّة قصّة؟

ـ لقد نشرت القصّة، حين حاولت الانتحار.

ـ حاولت الانتحار؟ نشرت قصّة؟ أين؟!

ـ عـلى موقـع الجامعـة! أظـنّ أنّ الصفحـة قـد أحيلـت إلى الأرشـيف الآن.. لكـن يمكنـك الرّجـوع إلى الموقـع والبحـث عـن المنشـورات منـذ خمـس سـنوات تقريبـا.

تكـرّرت الكلمـات نفسـها في الموعـد التّـالي. لـم تكـن حيـاة حنـان سرّا بالنّسـبة لأحـد. إحـدى الفتيـات تحدّثـت بتفاصيـل أكـبر عـن محاولـة الانتحـار. حنـان نـشرت قصّتهـا الحزينـة عـلى موقـع الجامعـة، ثـمّ صعـدت عـلى سـطح المبـنى، وهـدّدت بإلقـاء نفسـها مـن عـلٍ. لكـنّ الموقـف انتهـى عـلى خـير.

ركبـت سـيّارة أجـرة أخـرى. أعطـت السّـائق عنـوان شـقّة والدهـا هـذه المـرّة. شـعرت بالتوتّـر حـين ألقـت نظـرة عـلى سـاعتها. لقـد تأخّـرت! إنّهـا الثّالثـة عـصرا. أمضـت أكـثر مـن سـاعة في مقهـى انترنـت، تبحـث في أرشـيف موقـع الجامعـة عـن رسـائل حنـان.. دون جـدوى. دعـت أن

يكون فراس مشغولا جدّا، فلا يكون قد مرّ على المبنى بعد! لكنّ أملها تبدّد، حين لمحته وهي تنزل من السيّارة، يقف أمام المدخل، يجادل الحارس!

حثّت خطواتها نحوهما في حرج. لقد وعدت أن تترك المفاتيح مع الحارس قبل ذهابها لزيارة والدها.. لكن لا هي زارت والدها، ولا تركت المفاتيح!

ـ آسفة، لقد تأخّرت!

كانت محرجة للغاية تجاه الرّجلين. انبرى الحارس يؤكّد:

ـ أرأيت؟ قلت لك.. لا أحد ترك مفاتيح لديّ اليوم! لكنّ السيّد المهندس مصرّ على أنّني نسيت، أو أحاول خداعه!

رمقها فراس ببرود، ولم يعلّق. كان يقف مشدود عضلات الوجه، وقد وضع كفّيه عند وسطه، يرتدي بدلة رسميّة سوداء، وقد رفع نظّارته الشّمسيّة على رأسه. اعتذرت ليلى منهما مجدّدا، ثمّ طلبت من الحارس أن يقودها إلى الشّقّة. لم ينطق فراس بكلمة، وثلاثتهم يصعدون السّلالم إلى الطّابق الثاني، ثمّ يدلفون إلى الشّقّة. وقفت ليلى جانبا وهي تشعر بالحرج، بينما بدأ هو على الفور في التقاط الصّور وأخذ المقاسات، متجاهلا وجودها تماما. كان الحارس يحدّثها عن المبنى والسّكّان وأشياء كثيرة أخرى لا تهمّها في شيء.. بينما سرح تفكيرها فيما يجب عليها فعله الآن. كانت ترغب في الرّحيل أوّلا، فهي لم تتوصّل بعد إلى قصّة حنان على موقع الجامعة، ولا طلبت إذن الزّيارة من المحامي. لكنّها محرجة بسبب تأخيرها، وقد يبدو انصرافها الآن كأنّها تثمّن وقتها الخاصّ ولا تقدّر وقته هو! وهو يبدو غاضبا إلى درجة نسيان وجودها!

بعد ساعة من وقوفها المتململ، انتهى فراس من عمله. ألقى

عليهـا نظـرة جانبيّـة وقـال في لامبـالاة وهـو يجمـع أدواتـه:

- أنت هنا؟

كان الحارس قد انصرف منذ زمن، ولبثت وحدها تنتظر.

- إن كنت عائدة إلى الجامعة.. يمكنني أن أقلّك في طريقي.

عائـدة؟ إلى الجامعـة؟ ازدردت ليـلى ريقهـا بصعوبـة وهـي تحـدّق فيـه في ارتبـاك. لـم يرفـع نظـره إليهـا، وبـدا منهمـكا تمامـا، لكنّهـا لمحـت تلـك التّكشـيرة السّـاخرة في زاويـة فمـه. كأنّـه يقـول.. أمـرك مكشـوف يـا ليـلى! هـل تعقّبهـا؟ هـل أرسـل مـن يراقبهـا؟ هـل اتّصلـت بـه إحـدى صديقـات حنـان اللـواتي التقتهـنّ تلـك الظّهـيرة؟ تقلّـب الاحتمـالات كلّهـا في رأسـها في سرعـة فائقـة، تبحـث عـن ردّ مناسـب. لكـنّ مـا خـرج مـن بـين شـفتيها كان همهمـة غـير مفهومـة.

أنقذهـا رنـين هاتفـه. ردّ عـلى الاتّصـال بينمـا يسـير إلى خـارج الشـقّة. تخلّفـت عنـه لبضـع ثـوانٍ لتحكـم إغـلاق البـاب. حـين وصلـت أمـام بوّابـة المبـنى، كان قـد اختفـى!

زفـرت في ارتيـاح، ثـمّ أشـارت إلى سـيّارة أجـرة عابـرة. هـذه المـرّة، تلفّتت حولهـا جيّـدا لتتأكّـد ألا عيـون خفيّـة تراقبهـا، ثـمّ دلفـت إلى السـيّارة. وهـي تسـترخي عـلى المقعـد الخلفـي، اسـتعادت تكشـيرته المتهكّمـة، عـلى العشـاء ومنـذ حـين. خالجهـا انقبـاض غريـب.

***

كمـا توقّعـت، الاعتمـاد عـلى ياسـين يجعـل الأمـور أيـسر بشـكل لا يصـدّق! أخـذ نسـخة مـن أوراق هويّتهـا عـلى الإفطـار، وطمأنهـا.. سـيكون

إذن الزّيارة عندها في نهاية اليوم نفسه. إنّها قوّة الصّلات والعلاقات! ويتّهمون والدها بالفساد؟ حريّ بهم أن ينبشوا عن الخلل داخل المنظومة القانونيّة والأمنيّة كلّها!

أمضت ليلى نهارها تتعرّف على أرجاء القصر وسكّانه. كانت غرف فراس وأمين في ذات الممرّ، إلى جوار غرفة حنان، بينما يقيم ياسين ووالده في الطابق العلوي، في أجنحة أكثر اتّساعا. باستثناء المكتبة ومكتب خالها في الطّابق الأرضي، والصّالة العلويّة في الطّابق الأوّل، فإنّ بقيّة الغرف كانت موصدة.

دخلت المطبخ دون كلفة، وتعرّفت إلى الخدم. لاحظت حرجهم من عفويّتها وتباسطها معهم، وكانت لهجتها الهجينة مثيرة لضحكهم ومصدرا لتندّرهم. كانت هناك مدبّرة المنزل جليلة، ومساعدتان شابّتان، راضية وبهجة، تشرفن جميعهنّ على التّنظيف، بالإضافة إلى العمّ صابر الذي من اختصاصه الخدمة في الطّابق الأرضيّ وحسب. أحصت كذلك ثلاثة أشخاص آخرين غير عمّ هاشم الطبّاخ.. مساعده الشّاب محمّد، الحارس حسام، والجنائنيّ مروان.

لم يكن بحثها على موقع الجامعة قد أسفر عن نتيجة تذكر، لذلك كان عليها أن تواصل اكتشاف مسارات بحث أخرى. لكنّ الخدم كانوا متحفّظين للغاية، وكأنّما قد تلقّوا تعليمات صريحة وصارمة بعدم الثرثرة بخصوص حنان. بعد محاولات فاشلة متكرّرة، قرّرت تأجيل الأمر لوقت لاحق.

زارت والدها بعد يومين، في موعد الزّيارة الأسبوعيّة. كان يبدو أفضل، وسحنته أكثر إشراقا من لقائهما السّابق. لم يكن هناك جديد في القضيّة. الإجراءات بطيئة، وعليهما التحلّي بالصّبر. كما وعد خالها، كان قد حظي بزيارة طبّيّة، وحصل على أدوية الضغط

والسّكّر والقلب كلّها. إنّه في أيد أمينة، طمأنها. قال مازحا:

ـ السّجون تعدّ منطقة آمنة الآن.. لم تعد جحور تعذيب وإهانة كما كانت في العهد السّابق! إنّه زمن الثّورة وإرادة الشّعب!

ابتسمت ليلى ساخرة. لم يفقد ثقته في الثّورة رغم كلّ شيء. جميل. إنّ دخول السّجن في زمن الثّورة له مزايا لا تدركها بالتّأكيد!

كلّما غادرت القصر، لازمها إحساس غريب بأنّها تعبر بوّابة تجاه عالم مختلف. لم يكن شكل الشّوارع والبنايات فقط متباينا، بل الرّوح المهيمنة. لقد كان القصر باردا وهادئا بصورة مربكة، بينما تموج الطّرقات والفضاءات العامّة بالحركة الكثيفة. ولقد كان من المحيّر ألّا تجد صدى لما يحصل في الخارج حين يتعلّق الأمر بعائلتها. لم يكن خالها يأتي على ذكر السّياسة مطلقا، والاجتماعات العائليّة لا تتطرّق إلى أوضاع البلاد نهائيّا، ماضيها أو حاضرها أو مستقبلها، وكأنّ الزّمن يتوقّف حين تتجاوز سور مقرّ إقامة آل القاسمي!

كلّما دخلت مطعما، سوقا أو ركبت سيّارة أجرة، انتبهت على الفور إلى صوت الرّاديو المرتفع، ينقل نقاشا سياسيّا حادّا أو شهادات عيان عن ممارسات النظام السّابق المروّعة، ووجدت عيون المارّة وآذانهم ترنو إلى مصدر الصّخب، تصغي باهتمام وجدّيّة. كانت تسمع النّاس الأغراب، بعضهم بالنّسبة إلى بعض، يتوقّفون عن تسوّقهم لدقائق للتعليق بشأن هذا الحدث أو ذاك، كلّ يدلي بدلوه، يبدي تعاطفه أو يستنكر. لقد كانت تشهد براعم وعي سياسي تتفتّح في كلّ رأس، وكأنّ السّياسة قد غدت الرّياضة الشّعبيّة الأولى، مكان كرة القدم! كأنّ الجميع يتهافت لتعويض عقود من اللّامبالاة والبلادة.

وقد كانت تشعر في تلك اللّحظات بموجات الحماسة تصلها. كانت هناك حياة من نوع آخر في الشّارع. كان هناك أشخاص كثر مشابهون

لوالدها، حالمون متفائلون، يستبشرون خيرا بالثّورة وينتظرون بيضتها الذّهبيّة، وآخرون يتصدّرون للإفتاء بشأن ما كان وما يجب أن يكون، وصنف ثالث لا يقلّ عن السّابقين حماسة، لا يتوقّف عن التذمّر! لكنّ الجميع في صخب متواصل، يعبّرون ولا ينفكّون عن التّعبير. يحدثون سيلانا هائلا للرأي والرّأي المخالف، وكأنّ صمّام «حريّة التّعبير» قد انفجر فجأة، منذ عشيّة الرّابع عشر من يناير!

وقد كان ذلك كلّه مدهشا بالنّسبة إلى ليلى. كانت تصغي باستمتاع إلى الباعة والسّائقين والمارّة والموظّفين وراء مكاتبهم، وهم في غليان مستمرّ، وكأنّهم يثبتون لها، أو لأنفسهم، أنّ هناك ثورة قد حصلت ها هنا!

حين رجعت من زيارة والدها، استقبلها العمّ صابر عند المدخل وقال يُعلمها:

- السيّدة الكبيرة هنا.

السيّدة الكبيرة؟ من يمكن أن تكون غير جدّتها لأمّها! خطت إلى البهو في حذر، فطالعها أوّل ما طالعها وشاح مزركش ونظارات طبّية سميكة. رفعت السيّدة الجالسة في قاعة الاستقبال رأسها، فتبيّنت مقدار التّجاعيد الـتّي رُسمت أخاديد على ملامحها. ثمّ افترّ ثغرها عن ابتسامة صغيرة، لا هي حفاوة مبالغ بها ولا جفاء مريك. رسمت ليلى الابتسامة نفسها على شفتيها، مثل مرآة عاكسة، وتقدّمت باتّجاه السّيّدة الكبيرة.

- ليلى، ها أنت أخيرا!

انحنت ليلى لتقبّل وجنتيها، فزكمت أنفها رائحة أعشاب غريبة. هذه الجدّة لا تضع شيئا من العطور العصريّة المعروفة. جلست على الأريكة إلى جوارها، بينما احتفظت السيّدة بكفّيها حبيستي

أصابعها النّحيلة. كانت تتأمّل ملامحها وتجسّ بشرة يديها في اهتمام. تنهّدت أخيرا وقالت في تأثّر:

- لقد كبرت!

كان في صوتها شيء من الشجن والحسرة، ثمّ تغيّرت لهجتها وهي تضيف آمرة:

- تكلّمي لأسمعك!

- ماذا؟

- قولي جملة مفيدة.. أريني كيف تتكلّمين العربيّة!

قاومت ليلى رغبة الضّحك، وقالت في إحراج:

- ما الذي ينبغي أن أقوله؟

- حدّثيني عن يومك.. ماذا فعلت هذا الصّباح؟

- لقد خرجت لزيارة والدي وذهبت إلى المتاجر، لأقتني ما يحتاجه، ولقد رجعت للتّو.

كانت الجدّة تنصت في تركيز، وقد بدت على ملامحها علامات الامتعاض. لم تدرك ليلى مصدر ضيقها بالضّبط.

على العشاء، كانت الجدّة تترأّس المائدة، على الطّرّف الثّاني، قبالة ابنها الأكبر نبيل. أحسّت ليلى بارتباك عامّ في أجواء الغرفة، ابتداءً من القائمين على الخدمة وانتهاءً بخالها نفسه. كان حضور الجدّة الصّامتة مهيمنا. تكلّم أمين أقلّ من العادة، وتبادل مع شقيقيه إشارات سرّيّة في الخفاء. الجدّة لا تحتمل الجلبة. بينما بدا ياسين وفراس غير مهتمّين على الإطلاق بما يحصل. كانت الوجبة على وشك الانتهاء، حين قالت الجدّة بلهجة صارمة:

- ليلى ستأتي للإقامة عندي!

سعلت ليلى وقد أوشكت على الاختناق بحبّة زيتون. هذا رسميّ. إنّ أفراد هذه العائلة يحترفون اتّخاذ القرارات عن الآخرين! سمعت خالها يقول في لين:

- أمّي، ليلى بخير هنا.

قاطعته في برود، دون أن ترتفع طبقة صوتها درجة واحدة:

- لا، ليست بخير! لن أتركها تضيع كما ضاعت حنان!

ران صمت شامل على القاعة قبل أن تعاود الكلام وتسترسل:

- لم أكن يوما راضية عن تربية مريم للأولاد، لكنّك أصررت على إحضار تلك الأمّ البديلة.. ونجاة، عديمة النّفع تلك، رحمها الله، لم تكن أهلا للتّربية! انظر إلى نتيجة التّربية السّائبة!

قال أمين مداعبا:

- أنت تهينيني يا جدّتي!

حدجته بنظرة قاسية ملؤها الاستياء:

- اسكت أنت! وهل هناك قليل تربية هنا أكثر منك!

أطرق أمين ممثلا الانكسار وهو يصارع الضّحكة، بينما واصلت الجدّة:

- ونجيب، عديم الأصل ذاك! رحل بالبنت، وبدل أن يكون أمينا عليها، ضيّعها! انظر إلى الحال التي آلت إليها!

التبس الأمر على ليلى. هل تتحدّث عنها؟ ما شأنها؟ همّت بالاعتراض، لكنّها انتبهت إلى إشارة أمين بأن تلتزم الصّمت، فامتثلت. بينما واصلت الجدّة:

- انظر إلى لسانها المعوجّ، لا يمكنها أن تنطق جملة دون تعثّر! لا تعرف شيئا عن تاريخها وحضارتها وثقافة أهلها! دعك من هذا..

الشيء من مأتاه لا يستغرب.. كيف يمكن لسارق أن يكون أمينا على تربية طفلة!

عند تلك الكلمة، لم تستطع ليلى أن تتمالك نفسها. قالت في ضيق:

- جدّتي.. والدي ليس سارقا! المحكمة لم تصدر حكما بعد، فكيف تجزمين أنت؟

حدجتها الجدّة بنظرة شفقة، ثمّ قالت:

- ليس هناك دخان بدون نار!

- هناك! حين تكون الدّعوى كيديّة!

رمقتها الجدّة في استياء ثمّ أردفت مخاطبة نبيل:

- أرأيت؟ لم يعلّمها والدها احترام كبار السنّ! إنّها تردّ على الكلمة بعشرة!

احتقن وجه ليلى، وأمسكت لسانها على مضض. في حين استمرّت السيّدة الكبيرة:

- إن لم تكن ستأتي.. فسآتي أنا للإقامة هنا.

قال نبيل في استسلام:

- كما تشائين يا أمّي.

بعد ذلك، عاد السّكون ليسيطر على القاعة.

على السّاعة التّاسعة، انصرفت الجدّة مع سائقها. كان قد تقرّر رجوعها في الغد. ستحزم حقائبها، وتأتي للإقامة في جناح مستقلّ بالطّابق الأرضيّ. لم تكن ركبتاها تتحمّلان كثير طلوع ونزول على السّلالم. قال أمين بلهجة جادّة:

- ستمرّ علينا أيّام عصيبة!

سألت ليلى في قلق:

ـ هل الأمر بهذا السّوء؟

أومأ مؤمّنا، ثمّ أضاف:

ـ سيكون عليك تقديم تقرير يوميّ بتحرّكاتك. أين ذهبت؟ ولماذا؟ من قابلت؟ وإن رأت الجدّة أنّ مشوارك لا ينفع، فقد تتحكّم في برنامجك أيضا!

هتفت ليلى مصعوقة:

ـ وهل ينطبق هذا عليّ وحدي؟

هزّ أمين كتفيه:

ـ أنت أملها الآن، لإصلاح ما فسد من تربية جيل الأحفاد!

ثمّ أضاف في تعاطف:

ـ قلبي معك!

تمتمت في عصبيّة:

ـ هذا ليس مسلّيًا!

ـ أعلم.. إنّه ليس كذلك!

***

في الغد، حين رجعت ليلى من مشاويرها اليوميّة، كانت الجدّة في انتظارها في البهو، وهي تحتسي قهوتها المرّة. كانت السّاعة تشير إلى الثّانية ظهرا، وهي لم تكن قد تناولت غداءها بعد. لكنّ الجدّة قالت في هدوء:

- لقد وصلت في الوقت المناسب. هيّا بنا.

لم تفكّر في الاعتراض. انقادت في استسلام وتبعت السيّدة الكبيرة إلى السيّارة. جلستا على المقاعد الخلفيّة في صمت. انغمست الجدّة في أذكارها طيلة الطّريق، ترتجف شفتاها ارتجافة خفيفة بينما تمرّ أصابعها على خرزات المسبحة في حركة مستمرّة. لم تجرؤ ليلى على مقاطعتها والسّؤال عن الوجهة.

حين توقّفت السيّارة أخيرا، تطلّعت ليلى إلى اللّافتة التي علت البناية القديمة. «المدرسة القرآنيّة أبو بكر الصّدّيق»! قالت الجدّة أخيرا بلهجة محفّزة:

- ليس هناك أفضل من القاعدة النّورانيّة لتقويم لسانك!

تبعتها إلى المبنى وهي تفكّر في الفرار. كانت القاعات بالدّاخل نظيفة ولامعة، وكأنّما قد وقع تجديدها حديثا وإعادة طلائها. أينما سارت، كانت نظراتها تقع علىَ سيّدات وفتيات يرتدين الجلابيب المحتشمة ويلففن رؤوسهنّ في أوشحة صارمة. كان شعرها الكستنائيّ المرفوع نشازا في المشهد. دخلت على إثر جدّتها التي بدت معروفة من الجميع. نادتها النّساء مرحّبات بالـ«حاجّة فريدة»، وسألنها بلا حرج عن الآنسة الجميلة التي ترافقها. فكانت تقول بلهجة معتذرة:

- حفيدتي الأجنبيّة! جئت بها لتتعلّم العربيّة!

فيهززن رؤوسهنّ في تفهّم وتعاطف، ويحيّين الحفيدة الأجنبيّة بهزّة من رؤوسهنّ دون كلام. وكانت ليلى تقف جانبا، وتبتسم في حرج. لم تكن تعتقد أنّها أجنبيّة إلى تلك الدّرجة. إنّ ملامحها عربيّة، وهي تتعلّم العربيّة الفصحى منذ سنوات، ولهجتها التّونسيّة ليست بذلك السّوء. أم لعلّها كذلك؟ يبدو الوضع كارثيّا في عيني الحاجّة فريدة ومعارفها!

دخلتا أخيرا مكتب التّسجيل، فقامت الموظّفة في تبجيل وتركت مقعدها خلف المكتب. جلست الجدّة مكانها ببساطة وملأت الاستمارة بنفسها، وختمتها على الفور بكلّ أريحيّة، ثمّ وضعت في كفّ ليلى ورقة تحوي جدول الحصص اليوميّة.

- حصّتك الأولى تبدأ خلال دقائق!

هكذا وجدت نفسها تدخل قاعة الدّرس، مع مجموعة من الأطفال، تتراوح أعمارهم بين الخامسة والسّابعة! وقفت عند الباب في ارتباك، وقد أذهلها التطوّر الخاطف للأحداث. ابتسمت المدرّسة الشّابّة وهي تدعوها إلى أخذ مقعدها في نهاية القاعة. كان خبر انضمامها قد سرى بين روّاد المدرسة بغاية السّرعة، وبدا أنّ المُدرّسة لم تُفاجأ برؤيتها.

شرحت لها جانبا. القاعدة النّورانيّة عبارة عن دورة تعليميّة مخصّصة للأطفال غالبا، هدفها تعليم النّطق السّليم لحروف اللّغة العربيّة بمخارجها الصّحيحة. لكنّها تُعطى للكبار أيضا لتقويم اللّسان. كانت الدّورة تستمرّ لثلاثة أشهر، بمعدّل ثلاث حصص أسبوعيّا، مدّة كلّ منها ساعة واحدة، يتدرّج فيها الطفل في تعلّم اللّغة، من المقاطع البسيطة إلى الأكثر تعقيدا. أومأت ليلى دون اهتمام، لم تكن تنوي الاستمرار طويلا. ستكتشف الوضع اليوم، إرضاء للجدّة، ثمّ ستجد وسيلة للتملّص في وقت لاحق.

جلست في استسلام، كمن يجرّب لعبة مملّة، وأخذت تردّد مع الأطفال المتحمّسين المقاطع التي تنطق بها المدرّسة. تزمّ شفتيها، ترفع لسانها إلى سقف الحلق أو تلامس بطرفه أسنانها في حركات مبالغ فيها، وتتلفّت لتتأمّل وجوه الأولاد مأخوذة. كانت أصواتهم تعلو على صوتها الخجول المتردّد، فترمقها المدرّسة بابتسامة مشجّعة.

تدريجيّا، أطلقت لنفسها العنان، وسمحت لصوتها بمجاراة النّسق الجماعيّ.

حين انتهت الحصّة، اقتربت منها المدرّسة وصافحتها في ودّ:

ـ أنا وداد.. كيف كانت حصّتك الأولى؟

كانت وداد في مثل سنّها تقريبا، وربّما تصغرها بسنة أو اثنتين، تضع حجابا عنّابيّا وتلبس جلبابا بسيطا من درجة اللّون نفسه. ابتسمت ليلى وقالت:

ـ التعلّم مع الأطفال ممتع.. ومحرج في آن!

ـ يمكنني تخصيص حصّة لك وحدك، في موعد آخر، إن كان ذلك يناسبك!

ردّت ليلى بسرعة:

ـ لا داعي أبدا.. الترتيب الحالي مناسب!

لا يمكنها التورّط أكثر. الحصص الخاصّة ستلزمها، أمّا الحصص الجماعيّة، فستواصل سيرها بها أو بدونها!

ـ أخبريني إن غيّرت رأيك. حفيدة الحاجة فريدة تستحقّ معاملة خاصّة!

رفعت ليلى حاجبيها. من تكون جدّتها لتعامل بهذا القدر من الاحترام؟ هل للأمر علاقة بسمعة خالها وعلاقاته أيضا؟ إنّها تدرك من خلال تجارب الأيّام السّابقة مدى سطوته وطول ذراعه. لكن المدرسة القرآنيّة؟

واصلت وداد:

ـ الحاجّة فريدة فضلها كبير على كلّ من في المدرسة القرآنيّة!

ـ كيف؟

ضحكت وداد:

- يكفي أنّها افتتحت هذه الدّار التي تضمّنا جميعا!

حسنا. تلك مفاجأة أخرى. جدّتها هي صاحبة المدرسة!

عند خروجها، كان سائق السيّدة الكبيرة في انتظارها. فكّرت في سخرية، سيكون من العسير عليها الإفلات من رقابة جدّتها، إذا ما استمرّت في إرسال السّائق خلفها! ركبت دون كلمة واحدة، ومضت السيّارة على الفور في اتّجاه القصر دون أن يسألها السّائق عن وجهتها.

عادت إلى المدرسة القرآنيّة في الغد.

كانت قد فكّرت كثيرا في اللّيلة السّابقة، وانتهت بالاعتراف بأنّ الأمر لا يخلو من الفائدة! إن كانت ترغب في الحصول على عمل في وسائل الإعلام التّونسيّة خلال وقت قصير، فمن الحكمة أن تعمل على تقويم نطقها سريعا. لعلّ جدّتها كانت أبعد نظرا منها حين اتّخذت القرار مكانها!

بعد الدّرس، صارحت المدرّسة برغبتها في تكثيف الحصص وتسريع نسقها. فأومأت وداد في حماس:

ـ عرفت أنّك ستغيّرين رأيك! التعلّم مع الأطفال بطيء النّسق، وقدرة استيعاب الكبار وتكيّفهم أعلى، لذلك يمكننا اختصار الكثير في حصص خاصّة، لتستمرّ الدّورة شهرا واحدا بدل ثلاثة.

كان ذلك مناسبا جدّا لليلى. عادت إلى غرفتها محمّلة بواجباتها المنزليّة. إن كانت تريد التقدّم سريعا، فعليها أن تبذل جهدا إضافيّا. جلست في الشّرفة، ووضعت مرآة صغيرة أمام وجهها كما نصحتها وداد، وأمسكت دفتر الواجبات. أخذت نفسا عميقا، وأخذت تقرأ المقاطع التي على الصّفحة الأولى:

ـ لا.. با.. نس.. بيل.. كب.. لح.. عن...

كانت عبارة عن حروف متداخلة بلا معنى، لكنّها معدّة بشكل مدروس. هذا ما أكّدته وداد. وكان على ليلى أن تصدّقها، وتتمرّن على نطقها دون نقاش.

***

كان فـراس يجلـس في شرفتـه ذلـك العـصر، يحـاول أن يطالـع كتابـا لـم يطـو صفحاتـه منـذ جلوسـه، فقـد كان الـشّرود يهزمـه كلّمـا حـاول القـراءة. كان يريـد أن يتجاهـل ذاك الكـم الهائـل مـن الذكريـات الـتي هاجمـت عقلـه فجـأة، وصـارت جليسـه المقيـم منـذ أيّـام. حـاول أن يشـغل نفسـه بالمطالعـة، لكنـه كان يفقـد تركيـزه بسرعـة وتأخـذه أفـكاره بعيـدا.. إلى حنـان! اجتاحـه إحسـاس بالضّيـق والألـم والمـرارة.. أربـع سـنوات مـرّت وهـو غـير قـادر عـلى تجـاوز الذّكـرى، غـير قـادر عـلى اسـتعادة التـوازن في حياتـه. تلـك الحادثـة غـيّرت الكثـير في نفسـه، غيّرتـه بـلا رجعـة.

فجـأة، انتبـه حـين طـرق مسـامعه صـوت بـاب الشّرفـة المجـاورة يفتـح.. ثـمّ مقاطـع صوتيّـة غريبـة ومتداخلـة.. لعلّهـا بالعربيّـة؟ لا يمكنـه اسـتحضار لغـة أخـرى ينـدرج حرفـا «الحـاء» و«العـين» ضمـن حروفهـا. أصغـى في اهتمـام وقـد زوى مـا بـين حاجبيـه. مـا الـذي تفعلـه بالضّبـط؟ كانـت اللّكنـة الأجنبيّـة واضحـة، لكـنّ محاولتهـا جديـرة بالثّنـاء. كان الحاجـز بـين الشّرفتـين يحجـب أحدهمـا عـن الآخـر، ولـم يبـد أنّهـا قـد انتبهـت لوجـوده.

تذكّـر رؤيتـه لهـا منـذ أيّـام، أمـام الجامعـة. كان يلقـي محـاضرة في كلّيّة الفنـون الجميلـة، مرّتـين في الأسـبوع، وقـد رآهـا هنـاك، تهبـط مـن سـيّارة أجـرة وتسـير في الاتّجـاه المعاكـس. تعلّقـت عينـاه بجانـب وجههـا الـذي يظهـر مـن زاويتـه، والتبـس الأمـر عليـه لوهلـة، حنـان؟ لا.. إنّهـا ليـلى! لقـد تجـاوز كلّ ذلـك في وقـت سـابق، الذّكريـات الـتي تثيرهـا طرقـات الكلّيّـة، وقوفـه أمـام بوّابـة الجامعـة، يراقبهـا أو ينتظرهـا. لقـد عـاش وقتـا عصيبـا في المـرّات الأولى الـتي قصـد فيهـا الجامعـة بعـد وفاتهـا، يحـاصره شـبحها في كلّ التفاتـة. لكـنّ كلّ ذلـك غـدا مـن المـاضي. أمّـا ذلـك الصّبـاح، فقـد كانـت هنـاك مـن جديـد. حنـان. لـو لـم يكـن يعـرف يقينـا

أنّ ليلى هنا لكان فقد عقله. ليست هي.

منذ ظهرت أمامه على العشاء منذ أيّام، لازمته فكرة واحدة. كان من الضّروريّ أن ترحل، وفي أقرب وقت ممكن. لم يكن ما يعيشه حنين زوج لزوجة راحلة، ضاعت منه في ريعان شبابها. ما بينهما كان شيئا مختلفا، حادّا وخانقا وباردا ولاذعا. يكرهها. لقد دمّرته. كان زواجه منها ابتلاءً.. ورحيلها بلاءً من نوع آخر.

لكن ليس ذلك كلّ شيء. لقد كان هناك ثأر شخصيّ بينه وبين ليلى!

في تلك اللحظة انتبه إلى صوت ليلى وهي تتوقّف عند حرف الخاء، في عناء واضح. كانت تردّد في إصرار:

- خخخخخخخ

فيصدر عنها شخير مضحك. لم يتمالك نفسه، كانت رغبة الضّحك قد استولت عليه. كتم أنفاسه وأحكم كفّه على شفتيه، لكنّ الضّحكة أبت إلّا أن تفلت مختنقة ومتقطّعة. بهدوء، غادر مقعده على الفور واختفى داخل الغرفة.

قطعت ليلى درسها ووقفت في حذر. لقد سمعت صوتا للتوّ يصدر عن الشّرفة المجاورة. هل كان فراس هناك؟ أصغت في انتباه، لكنّها لم تعد تسمع شيئا. اقتربت من الحاجز، ونادت في همس:

- هل هناك أحد؟

لكنّها لم تسمع جوابا. من زاويتها، لمحت مقعدا شاغرا وكتابا على الطاولة المنخفضة، بينما كان باب الشّرفة مفتوحا والنّسيم يحرّك السّتائر المسدلة. غير ذلك، لا أحد.

***

بعد العشاء، انتبهت ليلى على نقر خفيف على باب غرفتها. لم يكن الطرق شبيها بطرقات أمين الموقعة. عقدت حاجبيها في تساؤل: من يكون القادم في مثل تلك الساعة؟ اقتربت في خفّة من الباب وهتفت بصوت خافت:

ـ من هناك؟

أجابها صوت أنثوي غريب.

ـ ليلى.. هلّا فتحت؟

فتحت على الفور، وقد أدركت من الطارق مسبقا. طالعتها امرأة شابة تقترب من الثلاثين، ترتدي ثوبا محتشما أنيقا وقد ألقت على رأسها غطاء دون اهتمام، يكشف عن مقدمة شعرها. استقبلتها بابتسامة واسعة واحتضنتها في حرارة وهي تقول:

ـ أنا منال.. زوجة ياسين.. وهذه رانيا ابنتي.

اتّسعت ابتسامة ليلى حين انتبهت إلى الكائن الصغير الذي يمسك بطرف ثوب منال ويتطلع إليها بعينين فضوليّتين وابتسامة متردّدة. انحنت لتقبل وجنتي الفتاة الصغيرة التي تبلغ الرّابعة ثمّ ربّتت على رأسها. تخلّصت رانيا من حضن ليلى في سرعة واختفت خلف والدتها في خجل.. لكنها ما لبثت أن أطلت لتراقبها عن بعد، بينما تابعت منال:

ـ آسفة إن كنت أيقظتك!

ـ أبدا.. لم أنم بعد.

ـ كنت في زيارة لمنزل والدي ولم أعلم بوصولك إلا الآن.. إن كنت لا تشعرين بالنّعاس، هل يمكن أن نتسامر قليلا؟

رحّبت ليلى بالفكرة، ورافقت منال وابنتها إلى الصّالة العلويّة. قالت

منـال ضاحكة:

ـ في الحقيقـة، لقـد وصلتـني بطاقـة إنـذار صفـراء، فهرعـت إلى هنـا قبـل أن تتحـوّل إلى اللّـون الأحمـر!

لـم تسـتوعب ليـلى مـا عنـت، فأضافـت منـال هامسـة وهـي تشـير بإبهامهـا إلى الأسـفل:

ـ الجدّة! لقد رصدت غيابي، فقرصت أذن ياسين!

حاولـت ليـلى أن تتخيّـل الجـدّة، بظهرهـا المحـنيّ وقامتهـا الضّئيلـة، تمدّ ذراعها لتقـرص أذن ياسـين ذي القامـة الفارعـة! ثـمّ عدّلـت الصّـورة في ذهنهـا. لا شـكّ أنّ الحاجّـة فريـدة كانـت تجلـس في اسـترخاء عـلى مقعدهـا، بينمـا يركـع ياسـين عـلى ركبتيـه ويطأطـئ رأسـه، مسـلّما أذنـه لأصابـع الجـدّة النّحيلـة لتقرصهـا عـلى مهلهـا!

ابتسمت عند ذلك الخاطر، بينما واصلت منال:

ـ عنـد الجـدّة صـورة أثريّـة عمّـا يجـب أن تكـون عليـه الزّوجـة المثاليّـة! والغيـاب عـن منـزل الزّوجيّـة لأيّـام متّصلـة ليـس جـزءًا منهـا.

ضحكتـا، ثـمّ تحدّثتـا لبرهـة عـن مشـاريع ليـلى، تجديـد شـقّتها ثـمّ إيجـاد عمـل في سـلك الإعـلام. وتمنّـت منـال أن يفـرج عـن والدهـا في القريـب.

ـ إن احتجـت أيّ مسـاعدة، لا تـتردّدي.. فأنـا متفرغـة لـك كليّـا.. انقطعت عـن العمـل منـذ أنجبـت رانيا.

ـ وماذا كنت تعملين قبل ذلك؟

ـ كنـت موظفـة في شركـة عمـي نبيـل.. في قسـم العلاقـات العامّـة.. ثـمّ التقيـت بياسـين.. وحصـل مـا حصـل!

ضحكـت، فشـاركتها ليـلى الضّحـك. لكـنّ ضحكـة منـال لـم تبـد

صافية. شعرت ليلى بإحساس غريب بالشّفقة تجاهها. منال، أنت لست سعيدة أيضا! استمرّت الأحاديث بينهما ساعة من الزمن حول مواضيع شتى، حتّى نظرت منال في ساعتها وقالت:

- يا إلهي، لقد تأخّر الوقت!

كانت رانيا قد تكوّرت على نفسها فوق الأريكة إلى جوارهما وغلبها النّعاس. وقفتا وحملت منال رانيا بين ذراعيها، ثمّ سارتا باتّجاه الدّرج، لتصعد منال إلى جناحها. كانت ليلى تهمّ بالرّجوع إلى غرفتها حين ظهر أمين في رأس الممرّ.

- ليلى، جيّد أنّك مستيقظة!

كانت السّاعة قد تجاوزت منتصف اللّيل.. وأمين الذي أمضى السّهرة بالخارج قد رجع للتوّ، متجاهلا حظر التجوّل كعادته. بادرها في حماس:

- انتظري هنا.. لحظة واحدة!

غاب في غرفته لبضع ثوانٍ ثمّ عاد وبين ذراعيه ألبوم مكتنز بالصّور.

- هذه هديّة لك! لقد بحثت كثيرا في ألبومات العائلة وفي المكتبة وجمعتها من أجلك.

حدّقت غير مصدّقة. هذه هديّة غير متوقّعة، كان عليها أن تتقبّلها بامتنان.. وتسهر معها حتّى الصّباح.

***

ارتفعـت دقـات عميقـة تـضرب دماغهـا في وقـع رتيـب. لـم تسـتطع مقاومـة إحسـاس بالخـدر يلـف جميـع أوصالها ويشـدّها إلى عالـم الأحلام في إصرار. فتحـت ليـلى عينيهـا بصعوبـة وهـي تقـاوم الطّنـين الـذي لـف عقلهـا بغـلاف ضبـابي. حـطّ نظرهـا عـلى سـقف الغرفـة السّـماوي، فـزوت مـا بـين حاجبيهـا في انزعـاج، تحـاول تذكـر أيـن تكـون. ارتفعـت الدّقـات مـن جديـد عـلى نفـس الوتـيرة، لكـن بوضـوح أكـبر هـذه المـرّة، عـلى بـاب غرفتهـا. نعـم، إنهـا في قـصر خالهـا.. في غرفـة حنـان.

عـادت إليهـا ذكريـات مسـاء البارحـة. لقـد سـهرت طويـلا مـع صـور حنـان.. تدقّـق فيهـا، تحلّـل كلّ واحـدة منهـا، تـدرس تعابـير حنـان ووجـوه المحيطـين بهـا، وتضـع علامـات عـلى الشّـخصيّات المجهولـة بالنّسـبة إليهـا. كانـت سـهرة طويلـة، لـم يقطعهـا سـوى أذان الفجـر!

انتزعتهـا نفـس الدّقـات الـتي أخـذت تعلـو في إصرار، مـن أفكارهـا، فقامـت عـلى الفـور وهـي تهتـف:

ـ لحظة واحدة.. أنا قادمة!

ارتفـع صـوت أمـين خـارج الغرفـة وهـو ينقـر بتوقيـع خـاصّ عـلى البـاب:

ـ ليلى.. ألم تستيقظي بعد؟ سنتأخر!

نظـرت إلى سـاعتها في ارتبـاك، إنهـا السّـاعة التاسـعة والنصـف. حاولـت التذكّـر، مـا الـذي يحـاول أمـين قولـه؟ ثـمّ رجعـت إليهـا الذّاكـرة فجـأة.. لقـد اقـترح خالهـا رحلـة إلى مزرعـة العائلـة اليـوم! لا يمكـن أن تكـون قـد نسـيت ذلـك! لملمـت شـعرها بصفـة عشـوائية قبـل أن تفتـح لأمـين الـذي كان لا يـزال مرابطـا أمـام البـاب. كان يقـف أمامهـا في سروال جيـنز وقميـص مشـدود عـلى صـدره، مـع حـذاء ريـاضي. هتفـت معتـذرة:

ـ خمس دقائق!

ثمّ صفقت الباب دون أن تنتظر ردّه.

فتحت صوان الملابس وانتقت فستانا ربيعيّا مناسبا ذا لون زهريّ باهت. كان الطّقس معتدلا في الأيّام الأخيرة، حتّى أنّها استغنت عن معطفها الثّقيل. نزلت مسرعة فلاقت أمين عند أسفل الدرج. رمقها بإعجاب لم يحاول إخفاءه وهمس حين مرّت بقربه:

ـ اختيار موفق.

ابتسمت لإطرائه وانضمّت إلى منال ورانيا في البهو الرّئيسيّ. قبّلت رانيا على وجنتيها ثم أجلستها على ركبتيها وهي تلهو بخصلات شعرها الكستنائية الملفوفة. لم تمانع الفتاة هذه المرّة، واستكانت لمداعبتها. كان فراس واقفا عند المدخل يلهو بمفاتيحه، بينما كان خالها يطالع جريدة اليوم، في ثياب رياضيّة مريحة.

ـ ليلى.. كلي شيئا قبل أن نغادر.

اقترحت عليها منال، لكنّها كانت محرجة لتأخّرها، ولم يكن من اللّائق أن تتأخّر أكثر لتتناول إفطارها. همست محاولة ألّا تلفت انتباه أحد إليها:

ـ أنا بخير.. سآكل شيئا على الطّريق.

لكنّ حوارهما القصير كان قد وصل إلى مسامع الآخرين. قال خالها ملحّا :

ـ لا يصحّ أبدا أن تهملي وجبه الإفطار.. هيّا اذهبي وكلي شيئا!

ـ سأخبر العم هاشم بأنّ يعدّ المائدة من جديد!

كان أمين قد سبقها إلى المطبخ، عارضا خدماته. وكان عليها أن ترفع رأسها باتّجاه فراس، لتلمح تلك النّظرة السّاخرة عينها التي باتت تصدر منه كلّما كان الأمر يخصّها. كلّما شعرت بالإحراج، أو عانت من

مـأزق، كانـت سـخريته في الموعـد! وقـد كان ذلـك شـيئا لا يطـاق!

سـارت في اتّجـاه غرفـة الطّعـام والحنـق يملؤهـا. ازدردت كـوب القهـوة وقطعـة كعـك واحـدة بسرعـة، ثـمّ عـادت إلى البهـو.

ـ هل انتهيت؟ بهذه السّرعة؟

ـ لا تستعجلي، مازلنا ننتظر ياسين على أيّة حال.

ودّت لـو تختفـي، تتبخّـر، أو تـذوب مكانهـا. بقـدر الاهتمـام الزّائـد الـذي تلقـاه مـن أمـين ومنـال وخالهـا، بقـدر التهكّـم الـذي تجـده مـن فـراس.

حين نزل ياسين، قال أمين معلنا:

ـ لقد اكتمل العدد. هيّا بنا!

همست ليلى لمنال:

ـ ألن ترافقنا جدّتي؟

ـ إنّها لا تحبّ المزرعة.

كانـت سـيّارات ثـلاث تنتظـر أفـراد العائلـة عنـد المدخـل. اتّجـه نبيـل نحـو سـيّارته المرسـيدس يسـبقه سـائقه، وتبعـه ياسـين الـذي كان محمّـلا ببعـض الملفّـات. كان الاثنـان ينويـان مواصلـة أحاديـث الشركـة عـلى الطّريـق. أمّـا فـراس وأمـين فـكان كلّ منهمـا يقـود سـيّارته. نقلـت ليـلى نظراتهـا بـين السـيّارتين، ثـمّ سـألت منـال:

ـ مع من تركبين؟

ـ أمين متهوّر، أفضّل سياقة فراس.. هل تأتين معنا؟

كان أمـين يلـوّح لهـا عـن بعـد، يدعوهـا لمرافقتـه.. في حـين جلـس فـراس أمـام مقـود سـيّارته في لامبـالاة. تمنّـت لـو أنّ الأرض تنشـقّ وتبتلعهـا ولا تتّخـذ ذلـك القـرار بركـوب سـيّارته، وبكامـل إرادتهـا. تمنّـت

لو دعاها خالها للرّكوب معه. تمنّت لو كانت جدّتها ترافقهم، إذن لكانت لتصاحبها. كانت تهمّ باتّخاذ قرار متهوّر بالرّكوب مع أمين، لكنّ فكرة ملتوية خطرت ببالها فجأة، فهتفت على الفور:

- أنا سائقة ماهرة، هل تركبين معي؟

- ماذا؟

سحبت منال وراءها وسارت باتّجاه أمين دون توضيح. قالت بشكل غير متوقّع:

- أمين، هل تعيرني سيّارتك؟

ضحكت منال وقالت في ثقة:

- أمين لا يعير سيّارته لأحد!

هزّ رأسه موافقا وأضاف:

- إن كنت ستأخذين سيّارتي، فما الذي أفعله أنا؟

- تركب مع أخيك!

- مستحيل.. أمين لا يركب مع أحد!

تدخّلت منال مرّة أخرى، وتابع أمين:

- وخاصّة فراس! تعلمين لماذا؟ لأنّ فراس بطيء.. بطيء جدّا! وأنا لا يمكن أن أكون مساعد الطّيّار أبدا.. لماذا؟ لأنّ الطّيّار هو أنا!

- الطّيّار؟

قال أمين ومنال في وقت واحد:

- لأنّ السّيّارة التي يقودها أمين.. تطير!

ثمّ أضافت منال مقترحة:

- إن كنت تريدين السّياقة، فسيّارة ياسين في المرآب.

ـ حقًّا؟ لماذا لم تقولي منذ البداية!

سحبتها ليلى على الفور باتّجاه المرآب وقد سرّها أن ينتهي الأمر بهذا الحلّ. لكنّها توقّفت في ارتباك أمام السيّارة رباعيّة الدّفع التي أشارت إليها منال. ازدردت ريقها بصعوبة وزوت ما بين حاجبيها في تفكير. هذا مأزق من نوع آخر. إنّها تقود سيّارتها الصّغيرة في شوارع جينيف، لكنّها لم تجرّب مطلقا سيّارة بهذا الحجم. سألتها منال في قلق:

ـ هل تستطيعين سياقتها؟

ـ طبعا!

ردّت دون تردّد. إمّا أن تفعل، وإمّا.. لا خيار آخر!

غادرت السّيّارات الأربع أخيرا عبر البوّابة، في ذيلها سيّارة ياسين الضخمة، تقودها ليلى، متطاولة بقامتها القصيرة لتتحكّم في مساحات السيّارة الهائلة. كان كلّ شيء على ما يرام طالما كانت في شوارع العاصمة المزدحمة، وقد نجحت في الحفاظ على مسافة معقولة بينها وبين السيّارات الأخرى حتّى لا تتوه. ثمّ أخذ المشهد في الخارج يتغيّر بعد أن غادرت السيّارات المدينة وأخذت تطوي الطريق الزراعية طيّا. ورويدا رويدا، أخذت المسافة تتّسع بين ليلى وبقيّة السيّارات. كانت تحاول إبقاءها في مرمى بصرها، لكنّ الإشارة تحوّلت فجأة إلى الأحمر.. ووجدت السّيّارات الثلاث تنعطف وتختفي عن ناظريها تماما!

التفتت ليلى إلى منال وهمست في قلق:

ـ هل تعرفين الطّريق؟

ـ ماذا؟

ـ أظننا أضعناهم!

ثـمّ انفجرتـا ضاحكتـين! ضحـكات متشـنّجة قلقـة. مـاذا تفعـلان الآن؟ اقترحـت منـال:

ـ هل أتّصل بياسين؟ أطلب من أحدهم العودة من أجلنا؟

ـ ليس بعد.. دعينا نحاول؟

كان خجلهـا شـديدا، وكبرياؤهـا لـم تتحمّـل الضّربـة. كان عليهـا أن تتجـاوز المـأزق بأيّـة طريقـة. انعطفـت بالسـيّارة في الاتّجـاه الـذي خالـت السـيّارات قـد انعطفـت منـه، ثـمّ سـارت في خـطّ مسـتقيم وهـي تعايـن الطّريـق وتحـاول تمييـز اللاّفتـات، وتواصـل اسـتجواب منـال عـن أيّ علامـات مميّزة قـد ترشـدهما إلى المسـار الصّحيـح. كانـت عـلى وشـك الاستسـلام، حـين لمحـت سـيّارة متوقّفـة عـلى جانـب الطّريـق، مطلقـة إشـارة ضوئيّـة. اقتربـت ببـطء حـتّى ميّزتهـا. سـيّارة فـراس! لا، لا، لا! لمـاذا فـراس! طبعـا، وهـل يمكـن أن يكـون غـيره؟ أمـين بالتّأكيـد قـد طـار! وخالهـا منشـغل بحديـث العمـل ولا يمكنـه الانتبـاه إلى غيـاب السـيّارة الرّابعـة!

حـين أصبحـت خلفـه تمامـا، انطلـق فـراس مجـدّدا، محافظـا عـلى مسـافة قصـيرة بـين السـيّارتين. وكانـت ليـلى تغـلي مـن الغيـظ والقهـر والخجـل.

حـين توقّفـت السـيّارات أخـيرا داخـل المزرعـة، اقتربـت منـال مـن فـراس وقالـت في امتنـان:

ـ شكرا لانتظارك.. كدنا نتوه!

هـزّ رأسـه بابتسـامة ودودة، لكـن حـين صـارت ليـلى في مرمـى بـصره، تغـيّرت ملامحـه فجـأة، وقـال بصـوت خافـت لـم يسـمعه غيرهـا:

ـ يبدو أنّ التّأخير من شيم الآنسة!

تـدرك الآن بشـكل واضـح أنّ فـراس لا يطيقهـا. لكـن لا يهـمّ. هـذا

شعور متبادل.

استغرقها ركن السيّارة في المرآب بعض الوقت. لم يكن من اليسير التحكّم في الهيكل الضخم حتّى يستقرّ مكانه متوازيا بشكل مثاليّ مع بقيّة السيّارات! لكنّها قد غدت مسألة كرامة بالنّسبة إليها! بعد دقائق، كانت قد أنهت مهمّتها ولحقت بالآخرين. قطعت طريقا ترابيّة غير مهيّئة، حُفّت من الجانبين بأشجار مثمرة قد أزهرت بألوان تخطف الأنظار. استنشقت هواء البادية النقيّ وطردت عنها الاستياء الذي أفسد مزاجها منذ حين. هذا ربيع حقيقيّ، وهي قد وقعت في حبّ المكان من النظرة الأولى!

وراء المساحة المشجّرة، تراءى لها المنزل الرّيفيّ الأنيق المكوّن من طابقين. صعدت الدّرجات الثلاث التي تؤدّي إلى المدخل، فتناهى إليها صوت المربّية العجوز وهي تتبادل الأحاديث الودودة مع أفراد العائلة. كانت آخر الواصلين. سبقها الآخرون إلى الردهة منذ حين، حيث استقبلتهم مدبّرة المنزل، الخالة مريم، المربية السّابقة للشبّان الثلاثة. وكان ضحك الصّغيرة رانيا يتعالى وهي تجلس بين أحضان المربّية وتلهو بطرف ثوبها المطرز.

في تلك اللحظة تفطنت الخالة مريم إلى وجود ليلى عند المدخل. فتسمرّت مكانها دهشة وتراجعت خطوتين لتبحث عن نظارتها الطّبيّة على المنضدة. وضعتها على عينيها بأصابع مرتعشة ثم هتفت مصدومة:

ـ خبروني.. هل ترون ما أرى؟ أم أنّها تهيّؤات وتخاريف عجائز؟

ـ إنها ليست حنان، بل شقيقتها التوأم!

تدخّل نبيل ليقدّمها بهدوء، بينما ردّدت العجوز مبهوتة:

ـ شقيقتها التوأم!

شرح لها باختصار قصّة الأختين اللتين انفصلتا بانفصال والديهما، حتّى هدأت وعادت إليها السّكينة، ثمّ دعا ليلى للجلوس قربها. شعرت ليلى بالارتباك. كانت على مشارف البكاء، لسبب لا تعلمه. ربّما لم تتعوّد أن يشرّح أحدهم تاريخ عائلتها على مسامعها. ربّما يجرحها هذا الإتيان على ذكر والدتها وشقيقتها التي يبدو أنّ الجميع هنا -عداها- قد عرفوهما بشكل جيّد. لم تكن تتصوّر أن تكون حسّاسة تجاه هذا الموضوع، فهي لم تشعر يوما بحاجتها إلى تلك الأمّ التي لا تعرفها. إلى أن وصلت إلى هنا.

- تعالي يا صغيرتي.. كم كان والداك عديمي الرّحمة ليحرماك من النشأة بين أحضان عائلتك!

لم تكن مريم قد عرفت ليلى في طفولتها. كانت قد رحلت مع والدها في سنّ صغيرة بعد أن حصل الطّلاق في وقت مبكّر من عمر الزّواج. ولم تكن مريم قد انضمّت إلى العائلة إلّا بعد ذلك بسنوات. حين توفّيت زوجة خالها على إثر سقوطها عن ظهر فرسها بالمزرعة، جاءت المربية لتهتمّ بالأطفال. منذ ذلك الحين، تخلّص خالها من الخيل والاسطبل بشكل نهائيّ.

انشغلت مريم بإعداد غداء دسم على شرف ضيوفها، بينما جلست ليلى ومنال في الشرفة تتجاذبان أطراف الحديث. كان ياسين وأمين قد قفزا إلى بركة السّباحة، تصحبهما الصّغيرة رانيا، بينما اختفى فراس ونبيل عن الأنظار. ظهر أمين فجأة عند الشّرفة المتّصلة بالمسبح، وهو يقطر ماءً، وهتف:

- هل تنظمّان إلينا؟

كان العرض مغريا بالنّسبة إلى ليلى. الطّقس يميل إلى الدّفء مؤخّرا، وفراس ليس متواجدا في الأرجاء، ممّا يشعرها بقدر من الارتياح.

لكنّها لم تكن قد استعدّت للأمر. قالت معتذرة:

ـ لم أحضر ثياب السّباحة!

قالت منال على الفور:

ـ لا شكّ أنّ هناك بعض ثياب حنان في الأعلى!

ثمّ أضافت في شكّ:

ـ هل تمانعين استعمالها؟

لم تكن ليلى واثقة. هل من المناسب أن تستعير ثياب توأمها المتوفّاة؟ لم يكن الأمر يعني لها شيئا، من النّاحية الأخلاقيّة.. لكنّها لم تكن واثقة من ردّة فعل فراس. قال أمين في حماس وهو يشير إلى المسبح وراءه:

ـ هناك حدث هامّ اليوم، فراس يشارك في اللّعبة لأوّل مرّة منذ سنوات! لا تريدان تفويت هذا!

في تلك اللحظة، لمحت فراس مقبلا في اتّجاه المسبح في حلّة غطس كاملة، طويلة الأكمام والسّيقان. كان يمكنها أن تضغط على نفسها، وترتدي ثياب سباحة حنان.. لكنّ الأمر لم يعد مغريا، طالما كان فراس قد وصل! قالت في ضيق:

ـ لا بأس.. سأكتفي بالفرجة اليوم.

عبس أمين، ثمّ التفت إلى منال:

ـ وأنت؟

هزّت كتفيها وقالت:

ـ لا يليق أن أترك ليلى وحدها!

بعد أن انسحب أمين خائبا، سألت ليلى في فضول:

ـ ماذا قصد أمين.. بشأن مشاركة فراس في اللّعبة؟

ـ آه، نعـم.. فـراس كان لاعـب كـرة مـاء، وصـل إلى مرحلـة الاحـتراف في الجامعـة.. لكنّـه انقطـع فجـأة، منـذ زواجـه.. ولـم يعـد يشـارك حـتّى في ألعـاب الشّـباب الودّيّـة. نزولـه إلى المسـبح اليـوم أمـر اسـتثنائيّ!

لـم تكـد منـال تنهـي عبارتهـا، حـتّى صرخـت بليـلى وهـي تشـير إلى مـا وراءهـا:

ـ انتبهي!

اسـتدارت ليـلى، لتلمـح كـرة المـاء الـتي انطلقـت مـن المسـبح باتّجاههمـا مباشرة في قذفـة قويّـة، لتصيبهـا في رأسـها تمامـا! وقعـت ليـلى عـن مقعدهـا، وشـعرت بدماغهـا يلـفّ، بينمـا هـرع الجميـع إليهـا في فـزع. كانـت تسـمع أصواتـا مشـوّشـة، منـال تسـندها لتسـاعدها عـلى الوقـوف، وأمـين يهـرول بمكعّبـات الثلـج مـن المطبـخ، بينّمـا مـيّزت صـوت ياسـين وهـو يقـول في عتـاب:

ـ فراس.. كان يجب أن تكون أكثر حذرا!

حينئـذ أدركـت ليـلى كلّ شيء. نزولـه إلى المسـبح الاسـتثنائيّ، لـم يكـن لـه سـوى هـدف واحـد!

صعـدت إلى الطّابـق الأوّل بمسـاعدة منـال، واسـتلقت عـلى السّريـر في إحـدى الغـرف. اسـتمرّ الأزيـز في رأسـها لحوحـا مزعجـا. منـذ إصابتهـا في حـادث سـيّارة منـذ سـنوات وحـالات صـداع عنيـف تنتابهـا مـن حـين إلى آخـر. والضّربـة زادت الأمـر سـوءًا. أخـذت مسـكّنا، واستسـلمت إلى النّـوم بعـد لأي. لـم تسـتيقظ إلّا عنـد موعـد الغـداء.

كانـت متوتـرة عـلى مائـدة الطّعـام. أصغـت بعقـل غائـب لأحاديـث مريـم ودعابـات أمين المرحـة. وقـد كانـوا جميعا لطفـاء تجاهها، يسـألون باسـتمرار إن كانـت تشـعر بتحسّـن.. مـا عـدا صاحـب الفعلـة!

حـين انـصرف الجميـع مـن قاعـة الطّعـام، تطـوّعـت ليـلى لرفـع الأطباق

وحملتها إلى المطبخ. دخلت خلف المربّية وهي تقول:

ـ خالتي، هل أساعدك؟

لم تكن ليلى لتبادر بذلك في القصر الكبير، حيث الخدم ومدبّرات المنزل الكثيرات.. لكنّها لم تر شخصا آخر في المطبخ إلى جوار المربيّة، فرأت من واجبها أن تفعل. لقد تعوّدت على خدمة نفسها.. ولم تكن تجد حرجا في الاهتمام بنظافة شقّتها وإعداد وجباتها.

التفتت إليها مريم مبهوتة وهتفت:

ـ عشت حتّى رأيت شخصا يعرض المساعدة في هذا البيت!

ثمّ تمتمت في خفوت:

ـ حنان لم تكن تعرف كيف تساعد نفسها، فضلا عن مساعدة الآخرين! تلك الصّغيرة المسكينة، رحمها الله!

اقتربت منها ليلى وأخذت ترصف الصّحون داخل آلة الغسيل في صمت. ودّت لو تستفيض المربيّة في حديثها.. وقد بدا أنّها كانت مستعدّة للثرثرة، فأخذت تقول، كأنّها تخاطب نفسها:

ـ لماذا قد تفكّر فتاة شابّة ومرحة مثلها في إنهاء حياتها؟ لقد كانت محظوظة لزواجها من فراس.. أحبّ أبناء نبيل إلى قلبه.. وهي كانت مدلّلة من الجميع.

عبست ليلى. كان السّؤال نفسه يشغلها في الأيّام الماضية. سمعتها تطلق زفرة طويلة، ثمّ استولى عليها الصّمت. سألتها ليلى فجأة:

ـ وماذا عن.. أمّي؟ حدّثيني عنها!

تجهّم وجه العجوز وبدا عليها التردّد، لكنها قالت أخيرا في اقتضاب:

ـ نجاة كانت شخصيّة عنيدة وعصبيّة.. رحمها الله!

أطرقت ليلى في كآبة. لم يكن كلامها غريبا عنها، فوالدها أيضا وصفها بتلك الطّباع، محاولا تبرير انفصالهما.. من الواضح أنّها لم تكن محبوبة، حتّى من المربّية!

خرجت إلى الشّرفة، وألقت نظرة على السّاحة. لم يكن هناك أحد في مرمى بصرها. اقتربت من المسبح، وانحنت لتلامس بأصابعها صفحة الماء. كانت المياه دافئة. التفتت حولها مستطلعة من جديد. لا أحد. جلست على طرف البركة وغمرت قدميها في الماء. تنهّدت. ما الفائدة من النبش في تاريخ عائلتها، إن كانت ستعود في كلّ مرّة محمّلة بالخيبة والمرارة؟ هل كانت تتوقّع أحاديث مسلّية وقصصا حلوة عن امرأتين سعيدتين ومحبوبتين؟

بعد الغداء، صعد نبيل إلى الطّابق الأوّل طلبا للقيلولة، وجلس الإخوة الثلاثة في الصّالة يلعبون الورق. كانت رحلة المزرعة من أوقات اجتماعهم النّادرة، وكان أمين يحمل علبة الورق في جيبه على الدّوام. أمّا منال، فجلست إلى جوارهم، تحكي قصّة لرانيا بينما تجدل شعرها. سأل أمين فجأة:

- أين ليلى؟

قالت منال مداعبة:

- تستمع إلى خرافات العجوز!

- إذن لا أمل في مجيئها قريبا!

تعالت الضّحكات، متبوعة برنين هاتف فراس. نظر إلى الشّاشة ثمّ

سار إلى الشّرفة ليردّ على الاتّصال. لم يكن بوسعه تجاهل اتّصالات العملاء حتّى في عطلة نهاية الأسبوع. أصبح شديد الانشغال في السّنوات الأخيرة.. وهو يحبّ أن يبقى مشغولا. الانشغال بالعمل يمنعه من الإفراط في التّفكير. والتّفكير في قاموسه مرادف لاجترار الذّكريات والألم. أنهى الاتّصال، ثمّ حانت منه التفاتة باتّجاه المسبح. رآها. ألم تقل منال إنّها منهمكة في حكايات المربّية؟

توقّف للحظة، وتساءل في شيء من تقريع الضّمير.. هل كانت الضّربة قويّة؟ ابتسم في غرور وهو يتذكّر تسديدته الموفّقة. مازال في كامل لياقته رغم انقطاعه عن ممارسة الرّياضة منذ فترة. لكنّ الضّربة أصابت الهدف مباشرة وأوقعته أرضا! حتّى لاعبو كرة الماء المحترفون حين تصيبهم تسديدة مشابهة، وهم يرتدون خوذات الحماية، فإنّهم يصابون بالدّوار. لم يكن هدفه أن يتسبّب لها بأضرار جسديّة.. فقط أن تفهم أنّها غير مرغوب بها، وأنّ عليها أن ترحل!

تذكّر الشّقّة. بإمكانه أن يجعلها ترحل بأساليب ملتوية وغير تقليديّة، أو.. أن يسرّع العمل على شقّتها، فترحل حين تجهز! زفر. لكنّ ذلك يحتاج وقتا طويلا.. شهرين في أحسن الأحوال! كان الله في عونه حتّى ذلك الحين. عاد بنظراته إليها. ما الذي تفكّر فيه الآن؟ وما الذي جعلها تعود في هذا التّوقيت بالذّات؟ لا تزال زيارتها للجامعة تثير الشّكوك لديه. إنّها تريد شيئا ما. وسوف يعرف ما هو.

التفتت ليلى إلى الشّرفة فجأة. شعرت بحركة ما خلفها، لكن مرّة أخرى.. لا أحد هناك. زوت ما بين حاجبيها في ريبة. إمّا أن تكون مبالغة في الحساسيّة.. أو أنّ أحدهم يتحرّك بخطوات لا وقع لها.. خطوات قاتل!

قبل أن تخلد إلى النّوم، جلست ليلى إلى المكتب، وسجّلت في دفترها:

ـ فراس: انطوائيّ، مستفزّ، عنيف.

ـ أمين: مرح، طفوليّ، مدلّل.

ـ ياسين: مملّ، مدمن عمل، يُعتمد عليه.

ـ منال: طيّبة، سيّدة مجتمع بائسة.

بعد أسبوعها الأوّل مع عائلة خالها، كانت قد كوّنت صورة شبه متكاملة عن الشخصيّات المحيطة بها. كانت تنكر على أمين انعدام مسؤوليّته، وتأخّره في التّخرّج وهو في السّادسة والعشرين! لم تجد ياسين مثيرا للاهتمام على الإطلاق. شخصيّته سطحيّة وبسيطة. تشفق على منال التي وقعت في مصيدة الزّواج من رجل مشغول وجافّ الطّبع، لكنّها لا تنكر جدواه. أمورها تسير على خير ما يرام بفضله. توقّفت طويلا أمام اسم فراس، ونازعتها مشاعر الغضب والغيظ، ثمّ أغلقت الدّفتر في عصبيّة.

في الصبّاح التّالي، تلقّت اتّصالا غير متوقّع.كانت مفاجأة لذيذة ومبهجة، بعد أن غدت الفرحة إحساسا مستبعدا وغزا طعم المرارة أيامها منذ وصولها أرض الوطن. اتّصال من سحر، صديقتها المقرّبة في سويسرا وزميلة دراستها في كلّيّة الصّحافة والإعلام.

ـ لحقت بك!

ـ ماذا تقصدين؟

- لقد جئنا أيضا.. في إجازة!

- تشهدين الثّورة أنت أيضا؟

قالت ليلى ساخرة، ثمّ ضحكتا معا في استمتاع، بينما تساءلت ليلى في صمت.. من تقصد سحر بنون الجمع؟ وتصاعد وَجِيبُ قلبها. قالت سحر في جدّيّة:

- لم أخبرك بهذا من قبل.. والدي كان ممنوعا من زيارة تونس، لأنّه انتمى في الماضي إلى حزب معارض للنّظام السّابق.. وقد تمكّن أخيرا من العودة إلى أرض الوطن، بفضل الثّورة.. وجئنا جميعا لنحتفل بذلك!

أصغت إليها ليلى في دهشة. لم تكن تتحدّث عن السّياسة مع سحر. ولم يكن يهمّها أن تعرف تفاصيل مشاكل والدها. فكّرت، لو أنّها اكتشفت الأمر في وقت سابق، هل كان ذلك ليؤثر على صداقتهما؟ كيف تكون علاقة ابنة السّفير وابنة ألمعارض المنفيّ؟ بدا من المحتّم أنّ صديقتها قد تعمّدت إخفاء ذلك عنها. أمّا الآن، بعد الثّورة، يتساوى المعارض مع المتواطئ.. بل لعلّ المعارض قد غدا أوفر حظّا في ظلّ الحِقد الشّعبيّ على رموز النّظام المنهار!

سمعت سحر تقول بلهجة مرحة:

- اشتقنا إليك.. متى نراك؟

- اليوم إذا شئت.. بعد الظهر؟

- بالتأكيد! انضمّي إلينا في البيت.. سأمليك العنوان!

سجّلت ليلى العنوان عندها، وهي تعضّ على شفتها السّفلى في غيظ من نفسها. أمرك مكشوف يا ليلى، أكلّ هذه لهفة؟ اثقلي!

مأمون، شقيق سحر، سبق أن عرّض بخطبتها. هذا كلّ ما في الأمر.

كلّ ما في الأمر؟ الأمر هو أنّ والدها لم يتحمّس لعلاقتهما. عائلة سحر متواضعة، وليست ذات حسب ونسب كما هو حال عائلتها! أم لعلّ والدها كان قد اطّلع على تاريخ والده، فحكم باستحالة العلاقة؟ لكنّ مأمون طبيب شابّ وناجح، ينهي تخصّصه في طبّ الأطفال.. وهو يروقها، في أخلاقه ونضجه وهدوء طبعه، وتلك المكالمة من شقيقته أسعدتها، وجعلت مزاجها المتعكّر يصفو لبقيّة النهار.

فكّرت، ربّما كانت الثّورة فرصة في نهاية الأمر. تنقلب موازين القوى، ويصبح المستحيل ممكنا بضربة عصا سحريّة؟

أمضت كثيرا من الوقت أمام صوان ملابسها، تقلّب الفساتين وتنتقي واحدا لأمسيتها في بيت سحر. كان يومها يشمل نشاطا واحدا قارّا، حصّة اللّغة العربية بعد الظّهر. بالإضافة إلى زيارة والدها مرّة في الأسبوع، ولقاء المحامي من حين إلى آخر، أو التسوّق لحاجياتها وحاجيات والدها. ما عدا ذلك، فقد كانت تقضي ساعات طويلة في غرفتها. لم يكن هناك في القصر غيرها، والخدم. أبناء خالها يلتزمون بموعد العشاء على مائدة واحدة، تلك كانت القاعدة الوحيدة التي ترسم العلاقات بينهم. غير ذلك، فإنّها لم ترهم مجتمعين في مكان واحد في أيّ وقت من أوقات النّهار. بل إنّها قلّما ترى أحدهم في غير موعد العشاء! في الحقيقة، كان يوم المزرعة استثنائيّا في حياة العائلة ونسق حياتها. أيّ اجتماع عائليّ من أيّ نوع، كان من الضّروريّ أن يُخطّط له على مائدة العشاء، وأيّ موضوع حيويّ أيضا يناقش أثناءه، أو بعده مباشرة. عدا ذلك، فإنّ خالها وياسين يكونان في الشّركة طيلة النّهار، وإذا تواجدا في القصر فهما يتحادثان في غرفة المكتبة. أمّا فراس وأمين، فيلزم كلّ منهما غرفته.. أو يسهر خارجا، خاصّة أمين.

حتّى الجدّة، فقد كانت امرأة مشغولة! لا يمكنها الجزم بجدول أعمال الحاجّة فريدة، لكنّها تمضي جزءا هامّا من وقتها خارج القصر، وتؤوي إلى غرفتها مبكّرا بعد العشاء مباشرة. سرّها ألّا تكون عليها رقابة لصيقة كما توقّعت، وهي غير ملزمة حتّى تلك اللّحظة بتقديم تقرير بتحرّكاتها لأحد، ولا يُطلب منها إلّا أن تتواجد على العشاء، مثل الجميع. ولم تكن الجدّة قد فرضت عليها شيئا غير التّسجيل في المدرسة القرآنيّة، وهي تترك لها خدمات السّائق أيضا من أجل درسها.

لكنّها في تلك الظّهيرة، كانت قد قرّرت أن تلغي حصّة العربيّة، من أجل لقائها بسحر. كلّ ما عليها فعله هو المسارعة بالانصراف قبل وصول السيّدة الكبيرة، ثمّ يمكنها أن تصوغ الاعتذار المناسب لاحقا. كانت تنزل الدّرج على عجل، حين رأت جدّتها تدخل البهو بخطوات رزينة. صعقت. لم يكن موعد عودتها المعتاد قد حان!

ـ ليلى، تعالي إلى هنا.

واصلت نزولها في قلق. كيف يمكنها التملّص من الجدّة الآن! أشارت إليها فريدة بالجلوس على الأريكة قبالتها، أين جمعهما اللّقاء الأوّل منذ أسبوع. سألتها في اهتمام:

ـ كيف تسير دروسك؟

ـ ممتازة، بفضلك يا جدّتي.

هزّت رأسها في استحسان، ثمّ أضافت:

ـ أنا أتابع تقدّمك مع وداد.. وهي راضية عن أدائك.

كان عليها أن تدرك ذلك. بإمكان الجدّة الحصول على تقرير بأدائها من المدرّسة بشكل مباشر. سؤالها هي مجرّد إجراء شكليّ!

ـ أريدك في شأن آخر.. ستأتين معي في مشوار غدا مساءً.. ألغي كلّ

التزاماتك، وكوني مستعدّة على السّاعة السّادسة!

أومأت في استسلام. لن ينفعها الاعتراض. استطردت الجدّة فريدة فجأة وكأنّما قد انتبهت لأمر ما.

- هل أنت خارجة؟ لم يحن موعد درسك بعد!

يا للمأزق. ابتسمت ليلى في توتّر:

- سأزور صديقة لي.

- صديقة؟

- زميلتي من كليّة الصّحافة في جينيف.

- جميل. سيرافقك السّائق إذن.

لم تقدر أن تمانع، طالما لم تمنعها من زيارتها.

- خذي، هذا رقم وداد.. أعلميها بتأجيل الحصّة.

دوّنت الرّقم عندها في حرج، وهزّت رأسها مؤيّدة. ستفعل.

لم يمنعها التّفكير في ما تعدّه الجدّة من أجلها من استعادة حماسها وهي تركب السيّارة متّجهة إلى العنوان الذي أملتها إيّاه سحر. وصلت إلى شارع شعبيّ مزدحم بمحلّات البقالة والملابس الجاهزة. توقّفت السيّارة عند رأس الشّارع. طالعها السّائق في المرآة العاكسة وقال في حذر:

- آنستي.. أنت واثقة أنّ هذا هو العنوان؟

أومأت دون حماس ونزلت. كان عليها أن تكمل مشيا. كانت كمائن حراسة متمركزة عند المحاور الرّئيسيّة، عجلات مطاطيّة وبراميل مليئة بورق ومطاط محترقة، مازال يتصاعد منها دخان كريه ذو رائحة نفّاذة، شاهدا على أحداث ليلة أمس. مشت وهي تتلفّت في قلق. لم يوقفها أحد. لكنّ الوجوه لم توح إليها بالاطمئنان. انحرفت إلى

زقاق ضيّق وأخذت تعدّ البيوت حتّى وصلت إلى الرّقم المطلوب. حسن، هذا حيّ مختلف عن الحيّ الذي يسكنه خالها، أو حتّى عن جوار شقّة والدها.

استقبلتها سحر وأمّها بحرارة حقيقيّة. كانت تلتقي بأمّ سحر للمرّة الأولى. سحر كانت تقيم مع والدها -المنفيّ، كما اكتشفت حديثا- وشقيقها في سويسرا للدّراسة، في حين ظلّت والدتها وشقيقهما الأصغر في الوطن. دخلت إلى غرفة الجلوس وهي تبحث بنظراتها عن شخص ثالث. كانت تسمع صوت شقيق سحر الأصغر سنّا آتيا من غرفة داخليّة، وهو يلعب لعبة فيديو صاخبة، وقرقعة أدوات المطبخ دليلا على الوجبة التي تحضّرها ربّة البيت.. ما عدا ذلك، لا شيء.

ـ كيف هو والدك؟

ـ المحامي يقول إنّ القضيّة بسيطة.

ـ جيّد.. أرجو أن يفرج عنه قريبا!

ـ نعم.. أرجو ذلك.

ـ كيف سار التّعارف مع عائلتك؟

ـ زوج أختي يكرهني.. لسبب لا أعلمه.

ـ هذا مثير!

ـ لم يكونا سعيدين.. وحنان حاولت الانتحار.

ـ يا إلهي.. المسكينة!

ـ وأمّي كانت ممقوتة من الجميع.

ـ يا للهول!

ـ وجدّتي تعتبرني أجنبيّة سائبة تحتاج إعادة تربية!

ـ رائع! كيف هي معنوياتك؟ لم تنهاري بعد؟

ضحكت ليلى في مرارة، وقالت في امتنان:

- شكرا لمجيئك.. أكاد أختنق بمفردي.

- تعالي لزيارتي كلّ يوم.. وسآتي لزيارتك أيضا.

هزّت ليلى رأسها في حماس، ثمّ سألت في حذر:

- بالمناسبة، هل حيّكم آمن؟

ضحكت سحر. إنّها تعرف صديقتها، ابنة الأكابر والأحياء الرّاقية. قالت مطمئنة:

- لا تخشي شيئا.. شباب الحيّ يؤمّنون المعابر ويحرسون الشّوارع طول اللّيل.

- وحظر التّجوّل؟

- إنّها حراسة للحيّ.. لا أحد يتوغّل بعيدا. تعلمين، بعض العصابات تستغلّ الانفلات الأمنيّ لسرقة المحلّات والسّطو على البيوت!

هزّت ليلى رأسها في صمت. يبدو الأمر مختلفا في حيّ خالها، وكأنّهما منطقتان منعزلتان من العالم! حتّى أنّ خالها دعا معارفه لحفلة شواء في نهاية الأسبوع! لا يبدو أنّ أحدا يعبأ لحظر التجوّل المزعوم.

مضت الأمسية سريعا، بكثير من الأحاديث المسلّية. ولم يظهر مأمون خلالها. ولم تستطع ليلى إخفاء خيبتها وهي تودّع صديقتها عند باب المنزل. أحسّت سحر بضيقها، فقالت بشيء من التردّد:

- لا تعتبي على مأمون.. فهو ليس في مزاج حسن.

- لماذا؟

- حين عرف أنّك تقيمين مع أبناء خالك.. انزعج كثيرا. يعتقد أنّ والدك ينوي تزويجك من أحدهم.

- لكنّ هـذا غير صحيح أبـدا.. أخـوك يحمّـل المسـألة أكـثر ممّـا تحتمـل! الأكـبر مـتزوّج، والأوسـط يكرهـني، والأصغـر لا يحمـل أدنى مواصفـات الرّجـل المناسـب.

اتّسعت ابتسامة سحر وغمزتها قائلة:

- حقّا؟ سيريحه أن يسمع هـذا منك بنفسه.

- كيف حالك يا ليلى؟

التفتـت ليـلى في فـزع، لتجـد مأمـون يقـف وراءهـا. أطرقـت في خفـر وأخـذت تعبـث بخصلاتها المنسـدلة عـلى عنقهـا، في حركـة متوتّـرة. هـل كان يتجنّـب اللقـاء بهـا متعمّـدا؟ لقـد غـادر البيـت قبـل مجيئهـا، ولـم يرجـع إلا قبيـل الغـروب، متوقّعـا رحيلهـا. آخـر لقـاء لـه مـع أبيهـا كان قبيـل سـفرها بأسـبوعين.. ولـم يكـن موفّقـا عـلى الإطـلاق. يمكنهـا أن تتفهّـم ضيقـه وحرجـه.

- أعدك أنّي لن أستسلم.. فهل تعدينني بالانتظار؟

تضرّجت وجنتاها وهي تهزّ رأسها علامة الإيجاب وهمست:

- أعدك.

حـين رجعـت إلى قـصر خالهـا، كان بإمـكان أيّ كائـن أن يلمـح التغيـير الجـذريّ لمزاجهـا. سـتنتظر. وسـتأمل أن يغـيّر والدهـا رأيـه. أليسـت ثـورة؟ فلتكـن إذن!

حـال اجتيازهـا للبهـو، تناهـت إلى مسـامعها ضحـكات عاليـة قادمـة مـن الصّالـة العلويّـة. خمّنـت.. هنـاك ضيـوف. هـذا الضّحـك الأنثـويّ

الصّاخب ليس لمنال بالتّأكيد. صعدت الدّرج بهدوء، ومضت إلى غرفتها دون أن تلتفت. لكنّ صوتا ناداها فجأة، فرجعت أدراجها.

- ليلى.. هل عدت؟

طالعت في استغراب فراس الذي كان يضع قناعا وديعا لم تتعوّد عليه.

- رجاء وريم.. بنتا خالتي.. أعرّفكما بليلى.. شقيقة حنان، رحمها الله.

تغيّر وجه البنتين وهما تحدّقان في ليلى في ذهول.

- إنّها نسخة منها!

- يا إلهي، كأنّها هي!

رسمت ليلى ابتسامة مجاملة على شفتيها، وحيّتهما باقتضاب، ثمّ استدارت مغادرة. لكنّ صوت فراس استوقفها مجدّدا:

- تبدين متعبة.. هل تريدين كوبا من العصير؟

- شكرا.. أنا بخير.

ابتعدت مسرعة وهي لا تصدّق ما جرى للتّوّ. ما الذي حصل لفراس الذي تعرفه؟ البارد، السّاخر، العدائيّ؟ أم تراه كان يمثّل الطّيبة أمام بنتيْ خالته؟

حين نزلت إلى العشاء، كانت البنتان قد انضمتا إلى العائلة على المائدة. أكلت في صمت، ولاحظت أنّ رجاء كانت نجمة السّهرة. لعلّها النسخة الأنثى من أمين! تكلّم الاثنان كثيرا، أمين ورجاء، وضحكا أكثر، وجاراهما فراس أحيانا.. حتّى الجدّة تغاضت عن الصّخب، وتابعت طفرة النّشاط الشّبابيّ بابتسامة متواطئة.

صعدت ليلى إلى غرفتها بعد العشاء مباشرة. أخرجت ألبوم الصّور

الـذي أهـداه لهـا أمـين منـذ أيّـام، وتصفّحتـه بسرعـة لتجـد الصّـورة الـتي كانـت تبحـث عنهـا. كانـت صـورة رجـاء في حفـل مـا، وهـي تقـف غـير بعيد عـن حنـان، وترمقهـا بنظـرة عدائيّـة. لـم تكـن رجـاء مركـز الصّـورة، بـل حنـان. لكـنّ المصـوّر التقطهـا عرَضـا. هـذا أحـد الوجـوه قـد وضعـت عليـه اسما. عـادت إلى تصفّحهـا، تبحـث عـن وجـه رجـاء فيهـا. لـم تكـن مخطئـة. في كلّ مـرّة ظهرتـا في المشـهد نفسـه، كانـت رجـاء تبـدو عابسـة ونظراتهـا إلى حنـان غـير مريحـة.

حسـن، مـا قصّـة رجـاء هـذه؟ فكّـرت أن بإمكانهـا أن تسـأل منـال. لـم تكـن تحبّـذ فكـرة زيارتهـا في جناحهـا. سـترى إن كانـت لا تـزال في الأسـفل. سـارت باتّجـاه الـدّرج، ثـمّ توقّفـت قبـل أن تبلغـه، وأصغـت بانتبـاه لتميّز أصـوات المتسـامرين في البهـو. فجـأة، ظهـرت رجـاء أعـلى الـدّرج.

ـ أنت ليلى، أليس كذلك؟

هزّت ليلى رأسها في ضيق، بينما تابعت رجاء بلهجة متعجرفة:

ـ يبدو أنّك قد نجحت في اختبار القبول!

ـ ماذا؟

ـ لقـد حصلـت عـلى الاهتمـام الـكافي مـن الجميـع.. فمـا الـذي تطمعـين فيـه بالضبط؟

ـ عفوا؟

ـ اسمعي، لن أسمح بتكرار الخطأ نفسه مرّتين.. حنان واحدة تكفي!

ـ ماذا تقصدين؟ أيّ خطأ؟

ـ لقد رأيت بعينيّ كيف تحاولين استمالة فراس!

ـ أنت واهمة!

ـ وفّري كلماتك.. فقط أردت تحذيرك. سأكون لك بالمرصاد!

ثـمّ سـارت رجـاء لتواصـل طريقهـا، بينمـا وقفـت ليـلى مبهوتـة. الآن تفهـم سرّ طيبـة فـراس المفاجئـة. لقـد فعـل ذلـك أمـام رجـاء متعمّـدا، ليوقـع بينهمـا! كان يجـب أن تعـرف، فـراس لا يفعـل شـيئا جزافـا. إنّ لديـه دوافـع لـكلّ شيء! فكّـرت فجـأة، لمـاذا قبـل بـالإشراف عـلى تجديـد شـقّتها؟ أيّـة مصيبـة يعدّهـا مـن أجلهـا؟

حين رجعت إلى غرفتها، فتحت الدّفتر وأضافت السّطر التّالي:

ـ رجاء: عدائيّة، غيورة، يهمّها أمر فراس.

-٥-

حملـت زيارتهـا للمحامـي مفاجـأة غـير متوقّعـة. قـال في جدّيّـة، وقـد زال عنـه تفاؤلـه السّـابق:

ـ هنـاك وثائـق رسـميّة مقدّمـة إلى المحكمـة.. عـن اسـتفادة والـدك مـن منصبـه الدّيبلومـاسيّ السّـابق للحصـول عـلى امتيـازات لشركتـه الحاليّـة.. تسـهيلات بنكيّـة وإعفـاءات جمركيّـة وضريبيّـة غـير مسـتحقّة!

شحب لونها وارتجفت أناملها. هل كانت جدّتها على حقّ؟

ـ ما العمل إذن؟

ـ مـازال بإمكاننـا الطّعـن في مصداقيّـة الوثائـق، ويمكـن أيضـا كحـلّ نهـائيّ، أن نطلـب تسـوية ماليـة، ويدفـع والـدك غرامـة مناسـبة.. ليتجنّـب السّـجن.

لاحقا، وهي تحدّث والدها بالمستجدّات، هتف نجيب مستنكرا:

ـ نعـم، لقـد حصلـت عـلى امتيـازات بفضـل علاقـاتي الشـخصيّة، وصِـلاتي بأصحـاب المراكـز المرموقـة، مـا العيـب في ذلـك؟ هـذا مـا يفعلـه الجميـع! لمـاذا يركّـزون مـع شركـتي الصّغـيرة، وينسـون كبـار رجـال الأعمـال الذيـن نهبـوا البـلاد وبـدّدوا ثرواتهـا؟ إنّهـم يمسـكون بالشّـخص الخطـأ!

امتقع وجه ليلى وقالت متلطّفة:

ـ أبي، هـذا مـا يصطلـح عـلى تسـميته فسـادا.. ولا فـرق بـين فسـاد قليـل وفسـاد كثـير.. فالقليـل مصـيره أن يصبـح كثـيرا إن تـمّ التغافـل عنـه!

سكت نجيب محرجا، ثمّ قال في خضوع:

ـ ليلى، هل نزلت في نظرك؟ هل تظنّين أنّ والدك رجل جشع؟

ربّتت على كفّه مهوّنة:

ـ إنّه مجرّد خطأ يا أبي.. لقد أخطأت، وجميعنا نخطئ، ويجب أن نصلح أخطاءنا قبل فوات الأوان.

طمأنه ردّها فقال في حماس:

ـ هل يظنّون أنّني مواطن غير صالح؟ ولا تهمّني مصلحة البلد؟ لقد نويت العودة لإصلاح وطني وبنائه من جديد! لقد رجعت بنيّة صافيّة، والأموال التي جمعتها في غربة دامت دهرا لم أرد إلّا استثمارها في الخير!

ـ نعم، أعلم ذلك يا أبي.. أعلم ذلك جيّدا.

كانت علامات الاكتئاب واضحة على ملامحها وهي تدخل البهو، قبيل العصر. كانت قد انتهت من مشاويرها المقرّرة، زيارة والدها، المحامي ثمّ درس العربيّة.. وكان الإنهاك قد أخذ منها مأخذه. جلست في الشّرفة، مدّت ساقيها واسترخت على المقعد، وغفت.

انتبهت بعد حوالي نصف ساعة. سمعت باب الشّرفة المجاورة يفتح. اعتدلت في جلستها وأنزلت ساقيها عن الحاجز المعدنيّ، ثمّ تذكّرت أنّ السّاتر الجانبيّ يسدّ مجال الرّؤية. لا يمكن لجارها أن يراها. استرخت من جديد، وأصاخت السّمع. هل تحاول التجسّس عليه الآن؟ نهرت نفسها، لكنّها استمرّت ساكنة، ترصد أدنى حركة على الجهة الأخرى. مرّت بضع دقائق، دون أن يصلها صوت يدلّ على وجود شخص ما.

بعد حين، أيقنت ألّا فائدة. تساءلت في حيرة، كيف يفعل ذلك؟ هزّت كتفيها ووقفت. ثمّ طرأ ببالها أمر ما. فكّرت في استمتاع، ستجرّب أن تمشي بلا وقع وتنسحب من الشّرفة دون أن يشعر

بوجودها. استدارت بحذر، وتقدّمت نحو بابها.. لم تبق أمامها سوى خطوتين وتصل. رفعت قدمها مرّة ثانية.. أحسنت، خطوة أخيرة. في تلك اللّحظة، تعثّرت بساق الطّاولة المنخفضة! مالت الطّاولة وانقلبت على جانبها، وسقطت علبة المناديل التي تعلوها، ثمّ تدحرجت لتصطدم بأصيص الزّهر في الركن المقابل، واستقرّ الاثنان على الأرض بعد أن أحدث الارتطام المعدنيّ جلبة لافتة. أغمضت عينيها بقوّة وكشّرت في غيظ. سمعت صوت فراس يسأل:

- هل كلّ شيء على ما يرام؟

لكنّها كانت محرجة لتردّ. لم تكن مستعدّة للمزيد من سخريته. قطعت الخطوة المتبقّية بقفزة سريعة وغابت داخل الغرفة. لم يعد أمر الحفاظ على الهدوء مهمّا بعد الآن.

نزلت السّاعة السّادسة إلى البهو، وكانت الجدّة في انتظارها كما سبق أن اتّفقتا. ابتسمت وهي تلمحها تنزل الدّرج على الموعد تماما، ثمّ وقفت لتسبقها إلى السيّارة المتوقّفة عند المدخل. قالت بعد أن استقرّ بهما المقام وانطلق السّائق:

- نساء هذه العائلة منحوسات.. سنحاول إنقاذ واحدة على الأقل.

- منحوسات؟

لم تكن تلك الكلمة قد انضمّت إلى قاموسها بعد. كانت تضيف كلّ يوم عبارات جديدة إلى معجم اللّهجة التّونسيّة الخاصّ بها، من خلال حواراتها اليوميّة مع وداد ومنال وموظّفات القصر، لكنّ معجم جدّتها يعدّ الأكثر غرابة وثراءً في آن.

ـ منحوسات، نعم. قليلات الحظّ وناقصات بركة! انظري إليّ، فقدت ابنة في سنّ لا تتجاوز الأربعين بالمرض الخبيث، وكِنّة في ثلاثيناتها، بحادثة حصان، وحفيدة في العشرينات في حادث سيّارة! هل هناك نحس أكبر من هذا؟ سنذهب إلى الشّيخ هذا المساء لنرقيك.

ثمّ أخرجت من طيّات ثيّابها قطعة قماش مربّعة مخيطة بإحكام، وقالت وهي تدسّها في كفّ ليلى:

ـ خذي.. هذا حرز للحماية، حصلت عليه هذا الصّباح من المعالج.

حدّقت ليلى في قطعة القماش المخيطة في حذر. ما الذي ستفعله بها هذه التّميمة؟ سمعت الحاجّة فريدة تقول آمرة:

ـ علّقيها بخيط إلى رقبتك، ولا تنزعيها أبدا.. ولا حتّى وقت الاستحمام!

خبّأتها في حقيبة يدها، والجدّة تكرّر على مسامعها:

ـ اليوم، حالما تصلين إلى غرفتك، افعلي ذلك. هل فهمت؟

ابتسمت ليلى في مزيج من الإثارة والإشفاق. إنّ جدّتها تستميت في اقتفاء السّبل المتاحة لحمايتها. الرّقية والحرز. لم تستفسر عن معاني تلك الطّلاسم الغريبة، لكنّها بدت شيئا غامضا ومثيرا. ستذهب إلى شيخ يفعل أشياء عجيبة. مرّت ببالها أشرطة أجنبيّة ورد فيها ذكر السّحر المغربيّ، ومصباح علاء الدّين السّحريّ، وتخيّلت أقبية مظلمة تخفي كنوز علي بابا القديمة. لم تكن تدري إن كان شيء من ذلك الخيال يقترب من واقعها، لكنّها كانت متحمّسة. لم تكن خائفة ولا قلقة، فالجدّة برفقتها. لكنّها مستعدّة لمغامرة مسائيّة جامحة!

لقد نشأت وهي تعرف أنّها مسلمة، وكانت الثّقافة التّونسيّة حاضرة في محيطها، بحكم مهمّة والدها الدّيبلوماسيّة. كان عليها تمثيل الوجه التّونسيّ في المحافل الاجتماعيّة، ولذلك فقد كانت تمتلك مجموعة

من الأزياء التّونسيّة التقليديّة، من الجبّة الحريريّة والسترة المقلّمة والفساتين ذات الأكمام الواسعة والشاشية الحمراء.. إلى الثّوب الفاخر ذي القطعتين «الفوطة والبلوزة»، المطرّز بالكامل بالخيوط الذّهبيّة والخرزات اللّامعة. كان عليها أن تضع تلك الأزياء في المناسبات الوطنيّة بالسّفارة أو خلال اللقاءات الرّسميّة، وتضيف إليها قطعا من الحليّ الذّهبيّ ذي الحلقات العملاقة، وتمثّل فخرا بتراث حضاريّ وشعبيّ لا تفقه منه قيد أنملة!

إن كلّ وعيها بثقافتها، يمكن اختصاره في تلك الثّياب، وفي بعض الوجبات التقليديّة التي ينازع والدها الحنين إليها من حين إلى آخر، فيأخذها إلى مطعم تونسيّ بجينيف، يقدّم طبق الكسكسيّ الدّسم وورق البريك الملفوف والمقليّ، وقطع البقلاوة شديدة الحلاوة و«كعك الورقة» المفضّل لديها! وحتّى لا تبالغ، فلتعترف أنّها أيضا على اتّصال بالكثيرين من الجالية التّونسيّة في جينيف، مع أنّ التّواصل معهم غالبا ما يكون بلغة أجنبيّة، بحكم التعوّد، وحفاظا على الوجاهة بالنّسبة إلى البعض! ولم تكن تتحدّث اللّهجة التونسيّة إلّا في خلواتها بوالدها، وحتّى أثناء ذلك، فإنّها تستمع أكثر ممّا تتكلّم، وربّما تردّ بالفرنسيّة.. لذلك كانت لكنتها مشوّهة. ربّما مارست اللّهجة أكثر من أيّ وقت مضى بعد أن عرفت سحر ومأمون!

توقّفت السيّارة بعد أن اجتازت زحام وسط البلد عند زقاق ضيّق لا يسمح بمرور العربات. قالت فريدة وهي تهمّ بالنّزول:

- سنمشي قليلا.

أعاد إليها المشهد ذكرى زيارة منزل سحر. لكنّ الشّارع هنا بدا أقلّ فوضى وإثارة للقلق. دخلتا الزّقاق، ومشتا ببطء. كان عليها أن تساير خطوات جدّتها. على بعد مائة متر، كان هناك باب خشبيّ

مـشرع الدّفتـين، وصـوت هتـاف وضربـات دفّ يسـمع بشـكل واضـح. همسـت الجـدّة وهـي تحـثّ الخطـى:

ـ هيّا.. ستبدأ الجلسة!

دلفتـا إلى صحـن الـدّار المغلّـف أرضيّـة وجدرانـا بالسـيراميك العتيـق، أشـكال هندسـيّة منمنمـة من الزّخرفـة العربيّـة في درجـات الأزرق والأخضر. اسـتقبلتهما الانحنـاءات المقوّسـة الـتي تربـط بـين أعمـدة الـرّواق، وتتّصـل فيمـا بينهـا لتحيـط بجوانـب الـدّار الثلاثـة، ورائحـة بخـور وحشـائش تحـترق، تشـابه الرّائحـة الـتي تتضـوّع بهـا ملابـس جدّتهـا عـلى الـدّوام.

كان الصّحـن غاصّـا بالخلـق، والتيّـار ينسـاب باتّجـاه غرفـة داخليّـة بـدا أنّ العـرض قائـم بـين حيطانهـا. تبعتـا الجمـوع في صمـت، بينمـا كان الإنشـاد قـد أخـذ يعلـو بالدّاخـل. في بطـن القاعـة الواسـعة، كانـت الـزّرابيّ مبثوثـة عـلى كامـل المسـاحة الممتـدّة، ووسـائد قطنيّـة متناثـرة عليهـا. سـحبتها الجـدّة إلى غرفـة داخليّـة، حيـث النّسـاء، وجلسـت كلتاهمـا عـلى ركبتيهـا لتكونـا جـزءا مـن الصـفّ المسـتمرّ مـن الـزوّار الذيـن مـازال سـيلهم يتدفّـق.

كانـت أصـوات المنشـدين تصـل مـن القاعـة الأخـرى، الخاصّـة بالرّجال. تعلـو بطبقـات مختلفـة، وفي مواضـع متفاوتـة، كأنّمـا يـردّ بعضهـم عـلى بعـض. بعـد برهـة، كان هـرج الـزوّار قـد فـتر، واسـتقرّ الجميـع جلوسـا في صفـوف، وبـدأ النّسـق ينتظـم. ارتفعـت جوقـة المدائـح المحمّديّـة، زوّارا ومنشـدين، وأخـذ الـكلّ يهـتزّ إلى الأمـام والـوراء، أو يمنـة ويـسرة، في انسـجام مـع النّغمـة. تتحـرّك الأجسـاد شـبه مخـدّرة، وتهمهـم الشّـفاه بالكلمـات الـتي لا تفقـه ليـلى منهـا شـيئا، ثـمّ يتحـوّل النّشـيد إلى آهـات متقطّعـة. آه. آه. آه. التفتـت ليـلى لتجـد جدّتهـا، الحاجّـة الوقـورة، قـد أخـذت تترنّـح مغمضـة العينـين وتتـأوّه مثـل الآخريـن! حدّقـت غـير

مصدّقة، ثم رفعت عينيها مجدّدا مراقبة المشهد باهتمام وذهول.

بعد برهة، وقفت زائرة وتقدّمت إلى المساحة الفارغة وسط الحلقة، وأخذت تتخبّط في حركات سريعة مجنونة! ثمّ وقفت أخرى، وأخرى.. يهتززن بقوّة وتدور بعضهن حول نفسها، وتفكّ ذات الحجاب حجابها وتفرد شعرها ليحلّق في هواء الغرفة راسما قوسا حول رأسها، ثمّ ينسدل على وجهها وهي تئنّ! حملقت ليلى مبهوتة، وشدّت ذراع جدّتها في توجّس. لكنّ الجدّة لم تكن منتبهة، لقد كانت منغمسة في نشيدها، منقطعة عمّا عداه.

دارت عينا ليلى في اضطراب، متفرّسة في الحاضرات. عبر الإضاءة الخافتة، ميّزت عيونا أخرى، مفتوحة ومتيقّظة، لزائرات مستكشفات من أمثالها، تملؤها الدّهشة والإنكار. هل هؤلاء بشر أسوياء؟ أم تراها لم تتكشّف بعد على السرّ الرّبانيّ الذي فتح لهم أبوابا علويّة لا تعرفها؟ تبادلت ابتسامة متواطئة مع شابّة أخرى، كانت تتابع في لامبالاة الانجراف المتسارع للزوّار مع النّشيد المخدّر، وكتمت ضحكتها حين أشارت لها بحركة دائريّة من سبّابتها: مجانين!

على الجانب الآخر من الغرفة، كانت ستارة خضراء مزخرفة تغطّي شكلا مستطيلا مرتفعا عن الأرض حوالي متر واحد، وقد فصل بينه وبين باقي الغرفة سورٌ منخفض، يسمح بالرّؤية الواضحة، ويوقف الزّائر عن التوغّل في المساحة المحظورة.

انحنت ليلى لتهمس إلى جدّتها:

- ما ذاك، في آخر القاعة؟

فتحت فريدة عينيها على مضض، بعد أن استمرّ الشدّ في إلحاح، ونظرت إلى حيث أشارت حفيدتها برأسها، ثمّ قالت باقتضاب:

- ضريح الوليّ الصّالح.

- ضريح؟

- قبر!

شهقت ليلى بصوت مسموع، ثمّ هتفت دون أن تشعر:

- توجد جثّة في الغرفة؟!

زجرتها الجدّة بعد أن التفتت أزواج من الأعين لمصدر الإزعاج، ثمّ همست:

ـ لا أحد يعلم يقينا.. يقال إنّ الجثمان مدفون في مكان آخر.. لكنّ الضّريح تجسيد للقبر وكناية عنه.

كانت تهمّ بسؤال آخر، لكنّها اصطدمت بنظرة جدّتها الصّارمة. كان عليها أن تلزم الصّمت الآن. انتظرت حتّى انتهت جلسة السّماع في تململ. حين فرغ المنشدون، دبّت الحياة في القاعة من جديد. غادرت القاعة على إثر الجدّة في اتّجاه الغرفة الأخرى. انتظم الزّوار بسرعة في صفّ يؤدّي إلى مجلس شيخ وقور معمّم، يتربّع على دكّة مرتفعة في صدر الدّار. انقادت ليلى لذراع جدّتها وهي تشدّها لتشغلا مكانا مع المترقّبين. كانت تستمع إلى الزّوّار واحدا إثر الآخر، يهمسون بحاجتهم للشّيخ، فيهزّ رأسه في صمت أو يتمتم بكلمات ما، قبل أن يضع كفّه على رأس السّائل يباركه، لينصرف راضيا.

حين جاء دور جدّتها، رأتها تنحني في تضرّع وتهمس راجية:

- يا شيخي، هلّا رقيت حفيدتي المتبقّية ليبتعد عن طريقها النّحس والبلاء!

وضع الشّيخ كفّه على رأس ليلى، وأخذ يتمتم بعبارات كثيرة تتدافع على لسانه بشكل غير مفهوم، وهو مغمض العينين، وجذعه يميل إلى الأمام والوراء في نسق سريع. استسلمت ليلى لثقل الكفّ المتغضّنة على رأسها، وتساءلت، هل تلك هي الرّقية؟ حين فرغ

الشّيخ من تلاوته، سمعته يقول بوقار:

- محفوظة، محفوظة بإذن الله.. وببركة سيدي عبدالقادر!

عندئذ انحنت الجدّة فقبّلت كفّه ولكزت ليلى لتقوم بالمثل. لكنّها تسمّرت مكانها في بلادة، حتّى أشار الشّيخ بالانصراف.

خارج الدّار، لفحهما نسيم المساء البارد. كانت السّاعة تشير إلى الثّامنة! كانت تتغيّب عن موعد العشاء للمرّة الأولى منذ حلولها ضيفة على عائلة القاسمي. لكنّ الجدّة بصحبتها، وهذا يغيّر كلّ شيء!

بينما تسيران باتّجاه السيّارة الرّابضة آخر الزّقاق، تجاسرت ليلى على السّؤال:

- ما بال تلك النّساء يتخبّطن بجنون ويبكين بهستيريا؟

قالت الجدّة بلهجة جادّة:

- هؤلاء، لقد وصلن!

- وصلن! إلى أين؟

- لقد حقّقن ما يصبو إليه كلّ مريد في الطّريقة الصّوفيّة، وفُتحت لهنّ طاقة من طاقات السّماء، ليقتربن أكثر من درجات الوجد العليا!

التبس الأمر على ليلى. لم يكن شيء ممّا تقوله الجدّة يقابل معنى مفهوما لديها. فتحت لهنّ طاقة؟ درجات الوجد؟ لوت شفتيها في امتعاض وسارت في صمت، بينما تابعت الجدّة في حماس:

- لقد ارتقين واهتدين.. ادعي الله أن نصل يوما إلى ما وصلن إليه!

اتّسعت عينا ليلى في استنكار. أمّا هذا فلا! لم يكن يغريها على الإطلاق أن تعيش تلك التّجربة!

حالما عبرتا إلى البهو، لمحت ليلى أمين ينزل الدّرج بقفزات سريعة. إنّه يخرج ليسهر كلّ يوم في مثل هذه السّاعة. حدجته الجدّة بنظرة

استياء، ثمّ تجاهلت أمره وسارت مباشرة إلى غرفتها. استوقفتها ليلى:

ـ ألا ترغبين في تناول العشاء؟

ابتسمت فريدة وقالت بلهجة خاصّة:

ـ لقد اكتفيت، منذ قليل!

رفعت ليلى حاجبيها مستغربة. اكتفت ممّ بالضّبط؟

بعد أن اختفت الجدّة في الممرّ، اقترب أمين ضاحكا.

ـ طالما أنّ السّيّدة الكبيرة قد تناولت كفايتها من الغذاء الرّوحانيّ، فلا شكّ أنّها قد أخذتك إلى الحضرة!

ـ الحضرة؟

ـ حضرة الأسياد، في مقام الوليّ الصّالح، عبدالقادر الجيلاني!

ثمّ أخذ يهزّ رأسه يمنة ويسرة، كما كان يفعل الزوّار في الجلسة!

ـ أنت تعرف ذلك المكان؟ هل أخذتك إلى هناك أيضا؟

ـ أنا؟ إطلاقا! هل أدخل وكر المجانين ذاك؟ مازلت بكامل قواي العقليّة!

أريكتها نظرة الاستنكار الشّديد في عيني أمين. حسنا، لقد خطر ببالها الشّيء نفسه. إنّهم لا شكّ مجانين! لكن الجدّة؟ هل يمكنها أن تصمها بالصّفة نفسها؟ ورقيتها؟ وتميمتها التي اجتهدت لتحصّنها بها، ما هي صانعة بها؟

- لاشكّ أنّ الحاجّة فريدة كانت تريد شيئا من الشّيخ.. قولي، ما كان طلبها؟

- الرّقية!

ثمّ فتحت كفّها في حرج لتكشف عن التّميمة، حصيلة أمسيتها المثيرة.

- إن لم أضعها في عنقي، ستغضب الجدّة!

ارتفع ضحك أمين مرّة أخرى، ثمّ قال في لهجة ساخرة:

- أنت في مأزق! إن لم تضعيها، فستغضبين دعاة الإسلام التّونسيّ الوسطيّ المعتدل والمنفتح!

- من هؤلاء؟

- أقصد الحاجّة فريدة وجماعتها!

ثمّ تنحنح وأخذ يقول مقلّدا صوت الجدّة:

- يا بنيّتي، إن كان الإسلام جسدا.. فالطّريقة الصوفيّة هي جوهره وروحه!

- آها.. وماذا عنك؟ في أيّ صفّ أنت؟

- دعك مني.. أنا لست داعية لأيّ شيء. لكم دينكم ولي ديني!

زمّت شفتيها، وهي تطالع التّميمة من جديد. هذا لا يحلّ مشكلتها.

- فراس، انظر.. ليلى حصلت على تميمة!

التفتت في صدمة بعد كلمات أمين لتجد فراس أمامها. متى وصل؟ هل حاسّة السّمع لديها معطّلة، أم أنّ خطواته هادئة إلى درجة لا تصدّق؟ بدا مستعدّا للخروج هو الآخر، وهو يرتدي سروال جينز وسترة جلديّة. خمّنت، لا يبدو موعده رسميّا. يلتقي بعض الأصدقاء؟ أم لعلّها صديقة؟ طالعها بنفس النّظرة السّاخرة، فسارعت تخفي حرزها في حقيبة يدها وتزجر أفكارها، وهي تسترجع حادثة تعثّرها في الشّرفة ذلك العصر. شعرت بالدّم يتصاعد إلى وجهها، فهمست لنفسها مهوّنة. اهدئي، لم يرك!

ترقّبت ملاحظته اللّاذعة، لكنّه اكتفى بإرباكها بنظراته الصّامتة، ثم قال:

ـ عن إذنكما، سأتأخّر على موعدي!

ألقى أمين نظرة على ساعته، ثمّ هتف هو الآخر:

ـ أعتذر أيضا.. عليّ الذّهاب! سنتحدّث في الغد عن التميمة والحضرة!

ثمّ توارى على إثر أخيه.

صعدت ليلى درجات السّلّم على مهل. دخلت غرفتها ووضعت التّميمة على المنضدة. تأمّلت طويلا قطعة القماش الأبيض المغلقة بإحكام على ورق سميك مطويّ بعناية. ماذا لو كانت مسؤولة بشكل ما عن أنواع الجنون التي رأتها في جلسة اليوم؟ عبرت جسدها قشعريرة باردة، ثمّ قرّرت. لن تضعها!

-٦-

عاشت حياتها كلّها ممزّقة بين هويّتين: هويّة تألفها ولا يُعترف لها بها، وهويّة لا تدرك منها إلّا القشور، لكنّها لصيقة بها ولا فكاك منها. أينما حلّت، كانت تعامل على أنّها ابنة سفير البلاد التّونسيّة. وقد كان عليها أن تمثّل الدّور وتتماهى معه، رغم أنّها لا تحمل شيئا من الانتماء إلى تلك البلاد التي تجهل كلاهما الأخرى!

إنّها تجد نفسها في جينيف، تشعر بوجوه الشّبه بينها وبين البلد الذي احتضنها منذ نعومة أظفارها، حتّى أنّها تحمل خريطة شوارعه ومقاهيه وساحاته وحدائقه، على كفّ يدها. إنّها ليست سائحة هناك، بل صاحبة المكان. لكنّها تعامل كزائرة!

لقد كان من الغريب أن تعيش ربع قرن على أرض ما، ولا تدرك معنى الوطن! رغم الألفة والتعوّد والرّاحة التي عرفتها في سويسرا، فإنّ إحساسا لاواعيا لازمها بأنّها تجلس على كرسيّ قابل للقذف، وأنّه سيُرمى بها خارج الحدود في أيّة لحظة! أوَليس مآل السّفير العودة إلى موطنه؟!

لذلك، بنت في خيالها قصورا من التوقّعات والتطلّعات، بخصوص الوطن الذي تنتمي إليه.

لكن هذه ليست الحياة التي تخيّلتها حين وصلت إلى تونس منذ أسبوعين. لم تكن الرّحلة السّياحيّة التي توقعتها، ولا كانت العودة إلى الجذور تحمل النّكهة التي استبقتها. لكنّها لا تنكر أنّ دخول الجدّة إلى حياتها أضفى عليها نوعا من الحيويّة غير المعهودة، وقد كان في جرابها المزيد من المفاجآت، من أجل الحفيدة الأثيرة التي عثرت

عليها أخيرا!

كلّما سألتها الحاجة فريدة عن التّميمة، كانت ليلى تتحسّس بأصابعها قطعة قماش وهميّة تحت ثيابها وتقول مطمئنة:

- إنّها معي!

وقد انطلت الحيلة على الحاجة فريدة لوقت طويل، حتّى اقترحت عليها يوما أن تأخذها إلى الحمّام التقليديّ!

- أنت لم تزوري حمّاما من قبل، أليس كذلك؟

حمّام؟ استحضرت ليلى صورا من شريط تونسيّ سبق أن حضرته مترجما، «الحلفاوين: عصفور السّطح»، حيث يدخل ولد يافع حمّام النّساء ليراقبهنّ وهنّ يغتسلن، شبه عرايا! كانت الفكرة مقزّزة، الاغتسال الجماعيّ بلا خجل أو خصوصيّة! تلك واحدة من العادات التي تثير استغرابها، في مجتمع يُعرف بالمحافظة! ناهيك أنّها ستكشف للجدّة تخلّصها من التّميمة منذ زمن، فلم يكن من الوارد أن تُبقي عليها في غرفتها!

قالت في حذر:

- لا أشعر أنّني مستعدّة لذلك الآن!

- كما تشائين.

تنفّست الصّعداء. لم تلحّ الجدّة هذه المرّة. هذه حريّة شخصيّة في نهاية الأمر.

- إذن ترافقينني إلى الجمعيّة غدا صباحا؟

- الجمعيّة؟

- ألا يراودك فضول لمعرفة أين تقضي جدّتك سحابة يومها؟

تلك الابتسامة المغرية والواعدة جعلتها توافق على الفور. نعم،

لقد ساورها الفضول بشأن نشاط جدّتها. وستعرف الآن سرّ الحاجّة فريدة الأهمّ!

عند السّاعة الثّامنة من صباح الغد، انطلقت برفقة الجدّة إلى مقرّ الجمعيّة.

كانت حواراتها مع الجدّة قد غدت أقلّ حدّة وأكثر استرخاءً. بعد صدامات اللقاءات الأولى، لم تعد تجد حرجا في الاعتذار أمام طلباتها، ولا تلزم الصّمت في حضورها، انتظارا للأوامر والنّواهي. أصبحت تجد في نفسها الشّجاعة لتسأل وتناقش، بأسلوب سلس وبلا استفزاز، وقد كان نجاح التّجربة مغريا بالتّكرار. كان انقيادها الأوّل والتزامها بدروس القاعدة النّورانيّة يشفعان لها عند الجدّة. أوليست الحفيدة الأولى التي تضع اعتبارا لرغباتها؟

سألتها الجدّة وهما على الطّريق:

- سأرجع اليوم إلى زاوية سيدي عبدالقادر.. هل تودّين مرافقتي؟

ابتسمت ليلى واعتذرت بلباقة مرّة أخرى:

- لا أظنّ أنّني مستعدّة لذلك الآن.. لست أفهم جلّ ما يقال!

ردّت الحاجة فريدة في حماس:

- لست بحاجة إلى فهم كلّ شيء.. عيشي الحالة الرّوحيّة وحسب! لو كان الإسلام جسدا، فإنّ الطّريقة الصّوفية هي روح هذا الجسد!

كان من العسير عليها ألّا تضحك، وهي تستحضر الجملة نفسها على لسان أمين. لكنّها كتمت أنفاسها وهزّت رأسها مؤمّنة. أنقذها توقّف السيّارة عند الوجهة.

كان مبنى مكوّنا من طابق واحد في ضاحية شعبيّة خاملة، لا يشي شكله الخارجيّ بنوع النّشاط في الدّاخل. ما إن تجاوزت البوّابة، حتّى

فوجئت بخليّة النّمل المنهمكة في حركة دؤوبة بين الغرف، تملأ صناديق الملابس، تجرد مخزون الموادّ الغذائيّة أو تصنّف أنواع الدّواء!

سارت ليلى في ذهول تتبع الحاجّة فريدة، ليتكرّر مشهد المدرسة القرآنيّة بحذافيره. كان الموظّفون رجالا ونساء يتوقّفون لتحيّة الحاجة، ويسألون عن مرافقتها، الحفيدة الأجنبيّة، التي جاءت لتتعلّم أسس العمل الإنسانيّ هذه المرّة!

دخلتا معا مكتب الإدارة. كانت غرفة بسيطة، بدون تزويق مفرط، بما يتناسب مع طبيعة العمل الخيريّ الذي تديره المؤسّسة. كان هناك مكتبان، تجلس خلف أحدهما موظّفة شابّة، ومكتب آخر شاغر، أشارت الجدّة إلى ليلى لتشغله! انصاعت ليلى بعد تردّد قصير، وهي تفكّر فيما تخفيه الحاجّة فريدة من أجلها هذه المرّة.

- ستأتين إلى هنا كلّ يوم، لمدّة ساعتين فقط.. تراجعين دفاتر التبرّعات وتدقّقين في الحسابات. سميرة هنا سترشدك إلى كلّ ما تحتاجينه.

أومأت الموظّفة بابتسامة، بينما ضربت السيّدة الكبيرة كفيّها ببعضهما وهي تقف مغادرة، وقالت في لهجة حاسمة:

- هيّا باشري العمل!

ثمّ زفرت وهي تتمتم:

- لقد وهنت عظامي، وآن لأحد أن يستلم عنّي المشعل.

في ذلك اليوم، عادت الحاجّة فريدة إلى القصر مبكّرة. حظيت بحصّة تدليك، وخضّبت خصلاتها البيضاء بالحنّاء، ثمّ أخذت قيلولة طويلة حتّى العصر.. فيما خلّفت ليلى تحدّق في كومة الدّفاتر على مكتبها ذاهلة.

ـ من أين أبدأ؟

اقتربت سميرة وأخذت تشرح:

ـ هذه قائمة التبرّعات العينيّة الدّوريّة التي تصلنا من المصانع والشركات.. وهذه قائمة بالتبرّعات الماليّة التي تصل في شكل تحويلات دوريّة أيضا.. سيكون من السّهل الشّروع في تدقيق هذه الملفّات، ومقارنتها بالملفّ الرّقميّ على الجهاز.. بعد ذلك، نأتي إلى التبرّعات المتفرّقة وغير المنتظمة. سيكون تدقيقها أصعب.

فتحت ليلى الملفّ الأوّل وشرعت في العمل. لكنّ عقلها كان منشغلا بأمر آخر. المدرسة القرآنيّة ثمّ الجمعيّة الخيريّة، لا يمكنها إلّا أن تتوقّف أمام نشاط جدّتها في عجب وفضول. حسنا، ليس العمل الخيريّ بالشّيء الغريب عليها. لقد كانت ترافق والدها في السّابق، في زيارات ميدانيّة، لمناطق منكوبة، ولحضور حفلات جمع التبرّعات الفاخرة. السّياسيّون والفنّانون ورجال الأعمال وكلّ أنواع الشخصيّات العامّة، لكلّ منهم نشاطه الخيريّ المعروف، تتحدّث عنه المجلّات والفقرات الإخباريّة، ويرافقهم الصّحفيّون والمصوّرون المحترفون لتوثيق المواقف الإنسانيّة. لكنّها لا ترى أيّ فرق تصوير هنا! كان عليها أن تسأل.

شرحت سميرة: الجمعيّة قائمة منذ ثماني سنوات الآن. لقد كانت أمنية غالية على قلب الحاجّة فريدة، بعد زيارة بيت الله الحرام، أن تُنشئ وقفا لله تعالى، رحمة على روح ابنتها الفقيدة. والجمعيّة في أوج نشاطها منذ الثّورة. في العادة، يتّقد النّسق في فترات معيّنة من السّنة: شهر رمضان، العودة المدرسيّة، عيد الأضحى. لكنّ بعد الثّورة، صار مستعرا على الدّوام. المستفيد الأوّل من التبرّعات في الشهر الأخير، مخيّم الشّوشة، في الجنوب التّونسي، قرب معبر رأس

الجدير الحدوديّ. اللّاجئون يتدفّقون من الأراضي اللّيبيّة باستمرار، والحاجة في ارتفاع متسارع. التبرّعات التي تصل لا تكفي لسدّ رمق العائلات المشرّدة.

على مكتب سميرة، كانت هناك ملفات أخرى. قائمة الشّركات والجهات التي يجب على الجمعيّة التّواصل معها والتماس مساهمتها. طوال السّاعتين التّاليتين اللّتين قضتهما ليلى في المكتب، استمعت إلى محادثات سميرة الهاتفيّة التي لا تنتهي. تحثّ مخاطبيها على التبرّع، وتتلقّى منهم الوعود لتسجّلها في دفترها.

- ماذا عن المدرسة القرآنيّة؟

قاطعتها بين اتّصالين، لتستفسر مرّة أخرى.

المدرسة، تلك مسألة مختلفة. عمرها لا يزيد على السّنتين، فقد كان كلّ نشاط مرتبط بالدّين محظورا في عهد الرّئيس المخلوع، والمبادرات القليلة التي نشأت في ظلّ حكم الدّيكتاتور كانت محتشمة ومراقبة عن كثب. لكنّ الحاجّة فريدة أقدمت في ذلك الوقت على افتتاح الدّار، رغم المضايقات الأمنيّة لصاحبة المدرسة وطلبتها. تعلّم القرآن وتعليمه ظلّ متوقّفا لعقود، بعد إغلاق الجامعة الزّيتونيّة. وقد ازدهر السّوق بعد الثّورة، وانتشرت الجمعيّات القرآنيّة في الأحياء الشّعبيّة والرّاقية على حدّ سواء! لكنّ الحاجّة شديدة الفخر بمدرستها التي سبقت مثيلاتها.

تعلّم القرآن محظور؟ لقد كان الأمر غريبا بالنّسبة إلى ليلى. ربّما تحتاج درسا في التّاريخ الحديث. لكنّ الأمر لم يخطر لها على بال قبلا. والدها يحتفظ في مكتبته منذ سنوات بمصحف فاخر مذهّب محفوظ في علبة مخمليّة. كان قد تلقّاه هديّة من رجل أعمال خليجيّ. لم تكن قد رأته يقرأ فيه من قبل. تساءلت في حيرة، هل لذلك

علاقة بالحظر الذي تتحدّث عنه سميرة؟

حين وصل سائق الجدّة ليأخذها لزيارة والدها، لم تكن قد أنهت غير جزء بسيط من الدّفاتر. زفرت وهي تفكّر في أنّ عليها العودة، وربّما يحتاج منها العمل تخصيص وقت إضافيّ، إن كانت تريد استكمال مهمّتها في أجل قريب.

في طريقها نحو المخرج، حيّت المتطوّعين الذين لم تفتر حركتهم بين الغرف. لم يكن معظمهم يتلقّى أجرا، وهم في غالب الأمر يتبرّعون بساعات العمل، كما يتبرّع غيرهم بالعطايا النّقديّة أو العينيّة. ستفعل الشّيء نفسه إذن! لم تكن فكرة العمل الإنسانيّ تضايقها. طالما كانت تتمتّع بالصحّة والفراغ، فلا بأس من المساهمة.

حدّثت والدها في حماس بشأن أعمالها الجديدة. كانت الجدّة راضية عنها، وإن استمرّت بهذا الشّكل فقد تصبح ذات حظوة لديها! ومن يدري ما يمكنها فعله إن صارت صاحبة دالّة عليها. ضحكت مع تلك الفكرة، واسترقت نظرة إلى سحنة والدها الشّاحبة. كانت تحاول إضفاء بعض المرح. لم تكن الأخبار سارّة في الفترة الأخيرة. المزيد من التّعقيدات، وقد بدا أنّ تلافي حكم بالسّجن قد غدا في حكم المستحيلات!

ابتسم نجيب وأخذ يقول:

- جدّتك سيّدة طيّبة.. لكنّها لم تكن محظوظة بأبنائها.

تعالى ضحك ليلى من جديد، وهي تروي على مسامعه قصّة النّحس الذي ترغب جدّتها في طرده، والتّميمة التي انتهى بها الأمر في كيس النّفايات. خرجت من الزّيارة راضية، بعد أن نجحت في انتزاع الضّحكة منه. لقد خبت جذوة حماسته يوما بعد يوم، حتّى كادت تنطفئ. لكنّه مازال يكابر. لقد آمن بالثّورة، وعليه أن يدفع نصيبه

مـن الضّريبـة المفروضـة عـلى الجميـع، ويحافـظ عـلى الابتسـامة. أليسـت الثّـورة تسـتحقّ التّضحيـة؟

فاجأهـا اتّصـال سـحر ذلـك المسـاء. كيـف تكـون قـد نسـيت اتّفاقهمـا بالتّسـوّق سـويّة؟ كانـت قـد انغمسـت في أشـغالها الجديـدة، ونسـيت أن تتّصّـل بهـا! كان الكثـير قـد حصـل منـذ لقائهمـا. لقـد تعهّـدت الجـدّة بمـلء الفـراغ الـذي خالـت نفسـها سـتعاني مـن وطأتـه. حـين اتّصلـت سـحر، ضربـت لهـا موعـدا في الغـد. سـتجد الوقـت الـكافي بـين دوامهـا في الجمعيّـة ودرس العربيّـة لتلتقـي سـحر.. تتجـوّلان معـا في الأسـواق ثـمّ تتنـاولان وجبـة خفيفـة، قبـل أن تعـود إلى مهامّهـا.

كان التّسـوّق مـع سـحر أمـرا مفيـدا. فهـي تعـرف مداخـل المدينـة العتيقـة ومخارجهـا، والمحـلّات الـتي تقـدّم منتجـات جيّـدة النوعيّـة بأسـعار مناسـبة، وتلـك القابعـة في أزقّـة مخفيّـة لا يعرفهـا إلّا الزّبائـن المتمرّسـون! كانـت الفرجـة مسـليّة وملهيـة.. مفروشـات وسـجّاد وأقمشـة، وتحـف زينـة ومصابيـح ومزهريّـات ولوحـات حائطيّـة! كانتـا تتفرّجـان معظـم الوقـت، وتشـتريان أحيانـا، حـين تقتنـع ليـلى بـأنّ الفرصـة لا تعـوّض. في الحقيقـة، لـم تكـن تحـبّ الفضـاءات المزدحمـة. ولـم تكـن تحتـاج إلّا القليـل لتأثيـث شـقّتها. ذوقهـا ينسـاق نحـو البسـاطة والدّيكـورات الحديثـة، مكتفيـة بحـدّ أدنى مـن التّزويـق.

كانتـا تغـادران محـلًّا للسّـتائر، حـين تناهـى إليهمـا هتـاف صاخـب وغـير مفهـوم. التفتتـا، إلى حيـث كانـت عيـون المـارّة تنجـذب. كانـت مسـيرة احتجاجيّـة تمـرّ في الشّـارع المتعامـد. راقبـت ليـلى الحشـد الـذي أخـذ

يتدفّق من الجانب الأيمن للشّارع ويبتلعه الجانب الأيسر.. وبدا ألّا حدّ ولا نهاية لجموع المتظاهرين. سألت في استغراب:

- ألم تنجح الثّورة ويرحل الرّئيس؟ لماذا يتظاهرون الآن؟

قالت سحر في جدّيّة:

- الثّورة نجحت.. لكن لا ينبغي للشعب أن يغفل لحظة واحدة، فتسرق منه ثورته! الشّارع يقف بالمرصاد للحكومة الجديدة.. إن لم تستجب للمطالب الشّعبيّة، وجب تغييرها!

- كم مضى على تعيين الحكومة الجديدة؟

- أسبوعان.

قالت ليلى متهكّمة:

- وهل أسبوعان كافيان لتقييم أداء الحكومة والتّظاهر ضدّها؟ في الدّيمقراطيّات الأوروبيّة، هناك فترة مائة يوم على الأقلّ تمنح للحكومة المشكّلة حتّى تثبت جدارتها.. هذا شعب مستعجل!

ضايقت ملاحظتها سحر، فقالت مدافعة:

- التّظاهر ليس احتجاجا على إنجازات الحكومة، بل على كيفيّة تشكيلها! رئيس الحكومة وزير سابق من العهد البائد.. وهذا لا يستجيب للمطالب الثّوريّة. الثّورة تعني تجديد الدّماء السّياسيّة، وتمكين من يتحدّثون باسم الشّعب من الوصول إلى سدّة الحكم!

مطّت ليلى شفتيها في عدم اقتناع:

- إنّ شئت رأيي، إنّهم يحسبون التّظاهر لعبة! مثل طفل رضيع يريد أن تستجاب رغباته على الفور، فيصرخ ويضرب بقبضته حتّى تتحقّق أمانيه! الدّيمقراطيّة يا عزيزتي طبخة تُعدّ على نار هادئة، وتحتاج تضحيات من جميع الطّبقات.. لكن هل تعتقدين أن أحد

هـؤلاء مسـتعدّ للتّضحيـة؟ انظـري للآفتـات! التّشـغيل، المسـاواة، تقسـيم الـثّروات.. إنّهـم يحسـبون الثـورة كعكـة، وكلّ يريـد نصيبـه منهـا!

انفعلت سحر فقالت في استياء:

ـ تتحدّثـين عـن الثّـورة وكأنّـك تعرفـين شـيئا! أعلـم ألّا فـارق بالنّسـبة إليـك، ولأمثالـك مـن الأثريـاء.. كنتـم بخـير في ظـلّ النّظـام السّـابق، ومطالـب الشّـعب المطحـون لا تعنيكـم! لكـن الآن؟ والـدك يحاسـب بتهمـة فسـاد.. وهـذا سـبب كافٍ لنقمتـك عـلى الثّـورة!

امتقـع وجـه ليـلى، وسـارت بحركـة حـادّة مبتعـدة عـن المتجـر، وقـد لمعـت عيناهـا بالعـبرة. عضّـت سـحر عـلى شـفتها في غيـظ مـن نفسـها. لقـد تسرّعـت. لحقـت بهـا عـلى الفـور محاولـة الاعتـذار عـن كلماتهـا اللّاذعـة. تعلـم أنّ ليـلى لا تقصـد، لكـنّ إهانتهـا للثـوّار جعلـت دماءهـا تفـور. كلّ منهمـا تنتمـي إلى فئـة مختلفـة: المتـضرّرون مـن النّظـام السّـابق، والمتنعّمـون في كنفـه! لكنّهـا صديقتهـا الصّدوقـة، ولـم تتخيّـل أن تختلفـا يومـا في وجهـات النّظـر إلى هـذا الحـدّ. أمسـكت بذراعهـا تسـتوقفها وقالـت في أسـف:

ـ أعتـذر، لـم أقصـد أن أجرحـك.. عمّـي نجيـب سـيخرج بالسّـلامة قريبـا. ويبقـى كلّ هـذا حديثـا منسـيّا.

تمالكـت ليـلى نفسـها. نعـم، لقـد انفعلـت كلّ منهمـا وانحـدر الحديـث إلى مسـالك وعـرة. تعلـم أنّ عائلـة سحر عانت الكثير في المـاضي. لم يكن عليهـا اتّهـام المتظاهريـن بالجشـع، في النّهايـة، هـم يطالبـون بحقوقهـم المغتصبـة. لكنّهـم مسـتعجلون.. فقـط مسـتعجلون. مسـحت عبرتهـا، وربّتـت عـلى ذراع صديقتهـا.

ظهـرت فجـأة مجموعـة مـن الشّـباب مندفعـين مـن الزّقـاق الجانـبيّ، وانخرطـوا في المسـيرة. مـرّوا بسرعـة فائقـة، مرتطمـين بالبنتـين ودفعوهمـا

بـلا انتبـاه. تراجعـت ليـلى حـتّى التصقـت بالجـدار، وشـعرت بألـم في كتفها بفعـل الاصطـدام. لكنّهـا حدّقـت في ريبـة، وقـد ظنّـت أنّهـا ميّزت أحدهـم. تابعـت المجموعـة، وهـي تـذوب في التيّـار الرّئيـسي، ثـمّ مـا لبثـت أن رأت أحدهـم يلتفـت، لتلتقـي نظراتهمـا لثـوانٍ، قبـل أن يغيـب وسـط الزّحـام. حدّقـت ليـلى في ذهـول، طويـلا بعـد أن اختفـى الشّـاب مـن أمـام ناظريهـا. لـم تصـدّق مـا رأت. أمـين؟ مـا الـذي يفعلـه في المظاهـرة؟

ـ أنت بخير؟

هزّت رأسها في عدم تركيز، وبقيت نظراتها ساهمة.

ـ هل رأيت أحدا تعرفينه؟

ـ لست واثقة!

كانـت السـيّارة تتحـرّك بسرعـة، تسـمع أزيـز العجـلات عـلى الأسـفلت المبتـلّ، ومحـاولات السّـائق إيقافهـا، دون جـدوى. كان هنـاك صراخ مـن حولهـا، أشـخاص يطلبـون النّجـدة. حدّقـت في الفتـاة الـتي تجلس أمامها، عـلى المقعـد جـوار السّـائق.. كأنّهـا تطالـع نفسـها في المـرآة. فتـاة في مثـل سـنّها، وتشـبهها حـدّ التّطابـق. توأمهـا. إنّهـا تـصرخ وتسـتنجد مثـل الآخريـن.. لكـن، لـم لا تبديـن مرتبكـة مثلهـم؟ تـرى نفسـها تضحـك، تضحـك بشـكل صاخـب، وتصفّـق بكفّيهـا مسـتمتعة. تسـمع صوتهـا الآن، صوتـا يخـرج مـن حنجرتهـا عميقـا ومخيفـا:

ـ سنموت جميعا، سنموت جميعا!

فتحت عينيها وهي تلهث في فزع. لقد كان كابوسا!

وضعت كفّها على صدرها وأخذت تتنفّس بعمق، محاولة السّيطرة على اضطرابها. لم يكن سوى كابوس. لكنّه يبدو حقيقيّا. ومخيفا. هل كانت حنان تجلس أمامها، في السيّارة نفسها؟

كان الوقت فجرا. أخذت نفسا عميقا وهي تغادر سريرها وخرجت تتمشّى في الحديقة. هل كانت تضحك في حلمها؟ تشعر بالاضطراب كلّما مرّت بخاطرها قهقهتها المجنونة في الحلم.

ـ ليلى؟

التفتت، لتجد أمين العائد من سهرته المتواصلة حتّى ساعات الصّباح الأولى يقف أمامها. لم تعد واثقة الآن بعد مصادفة الأمس فيمَ يمضي سهراته بالضّبط! كانت سترته معلّقة على كتفه، وشعره المصفّف بعناية عادة مشعثا، وفي عينيه نظرة ناعسة. أمين الثّائر! فكّرت، وما دواعي ثورته؟ التّشغيل؟ المساواة؟ ليست هذه قضايا تعنيه!

ـ جيّد أن أراك في الصّباح.. تعلمين، لقاءاتنا مسائيّة عادة!

أطلق ضحكة قصيرة، بينما بدا على ليلى الضّيق. قالت باقتضاب:

ـ أصابني بعض الأرق، فخرجت أتمشّى.

هزّ رأسه متفهّما، ووقف مكانه في بلادة. لم يبد أنّه يفكّر في الانصراف قريبا. كان السّكون شديدا في القصر، في تلك السّاعة من الفجر، وكانت الشّمس قريبة من الشّروق، ولون السّماء الحالك قد بدأ يتّخذ زرقة باهتة.

ـ معذرة، سأعود إلى غرفتي.

كانت تحاول إيجاد مخرج، حين فرد أمين ذراعه ليسدّ الطّريق،

وقـال بلهجـة متشـكّكة:

ـ بالنّسبة إلى حادثة الأمس.. أنت لم تخبري أحدا، أليس كذلك؟

ـ طبعا. ما تفعله ليس من شأني.

ـ بالتّأكيد.

لكنّه استمرّ يسدّ طريقها. قال في إلحاح:

ـ وصديقتك، لن تخبر أحدا؟

ـ سحر؟ إنّها لا تعرفك حتّى!

قاومت فضولها، لكنّ السّؤال أفلت منها فجأة:

ـ هل يمكنني أن أسأل.. ما الذي تتظاهر من أجله بالضّبط؟

رمقها في دهشة، ثمّ قال بلهجة جادّة:

ـ الحريّة، الكرامة، العدالة الاجتماعيّة!

أفلتـت منهـا ضحكـة رغمـا عنهـا. لـم تجـد العبـارات الرنّانـة تلـك تليـق بأمـين. أمـين، الفـتى الجـذّاب، أمـير الجامعـة، زعيـم الشّـلّة، مدلّـل العائلـة، عديـم المسـؤوليّة؟

بدا الانزعاج في عينيه، فقالت:

ـ مـا الـذي ينقصـك منهـا بالضّبـط؟ الحريّـة؟ أنـت حـرّ أكـثر مـن أيّ شـخص في هـذه البـلاد! الكرامـة؟ هـل تعـني لـك شـيئا غـير إثبـات نفسـك في سـهرات الشّـباب، والحصـول عـلى أجمـل البنـات لترافقـك؟ العدالـة الاجتماعيـة؟ عفـوا، هـذا مصطلـح صعـب.. لا أظنّـه دخـل قاموسـك إلّا حديثـا. هـل تـدري مـا معنـاه؟ أن تأخـذ مـن رصيـدك في البنـك، وتـوزّع عـلى المحتاجـين، ليتسـاوى الجميـع في الـثروة.. هـل يناسـبك هـذا؟

ضايقته لهجتها المتهكّمة، فقال في انفعال:

ـ صـدّق أو لا تصـدّق.. هـذه المبـادئ تمثّـلني! لسـت أعيـش في كوكـب

منعـزل وحـدي. هنـاك شـعب كامـل يعيـش عـلى هـذه الأرض، ومـا يعنيهـم يعنيـني.. حـتّى لـو لـم تكـن قوانـين الثـورة تصـبّ في نفعـي الشـخصيّ، فسأدافع عنها! تدريـن لمـاذا؟ لأنّـني لا أدفـن نفـسي مثلـك في مكعّـب ورديّ، وأغمـض عيـنيّ عمّـا يجـري مـن حـولي! أنـا أنتمـي إلى هـذا الشّـعب! أنـا ابـن هـذا الوطـن! وأكـثر مـن هـذا، أنـا أعـرف جيّـدا أنّ هـذه الـثّروة وهـذا الجـاه الـذي نحـن فيـه الآن لـن يـدوم طويـلا! سـتفرض العدالـة الاجتماعيّـة قواعدهـا، وسيحاسـب المحتكـرون والمتطاولـون والمسـتولون عـلى حقـوق غيرهـم.. عندهـا سـيكون لنـا حديـث آخـر.

تسـمّرت مكانهـا في صدمـة. هـل كان أمـين مـن يتحـدّث؟ لمـاذا يبـدو لهـا أنضـج ممّـا اعتقـدت بمراحـل؟ حـتّى أنّهـا خجلـت مـن نفسـها. لقـد كانـت تضـع نفسـها في موقـع المتفـرّج. هـذا ليـس وطنهـا. هـذه ليسـت ثورتهـا. إنّهـا ضيفـة وحسـب. تسـاءلت في تلـك اللّحظـة، هـل تكـون سـحر عـلى حـقّ؟ إنّ موقفهـا مـن الثّـورة مرتبـط ارتباطـا وثيقـا بقضيّـة والدهـا. إنّهـا تتعامـل مـع المسـألة بشـكل شـخصيّ بحـت. أمـين أيضـا عـلى حـقّ، إنّهـا تدفـن نفسـها في مكعّبهـا الـورديّ، لا تـرى أبـدا الصّـورة الكاملـة! قالـت في ارتبـاك:

ـ عن إذنك الآن.

في تلـك اللّحظـة، شـعرت بحضـور غريـب. بأنّهـا مراقبـة. بـأنّ شـخصا ثالثـا كان يتابـع المشـهد. سـارت بخطـوات سريعـة لتتجـاوز أمـين، وابتعـدت في اتّجـاه المدخـل. قبـل أن تنعطـف إلى الجانـب الآخـر مـن المبـنى، رفعـت عينيهـا إلى شرفـات الطّابـق الأوّل. مـن زاويتهـا تلـك، لمحـت ظـلا في شرفـة فـراس المظلمـة.

في الأيّام التّالية، حصلت سلسلة من المواقف الغريبة مع ليلى.

في كلّ مـرّة صادفـت فيهـا مدبّـرة المـنزل جليلـة، كانـت هـذه تنحـني أمامهـا باحـترام مبالـغ فيـه وتقـول شـيئا مـا، مـن قبيـل:

ـ لقد تمّ تنظيف الأرضيّة مرّة أخرى.

ـ زجاج النّافذة لامع الآن.

ـ تمّ غسل السّتائر. سأعيدها مكانها حين تجفّ.

ولـم تكـن ليـلى تفهـم شـيئا، فهـي لـم تتعـوّد في الأيّـام السّـابقة أن تقـدّم لهـا جليلـة أو غيرهـا مـن العامـلات تقريـرا بمهامّهـا. فكانت تبتسـم وتشـكرها. لكنّهـا كانـت تلحـظ في اسـتغراب أنّ ملامـح مدبّـرة المـنزل كانـت تتحـوّل وتتبـدّل، وتـزداد كآبـة ومـرارة في كلّ مـرّة.

ثـمّ بـدأ الـشيء نفسـه يحصـل مـع العـمّ هاشـم الطبّـاخ. ذات مساء، كان هنـاك سـمك مقـليّ عـلى العشـاء. لكنّـه بعـد أن وضـع الأطبـاق للجميـع، اقـترب مـن ليـلى ووضـع أمامهـا سـمكة مشـويّة في الفـرن! كانـت مبـادرة غريبـة، لكنّهـا شـكرته ولـم تعلّـق. ثـمّ تكـرّر الأمـر في الوجبـات اللاّحقـة. مـرّة يضـع أمامهـا طعامـا قليـل الملـح، وأخـرى خاليـا مـن الكوليسـترول، ومـرّات أخـرى وجبـة ذات سـعرات حراريّـة مخفّضـة أو خاليـة مـن الغلوتـين.. والأغـرب هـو أنّ المواصفـات تكـون معكوسـة أحيانـا، كأنّمـا هـي ترغـب في الـشيء وضـدّه. حتّى سألها أمـين مـرّة مداعبا:

ـ ليلى، هل تتّبعين حمية معيّنة؟

فعجـزت عـن الـرّدّ. قـرّرت ذلـك المسـاء أن تـزور المطبـخ في الصّبـاح

التّالي لتستفسر عن سرّ الوصفات الخاصّة التي تحضّر من أجلها. لكنّ حادثة أخرى سبقت، وشغلتها تماما عمّا عزمت عليه. حين رجعت إلى غرفتها تلك الليلة، فوجئت بكتابة بالطّلاء الأحمر على جدار غرفتها:

«عاهرة.. ارحلي!».

صرخت في فزع، فهرع الجميع إليها.

تلك الليلة، استدعى خالها كلّ العاملين في القصر وجعلهم يقفون صفّا واحدا مطأطئي الرّؤوس، في البهو. ألقى عليهم نظرة صارمة وقال مهدّدا:

- لو لم يكن لدينا حفل شواء في الغد، وسبق أن أرسلنا الدّعوات، لكنت سرّحتكم جميعا الليلة! أمامكم مهلة إلى مساء الغد. إن لم يظهر الفاعل ويعترف، فإنّكم جميعا مطرودون!

لم يتسلّل النّوم إلى جفني ليلى بسهولة تلك الليلة. لبثت تفكّر فيمن يكون قد فعل ذلك بها. بالطّبع، كان لديها المشتبه به رقم واحد: فراس. لكنّها لم تصدّق أنّ بإمكانه الإقدام على الفعلة بنفسه. ثمّ أخذت تحاول الرّبط بين تصرّفات الطبّاخ ومدبّرة المنزل والشتيمة التي باتت إلى جوارها على الجدار، رغم محاولات الخدم مسحها، كما أمر خالها. لبثت تحدّق في الكتابة الباهتة وشعور عميق ينمو داخلها بأنّ هناك حراكا داخليّا في القصر ضدّها.

ثمّ تذكّرت مرّة دخولها إلى المطبخ، وكان مساعد الطبّاخ محمّد يحدّث الآخرين في حماس عن نشاط لجان محاربة الفساد، وعدد رجال الأعمال الفاسدين المتزايد الذين يتمّ القبض عليهم كلّ يوم. وما إن انتبهوا لحضورها، حتّى انقطع الحديث وانصرف كلّ منهم إلى عمله في وجوم. تصاعد الشكّ إلى رأسها، هل يكون للأمر علاقة بقضيّة والدها؟

فتحـت عينيهـا مبكّـرا في الصّبـاح التّـالي، بعـد أن نامـت سـويعات قليلـة بعـد الفجـر. أخـذت الإذن مـن خالهـا لتغيـير ورق جـدران الغرفـة بنفسـها. قـال معتـذرا:

ـ كنـت لآمـر الخـدم بالعمـل عـلى ذلـك فـورا، لـولا أنّنـا مشـغولون بالتّحضـير لحفـل الشّـواء! إذا شـئت تـرك المهمّـة إلى الغـد فسـيتولى أحدهـم الأمـر.

ـ لا بأس، يمكنني القيام بذلك بنفسي!

كان بقاء الشّتيمة أمام ناظريها ليوم آخر شيئا لا يحتمل.

خرجـت مـع سـحر للتسـوّق كالعـادة. اختـارت الألـوان المناسـبة لـورق الجـدران في درجـات الرمـادي مـع لمسـات ورديّـة أو أرجوانيّـة. أرادت لهـا طابعـا ناضجـا ومحايـدا. انضمّـت إليهمـا منـال والصغـيرة رانيـا بعـد أن أصرّت عـلى تغيـير الـورق بنفسـها. أمضـت الفتيـات سـاعات الظّهـيرة تنزعـن الـورق القديـم عـن الجـدران.

فتحـت ليـلى صـوان الملابـس، وأخـذت في تفريـغ محتوياتـه، فقـد كان مغلفـا بالـورق مـن الدّاخـل هـو الآخـر. أخـذت في نـزع الـورق دون تركـيز. فجـأة انتبهـت حـين لامسـت أصابعهـا نتـوءا في الجـدار الجانـبي الـذي لا يصـل إليـه الضّـوء. تحسّسـت الجـدار باهتمـام. بـدا أن شيئا مـا وضـع بـين الجـدار الخشـبي للصـوان وورق التغليـف.. شيء صلـب، في حجـم كـرّاس صغـير. مزقـت مـا بقـي مـن الـورق بسرعـة وفضـول كبـير يدفعهـا. أخرجـت الجسـم أخـيرا وتأملتـه بـين يديهـا في دهشـة. كان بالفعـل كرّاسـا صغـيرا، أو مفكّـرة شـخصيّة، ذات لـون أسـود. نفضـت عنهـا الغبـار وجلسـت عـلى الفـراش تقلّبهـا بـين كفّيهـا. كانـت مغلّفـة بشريـط لاصـق بإحـكام. كأنّ صاحبهـا يمنـع الفضوليّـين مـن اختـلاس نظـرة إلى صفحاتهـا. انتبهـت إليهـا منـال فاقتربـت منهـا في فضـول وجلسـت إلى

جانبها متسائلة:

ـ ما هذا؟

ـ مفكّرة. لمن هي يا ترى؟

ـ افتحيها لنرى.

تردّدت ليلى. هل من حقّها أن تقتحم خصوصيّات صاحب المفكّرة؟ إن كان أحدهم قد أخفاها بعناية في ذلك الرّكن القصيّ، فلا شكّ أنّ له أسبابه! فكّت جزءًا من الشّريط اللاصق في حرص. ستحاول أن تعرف لمن تكون. إن كانت مفكّرة حنان، فهي من نصيبها! ظهر جزء من الصّفحة الأولى، فسحبت الغلاف أكثر.. لتقرأ الاسم الذي ظهر بحبر باهت: فراس!

ماذا تفعل مفكّرة فراس في غرفة حنان؟ هل يكون أخفاها بعيدا عن العيون، لسبب ما؟ أم تراها حنان هي التي أخفتها عنه؟ كانت تحاول التّفكير بسرعة، بينما راقبتها عيون منال وسحر في انتباه. بسبب وجود منال، لم يكن من الحكمة أن تفضي بشكوكها. قالت وهي تضع المفكّرة جانبا.

ـ يبدو أنّها لزوج حنان. سنعيدها إلى صاحبها.

رمتها في الدّرج العلويّ للمنضدة وأدارت المفتاح في القفل.

في المساء، كانت الفوضى تعمّ الغرفة، لكنها ارتدت حلّة رائقة وعصريّة. تخلّصت من ورق الجدران القديم، لكنّها لم تنته بعد من وضع ورق التغليف الجديد. تنهدت في إعياء. هل كان عليها الإصغاء إلى خالها حين اقترح عليها أن يقوم الخدم بتغيير الورق في الغد؟ منال تخلّت عنها لتهتمّ برانيا التي ملّت الجلوس وتقطيع الورق، وبقيت سحر برفقتها تتمّ جمع الورق الممزّق، بعد أن أقنعتها بالبقاء من أجل حفلة الشّواء.

ـ حسن، سأنهي العمل في الغد. أمّا الآن فعلينا الاستعداد لحفلة الليلة!

أخذت حماما سريعا، ثم جلست أمام المرآة تتأمل وجهها. وللحظة، تخيّلت حنان تجلس مكانها، تطالعها بنفس العينين الخضراوين، تبتسم شبه ابتسامة. تنهّدت وهي تفكر.. ما الذي يدفع فتاة في العشرين من عمرها إلى محاولة الانتحار؟ لقد باءت كلّ محاولاتها حتّى اللّحظة للحصول على اعترافات حنان المكتوبة على موقع الجامعة بالفشل. والكلّ في القصر يتجنّب إثارة الماضي أمامها. تحوّلت نظراتها دون وعي منها إلى الدّرج المغلق في المنضدة. ربّما كانت تلك المفكّرة سبيلها الوحيدة لمعرفة الحقيقة!

كانت سحر تأخذ حمّاما بدورها، وهي بمفردها في الغرفة. حرّكها الفضول، فتناولت المفتاح من حقيبتها وأخرجت المفكّرة. قلّبتها بين يديها من جديد. فكّرت، إن هي سلّمتها لفراس اليوم، فقد تضيع منها فرصة لا تعوّض. تشعر أنّ كلّ شيء مكتوب هنا، بين يديها. ماذا لو ألقت نظرة؟ لو أنّها مزّقت الغلاف وقرأت، ربّما تعرف كلّ شيء وينجلي الغموض. أخذت نفسا عميقا وأخذت تسحب الشّريط اللّاصق في حذر.

فجأة تعالت طرقات قويّة على باب غرفتها. قفزت في مكانها وسقط الكراس من يدها. أفزعتها الطرقات وتسارعت نبضاتها. انحنت لتلتقط المفكّرة، وهتفت بصوت مختلج:

ـ من هناك؟

جاءها صوت أمين من وراء الباب:

ـ ليلى.. هل أنت جاهزة؟ لقد بدأ الضيوف في التوافد.

ـ حسنا.. لن أتأخر!

- سأنتظرك في الأسفل.

ابتعدت خطوات أمين، فأخذت ليلى نفسا عميقا. نظرت إلى المفكّرة من جديد، ثمّ سمعت صوت باب الحمّام يفتح وخرجت سحر بعد أن أنهت استعدادها. فسارعت بإخفائها في حقيبتها. قرّرت رغم اضطرابها، ستسلمها اليوم إلى فراس، إذا لقيته في الحفلة.

نزلت ليلى السلّم برفقة سحر، فألفت أمين يترقّبها. قدّم لها ذراعه لتتأبّطها.

- الجميع في الحديقة، ينتظرون الشواء.. تعالي، سأقدّمك إليهم.

تجاهلت ذراعه وسارت نحو الحديقة. لا يزال صدى نقاشهما الحادّ بالأمس عند الفجر طازجا في رأسها. كيف يمكنه التّظاهر بأنّ شيئا لم يكن؟ فكّرت، إنّه بارع في التّظاهر ولا شكّ! لم يكن بإمكانها أن تتخيّل أمين ثائرا، لو لم تشأ الصّدفة أن تراه بأمّ عينيها!

كان الضيوف قد تجمعوا في الحديقة الخلفيّة، حيث نصبت الموائد بمختلف أنواع المقبلات وفاحت رائحة الشّواء الذي يعدّه العمّ هاشم. كان الحاضرون قد تفرّقوا في حلقات صغيرة يتجاذبون أطراف الحديث. رأت خالها يقف مع مجموعة من السّادة المتأنقين بالبدلات الرّسميّة وربطات العنق، يبدو أنهم من رجال الأعمال وذوي المراكز المرموقة. استعادت مشاهد من السّهرات الخاصّة بالسّفارة التي كانت تحضرها صحبة والدها، فابتسمت للذكرى.

لمحت جدّتها تقف وسط جمع من سيّدات المجتمع، وما إن وقعت نظرات السيّدة الكبيرة عليها حتّى أشارت إليها لتقترب. لقد كان حضورها اليوم الحدث الأهمّ. همست الجدّة وهي تشدّ على ذراعها في ودّ:

- هذا الحدث من أجلك. كان يجب أن يقدّمك نجيب بشكل رسميّ..

لكن ماذا نفعل؟ عسى أن تنتهي أزمته قريبا.

وقفت في استسلام إلى جوار الحاجّة فريدة، تستمع إليها تعرّفها بالوجوه التي تتالت أمامها، بابتسامات متملّقة وعيون متّسعة مشدوهة. كانت تتابع كلامها بهزات من رأسها بين الفينة والأخرى، وتردّ الابتسامات بمثيلاتها، وتتلقى ردود الفعل المتكرّرة، التحديق والتّدقيق من أولئك الذين عرفوا حنان، والتذكير بالشّبه الشديد بين الأختين.. ثمّ الحسرة على الرّاحلة في ريعان شبابها. فتهزّ ليلى رأسها مصدّقة وتشكرهم على مشاعرهم الكريمة.

كانت قد صافحت معظم السيّدات بالحفلة، وقدّمت نفسها لهنّ جميعا، وتلقّت تعازيهنّ المتأخّرة وثناءهنّ على جمالها، حتّى أصابها الملل. وقعت نظراتها على سحر تقف بعيدا في ركن منعزل، مثل غريب لا يعرف أحدا من الحاضرين، فشعرت بالذّنب. لقد استبْقتها من أجل الحفلة ثمّ أهملتها. اعتذرت من جدّتها وسارت نحوها على الفور. سحبتها باتّجاه ركن الشّواء وقالت:

ـ لقد تعبت.. تعالي نأكل شيئا.

أخذت طبقا واختارت بعض القطع من أجل سحر. وبينما كانت تملأ طبقها، تدخّل الطبّاخ المساعد وقال فجأة:

ـ آنسة ليلى.. لقد احتفظت بمشويّاتك جانبا. هذا طبقك الخاصّ.

التفتت إليه في غيظ. كانت قد نسيت الأمر بعد حادثة الأمس. كان يجب أن تتحدّث إلى العمّ هاشم بخصوص ذلك. قالت بشيء من الحدّة:

ـ معذرة، لماذا هناك طبق شواء خاصّ بي؟

ـ ماذا؟

ـ لماذا في كلّ وجبة، هناك شيء ما لي مختلف عن الآخرين؟

ـ هذه التّعليمات!

ـ تعليمات من؟

ـ التّعليمات التي وصلتنا في المطبخ؟

ـ ممّن؟

ـ أليست.. منك أنت آنستي؟

بدا الشّابّ مرتبكا، فأشفقت عليه ليلى. دفعت الطبق الذي كان بيمناه وهي تقول:

ـ من فضلك، أعد الشّواء «الخاصّ»، فأنا لا أريده.. وخذ هذه التّعليمات منّي مباشرة: ليست هناك أيّة تعليمات من أيّ نوع بخصوص وجباتي! أنا آكل مثل الجميع. بلّغ العمّ هاشم رجاء. هل فهمت؟

هزّ رأسه ولمّا يفارق ملامحه الضّيق. تنهّدت ليلى وهي تبتعد رفقة سحر، وأخذتا تأكلان في صمت. اقترب منها شابّ غريب وبادرها في اهتمام:

ـ آنسة ليلى؟

بدا لها القادم الجديد مألوفا. هزّت رأسها علامة الإيجاب وهي تحاول تذكّر أين رأت وجهه.

ـ وددت أن أبدي أسفي لما حصل مع حنان.. ولو متأخّرا. لقد كبرنا كلّنا ونضجنا الآن، وندمنا على ما كنّا نفعله كمراهقين أشقياء.. لكنّ حنان ليست معنا للأسف، لتشاركنا النّدم، وتضحك على أيّام الماضي.

تذكّرت. لقد كان على صفحة حنان في موقع التّواصل. أحد أصدقاء شغبها الدّائمين. يبدو مختلفا الآن. لم تميّزه بداية بسبب اللّحية

الخفيفة والشّارب. لم يعد فتى نزقا يصفّف شعره إلى الأعلى ويصبغ خصلاته باللّون الأشقر!

ـ أنا ممتنة لكلماتك.. لكن هل يمكنك أن تحدّثني عن حنان أكثر.. ما الذي قصدته بالنّدم على ما كنتم تفعلونه؟

بدا عليه التردّد:

ـ أنت.. لا تعرفين؟

ـ عرفت مؤخرا من زميلات حنان أنّها قد حاولت الانتحار.. لكنّني لا أعرف التفاصيل. تعلم، في العائلة يتجنّبون ذكر الماضي!

هزّ رأسه في تفهّم، ثمّ قال:

ـ لست فخورا بهذا أيضا.. إنّها صفحة وطويتها. لقد كنّا شلّة واحدة في الجامعة.. حنان وأنا وآخرون.. نخرج سويّا، نسهر، نرقص، ولكنّنا لا نؤذي أحدا. ثمّ حصل أن دعانا أحدهم إلى تجربة شيء جديد.. ولم نكن ندرك العواقب.

ـ ماذا جرّبتم؟

ـ مخدّرات! وفي ظرف وجيز كنّا قد أدمنّا جميعا.

ـ يا إلهي.

ـ مرّت علينا سنة عصيبة. لم يكن الإقلاع أمرا سهلا.. البعض تحطّمت حياته بالكامل، ترك الدّراسة وغاب عنّا تماما.. والبعض الآخر نجح في العلاج في وقت مبكّر. عائلتي اهتمّت بأمري، فدخلت مركزا لعلاج الإدمان هنا في العاصمة، ثمّ انقطعت عن الجامعة لبقيّة السنّة الدّراسيّة. لفترة طويلة كان عليّ أن أتجنّب ارتياد نفس الأماكن القديمة التي جمعتني برفاق الإدمان.. فلم أعلم شيئا في حينه. بعد وقت طويل، عرفت أنّ عائلة حنان اكتشفت أمرها متأخّرة.. ولذلك

جعلوها تسافر للعلاج في سويسرا. لكنّها لم تستجب.. وتوفّيت بعد ذلك بجرعة زائدة.

سيطر على ليلى الذهول لدقائق طويلة بعد انصراف الشابّ. هذا هو الأمر إذن. هذا ما يحاول الجميع إخفاءه عنها. إهمال شديد لمراهقة متمرّدة، إدمانها ووفاتها بجرعة زائدة! شعرت بالدّوار فجأة. ساعدتها سحر على الجلوس في ركن قصيّ، ولم تنطق إحداهما لدقائق إضافيّة أخرى. تكلّمت ليلى أخيرا وهي لا تزال تحت تأثير الفاجعة:

- هل سمعتِ ما سمعت؟

هزّت سحر رأسها في صمت. لم يكن هناك من كلام يقال. بعد أن تجاوزت ليلى صدمتها، أحسّت بالدّم يتصاعد إلى رأسها. لقد خمّنت ذلك مسبقا، خمّنت أنّ هناك خللا جليّا في نظام حياة هذه العائلة! لا رقابة ولا احتواء. هل كان غريبا أن تنتهي حنان بشكل مأساوي؟ لكنّ فكرة أخرى قفزت إلى ذهنها، فهتفت في ذهول:

- حنان كانت في سويسرا! لقد كانت قريبة منّي.. لكنّني لم ألتقها!

بعد أن تفوّهت بتلك الكلمات مباشرة، انتابها شكّ غريب. أحقّا لم تلتقيا مطلقا؟ كانت مشوّشة. جزء منها كان يشعر أنّ اللّقاء قد حصل. لكنّها لم تستطع أن تجزم. استحضرت فجأة صورة من حلمها، حنان تحدّق فيها من المقعد الأماميّ للسيّارة وهي تصرخ بجنون. اضطربت أنفاسها. ما معنى تلك الهلاوس بالضّبط؟ منذ الحادثة التي تعرّضت إليها من أربع سنوات خلت، كثيرا ما واجهت صعوبة في استحضار ذكرياتها بدقّة، ولم تكن الكوابيس أمرا حديثا. لقد عانت من الكثير منها، منذ إصابة رأسها. لكنّ ذلك المشهد، كان الأكثر إثارة لفزعها.. والأشدّ وضوحا في ذهنها.

ارتفع رنين هاتف سحر ليقاطع أفكارها. نظرت إلى ليلى في اعتذار وقالت:

- لقد انتهى وقت سندريلا. وعليها مغادرة الحفلة!

- مازال الوقت مبكّرا! إنّها السّابعة وحسب!

- مأمون ينتظرني عند البوّابة.

- آه!

سارت ترافقها حتّى البوّابة، وهي تفكّر بأنّها ستراه الآن، مرّة أخرى. حاولت أن تمسح علامات الكآبة التي كست ملامحها. لا يمكن أن تستقبله بمزاجها الجنائزيّ ذاك. توقّفت فجأة وقالت لسحر:

- إذا دعوت أخاك إلى الحفلة، هل تراه يقبل؟

- لا تحاولي. أعرف أخي جيّدا.. خجول بطبعه، ولا يحبّ التطفّل.

- إذن أحضر له طبقا على الأقل!

ضحكت سحر في شفقة على صديقتها:

- لا تتعبي نفسك.. أعرف أنّه لن يقبل.

عبست ليلى في ضيق. لم يكن من اللّائق أن يصل إلى منزل عائلتها ولا تضيّفه شيئا ما. أيّ شيء.

- كوب عصير إذن؟

- افعلي ما بدا لك!

- انتظريني إذن.

هرولت إلى المائدة، وملأت طبقا من المقبّلات والمشاوي، وأخذت كوب عصير ولحقت بسحر. وقفت قبل المنعطف تلتقط أنفاسها وتحاول الابتسام، فلمحت طاولة ومقاعد في الحديقة على بعد أمتار قليلة من البوّابة. سارت إلى هناك أوّلا، ووضعت ما بيدها، ثمّ

مشـت باتّجـاه البوّابـة.

ـ دكتـور مأمـون.. تفضّـل مـن هنـا أرجـوك. لا يجـوز أن تقـف عنـد البـاب!

بـدا مأمـون محرجـا مـن الدّعـوة ومتضايقـا مـن وجـوده في قـصر أقاربهـا الأثريـاء. لـو أنّهـا تريـد أن تريـه الفـرق الشّاسـع بـين عالميهمـا، فقـد نجحـت في ذلـك! لكنّـه يـدرك أنّ ليـلى سـليمة الطويّـة، ولا تقصـد شـيئا ممّـا يشـعر بـه. غـير أنّـه لا يملـك إلا أن يلاحـظ مـا يـراه كلّ ذي عينـين.

ـ شكرا لك.. لكنّنا على عجلة!

ـ خمس دقائق فقط.. لن أأخركم كثيرا.

خجـل مـن إلحاحهـا، لكنّـه نظـر إلى ثيابـه البسـيطة وفكّـر أنّ الجميـع بالدّاخـل يرتـدون بـدلات رسـميّة. لـو أنّـه عـرف بشـكل مسـبق، لارتـدى الثّيـاب الملائمـة للمناسـبة. كان يهـمّ بالرّفـض مـرّة أخـرى، حـين ظهـر فـراس خلفهـا:

ـ ليلى، لماذا يقف ضيوفك بالباب؟

جفلـت ولـم تـدر بمـا تـردّ. كلّمـا تظاهـر بالوداعـة، عرفـت أنّ مصيبـة مـا بانتظارهـا.

ـ هـذه صديقـتي سـحر وشـقيقها الدكتـور مأمـون.. وهمـا مـصرّان عـلى الرّحيـل.

ـ مبكّـرا هكـذا؟ لا.. لا يمكـن. شـاركانا بعـض المـرح عـلى الأقـل! دكتـور مأمـون.. تفضّـل مـن هنـا أرجـوك.

تـردّد مأمـون للحظـة، ثـمّ ابتسـم في حـرج وتبـع فـراس إلى الدّاخـل، بينمـا تمنّـت ليـلى لـو أنّـه رحـل قبـل أن يلمحـه فـراس! تبعتهمـا وسـحر في ضيـق، ثـمّ هتفـت وهـي تشـير إلى الطاولـة الجانبيّـة البعيـدة عـن زحـام

الضّيوف:

- يمكننا الجلوس هنا.. لقد أحضرت بعض الأكل.

كانت تخشى أن يحرج فراس مأمون أمام بقيّة الحاضرين. ولم ترد أن يفوتها شيء ممّا يقولانه لتتدخّل في الوقت المناسب. ليتها تعرف ما يفكّر به فراس لحظتها. جلس أربعتهم حول المائدة، وكان فراس يدير المحادثة:

- لم أكن أعلم أنّ لليلى أصدقاء هنا!

- سحر زميلتي في الكليّة في سويسرا.. وقد جاءت في إجازة لزيارة عائلتها.

- دكتور مأمون، أليس كذلك؟ دكتور في ماذا؟

- طبّ أطفال.

- درست في سويسرا أيضا؟

- نعم.

كانت ليلى تتصدّى للردّ على أسئلته بسرعة، وهي تتأفّف في سرّها. هل من المفترض به أن يعلم بكلّ شيء يخصّها؟ لكنّ فراس كان قد انتبه إلى محاولتها صدّ هجوماته قبل حدوثها، فالتفت إليها وقال كمن تذكّر شيئا عاجلا:

- ليلى، لقد تركت على المكتب في غرفتي التّصاميم الخاصّة بشقّتك. هلّا ألقيت عليها نظرة؟

- الآن؟

- نعم، رجاء. إن كانت هناك تعديلات فيجب أن أدخلها في أقرب وقت، حتّى تبدأ الأشغال الأسبوع المقبل.. إن كنت لا تريدين تأخيرها.

إنّه يحاول صرفها بأيّ شكل. كان بإمكانها أن تعاند، لكنّها فكّرت في العواقب الممكنة. لا يمكنها أن تضمن ردود فعله. وقفت، وقالت لسحر:

ـ هلّا رافقتني إلى الدّاخل؟

تركت الرّجلين بمفردهما على مضض، ودعت ألّا يقدم فراس على أيّ تصرّف أخرق يوقعها في مأزق مستقبليّ. كانتا تتقدّمان في الممرّ حين همست سحر في قلق:

ـ تبدين متوتّرة!

تذكّرت المفكّرة، فأخرجتها من حقيبة يدها وتمتمت:

ـ دعينا ننتهي من هذا الأمر بسرعة.

أدارت أكرة الباب ودخلت. ستأخذ التصاميم وتترك المفكّرة على المكتب. نظرت إلى سطح المكتب وتفرّست في اهتمام. لم تكن هناك أيّة تصاميم في مرمى بصرها. قلّبت الكتب والملفّات، تبحث عن شيء يخصّها، بلا جدوى. فتحت الدّرج العلويّ، ألقت نظرة سريعة داخله، ثمّ أحجمت. لم يكن من الحكمة أن تعبث بأشيائه.

ـ ما الذي تفعلينه هنا؟

فوجئت بهتاف رجاء الغاضب. كانت قد تركت الباب منفرجا، وسحر تترقّبها عنده. دفعت رجاء الدّفّة بعنف وانقضّت على ليلى مزمجرة:

ـ لم أتوقّعك بهذه الوقاحة! ما الذي تفتّشين عنه في غرفة فراس الآن؟

لم يكن من الوارد أن تبرّر شيئا أمام رجاء. قالت في صرامة:

ـ ما أفعله في منزل خالي ليس من شأنك!

ـ ليس من شأني؟ ليس من شأني أيّتها السّارقة!

هاجت رجاء واشتعلت النّيران في عينيها.

ـ سارقة؟ ما الذي سرقته؟

أشارت إلى المفكّرة التي كانت مازالت بين يدي ليلى.

ـ هذه!

ثـمّ اختطفتهـا بحركـة مفاجئـة وأخـذت تقلّبهـا بـين يديهـا. تشـابكت أيديهمـا، وليـلى تحـاول اسـتعادة المفكّـرة.

ـ هذه لي.. وجدتها في غرفتي!

ـ غرفتك؟ قلت غرفتك؟!

جـنّ جنـون رجـاء. وكأنّ ذكـر انتمـاء ليـلى إلى المـكان كان القطـرة الـتي أفاضـت كأس جنونهـا. انقضّـت عـلى غريمتهـا تخمـش وجههـا بأظافرهـا الطّويلـة، وتشـدّ شـعرها بقسـوة. صرخـت ليـلى:

ـ مجنونة! أنت مجنونة!

تدخّلـت سـحر محاولـة فـضّ اشـتباكهما، ثـمّ تدافعـت أقـدام في الممـرّ بعـد أن وصـل الـصّراخ إلى الطّابـق الأسـفل، وانضـمّ إليهـنّ أمـين وريـم شـقيقة رجـاء الصّغـرى. أخـيرا نجـح ثلاثتهـم في تكبيـل ذراعـي رجـاء الـتي لـم تتوقّـف عـن توعّـد ليـلى:

ـ هـل تظنّـين أنّ دمـوع التّماسـيح هـذه كافيـة لإخفـاء حقيقتـك؟ أنـت مثـل توأمـك تمامـا! طمّاعـة ومخادعـة!

انسـحبت إلى غرفتهـا وهـي تشـدّ عـلى المفكّـرة الـتي تمـزّق غلافهـا، وتبعتهـا سـحر مهرولـة. أغلقتـا البـاب عليهمـا، بينمـا اسـتمرّ صيـاح رجـاء الهسـتيريّ في الخـارج.

ـ يا إلهي! من تلك المجنونة؟

ـ إنّها ابنة خالة أبناء خالي.

تمتمت ليلى بعقل غائب، بينما شردت أفكارها.

ـ ليلى، أنت تنزفين!

تحسّست وجهها، فاصطبغت أناملها بقطرات دم تنزّ من خدش يمتدّ على وجنتها. دخلت الحمّام وغسلت الجرح، ثمّ غطّته بمنديل ورقيّ لتوقف النّزيف. جلست على طرف السّرير وأخذت تستعيد ترتيب أحداث تلك الليلة. فراس أرسلها إلى غرفته، لإحضار تصاميم لم تكن هناك أصلا، ثمّ وصلت رجاء بترتيب ما لتمسك بتلابيبها. فراس! لا شكّ لديها أنّه قد رتّب لقاءها برجاء في غرفته. لكنّها لا تعلم الآن ما الذي يجري بينه وبين مأمون في الأسفل!

في تلك اللّحظة، رنّ هاتف سحر.

ـ مأمون.. أنا مع ليلى، كان هناك شجار.. وقد أصيبت بجرح في وجهها.

لوّحت ليلى بكفّها لتوقف سحر، وهتفت ليسمعها مأمون على الطرف الآخر:

ـ أنا بخير.. إنّه خدش بسيط! سحر، يمكنك الذّهاب الآن.

ـ لقد طردتني! سآتي حالا.

أغلقت الخطّ ثمّ التفتت إلى ليلى:

ـ اهتمّي بتطهير الجرح جيّدا.. لا تستهيني به!

ـ لا تقلقي، سأفعل.

همّت بالخروج، ثمّ عادت أدراجها. رمقت ليلى في قلق:

ـ هل ستكونين بخير؟

كانت تشير إلى صدمتها السّابقة. إدمان حنان وجرعتها الزّائدة.

هزّت ليلى مطمئنة وأشارت إليها أن اذهبي. خرجت سحر من عندها فتنهّدت. من الأفضل أن يرحل مأمون الآن. كلّ ثانية إضافيّة مع فراس قد تعني كارثة إضافيّة! أغمضت عينيها واسترخت على السّرير. ستعرف غدا من سحر ما الذي تحدّث به فراس بالضّبط.

انتبهت على صوت قرع قويّ على بابها. وقفت فزعة. هذه ليست طرقات أمين ولا منال. فتحت الباب في حذر، فألفت فراس أمام وجهها. ماذا الآن؟ هل جاء لينهي ما بدأته رجاء؟ لم تكن على استعداد نفسيّ لتواجه سخريته ووقاحته.

- كيف حال جرحك؟

- نعم؟

كانت لا تزال تضغط على وجهها بالمنديل الذي أصبح أحمر تماما الآن. وكانت بيده عدّة إسعافات أوّليّة. حدّقت فيه غير مصدّقة. أين الفخّ؟

- عرفت من صديقتك بالذي حصل بينك وبين رجاء. أنا آسف.

هناك خلل ما بالتّأكيد. فراس يعتذر؟ ثمّ ألم يكن اشتباكها مع رجاء من ترتيبه؟ فعلام الاعتذار؟!

وضع الصّندوق بين كفّيها، وهي لم تستيقظ بعد من ذهولها. فجأة، انتبه إلى التغيير الذي حلّ بالغرفة. ورق الجدران كان مختلفا، والطّلاء الأحمر البشع قد اختفى. لأوّل مرّة منذ عرفت فراس، رأته يبتسم! ليس أنّ شفتيه لم تنفرجا في ابتسامة من قبل، فهو قادر على ذلك النّوع من الابتسام المصطنع والمزيّف. لكن الآن، في تلك اللّحظة، كانت عيناه تبتسمان وتتألقان ببريق غريب! ثمّ، ودون كلمة إضافيّة، استدار ليدخل غرفته.

لبثت ليلى عند الباب، لا تصدّق ما حصل للتّوّ. ثمّ عادت نظراتها

إلى صنـدوق الإسـعافات بـين كفّيهـا، قبـل أن تقـرّر أخـيرا الانسـحاب إلى غرفتهـا.

-٨-

صباح الغد، وهي تنزل درجات السلّم، تناهى إليها صوت خالها وهو يزجر الخدم. مرّة أخرى، كان قد جعلهم يقفون صفّا واحدا في البهو، ويتوعّدهم بالعقاب إن أصرّوا على إخفاء الفاعل. كانت قد فكّرت في الموضوع طيلة نهار الأمس، وهي تنزع ورق الجدران، ووصلت إلى قرار. كان عليها أن تجد استراتيجيّة مضادّة لخطّة فراس أو رجاء أو كليهما.

اقتربت من موقف خالها الذي التهب وجهه وعلا صوته. دنت منه بخطوات سريعة وهمست:

ـ خالي.. هل لي بكلمة على انفراد؟

ـ بالتأكيد يا عزيزتي.

ثمّ استدار ليواجه الخدم مرّة أخرى ويقول مهدّدا بالسبّابة:

ـ لا يتحرّك أحدكم من مكانه!

دخل وإيّاها إلى حجرة المكتب وهو يردف في غضب:

ـ سأجعلهم يعترفون، لا تقلقي.. إنّها مسألة وقت وحسب.

ـ خالي.. لا أريد منك أن تعاقب أحدهم، رجاء.. اترك الأمر لي!

طالعها في دهشة، فأضافت:

ـ ألست المقصودة بالإهانة؟ إذن اترك لي التعامل مع الموقف.. من فضلك !

عقد ذراعيه أمام صدره متفكّرا، ثم قال في تسليم:

ـ حسن.. لك ذلك!

ثمّ خرج من المكتب تتبعه ليلى. ألقى نظرة صارمة على الخدم الذين لم يبرحوا أماكنهم:

- سأترك الأمر للآنسة ليلى.. هي التي ستقرّر بشأن العقاب!

ابتسمت ليلى وقالت بلهجة مطمئنة:

- فلينصرف كلّ إلى مهامّه المعتادة.

تبادل الخدم نظرات حائرة، وتململوا قبل أن ينسحبوا متهامسين.

بعد قليل، دخلت ليلى المطبخ. حيّت العمّ هاشم ومساعده في مرح، ثمّ طلبت بعض المكوّنات والأواني. وقفت في ركن جانبيّ حتّى لا تزعج الطبّاخين، وشرعت في إعداد كعكتها المفضّلة. مزجت الطّحين والسّكر والبيض وخفقتها بشكل جيّد، سكبت الخليط في طبق مستدير ووضعته بالفرن، ثمّ أعدّت كريمة الفراولة وأخرى بنكهة الفانيلا. بعد ساعتين، كانت قد انتهت من تزيين كعكة الفراولة وحفظتها في الثلاجة.

خرجت إلى الحديقة، حيث كان الجنائنيّ يقلّم الأشجار ويسقي شجيرات الورد. استعارت منه كمّاشة ومقصّا وقطفت باقة سميكة من الورود الحمراء والبيضاء. حملت باقتها وعادت إلى الدّاخل. ألفت مدبّرات المنزل في الصّالة العلويّة. كنّ يتهامسن في اضطراب ملحوظ، وحال دخولها، انقطعن عن الكلام بشكل مريب. لم تهتمّ ليلى بمغزى سلوكهنّ، بل ابتسمت وطلبت من بهجة، صغرى العاملات أن تتبعها. سارت الفتاة خلفها في وجوم. مرّت ليلى وإيّاها على جميع الغرف، وأشارت إليها أن تملأ كلّ المزهريّات الفارغة والأواني الخزفيّة المهملة بالماء واهتمّت ليلى بنفسها بتنسيق الوردات في باقات صغيرة ووضعتها فيها.

حين فرغت من تلك المهمّة، عادت إلى المطبخ، حيث كانت الكعكة

قـد تماسـكت. في الحديقـة الخلفيّـة، جهّـزت مائـدة ومقاعـد، ووضعـت كعكتهـا ومشروبـات منعشـة، وكميّـة مـن المقبّـلات والمكسّرات، كأنّمـا تستعدّ لاستقبال مجموعة من الأصدقاء. ولم تنس أن تزيّن الطاولة بباقة ممّا قطفت، بالإضافة إلى بتلات متناثرة على المفرش، وبالونات ملوّنة ربطتها في مساند المقاعد.

حين أصبح كلّ شيء جاهزا، أرسلت بهجة لتجمع كلّ الخدم في اجتماع عاجل.

توافد الجميع إلى الحديقة الخلفيّة، واحدا تلو الآخر، يحدوهم قلق ممّا ينتظرهم. لم تكن قضيّة الطلاء على جدار غرفة الضيّفة قد حلّت بعد، ووظيفة الكلّ قد غدت على المحكّ.

- فليتفضّل الجميع!

صدحت ليلى بالدّعوة. لكنّ الخدم لبثوا واقفين في ارتباك ولم يتجاسر أحدهم على الجلوس. كان من المريب أن يتحوّل التّهديد بالطّرد إلى حفلة في لمح البصر!

- أعرف أنّه من المستغرب لمن يعمل في الخدمة، أن يخدمه أصحاب القصر أنفسهم.. لكنّني من خلال الحادثة الأخيرة، فهمت أنّ تبادل الأدوار مفيد أحيانا، حتّى يعاين كلّ منّا الأحداث والمواقف من منظور الآخر. لذلك، أردت أن تكونوا اليوم ضيوفي.. لأعتذر منكم، عن أيّ شيء قد يكون صدر عنّي بقصد أو بدون قصد.

ثمّ شرعت في تقطيع الكعكة وتوزيعها على الأطباق، ودارت على الحاضرين تضعها بين أيديهم. غمزت جليلة وهي تقدّم لها طبقها:

- لا تخافي.. سأساعد في تنظيف المكان وجلي الصّحون!

فاندفعت موجة من الضّحك المحتشم. ثمّ، اختار كلّ منهم مقعدا وجلس يأكل في صمت. اقتربت ليلى من العمّ هاشم وقالت:

- أعلم أنّ كعكتي المتواضعة لا تقارن مع حلوياتك الشهيّة.. وهي بالمناسبة رائعة كما هي، لست بحاجة إلى تعديل الوصفة من أجلي.. وليست هناك أيّ حمية خاصّة أتّبعها. آسفة إن كان قد وصلك أيّ شيء بهذا الصّدد عنّي!

ثمّ عادت إلى مدبّرات المنزل، وقالت معتذرة:

- منذ وصلت، والغرفة في غاية النّظافة والترتيب.. لست مصابة بالوسواس القهري، ولست أعاني من نقص في المناعة والحمد لله.. لذلك فغرفتي لا تحتاج تعقيما إضافيّا ولا تلميعا زيادة عن بقيّة غرف القصر! ولولا خوفي من أن تعتبروا ذلك إهانة، لقمت بتنظيف غرفتي بنفسي.. ليس لأنّني لا أثق فيكم -لا سمح الله- لكن لأنّ متطلّباتي في التنظيف بسيطة ويسيرة، وقدراتي كذلك!

ضحكت من نفسها، فسرى الضّحك مرّة أخرى في صفوف الخدم الذين تلاشت ريبتهم واسترخت أساريرهم.

- ثمّ إنّني منذ وصلت وأنا أعامل من قبلكم معاملة الأميرات.. وما أنا إلّا ضيفة لا تريد أن تتعوّد على الدّلال الكثير.. فقريبا أستقرّ في شقّتي، وهناك لا خدم ولا حشم.. بل مخاطبتكم الفقيرة لله، ستعُول نفسها وتنهض بشؤونها.. لذلك، حين أغادر هذا المكان، أرجو أن تذكروني كصديقة خفيفة الظلّ، لا كمسبّبة للمشكلات وقاطعة للأرزاق.

غصبا عنها، كانت عيناها قد امتلأتا بالدّمع. قالت مغالبة رغبتها في البكاء:

- في الحقيقة، ليس يهمّني من الذي فعل ما فعل.. مع أنّ فعله آلمني.. وأشعرني بتقصيري تجاهكم.. لكن يهمّني الآن أن أصل إلى مشاعر الاستياء التي بداخله، وأفهم دوافعها.. وأحاول تغييرها إلى

الأفضل.

أكل الجميع الحلوى والمقبّلات، اتّسعت الابتسامات شيئا فشيئا. تنقّلت ليلى بين المقاعد، وتبادلت الأحاديث مع كلّ منهم على حدة، فسرّها أن تجدهم أكثر ارتياحا وملامحهم أكثر طلاقة. وحين انتهت الحفلة القصيرة، شاركها الجميع تنظيف المكان وجمع المخلّفات، وكانت هي تعمل بينهم يدا بيد، دون أن تتوقّف عن المزاح.

تنهّدت ليلى حين دخلت غرفتها ذلك المساء. كان يجب أن تفعل ذلك منذ زمن، قبل أن تتفاقم الأمور وتصل إلى ما وصلت إليه. إذابة الجليد بينها وبين الخدم كانت خطوة ضروريّة لنجاح تحريّاتها. زفرت في ارتياح. كان كلّ ذلك للأفضل حتما. نعم للأفضل.

تذكّرت أنّها لم تتصل بسحر. لقد انشغلت بحفلتها الصّغيرة ونسيت. وكيف لها أن تنسى؟ كوّنت رقم سحر وهي تأمل ألّا تكون مصيبة أخرى في انتظارها.

- ها.. ماذا قال مأمون؟

- بخصوص ماذا؟

- بخصوص زوج حنان!

- آه.. إنّه يريدك أن ترحلي من هناك، وعلى الفور!

- ماذا؟ ما الذي حدّثه به بالضّبط؟ هل أخبرك؟

- لا شيء مهمّ.. تحدّثا في العموميّات وحسب.

- إذن لماذا يريدني أن أرحل من هنا؟

- إنّه يشعر بالغيرة! بالمناسبة، لم تخبريني أنّ زوج أختك بمثل تلك الوسامة!

هل تتحدّث عن فراس؟ وسيم؟ لا شكّ أنّه يبدو كذلك وهو يضع

قناع الحمل الوديع أمام الآخرين.. لكنّها ترى بوضوح قرني شيطان ينبتان من رأسه حين يكشّر بسخرية كما يفعل دائما معها! لكنّه بالأمس.. بالأمس بدا مختلفا تماما. لم يكن يتصنّع، ولم يكن ينفّس عن طاقات الشرّ التي بداخله. في تلك اللّحظة، فكّرت أنّه قد بدا رجلا وسيما بالفعل. لكنّها لحظة واحدة، بين لحظات كثيرة أخرى من البشاعة!

ـ لا تكوني سخيفة! أنت لا تعرفين حقيقته أبدا!

انتبهت على طرقات محتشمة على بابها. أنهت الاتّصال سريعا وهرعت إلى الباب. كانت بهجة، صغرى مدبّرات المنزل تقف أمامها وعلى وجهها علامات التردّد. همست وهي لا تتوقّف عن التلفّت حولها في حذر:

ـ آنسة ليلى.. هل يمكنني أن أتحدّث إليك؟

حين صارتا بالدّاخل، خلف الباب المقفل، أخرجت الفتاة قصاصات ورق من طيّات ثيابها وقدّمتها إلى ليلى. سألتها ليلى في استغراب:

ـ ما هذا؟

ـ هذه الأوراق، كان أحدهم يدسّها كلّ صباح تحت باب المطبخ.. فيها تعليمات تخصّ طعامك وتنظيف غرفتك.. وقد حسبناها تعليماتك!

حدّقت ليلى في الأوراق في دهشة، وأخذت تقلّبها في اهتمام، ثمّ عانقت بهجة في امتنان وقالت مبتسمة:

ـ لقد خدمتني خدمة لا تقدّر بثمن.. شكرا يا صديقتي!

تضرّج وجه الفتاة خجلا، ثمّ انسحبت بعد أن أوصتها ليلى بألا يعلم غيرها بشأن القصاصات من أفراد العائلة.

وكان على ليلى أن تتثبّت على الفور من شكوكها الآنفة. سارعت إلى المفكّرة المخبّأة في درجها العلويّ، وفتحتها على الصّفحة الأولى.. ثمّ وضعت القصاصات إلى جوارها على المكتب، وشرعت تقارن شكل الكتابة في هذه وفي تلك. لم يعد لديها شك. إنّها من صنيع فراس!

كشّرت في سخرية وهي تقول في نفسها، لقد كانت محقّة بشأنه!

***

السيّارة تطوي الأرض بسرعة جامحة. تسمع أزيز العجلات على الأسفلت المبتلّ، ومحاولات الضغط على المكابح لا تجدي. ترتفع أصوات صراخ من حولها، أشخاص يطلبون النّجدة. الوجوه من حولها ضبابيّة غير واضحة، لكنّ الفوضى التي تعمّ عالم السيّارة لا تطالها. إنّها تجلس في اتّزان، وتطالع ما حولها بتشفٍّ وشماتة. تسمع الآن قهقهتها الصّاخبة. تلتفت إليها عيون مفجوعة. ما هذا العته؟ صوتها المجنون يتغنّى باستمتاع:

ـ سنموت جميعا.. سنموت جميعا!

فتحت عينيها مرتعبة. المشهد المفزع يتكرّر. الكابوس.

ما الذي ترينه في كابوسك يا ليلى؟ هل هي رؤيا واضحة لتفاصيل الحادثة التي لا تذكرين منها شيئا؟ والدها لم يتحدّث عن الحادثة مطلقا من قبل. لم يكن يقصّ عليها شيئا إلا إذا سألت وألحّت. وحتّى في تلك الحالة، فإنّه يكتفي بالتّلميحات والمساعدات البصريّة لتحفيز ذاكرتها، مثل الصّور والأشياء المتعلّقة بماضيها. لكنّه أبدا لم يشر بكلمة إلى الحادثة. إنّها حادثة سيّارة. هذا كلّ ما تعرفه عن الأمر. من كان معها؟ كيف حصلت الحادثة؟ كلّ ذلك تجهله.

هل يمكن أن تكون حنان في السّيّارة نفسها؟

تذكّرت، حنان كانت في سويسرا من أجل العلاج. هل تكونان قد التقتا آنذاك؟

***

لم يستطع فراس أن يمنع نفسه من التّفكير فيما حصل بالأمس طيلة نهار عمله. نعم، لقد سارت الأمور كما خطّط لها بالضّبط. خلال الأسبوعين الماضيين، دأب على دسّ قصاصات للخدم، عن طلبات وهميّة للضّيفة الثقيلة. لقد جعلها تبدو حمقاء مدلّلة، تماما كما كانت أختها حنان! لقد استدعى في ذاكرة كلّ منهم مشاهد من الماضي لا شكّ أنّها قد تركت ندبا لا تمحى مع التّقادم.. فجاء ردّ الفعل عنيفا وغير متوقّع. ذلك الطّلاء الدّموي القبيح على جدارها، لم يكن من تخطيطه! لكنّ أحدهم مضى بالخطّة خطوات عملاقة إلى الأمام! وذلك ليس يضرّه.. لكنّه مندهش من كميّة الحقد التي نجح في تحصيلها من جنود الخفاء الذين دخلوا المخطّط دون علم منهم! لم يكن يطمع في أكثر من سلوك عدائيّ، ونظرات ضيق من هنا وهناك.. كان ذلك يكفي ليشعرها بعدم الرّاحة.

حفلة الشّواء أيضا، سارت بالشّكل الذي أراده. بحث عن ليلى ضمن الحاضرين، وأرسلها إلى غرفته، بعد أن عرف بتواجد رجاء هناك في الأعلى. لقد أراد المواجهة بين البنتين، وقد كانت. لكن لماذا لا يشعر بالرّضا الذي توقّع أن يشعر به؟ بدلا عن ذلك، يشعر بتقريع الضّمير.. مرّة أخرى. أدهشه أن يحصد بأسرع ممّا ظنّ.. وأن يكبر زرعه أكثر ممّا انتظر! رجاء أيضا، كانت عدائيّتها فوق توقّعاته. إنّه

يعرف تاريخ العلاقة المتوتّرة بينها وبين حنان، وقد عوّل على ذلك في اختيار طرف المواجهة الثاني.. لكن أن يصل الأمر إلى درجة الاعتداء السّافر وتخليف ندوب على الوجه؟! لذلك، فقد شعر بالارتياح حين رأى أنّها قد غيّرت الورق وأخفت الطّلاء على الفور.

أوليس يريد لها أن ترحل بأسرع وقت؟ إذن عليه أن يواصل السّير على الخطّة، حتّى النّهاية. حتّى لو تأذّت.. قليلا. لقد مرّت بأيّام عصيبة مؤخّرا.. إصابة بالكرة في الرّأس، شتيمة بذيئة على جدارها، وجرح يشوّه وجهها. لكنّ كلّ ذلك لم يفتّ من عضدها. ولا يبدو أنّها تنوي الرّحيل في القريب!

لم يعتقد أنّها سترد الهجمة، بتلك السّلاسة والقوّة. كان قد رجع من المكتب، وخرج إلى الشّرفة، حيث تعوّد أن يقرأ كلّ عصر. فاجأه المشهد في الحديقة الخلفيّة. لقد سمع كلّ كلمة قالتها، وأحسّ بقشعريرة باردة تسري في جسده. عليه أن يعترف، لقد كانت مؤثّرة. وتلك العبرات التي أوشكت على السّقوط.. مقنعة تماما! لو أنّه كان يجهل دوافعها، لكان سقط في الفخّ، مثل كلّ الآخرين.

ابتسم في سخرية. ليست هيّنة. ليست هيّنة أبدا. يبدو أنّ المعركة ستكون أكثر إثارة. لا بأس. سيزيد ذلك من المتعة.

انتبه على طرقات سريعة على بابه. طرقات مستعجلة ونافدة الصّبر. ترك الكتاب الذي لم يقرأ منه حرفا بعد وسار إلى الباب. جاء دوره ليشعر بالصّدمة. لم يتوقّع أن يجدها أمامه. كانت تبدو هشّة.. وعلى وشك البكاء. والضّمادة البيضاء على وجنتها تذكّره بحادثة الأمس. سألته دون مقدّمات، بصوت مرتجف أربكه:

ـ هل سبق أن التقينا؟

ـ عفوا؟

- أقصد.. حنان وأنا.. هل سبق أن التقينا؟

تبدو الإجابة على ذلك السّؤال البسيط مصيريّة بالنّسبة إليها. لكنّه لا يفهم. لماذا تطرح عليه سؤالا مثل هذا؟ إن كانت قد التقت بها، فلا شكّ أنّها تعرف، كطرف في اللّقاء. لكنّ ملامحها تقول بأنّها لا تعرف الجواب. قال في حذر:

- ألا.. تذكرين؟

لقد تطلّب منها الأمر شجاعة كبيرة، لتقدم على تلك الخطوة.. أن تطلب مساعدة من عدوّها لتوضيح ما تشوّش من ذكرياتها. لكنّه يردّ على سؤالها بسؤال آخر. نعم، إنّها لا تذكر. لكنّ الاعتراف بذلك أمامه يزعجها. لم تكن قد تحدّثت عن حادثتها تلك مع أحد قبل ذلك. وهذا ليس الوقت المناسب لتشرح. قالت مبرّرة:

- إن كانت قد سافرت إلى سويسرا، كما سمعت.. فمن الطبيعيّ أن يكون زوجها مرافقا لها.. لذلك أسألك. هل التقينا أثناء رحلتها إلى سويسرا؟

- نعم.. لقد التقينا.

- شكرا.

تنهّدت، ثمّ استدارت مغادرة. لكنّها توقّفت فجأة. لم يقل «التقيتما».. بل «التقينا»! إذن، لقد التقت فراس أيضا في سويسرا؟! التفتت إليه مجدّدا، فلمحت تلك الابتسامة السّاخرة عينها. لقد كشفت نفسك يا ليلى. ما الذي جرى بالضبط أثناء تلك الزّيارة؟ هل حصل ما يبرّر تلك العداوة السّافرة التي يكنّها لها؟ تدفّقت الاستنتاجات إلى ذهنها بسرعة متواترة. حتّى وصلت إلى مضيق بلا منفذ. سألت في اضطراب:

- أنت تعلم.. بشأن الحادثة التي تعرّضت إليها؟

بكلّ هدوء، أومأ برأسه علامة الإيجاب، فشعرت بالدّماء تنسحب من وجهها. إنّه يعرف أكثر منها بالتّأكيد. هل ينبغي لها أن تسأله، عن سبب عداوتهما؟ إنّها تدرك أنّ هناك شيئا ما خاطئا منذ البداية. لكنّها لم تستطع أن تستفسر أكثر.

حين غادرت، أغلق فراس بابه واتكأ عليه في سرحان. إنّها لا تذكر! عبس مفكّرا. إن ذلك يفتح أبوابا لا نهاية لها من الاحتمالات.. وهو لم يعد يعرف في أيّ الاتّجاهات عليه أن يمضي! لكن من المؤكّد أنّه يشعر بالسّخف في هذه اللّحظة. لقد كان عدوانيّا بلا مبرّر في نظرها. وهو الذي اعتقد أنّها قد جاءت بنيّة مسبقة بتحويل حياته إلى جحيم!

ما الذي ستفعله الآن يا فراس؟

من المجحف أن يواصل خطّته الهجوميّة الشرسة، وهي لا تذكر شيئا عن لقائهما السّابق. يمكنه أن يطلب هدنة.. استراحة محارب. فإذا ما حصل وتذكّرت، تصرّف بما يقتضيه الوضع. هكذا أفضل.

***

أغلقت ليلى باب غرفتها وهي تتنفّس باضطراب. لقد وقف على نقطة ضعفها. أغمضت عينيها وتنفّست بعمق، لتسيطر على رغبتها في البكاء. أنت قويّة يا ليلى، أقوى من أن تهزّك مسألة عابرة كهذه.

لقد شكّل قصور ذاكرتها معضلة حقيقيّة في السّنوات الماضية. منذ حادثتها، اختلف كلّ شيء. كانت طالبة متفوّقة على الدّوام. لكنّها بعد إصابتها في رأسها، وجدت صعوبات جمّة. لم يعد حفظ نصوص القانون بالبساطة التي كان عليها. بل تحتّم عليها أن تدرس

طيلة فترة نقاهتها، لتستعيد ما تسرّب من ذاكرتها من محاضرات. ثمّ تضطرّ إلى تغيير الكليّة، بعد أن فقدت الرّغبة في الاستمرار. كان عليها أن تبذل جهدا مضاعفا عن العادة بعد ذلك في كلّ سنة، لتحافظ على تفوّقها الذي كان يأتي يسيرا وتلقائيّا في السّابق.

كانت كلّما عانت من تلك الثّقوب في ذاكرتها سألت والدها. فكان يبتسم، ولا يردّ. بل يعود وبين يديه رزمة من الصّور. لقد كانت لديه تلك العادة القديمة بتوثيق كلّ حدث بالصّور. وقد كان ذلك مفيدا في حالتها. كلّما تعسّر عليها تذكّر وجه ما أو حدث ما، كانت لديه الصّور التي تثبّت الحدث من جديد في موضعه، فلا تنساه بعد ذلك.

لو أنّه كان هنا معها، أتراه كان ليستظهر بمجموعة صور تجمعها بحنان في زيارتها لجينيف؟ لا شكّ أنّه كان ليفعل.

هاجمها الصّداع، فاستلقت على السّرير وأغمضت عينيها. فكّرت قبل أن يغلبها النّعاس.. لا شكّ أنّ لقاءها بحنان قد كان مميّزا آنذاك. ليتها تتذكر تفاصيل اللّقاء، دون صور.

كان أسبوعها التّالي أسبوع الهدايا.

فاجأتها السيّدة الكبيرة وهي تدخل عليها مكتبها في الجمعيّة، وتضع بين كفّيها قرصا مضغوطا، لمدائح الطّريقة القادريّة!

- عوّدي أذنك على نغمة المدائح، واتركي لقلبك العنان. ستتسلّل الرّاحة إليك، وستشعرين مع الوقت بطاقتك الرّوحيّة تتجدّد!

لم تكن قد كرّرت عليها الدّعوة لمرافقتها إلى جلسات السّماع الصّوفيّة. لكنّها كانت تلمح في عينيها رغبة عارمة في شدّها إلى عالمها أكثر. كان يحزّ في نفسها ألّا تجد تجربتها الرّوحيّة العميقة صدى في نفس حفيدتها الأثيرة. لذلك رأت أن تجلب التّجربة إليها!

في الغد، تطرّقت إلى الموضوع مع وداد، بعد أن أنهت حصّة العربيّة. كان ذلك أسبوعها الأخير مع القاعدة النّورانيّة، وكانت صلتها بمدرّستها قد توثّقت كثيرا لتواصلهما اليوميّ المستمرّ منذ شهر.

كانت علاقتهما تختلف عن العلاقة التّقليديّة بين مدرّسة وطالبتها، نظرا لتقاربهما في السنّ، ولأنّ دروسها كانت خاصّة، بلا طلبة آخرين يشاركونها اهتمام المدرّسة ويأخذون من وقتها، ولطبع وداد التي نالت من اسمها نصيبا وافرا. لذلك، فقد كانتا تنخرطان في نقاشات فرعيّة بعد الانتهاء من الدّرس وأثناءه أحيانا.. فتستمرّ الدّردشة بعد انتهاء السّاعة المخصّصة للحصّة. كانت ليلى تسأل في الغالب، ووداد تجيب بصبر ورحابة صدر.

كانت أسئلتها في البداية تقتصر على اللّغة. تستفسر عن كلمات غير مفهومة في مقال في جريدة التقطتها عفوا من المنضدة بعد أن خلّفها

خالها في البهو، أو عن معنى لافتة لاحظتها على طريقها إلى المدرسة، وأحيانا أخرى عن مقولة سمعتها على لسان جدّتها أو صدرت عن بعض سكّان القصر، ولم تجد الفرصة لتستوضح بشأنها. ثمّ تدرّجت النقاشات إلى مسالك متشعّبة.

حكت ذلك اليوم لمدرّستها عن زيارتها لمقام الوليّ الصّالح، وعن قرص المدائح الذي أهدتها إيّاه الجدّة، فامتقع وجه وداد. قالت في حرج:

- لا شكّ أنّ نيّة الحاجة فريدة سليمة، لكنّني لا أنصحك بالعودة إلى هناك.. التوسّل بالأولياء شرك بالله!

كان تعليقها صادما. حتّى تلك اللّحظة، كانت الحاجّة فريدة ووداد على المركب نفسه بالنّسبة إلى ليلى. كانت هناك معطيات كثيرة توجّهها إلى ذلك الاستنتاج. المدرسة القرآنيّة التي أسسّتها الأولى وتعمل في كنفها الثّانية، غطاء الرّأس الذي تضعه كلتاهما، والأسلوب المحافظ الذي لمسته في معاملاتهما. لكنّها لمست ذلك اليوم أوّل الفروقات، وهو شرخ عميق في حقيقة الأمر.. فما تعتبره الأولى نشاطا روحانيّا عميقا، وصفته الثّانية بكونه شركا بالله!

في نهاية الأسبوع، بادرتها وداد، بمكافأة لإنهائها دورة القاعدة النّورانيّة بكفاءة، بعد شهر واحد. حين فتحت الهديّة المغلّفة، وجدت مصحف تجويد كانت وداد تعتمد عليه في حفظها، وكتيّبات دعويّة عن المسائل العقديّة المختلفة. قالت بابتسامة:

- لقد أصبح نطقك للعربيّة أفضل بكثير الآن. إن أردت الشّروع في دورة التّجويد، فأنت مؤهّلة لذلك!

تلقّت الهديّة شاكرة، لكنّها لم تفكّر في اقتراحها بجدّيّة. لقد كان هدفها واضحا من الالتحاق بالدّورة. ولم يكن تعلّم التّجويد

يعني لها شيئا. ما تطمح إليه الآن هو إتقان علوم النّحو والصّرف، وهذا لم يكن في نطاق اختصاص وداد. ودّعتها ذلك اليوم، فشدّت المدرّسة على كفّيها بقوّة، ثمّ احتضنتها دامعة، وتمنّت أن تراها قريبا.

وكانت الهديّة الثالثة من أمين!

رجعت ذلك اليوم من درسها متأخّرة عن العادة. كان وداع وداد طويلا ومؤثّرا، ولم تفلتها حتّى أخذت منها وعدا بزيارة المدرسة القرآنيّة كلّما سنحت الفرصة. صادفت أمين وهي تصعد درجات السلّم المؤدّي إلى الطّابق الأوّل. ألقى نظرة فضوليّة على الهديّة المغلّفة بين كفّيها، فحدّثته عن انتهاء دورتها. هتف مهنّئا:

- هذا حدث يستحقّ الاحتفال! انتظري هديّتي إذن.

في المساء، طرق بابها وبين يديه كتاب. ديوان شعر أبي القاسم الشّابي، أغاني الحياة. هتفت مصعوقة:

- شعر!

كان جلّ ما خطر ببالها، الشّعر الجاهليّ القديم، بمفرداته المعقّدة وصوره الشعرية الملتوية. قال أمين مطمئنا:

- أبو القاسم الشابيّ لغته بسيطة وقريبة من القلب، لن تجدي صعوبة في فهمها. كما أنّ كتاباته رومانسيّة وطوباويّة.

- طوبا.. ماذا؟

- طوباويّة! بمعنى مثاليّة ومتعلّقة بالمبادئ.. شعر وطنيّ وإنسانيّ، لا يسعك إلّا الذّوبان أمام عذوبته!

ابتسمت، هكذا إذن. وصلت إلى بيت القصيد. الشّعر الوطنيّ. هذا كلّ ما يعني أمين الآن. الثّورة، وحسّ المواطنة. لمَ لا؟ بوسعها أن

تجـرّب.

تلقّـت هداياهـا بتفـاؤل وانبسـاط. فكّـرت في مـرح أنّ فـكّ شـيفرة مفـردات العطايـا الثـلاث سيشـكّل إضافـة قيّمـة لمعجـم اللّغـة العربيّـة لديهـا. لـم تفتهـا بالطّبـع النيّـة الخفيّـة الـتي بيّتهـا كلّ منهـم وهـو ينتقـي هدّيتـه بعنايـة! كانـت جدّتهـا ترغـب في استمالتها إلى طريقتهـا الرّوحانيّـة، ووداد ترجـو شـدّها إلى ثقافتهـا الدّينيّـة المحافظـة، وأمـين يريـد إقناعهـا برؤيتـه السّياسـيّة ومـا يؤمـن بـه مـن حـقّ الشّـعوب في تقريـر مصيرهـا. كان كلّ واحـد منهـم يحسـبها طينـة طازجـة وطيّعـة، قابلـة للتّشـكيل، وامتصـاص قناعـات جديـدة. ابتسـمت عنـد ذلـك الخاطـر. فليكـن. لـم تكـن في نيّتهـا أن تلفـظ ثقافـة موطنهـا الـتي أخـذت ترتشـفها بجرعـات متفرّقـة عـلى امتـداد الشّـهر المنقـضي. يمكنهـا أن تفتـح ذراعيهـا للصّوفيّة والمحافظـة والثّـورة، تكتشـف مزايـا كلّ منهـا، تنتقـي طريقهـا، أو تقطـف مـن كلّ بسـتان زهـرة، أو ترفضهـا جميعـا.. بعـد أن تلقـي نظـرة عـن كثـب.

كانـت ردّة فعـل والدهـا مشـجّعة. حـين حدّثتـه عـن أسـبوعها الحافـل، حثّهـا عـلى خـوض التّجربـة دون توقّعـات أو أحـكام مسـبقة.

- كلّمـا خفـت صـوت التوقّعـات في داخلـك كان التّحصيـل ذا جـودة أعـلى!

هزّت رأسها، وسألت:

- من أين أبدأ؟

- تدرّجـي عـلى سـلّم الصّعوبـة.. شـعر الشّـابي أوّلا، ثـمّ المدائـح الصّوفيّـة، أمّـا القـرآن فهـو أعـلى بلاغـة مـن حيـث اللّفـظ، وأكـثر دسـامة مـن حيـث المضمـون، ويحتـاج وقتـا أطـول لفهمـه.. اتركيـه لمرحلـة متقدّمـة.

حـين رجعـت إلى غرفتهـا، لـم تقـاوم رغبـة في وضـع القـرص في جهازهـا،

وتشغيل شريط المدائح. استلقت على السّرير، وأغمضت عينيها، وتخيّلت الأجواء في المقام. لم تكن تخالف نصيحة والدها، فهي لا تحاول استيعاب الكلمات، بقدر ما أرادت أن تخوض التّجربة التي تمنّعت أمامها في اللّقاء الأوّل. لقد قاومت النّغمة الشجيّة للنّشيد ورفضت الاستسلام لها أثناء تواجدها في الحضرة. غلبها الفضول تجاه المكان والأشخاص وعزلها عن الصّوت الذي من المفترض أن يكون مركز الحدث. فكّرت، سترى إن كانت هناك سلالم روحيّة ما يمكنها أن ترتقي درجاتها، إذا ما تركت لقلبها العنان!

بعد دقائق قليلة، غلبها النّعاس فغفت.

***

كانت تقضي جلّ صباحاتها في الجمعيّة الخيريّة. تعوّدت سميرة على إطلالتها اليوميّة، وألف المتطوّعون ملامحها وابتساماتها التي توزّعها بسخاء في مرورها من وإلى مكتبها. كان العمل كثيرا ومرهقا. إنّها بالتّأكيد لم تكن لتتخيّل مقدار الجهد الذي يُبذل في كواليس النّشاط الخيريّ. منذ تقدّم المتبرّع بعطيّته وحتّى وصولها إلى من يستحقّها، كانت هناك مراحل عدّة ومعقّدة.

بعد حصر التبرّعات وفرزها، كانت هناك مرحلة التّدقيق في قائمات المستحقّين. كان هناك فريق آخر، غير المتردّدين على مقرّ الجمعيّة، مهمّته التّواصل مع المستفيدين من التبرّعات، النّظر في ظروفهم الشخصيّة ومدى أهليّتهم للحصول على المساعدات، المبالغ المطلوبة لكلّ حالة، والاحتياجات الخاصّة بكلّ فرد من أفراد العائلة. بعض العائلات لا عائل لها، ولا تجد حتّى سقفا يؤويها، وتهتمّ

الجمعيّة بتوفير المسكن اللّائق والمأكل والملبس، وحتّى بالتّأطير النفسيّ والتربويّ للأطفال.. ومن أجل ذلك، تتواصل مع شبكة من المدرّسين والأطبّاء والأخصائيّين، لتقديم خدمات مجانيّة.

كان تواجدها في قلب المؤسسة التي تمسك بكلّ الخيوط وتنظّم تعاطي بعضها مع بعض مثيرا. كانت معاملاتها في البداية تقتصر على الملفات. لم تصدّق أنّ جدّتها كانت تُشرف بنفسها على مراجعة الدّفاتر حتّى وقت قريب! كان من اليسير أن تتوه، بين الأسماء المتشابهة والأرقام والفواصل. والمكوث أمام الشّاشة لوقت طويل، كان يوقظ صداعها القديم. فشرعت بعد فترة في أخذ استراحات متباعدة، أثناء تواجدها في المبنى، لتشارك في عمليّة الفرز أو تستقبل بنفسها التبرّعات العينيّة، وأحيانا ما كانت تردّ على الاتّصالات الهاتفيّة حين تغادر سميرة مكتبها.

وفي ذلك اليوم، كانت قد وقفت تتجوّل بين الغرف، لتحرّك أطرافها وتريح ذهنها، حين وصلت شاحنة بحمولة من الملابس المستعملة. دون تردّد، وجدت نفسها تنضمّ إلى فرقة التفريغ والتخزين. تكوّنت سلسلة من المتطوّعين، تربط بين الشّاحنة الرّابضة عند المدخل، وتنتهي في غرفة التخزين عندها. كانت ليلى منغمسة في مهمّتها، ترفع كمّي سترتها إلى مرفقيها، بعد أن تخلّصت من حذائها ذي الكعب العالي، وترصف الصّناديق في جدّ، وقد سالت قطرات العرق على جانبي وجهها وتهوّش شعرها الذي تمسكه فوق رأسها بقلم حبر، حتّى لا ينسدل على عينيها. فوجئت، حين نادتها سميرة:

ـ آنستي، هناك من يريدك!

نفضت كفّيها من غبار الصّناديق، ودارت ببصرها تبحث عن حذائها. عندئذ، ظهر فراس أمامها. تبادلا نظرة طويلة دهشة، قبل

أن يقـول فـراس:

- أين الحاجّة فريدة؟

قالت في حرج:

- أنا أنوبها في الوقت الحالي.. هل أخدمك بشيء؟

سـارت حافيـة القدمـين، متنقّلـة بـين الغـرف، دون أن تجد أثـرا للحذاء، وفـراس يسـير عـلى إثرهـا، حـتّى وصلـت إلى غرفـة المكتـب. كان حذاؤهـا هنـاك، تحـت المقعـد. لبسـته بسرعـة ثـمّ دخلـت الحمّـام الملحـق. غسـلت يديهـا ووجههـا، وأعـادت تصفيـف خصلاتهـا النّافـرة في ضيـق. توقيتـه ممتـاز! لـم يكـن بإمكانـه أن يراهـا في وضـع أسـوأ.. إلّا وهـي تسـتيقظ مـن النّـوم.

عـادت إلى المكتـب، بعـد أن نفضـت سـترتها وأعـادت إلى هندامهـا رونقـه. جلسـت خلـف المكتـب، وهـي ترصـد عـلى وجهـه علامـات الاسـتخفاف والسّـخرية. لدهشـتها، لـم تجـد لأيّ منهـا أثـرا. يبدو مسـالما عـلى غـير العـادة. تحـدّث بجدّيـة بمـا يسـتدعيه الموقـف، ولـم يحرجهـا أمـام موظّفـي الجمعيّـة. كان بـين يديـه ملـف ورسـومات، مخطّط توسـعة مدرسـة ريفيّـة عـلى المنطقـة الحدوديّـة. كانـت الجمعيّـة تهتـمّ بتأمـين مـشروع البنـاء، وتكفّـل فـراس بإعـداد الرّسـم الهنـدسيّ، بنـاء عـلى طلـب الجـدّة. هـزّت رأسـها في اهتمـام:

- يمكنك تركه هنا.. قد تصل السّيدة الكبيرة في أيّة لحظة.

شـعرت بـتردّده، أو لعـلّ تعليقـا لاذعـا كان عـلى طـرف لسـانه؟ لكنّـه أومـأ أخـيرا وهـو يضـع الملـفّ عـلى مكتبهـا وانـصرف دون كلمـة إضافيّـة.

***

انتظرها في الشّرفة، عصر ذلك اليوم، واليوم الذي يليه. لكنّها لم تظهر. لا زال يذكر مراجعتها للعربيّة في شرفتها، ذات عصر مضى، ويترقّب أن تعود لذلك مرّة أخرى. من جهته، كان قد التزم بالهدنة التي أعلنها بينه وبين نفسه.. لكن الفرصة لم تواتِ بعد ليعلنها أمامها.

عدا جسارتها المفاجئة حين طرقت باب غرفته تلك المرّة، فإنّهما لم يتحدّثا بشيء منذ ذلك الحين. حتّى أنّها لم تسأل عن التّصاميم التي ادّعى يوم حفلة الشّواء أنّه تركها على المكتب! وقد كانت صدفة لقائها في مقرّ الجمعيّة غير متوقّعة على الإطلاق. ما الذي أخذها إلى هناك؟ وكيف تكون نائبة الرّئيسة؟ ومنذ متى؟ لقد كانت رسميّة وصارمة وهي تحدّثه، مخلصة للدّور الذي تتقمّصه. لا يمكن لأحد يراهما هناك أن يتوقّع سابق معرفة بينهما، ناهيك عن كونهما يعيشان تحت سقف واحد! احترم رغبتها، وتجنّب أيّ حديث شخصيّ. كان عليه تأجيل ما بجعبته من كلام إلى لقاء آخر.

قرّر ذلك اليوم، إن لم تظهر في اليوم الثّالث، فسيطرق باب غرفتها. كان عليه أن يسلّمها التّصاميم في نهاية الأمر!

في عصر اليوم الثالث، سمع بوّابة شرفتها تفتح. حبس أنفاسه وانتظر. لم تمض ثوانٍ حتّى أتاه صوتها. شرعت تهجّئ الحروف ببطء. لم تكن مقاطع متناثرة مثل المرّة الماضية. كانت الحركات أكثر وضوحا، ورغم بطء قراءتها، فإنّها مستقيمة. اختفت اللّكنة الأجنبيّة تماما. انتظمت الحروف والمقاطع على لسانها، ثمّ أخذت تربط فيما بينها، وتعيد قراءة الكلمة بسلاسة أكبر. ثمّ تمرّ إلى التّالية، فالتّالية. استغرق بضع دقائق، يفكّ معها أحجية الكلمات المبعثرة، حتّى أدرك أنّها كانت تقرأ شعرا! كانت أبياتا من قصيدة الطّفولة، لأبي القاسم الشّابّي:

للهِ مَا أَحْلى الطُّفولَة إنَّها حلمُ الحياةْ
عهدٌ كَمَعْسولِ الرُّؤى مَا بينَ أجنحَةِ السُّبَاتْ

توقّفت فجأة، وتمتمت في حيرة:

- رؤى؟ سبات؟ هل هذا ما يبدو عليه الشّعر السّهل والبسيط؟

ابتسم، وهو يستمع إلى تأففها. ثمّ تناهى إليه صوت حفيف الورق وأصابعها تطوي صفحات الكتاب، تتوقّف كلّ فترة وتلقي نظرة على مطلع القصيدة، ثمّ تستمرّ في التصفّح. بعد ثوانٍ طويلة، أخذت تقرأ من جديد:

إذا الشّعبُ يَوْمَاً أرَادَ الْحَيَاةَ فلا بدّ أن يستجيب القدرْ
ولا بُدَّ لِلَّيْلِ أنْ يَنْجَلِي وَلا بُدَّ للقَيْدِ أَنْ يَنْكَسِر
وَمَنْ لَمْ يُعَانِقْهُ شَوْقُ الْحَيَاةِ تَبَخَّرَ في جَوِّهَا وَانْدَثَر
فَوَيْلٌ لِمَنْ لَمْ تَشُقْهُ الْحَيَاة مِنْ صَفْعَةِ العَدَم المُنْتَصِر

أخذت تتلو الأبيات بصوت خافت، بسرعة ووضوح أكبر، وتكرّرها بانبهار، وكأنّها تنزع طبقات من الأغلفة المتراكمة فوق النصّ، فتصل إلى درجة أعمق من الفهم بعد كلّ قراءة. أنصت إليها في شغف. مع أنّها كانت تقرأ لنفسها، وتحاذر أن ترفع صوتها، حتّى لا يصل إلى جيرانها، فإنّه شعر أنّها بشكل ما تقرأ من أجله، ليسمع! وجد نفسه يُصغي باهتمام، كمن يتلقّى درسا في محاضرة، ليرتقي هو الآخر عبر درجات الفهم.

إنّه يحفظ تلك الأبيات عن ظهر قلب، كما يفعل كلّ تونسيّ تقريبا. تلك الأبيات من مطلع قصيدة «إرادة الحياة»، جزء من النّشيد الوطني الذي يتربّى الأطفال على الصّدح به كلّ صباح أثناء تحيّة العلم. ولعلّ ليلى نفسها قد اعتادت الاستماع إليه في

المناسبات الرّسميّة، لكنّ اللّحن العسكريّ الصّارم كان يطغى على الكلمات، ويسرق رونقها ويفقدها سحرها. لم تبد القصيدة عميقة وصادقة، إلّا وهو يعيد اكتشافها بعيني طفل، عبر عيني الطّفلة التي كانتها ليلى في تلك اللّحظة، عينين متّسعتين دهشة أمام بلاغة لغتها الأمّ المهجورة والمنسيّة. ما بدا له قديما نشيدا أجوف، يتدرّب على إلقائه بشكل آليّ، مكتفيا بظاهر الحرف دون ولوج إلى باطن الكلمات، تجلّى أمام عينيه سيمفونيّة من المعاني! يمكنه أن يتماهى تماما مع انبهارها، ويشعر بصدى الأبيات في صدره.

يا الله! لقد نسي تماما، ومنذ دهر، كيف يكون شوق الحياة! الويل له، كلّ الويل، من صفعة العدم المنتصر! هل يمكنه أن ينكر؟ لقد انتصر عليه العدم، حتّى بات آلة تتحرّك بلا هدف. لو أنّه اختار الحياة يوما، هل يمكن لقدره أن يستجيب؟ وهل يمكن لقيود الماضي التي تكبّل معصميه وتشلّ حركته أن تنكسر؟ بأيّ قوّة؟

سمعها تقول، وهي تتنهّد مغلقة كتابها:

- إرادة الحياة!

تسمّر في مكانه مصعوقا. هل كانت تردّ على سؤاله الصّامت؟ إرادة الحياة! من أين يأتي بإرادة الحياة، وهو الذي كره الحياة بكلّ تجلّياتها!

كانت قد أنهت قراءتها، وبقيت هناك في سكينة. استمرّ ساكنا بدوره لدقائق تلت، وقد استغرقه تأمّل مفاجئ في ما آلت إليه حياته، منذ تلك الحادثة. ثم انتبه إلى الصّمت الذي يغلّف الجلسة. كان بإمكانه أن يسمع بوضوح شقشقة العصافير ورفرفتها، على الشّجرة القريبة، ويمكنه أيضا أن يصل بسمعه إلى خرير المياه المتدفّقة من فوّهة النّافورة، على الجهة الأخرى. أدهشه أن تتسلّل تلك الأصوات إلى

معتزله. لم يكن في السّابق يلقي بالا إلى أصوات الحياة من حوله. لم يصغ يوما إلى أيّ صوت، عدا صوته الدّاخليّ، المرهق والمنكسر. الحياة؟ لم تكن تعني له مظاهرها في محيطه شيئا! حتّى وصلت تلك الجارة المزعجة، واقتحمت بحضورها المستتر فضاءه الخاصّ.

تساءل فجأة.. فيمَ تراها تفكّر؟ لقد استمرّ سكونها طويلا. هل تكون قد غفت؟ استجاب لاندفاع متسرّع وتلفّظ باسمها:

- ليلى؟

أحسّ بفزعها، واضطراب حركتها. لعلّها تساءلت منذ متى وهو هناك؟ ردّت بصوت خافت:

- نعم؟

قال بسرعة:

- التّصاميم.. لقد نسيت أن أسلّمك إيّاها.

ثمّ لفّ أوراقه ودفعها إلى شرفتها من وراء الحاجز. بعد تردّد قصير، امتدّت كفّها لتلتقط الأوراق. لم يكن يراها، ولم تكن تراه. لعلّ ذلك أورثها بعض الارتياح. مضت دقائق أخرى من الصّمت، لم يسمع خلالها سوى حفيف الأوراق وليلى تتصفّحها باهتمام.

- سلمت.. عمل جيّد.

ابتسم في رضا. لكنّ ذلك لم يكن كلّ شيء.

- لكنّني أرغب في بعض التّعديلات.. سأرسم العلامات على التّصميم.. إذا سمحت.

- طبعا.. هاك القلم.

مرّر إليها القلم أيضا من وراء الحاجز. الآن يسمع خربشة القلم على الورق. بعد لحظات، ظهر طرف الورق من جانبه.

ـ تفضّل.

ألقى نظرة سريعة على ملاحظاتها، ثمّ هزّ رأسه وقال:

ـ حسن.. لك ذلك.

جمع الأوراق ووضعها جانبا. انقطع حبل الحديث. ولعلّ كليهما فكّر أنّه يجدر به الانصراف. لكنّ أحدهما لم يفعل. سألها فجأة:

ـ هل فقدت ذاكرتك بعد الحادثة؟

تردّدت. لم تكن تحبّ إثارة الموضوع. قالت في حرج:

ـ نوعا ما. أحيانا يكون من العسير تذكّر بعض الأحداث، أو الوجوه.. وكثيرا ما أستعين بالصّور لاستحضار المشاهد.

ـ أنت واثقة أنّك تستعدين المشاهد من ذاكرتك.. ولا تخلقين ذاكرة بديلة؟

بهتت لتلك الملاحظة. هل هي واثقة؟ لقد خيّل إليها أنّ كفاءة ذاكرتها تتحسّن بمجرّد اطّلاعها على الصّور واستماعها إلى شرح والدها بشأنها. لم تفكّر أنّها تتحايل على ضعفها، وتملأ الفراغ بمشاهد من نسج خيالها، تتوافق مع ما تراه في الصّور! تمتمت في حيرة:

ـ لا أدري!

ـ أنت لا تذكرين شيئا.. عن حنان؟ وعن الحادثة؟

ـ للأسف، ذلك الجزء ممسوح تماما.. ولم تكن هناك صور لتلك الفترة في ألبوماتي.

ـ من المؤكّد أنّ هناك بعض الصّور. لكن لعلّ عمّي نجيب لم يرد إطلاعك عليها؟ لعلّ ذلك أفضل.. أن تنسي الحادثة وما زامنها من ألم!

والدها لم يرد لها أن تتذكّر لقاءها بحنان؟ وحادثتها؟ هل كان

ذلك الاختيار الأفضل من أجل مصلحتها؟ سمعت فراس يضيف:

- قد يكون النّسيان نعمة، من حيث لا تدرين!

لم تكن قد تناولت مأساتها من تلك الزّاوية. كانت تعيش نقاهتها بنزعة دراميّة. لقد فقدت مخزونا من الذّكريات التي تمثّل جزءا من ذاتها، لذلك يهيّأ إليها أن كيانها منقوص، وأنّ حياتها المعيشة مشوّهة، لأنّها طبقة هشّة من الوجود، لا تقوم على تراكم متين لحوادث السّنوات الخالية.

- في الحقيقة، لقد كان أمرا مزعجا.. أن تلتقي أشخاصا فلا تتعرّف عليهم، ويتحدّث الآخرون عن أحداث لا تذكر عنها شيئا.. لم أفكّر من قبل في أنّ النّسيان قد يكون نعمة!

قال فراس متهكّما:

- اسأليني أنا، أخبرك عن نعمة النّسيان! كلّ صباح، أتمنّى أن أستيقظ في مكان آخر، لا يعرفني فيه أحد، ولا أعرف فيه أحدا.. وقد مسحت ذاكرتي!

اتّسعت عيناها دهشة. يا للأمنية الغريبة! لطالما تمنّت هي العكس، أن تستيقظ ذات يوم لتجد ذاكرتها قد أعيدت تعبئتها بمخزون الذّكريات النّاقصة. تساءلت في حيرة، ما تكون المآسي التي عاشها، حتّى يتمنّى النّسيان المطلق؟ هل لذلك علاقة بحنان؟ فكّرت أنّ الفرصة سانحة لتسأل، لكنّها سمعته يواصل بنبرة حالمة:

- إعادة اكتشاف العالم، بعيون طفل.. لا شكّ أنّ ذلك ممتع!

حسنا. لقد كان ذلك ممتعا، في بعض الأحيان. والدها يقول إنّ ذوقها في الأكل قد تحسّن، وصارت تقبل على بعض الأطعمة التي كانت ترفضها في السّابق. لقد أعادت اكتشاف نفسها، وميولاتها، حتّى أنّها تركت دراسة القانون الذي قطعت فيه شوطا قبل حادثتها.

صارت النّصوص القانونيّة ثقيلة وعسيرة الفهم، بعد أن كانت على رأس دفعتها. وبعد أن حاولت في فترة نقاهتها مراجعة ما فاتها ودخول اختبارات نهاية السّنة، استسلمت وقرّرت التّخليّ عن مسارٍ تساءلت كثيرا إن كانت قد اختارته بملء إرادتها!

- عليّ أن أعترف.. من يراك لا يمكن أن يتعرّف إلى ليلى!

- عفوا؟

- أنت لا تذكرين لقاءنا في سويسرا.. لكنّني أذكر. ولهذا أجدك مختلفة الآن.. لقد عرفت حنان طوال سنواتها العشرين.. وعرفتك أيضا لفترة قصيرة.. لقد كنتما مختلفتين، أنت وحنان، من نواحٍ كثيرة.. لكنّك الآن نسخة ثالثة، كأنّما أنتنّ ثلاث شقيقات!

- هل.. أنا مختلفة إلى هذه الدّرجة؟

فكّر لبرهة ثمّ قال:

- لا شكّ أنّ الحادثة غيّرتك!

لقد غيّرته الحادثة أيضا. غيّرته قطعا. لكن ليس في نفس الاتّجاه. تنهّد وهو يضيف:

- ليتني أستطيع أيضا أن أتغيّر.. في اتّجاه السّكينة والطمأنينة!

- في أيّ اتّجاه تغيّرت؟

- في اتّجاه الفوضى والعبث!

أطلق ضحكة أخرى تخالطها مرارة جليّة. قالت في هدوء:

- وما يمنعك أن تسير في اتّجاه مختلف، الآن؟

هل تراه يستطيع؟ لو لم يكن يشغل نفسه بالعمل، ربّما كان فقد عقله منذ زمن. شرد لبعض الوقت. دقائق ربّما. يفكّر في حاله، وفي حياته التي توقّفت منذ تلك الحادثة. ثمّ انتبه. لماذا يحدّثها بكلّ

هذا؟ معاناته وحيرته التي لم يصارح بها أحدا من قبل؟ أنكر على نفسه لحظة ضعفه السّخيفة تلك.

دون صوت، غادر مكانه منسحبا إلى داخل الغرفة.

مرّة أخرى، تساءلت ليلى، بعد أن انقضت دقائق طويلة من السّكون على الجانب الآخر، هل يكون قد رحل؟ أطلّت بحذر على شرفته. كان قد اختفى. دلفت إلى غرفتها وكلماته الأخيرة تشغلها. لقد تغيّرت! لقد كانت تحاول النّبش في تاريخ توأمها لتتعرّف عليها أكثر.. لكنّها يوما بعد يوم تكتشف أنّها لا تعرف نفسها حتّى.

فكّرت، من يمكنها أن تسأل عن شخصيّتها القديمة؟ فهالها أن تكتشف القطيعة التّامّة بين ماضيها وحاضرها! لم يكن لديها أصدقاء مقرّبون فيما مضى، أم لعلّها فقدت صلتها بهم؟ لم تعد واثقة. كانت وحيدة، تماما، قبل أن تلتقي سحر على مقاعد المدرّج، في محاضرتها الأولى في كلّيّة الصّحافة. لعلّها صادقت آخرين في كلّيّة القانون؟ لكنّ شاشة هاتفها التي بقيت خالية من الاتّصالات الواردة خلال فترة نقاهتها، كانت شاهدة على خلوّ حياتها من الأصدقاء الحقيقيّين!

نعم، لقد صادفت نوعا آخر من الأصدقاء. يتوقّفون فجأة في ردهات الجامعة، يبدون دهشتهم من اختفائها، وكأنّهم يكتشفون غيابها للتوّ، عن حفلات النّادي ورحلة الاستجمام وملتقى السّفراء الشّبّان! لقد كانت محاطة في وقت مضى بتلك الوجوه المتملّقة والصّداقات المزيّفة. لكن هل كان أحد منهم يعرفها حقّا؟ لا تظنّ.

ذلك المساء، فتحت دفترها، وشطبت سطر فراس. كتبت اسمه من جديد في سطر فارغ، ووضعت أمامه علامة استفهام. ثمّ أضافت سطرا آخر، في رأسه اسم جديد:

ـ ليلى: من أنت؟

***

كان لقاء الأمس مصادفة. لكن لا يمكنها أن تدّعي أنّ خروجها إلى الشرفة عصر اليوم لم يأت بعد تفكير وتخمين وتردّد. ماذا لو كان هناك اليوم أيضا؟ تناولت الدّيوان وجلست في موضع الأمس بهدوء. أصاخت السّمع، لعلّها تشعر بوجوده من عدمه. لكنّها لم تجد حركة ولا نفسا. حتّى لو كان هناك، لن يمكنها أن تعرف. تخيّلت، لو أنّ فراس يستمع إليها الآن، أيّ رسالة تودّ أن توجّه إليه؟

قلّبت الصّفحات، ثمّ اختارت مقطعا من قصيدة «الصّباح الجديد» وشرعت تقرأ في خفوت مثل عادتها:

إنَّ سِحْرَ الحَيَاةْ   خَالِدٌ لَا يَزُولْ
فَعَلَامَ الشَّكَاةْ   مِنْ ظَلَامٍ يَحُولْ
ثُمَّ يَأْتِي الصَّبَاحْ   وتَمُرُّ الفُصُولْ
إنْ تَقَضَّى رَبِيعْ   سَوفَ يَأْتِي رَبِيعْ
اسْكُنِي يَا جِرَاحْ   واسْكُتِي يَا شُجُونْ

قرأت حتّى نهاية القصيدة، ثمّ توقّفت. أصغت مرّة أخرى. لا شيء. غادرت الشّرفة بهدوء كما دخلت.

في عصر اليوم التّالي، اختارت مقطعا آخر من مطلع «نشيد الجبّار»:

سَأَعِيشُ رغْمَ الدَّاءِ والأعْدَاءِ   كالنَّسْرِ فَوْقَ القِمَّةِ الشَّمَّاءِ
أَرْنُو إلَى الشَّمْسِ المُضِيئَةِ هَازِئًا   بالسُّحْبِ والأَمْطَارِ والأَنْوَاءِ

سألت نفسها ذلك المساء، بعد أن رجعت إلى غرفتها دون أن تسمع صوتا في الشّرفة المجاورة، ما الذي أنت بصدده بالضّبط يا ليلى؟ لقد كانت تعتبر فراس عدوّها منذ أيّام قليلة.. فلماذا هذا الاهتمام المفاجئ بأمره؟ هل تحاول أن ترفع من معنويّاته وتطيّب خاطره أم ماذا؟

قرّرت ألّا تخرج إلى الشرفة في اليوم الثالث.

بعد يومين من عزوفها عن الخروج إلى الشّرفة، نازعها خاطر آخر. هل ستغيّر نظام حياتها بسببه؟ ماذا لو كان في شرفته، وماذا لو لم يكن؟ ليس من المفترض أن يؤثّر ذلك عليها بشيء. لقد كفّ أذاه عنها في الأسبوع الأخير، واعتذر أيضا بعد حفلة الشّواء. يمكنها أن تعامله بشكل محايد. لقد كان مؤدّبا في المرّة الفارطة، ولم يسرف في الحديث أيضا. يمكنها أن تعتبر أنّه يدرك حدوده. إن كان موجودا في الشّرفة ولا يقاطعها احتراما لخصوصيّاتها، فهو أمر يُحمد له. وإن لم يكن موجودا أيضا، فذلك أفضل!

قرّرت أنّ بإمكانها أن تفعل ما تشاء منذ ذلك الحين، وألّا تضع حسابا لجارها غريب الأطوار. في اليوم السّادس، جلست في الشّرفة مثل العادة. لم تحاول أن تعرف إن كان فراس موجودا. أقنعت نفسها بأنّ الأمر لا يهمّها. كانت تقرأ في خفوت، حين ارتفع صوت منال قادما من الأسفل، من الحديقة.

- ليلى.. هل تريدين الانضمام؟

رفعت رأسها عن الدّيوان، فرأت منال ورانيا تلوّحان لها. كانتا تجمعان الورود في سلّة من الخيزران، وتصفّفها رانيا في عقود. ابتسمت وهتفت:

- حسنا.. أنا آتية!

في تلـك اللّحظـة، سـمعت صـوت بـاب الشّرفـة المجـاورة يفتـح، ثـمّ رأت منـال وهـي تلـوّح مـن جديـد:

ـ فراس، أنت هنا!

ـ لقد أيقظني صراخك.. أيّتها المزعجة!

ضحكـت منـال، وامتقـع وجـه ليـلى. أرأيـت؟ لـم يكـن هنـاك. مـا كان عليـك القلـق بشـأنه. وقفـت عـلى الفـور وأشـارت إلى منـال بكفّهـا: أنـا قادمـة، وغـادرت الشّرفـة دون كلمـة إضافيّـة.

***

لا يعلـم مـا الـذي أصابـه. كان الاسـتماع إلى إلقائهـا العفـويّ والمبتـدئ يشـعره بتحسّـن. لأوّل مـرّة منـذ زمـن بعيـد لا يـدرك مـدى سحقه، وجـد مصـدرا للاسـترخاء.. لا هـو موسـيقى كلاسـيكية ولا عـزف منفـرد عـلى العـود ولا مقطوعـة أوبـرا. كلّ تلـك المسـكّنات السّـابقة لـم تعـد تجـدي نفعـا. وقـد خـاف إن هـي عرفـت بوجـوده هنـاك كلّ عـصر أن تنقطـع عـن جلسـتها الشـعريّة المطمئنّـة. لذلـك كان يتظاهـر بالغيـاب، ولا يقاطعهـا. بشـكل مـا، كان يشـعر بالكلمـات تخاطبـه هـو دون غـيره. لـو أنّهـا تعمّـدت أن تنتقـي المقاطـع لتؤثّـر بـه، فقـد أجـادت الانتقـاء!

وفي ذلـك العـصر، وهـي تقـرأ مـن قصيـدة «الجنّـة الضّائعـة» انتابتـه رغبـة مفاجئـة بالبـكاء! حـين وصلـت إلى قـول الشّـاعر:

مَاذَا جَنَيْتَ مِنَ الحَيَاةْ   ومِنْ تَجَارِيبَ الدُّهُورْ

غَيْرَ النَّدَامَةِ والأَسَى   واليَأسِ والدَّمْعِ الغَزِيزْ

انتبـه إلى دقّـة وصـف الأبيـات لحالـه. ألـم تكـن حياتـه مزيجـا مصفّـى

من النّدم والحسرة واليّأس والبكاء على الأطلال؟ هل هذه هي غاية ما يسعى إليه؟ هل انتهت حياته عند ذلك الحدّ؟ انسحب على الفور إلى الدّاخل قبل أن يختنق بعبرته وينفضح وجوده. جلس على طرف السّرير، يتنفّس بسرعة واضطراب، وتساءل في جزع.. ما الذي فعلته بنفسك طيلة السّنوات الماضية يا فراس؟ كيف انتهيت إلى ما أنت عليه؟

بعد دقائق، كان قد هدأ. سمع صوت منال تنادي جارته. تردّد في الخروج، لكنّه غلب ارتباكه وقرّر الظهور. تعمّد أن يحدث صوتا صاخبا وهو يشرع باب الشّرفة المفتوح أصلا، كأنّه لم يكن هناك قطّ. بعد أن سمع خطواتها تغادر الشّرفة، هتفت منال:

- فراس، ألن تأتي؟

كان يهمّ بالانضمام إليهنّ في الحديقة، لكنّه أحجم فجأة. كان قد اعتاد ملاعبة رانيا ومشاركتها لهوها، في حضور منال غالبا.. لكنّه اليوم يشعر بأنّ مشاركته غير مناسبة. بدل ذلك، اتّخذ مقعده السّالف في الشّرفة، وتظاهر بالانشغال. بعد لحظات، لمح طيفها وهي تثب بخطوات واسعة في اتّجاه منال وابنتها. راقبها في شيء من الفضول. هذه قطعا ليست ليلى التي يعرفها. بل إنّها تذكّره بشخص آخر. تذكّره بحنان الطّفلة البريئة التي لم تدنّسها حياة الصّخب الجامحة والصداقات المشبوهة. لقد كانت يوما ما، تثب أمامه وتلهو بين الشجيرات، وتطلق ضحكة صافية فارقتها بعد ذلك إلى الأبد.

تنهّد، ثمّ قرّر أنّ عليه أن ينشغل عن التّفكير بهذا الأمر. قام وغيّر ثيابه. شيء من الجري سيكون مفيدا لمزاجه المتقلّب اليوم.

خرجـت في الصّبـاح، دون سـحر هـذه المـرّة. كانـت تنتظرهـا بعـض المهـامّ الجـادّة. مـرّت عـلى شـقّتها، حيـث كانـت أعمـال الهـدم واقتـلاع البـلاط القديـم قـد بـدأت كمـا وعـد فـراس. تفقّـدت المـكان، واطمأنّـت إلى أنّ التّعديـلات الـتي طلبتهـا قـد أضيفـت إلى التّصاميـم، ثـمّ انصرفـت. مـرّت عـلى وزارة التعليـم العـالي، حيـث قدّمـت طلبـا لمعادلـة شـهادتها مـن كليّـة الصّحافـة السـويسريّة، ثـمّ قصـدت مقرّ جريـدة في وسـط البلد، حيـث تنتظرهـا مقابلـة عمـل أولى. كانـت قـد اتّصلـت ببعـض المكاتـب في الأسـابيع الماضيـة وتقدّمـت بعـدد مـن الطلبـات، وحـدّدت لهـا مواعيـد المقابـلات تباعـا. لـم تكـن قـد تمكّنـت مـن لغـة الضّـاد بعـد، لذلـك فقـد ركّـزت عـلى الصّحـف النّاطقـة بلغـة «موليـير». فكّـرت أنّهـا قـد تعانـق لغتهـا الأمّ في وقـت لاحـق عـلى أعمـدة الجرائـد، حـين تجـد في نفسـها الثّقـة الكافيـة.

عند منتصف النّهار، اتّصلت بها سحر. بدا صوتها قلقا.

ـ هل يمكنك المجيء؟ هناك أمر هامّ ينبغي أن أخبرك به.

مـرّت إليهـا عـدوى القلـق، فاسـتقلّت سـيّارة أجـرة عـلى الفـور إلى مـنزل سـحر. كان الحـيّ أقـلّ بثّـا للرّعـب في فؤادهـا هـذه المـرّة، أو لعلّهـا تعـوّدت عـلى المشـهد، فمـا عـاد يؤثّـر بهـا. وصلـت إلى الزّقـاق الـذي حفظـت موقعـه وطرقـت عـلى بـاب المـنزل.

اسـتقبلتها والـدة سـحر بنفـس الحفـاوة، وقادتهـا إلى غرفـة داخليّـة. كان مأمـون وسـحر يجلسـان معـا عـلى الأريكـة، وقـد بـدا عـلى ملامحهمـا الجدّيّـة.

ـ ليلى، أعتذر إن كنت أفزعتك.. لكنّ مأمون أصرّ على قدومك الآن، للأهمّيّة القصوى.

شرحت سحر. مأمون تطوّع في فترة إجازته للعمل مع جمعيّة مدنيّة تتحرّى قضايا الفساد، تتلقّى الشّكاوى من المواطنين، ترصدها وتجمع الوثائق الممكنة، ثمّ ترفعها إلى الهيئات الحكوميّة المختصّة. مساهمة من القوى الشّعبيّة في تيسير عمل الدّولة. أومأت ليلى برأسها في انتباه. كانت متأهّبة للاستماع إلى الأسوأ وقد استنفرت كلّ حواسّها. قال مأمون أخيرا:

ـ ليلى، الدّور القادم على خالك.

ـ ماذا تعني؟

ـ لقد ورد اسمه في قائمات رجال الأعمال الفاسدين المرفوعة للهيئة الوطنيّة لمكافحة الفساد. والدّعاوى ترفع تباعا لدى المحكمة.. إنّها مسألة وقت وحسب قبل أن يصله الدّور.

ـ والمطلوب منّي؟

قالت في عدوانيّة غير مبرّرة، وقد شعرت بأنّها مستهدفة بشكل ما.

ـ ليلى، أعلم أنّه خالك.. وقد صعقت حين ورد الاسم أمامي. ليس بيدك أيّ شيء الآن.. لكنّني أردت أن تكوني على بيّنة، حتّى لا تقع الصّدمة على حين غفلة.

ـ شكرا لاهتمامك.

قالت ذلك ووقفت مغادرة. لحقت بها سحر عند البوّابة. احتضنتها مواسية. لكنّ ليلى امتنعت عن البكاء في مكابرة، رغم الألم الذي يستحوذ على فؤادها. هذا كثير عليها. والدها، ثمّ خالها. حين اختلت بنفسها في سيّارة الأجرة، بكت في صمت واستسلام. ما الذي يسعها عمله الآن؟

عادت إلى القصر قبيل العصر، ونامت على الفور، كأنّما تفرّ من مواجهة مخاوفها. استيقظت على وقع طرقات على باب غرفتها. طرقات أمين. كان يبتسم، وهو يقول بلهجة مغرية:

- هل أنت متفرّغة، في نهاية الأسبوع؟

تذكّرت حديثهما عن العدالة الاجتماعيّة ذات فجر، في الحديقة الخلفيّة. لم يكن ذاك النّقاش ليروقها بعد صدمة الظّهيرة. أمين، هل تعلم أنّك تعمل على دمار عائلتك؟ لم تكن في مزاج يسمح لها بتحديد المسؤوليّات، وتصويب أصابع الاتّهام في الاتّجاه الصّحيح. قالت بلهجة ساخرة:

- ماذا؟ هل تريد تعريفي على أفراد العصابة؟

اتّسعت عيناه وأخذ يتلفّت إلى جانبي الممرّ في حذر، ثمّ همس معاتبا:

- أيّ عصابة سامحك الله؟

- ماذا إذن؟

قال في شك:

- أنت لست في مزاج جيّد!

لم يكن بإمكانها إخفاء ضيقها. أردف أمين بلهجة مرحة:

- عندي العلاج المناسب لحالتك! رحلة تخييم مع فريق الكشّافة!

- تخييم؟ كشّافة؟

- هناك مخيّم نهاية هذا الأسبوع، لفرقة الجوّالة والدّليلات. لا أقترح عليك الانضمام على الفور، إنّما تعالي لاستكشاف الأمر، وإن راق لك، أمكنك التّسجيل.. ما رأيك؟

- جوّالة؟! ودليلات؟!

لـم تكـن قـد جرّبـت التّخييـم في صغرهـا. أو لعـلّ ذلـك سـقط مـن ذاكرتهـا أيضـا؟ لا، إنّهـا واثقـة. لـو أنّهـا قـد فعلـت، لكانـت وجـدت أثـرا للحـدث في صـور طفولتهـا. كمـا أنّ الحـسّ الأمـنيّ لـدى والدهـا أيّـام اعتناقـه الحيـاة الدّيبلوماسـيّة يؤكّـد لهـا أنّـه لـم يكـن ليسـمح بسـفرها دونـه للمبيـت في الخـلاء. لذلـك، فقـد كانـت مفـردات المعجـم الكشـفيّ غريبـة عنهـا.

ضحك أمين وقال مداعبا:

ـ هـل سـتكرّرين كلّ عبـارة أقولهـا بلهجتـك المسـتنكرة هـذه؟ الأمـر بسـيط.. الكشّـافة، عبـارة عـن نشـاط تربـويّ وترفيهـي للأطفـال واليافعـين.. فرقـة الجوّالـة تخـصّ الأكـبر سـنّا، مـن الثامنـة عـشرة إلى الخامسـة والعشريـن. نصحبهـم في مخيّمـات كشـفيّة، في مناطـق طبيعيّـة في مختلفـة أنحـاء البـلاد، ونجعلهـم يشـاركون في أنشـطة ثقافيّـة وتوعويّـة، تعلّمهـم الاعتمـاد عـلى النّفـس وحـبّ الوطـن، وقيمـا كثـيرة أخـرى. مـاذا قلـت؟ هـل سـتأتين؟

رحلـة؟ في هـذا التّوقيـت؟ نظـرت إليـه في إشـفاق. كـم أنـت خـالي البـال يـا أمـين! اعتـذرت بنفـس الأسـلوب الـذي دأبـت عـلى اسـتخدامه مـع الجـدّة:

ـ لا أدري.. لا أجدني مستعدّة لهذا الآن.

ـ إن غيّرت رأيك، أخبريني.

بعـد العشـاء، اختفـى خالهـا في غرفـة المكتـب مـع ياسـين مثـل عادتـه، وصعـد فـراس إلى غرفتـه، وانسـحب أمـين مثـل العـادة أيضـا، ولـم يشـكّ أحـد في خروجـه للسّـهر مثـل سـائر لياليـه. جلسـت ليـلى إلى منـال ورانيـا في الصّالـة العلويّـة، والقلـق يسـاورها. كانـت تشـارك منـال جـزءا مـن السّـهرة كلّمـا كانـت منـال متاحـة. فهـي كثـيرا مـا تـزور صديقـات أو تمـضي

أيّاما عند أهلها. وفي تلك الأمسية التي تواجدت فيها منال معها، كان عقل ليلى مشغولا بتصريحات مأمون الصّادمة.

ـ تبدين قلقة.. هل كلّ شيء على ما يرام؟

ـ بعض التّعب لا غير. كان يوما مرهقا.

بدّدت شكوك منال بأعذار واهية، لكنّها لم تنجح في خداع نفسها. كانت حتّى تلك اللحظة متردّدة. هل عليها أن تخبر خالها أم تتجاهل الأمر؟ ربّما يمكنها الإفضاء بمخاوفها إلى منال، وهي تتولّى نقلها إلى زوجها؟ رمقتها في إشفاق. ستختفي علامات الاطمئنان من ملامحها، وتنتهي حياة الرّفاهة والرّاحة! كيف ستكون أيّامك المقبلة يا منال؟ لم يكن من الهيّن أن تحمل إليها ذلك الخبر.

تساءلت بعد برهة، هل سيغيّر حملها الخبر شيئا؟ التّحقيق مع رجال الأعمال الفاسدين معلوم للجميع. إن كان خالها بريئا، فلن يغيّر الخبر الذي بحوزتها شيئا. سيثبت التّحقيق براءته، ولو بعد حين. وإن كانت تهمة الفساد ثابتة، فهل سيدفعه إخطارها له بالأمر إلى إخفاء الأدلّة المُدينة له مثلا؟ أو التصرّف في الأموال المختلسة قبل أن يقع القبض عليه؟ انقبضت ملامحها عند ذلك الخاطر. لا يمكنها أن تكون جزءا من هذا. إن كان قد ارتكب جرما، فقد وجبت محاسبته. إنّها تؤمن بسيادة قانون، وحريصة على أن تأخذ العدالة مجراها الطبيعيّ. ما فائدة القلق إذن؟

بعد زهاء السّاعة من المسامرة، اعتذرت من منال ودخلت غرفتها. قرّرت ألّا تشارك أحدا ما أفضى به إليها مأمون.

***

- هل ستأتين؟

على مائدة العشاء مساء الغد، كان أمين يكرّر عليها عرضه المغري، بصوت هامس. رحلة التّخييم. لمَ لا؟ ما بدا لها بالأمس طيشا غير مسؤول، صار يلوّح لها ببالونات ملوّنة مثل حفلة يوم العيد! حين أعلنت انعدام مسؤوليّتها فيما يحصل في مسألة خالها، وجدت في نفسها رغبة في مزيد من الفرار. النّوم وحده لم يعد كافيا لحجب الأفكار المزعجة. فلتنظر إلى أمين، وتتخذه قدوة. كان قادرا على فصل الشخصيّ والوطنيّ بسلاسة وبراعة! لم تكن قد اكتشفت شيئا من موطنها، عدا العاصمة. ولم يكن من الحكمة أن ترفض الفرصة التي جاءت تسعى إليها. ابتسمت، وهمست بدورها:

- هل يمكنك الحصول على إطلاق سراح من الجدّة؟

رفع أمين رأسه وألقى نظرة حذرة على السيّدة الكبيرة التي كانت تتناول وجبتها في صمت، ثمّ همس من جديد:

- أقترح التسلّل خفيّة.. وترك رسالة فدية!

كتمت ضحكتها، وقالت في عناد:

- لا أحبّ هذا الأسلوب!

ثمّ التفتت إلى الجدّة على الفور، وقالت بصوت عالٍ:

- جدّتي، لقد اقترح عليّ أمين المشاركة في مخيّم كشفيّ نهاية هذا الأسبوع. هل تسمحين لي بالذّهاب؟

امتقع وجه أمين، وأخفى وجهه في طبقه، بينما استقرّت أنظار الجميع على الجدّة، متطلّعين إلى حكمها. أنار وجه الحاجّة فريدة بابتسامة واسعة، وهي تقول بلهجة حالمة:

- آه يا ابنتي، لقد أعدت إليّ ذكريات الأيّام الخوالي! أيّام كنت

زهــرة.. ثــمّ قائــدة، في الخمســينيات والسّــتينيات!

رفع أمين رأسه وهتف غير مصدّق:

- جدّتي، أنت كنت مع الكشّافة؟!

هزّت رأسها في حماس وأردفت تقول في حنين:

- لقـد كانـت أحـلى الأيّـام.. أيّـام كان الكشّـاف التّونسيّ شـخصا مسؤولا وفاعــلا، لــه دوره في صناعــة الــرّأي العــامّ، والوقــوف ضــدّ قــرارات المســتعمر! لقـد خرجنـا، بعـد موجـة الاعتقـالات الـتي طالـت الوطنيـين التّونســيين ســنة ١٩٥٢ وصرخنــا رفضــا للقمــع والظّلــم.. كنّــا أحــرارا، ضمائرنـا حـرّة، وإرادتنـا حـرّة.. ورغـم إيقـاف الجمعيّـة حينهـا، ثبتنـا عـلى مواقفنـا، ولـم نرضـخ حـتّى سـمح لنـا بالنّشـاط مـن جديـد سـنة ١٩٥٤!

همس أمين لليلى:

- إذا استمرّ درس التّاريخ هذا إلى منتصف اللّيل، لا تلومي إلّا نفسك!

همست بدورها:

- لكنّها على الأقلّ لن ترفض!

أومأ في تسـليم، واسـتمرّ ينصـت إلى ذكريـات جدّتـه الـتي أخـذت تتدفّق في حماسـة متزايـدة. رحلـة التّخييـم الأولى، الاشـتباكات مـع المسـتعمر، مغامـرات الـبرّ والبحـر، والكثـير مـن الأعمـال البطوليّـة الـتي تبـدو مبالغـا فيهـا، ولكـن لا أحـد يجـرؤ عـلى المقاطعـة والاعـتراض. وكانــت ليــلى تسـتمع بابتسـامة، وعينـين مأخوذتـين. يـا للسّـذاجة، إنّهـا تصـدّق كلّ مـا يقـال لهـا! تنهّـد في تململ، ثـمّ التفـت إلى جانـب المائـدة. كان والـده وياسـين قـد اندمجـا في حديـث جانـبيّ، عـن مشـاريع وأعمـال تخصّهمـا.. بينمـا كانـت نظـرات فـراس سـارحة، باتّجـاه ليـلى. نقـل نظراتـه بينهمـا في شـكّ. لـم تكـن ليـلى منتبهـة، واهتمامهـا موجّـه إلى الجـدّة وحدهـا، بينمـا اسـتمرّ تحديـق أخيـه بهـا بنظـرة غريبـة، لا يـدرك سرّهـا. فجـأة، انتبـه

فـراس إلى مراقبتـه، فأشـاح بوجهـه بسرعـة، ثـمّ وقـف معتـذرا. تابعـه أمـين في حـيرة وهـو يغـادر قاعـة الطّعـام بشـكل مباغـت. ثـمّ عـاد إلى حديـث الجـدّة الـذي لـم ينتـه. قـال عـلى حـين غـرّة، في نفـاد صـبر:

ـ إذن هل تحصل حفيدتك على مباركتك لرحلة تخييمها الأولى؟

حدجتـه السـيّدة الكبـيرة بنظـرة مسـتاءة. لقـد تجـاسر عـلى مقاطعتهـا. لكنّهـا ابتسـمت وهـي تعـود بعينيهـا إلى ليـلى:

ـ اهتمّي بنفسك جيّدا، ولا تتبعي هذا الولد المتهوّر!

انطلقـت الحافلـة بعـد الفجـر، وعـلى متنهـا اثنـان وعـشرون فـردا مـن الشّـباب، عـشر إنـاث ودزّينـة مـن الذكـور. كانـوا جميعـا -مـا عـدا ليـلى- يرتـدون الـزيّ الرّسـميّ للكشّـافة: قميـص بـنيّ مـع سروال أزرق داكـن للشّـباب ونطـاق للفتيـات، مـع مناديـل تحيـط بالعنـق وأحذيـة جلديّـة سـوداء.. بالإضافـة إلى شـارات عـدّة تزيّـن الكتفـين وجيـوب القميـص.

كانـت الوجهـة أقـصى شـمال ولايـة طبرقـة، حيـث تنتظرهـم سـفينة ستبحر بالمجموعـة إلى جزيـرة جَالْطَـة، عـلى بعـد حـوالي سـتين كيلومـترا مـن مـرافئ طبرقـة. جالطـة في الحقيقـة هـي الشّـقيقة الكـبرى لثمـاني جـزر صغـيرة تشـكّل أرخبيـلا بركانيّـا في أقـصى الحـدود البحريّـة شـمال البـلاد التّونسـيّة، وهـي محميّـة طبيعيّـة بيئيّـة فريـدة مـن نوعهـا، تسـتوطنها قبيلـة ضئيلـة لحيـوان الفقمـة المهـدّد بالانقـراض.

حـكى أمـين لليـلى شـيئا مـن تاريـخ الجزيـرة عـلى الطّريـق. لقـد كانـت مأهولـة منـذ عقـود، مـن إيطاليـين وفرنسـيين، وبهـا قريـة واحـدة صغـيرة مكوّنـة مـن أربعـين مسـكنًا وكنيسـةٍ ومدرسـة. لكنّهـا أخليـت مـن السّـكان

بعد قرار الحكومة التّونسيّة بتأميم أراضي المعمّرين سنة ١٩٦٤. وفي خمسينيات القرن العشرين، أقام الزّعيم الرّاحل الحبيب بورقيبة هناك سنتين، منفيّا. أمّا في الوقت الحالي، فلا أحد يقيم في تلك الجزيرة المنعزلة، ما عدا عدد من خفر السّواحل وأفراد وكالة حماية وتهيئة الشّريط السّاحلي، وربّما يتوقّف بها الصيّادون ليلا، احتماء بشواطئها من ريح «الشرش» القاسية، ولبيع الأسماك للسيّاح المخيّمين في ضيافتها.

ما إن ارتفعت الشّمس في كبد السّماء، حتّى سرى الحماس في ركّاب الحافلة بعد الخمول الأوّل، وأخذت الحناجر تصدح بأناشيد الكشّافة المعروفة:

شدّوا الرّحال وهيّوا معنا هاتوا الحقائب، هاتوا الحبال

في الغابة تحلو أيّامنا وإلى العلا تعلو الجبال

قرابة السّاعة السّابعة صباحا، كان الكشّافون قد انتظموا في المركب الذي سيقلّهم إلى الجزيرة، وجهتهم النّهائيّة. أربع ساعات هو زمن الرّحلة المرتقبة.. أربع ساعات من الغناء والمرح!

حين أصبحت السّفينة في عرض البحر، استرجعت ليلى مرّة أخرى تفاصيل مطويّة وزارة السّياحة، فابتسمت. يبدو المشهد الآن أقرب للصّور من وسط العاصمة. تسرح نظراتها عبر درجات اللّون الأزرق، من السّماوي إلى الفيروزيّ إلى ذاك الضّارب إلى الاخضرار.. وقوارب الصّيد التي تناثرت على صفحة الماء. بعد ساعة واحدة، أصابها دوّار البحر، ففضّلت النّزول إلى المقصورة طلبا للرّاحة.

أيقظها أمين، حين توقّف المركب في الميناء. صعدت إلى السّطح وألقت نظرة شاملة على المشهد. كان الميناء عبارة عن رصيف ضيّق وشبه مهجور، بينما تتراءى في الخلفيّة هضاب مخضرّة وقمم صخريّة

مكلّلة بالشّجر. مشت يهدهدها الدّوار واهتزاز المركب تحت قدميها. حين لامست خطواتها الأرض اليابسة أخيرا، كادت تفقد توازنها، وكأنّ الجاذبيّة عادت إلى العمل فجأة بعد تعطّلها مدّة الرّحلة. على الرّصيف، كان فريق من المهندسين التّابعين لوكالة حماية وتهيئة الشّريط السّاحليّ في استقبالهم. تمّ التأكّد من ترخيص الكشّافة للتّخييم وتلقّى الجميع التّعليمات الصّارمة: يمنع الصّيد برّا وبحرا وجوّا في الجزيرة، ويرجى الحفاظ على نظافة المكان. ثمّ أفرغت السّفينة من حمولتها.

مشى الكشّافون لنصف ساعة، يقودهم دليل سبق له استكشاف الجزيرة، عبر مسالك وعرة تحفّها الحشائش والنّتوءات الحجريّة. على مدّ البصر، كانت التّلال مفروشة بلون أخضر يانع وبرّاق، شاهدة على ربيع حقيقيّ كان في أوجه، أسكر حسنه عيني ليلى المشتاقتين إلى الخضرة السّويسريّة. توقّفت المجموعة أخيرا قرب أحد الشّواطئ، ونصبت الخيام.

كان الفوج مكوّنا من عشيرتين، الجوّالة الذّكور والدّليلات الإناث. كانت أعمار الفتيات تتراوح بين الثامنة عشرة والثالثة والعشرين. وكانت ليلى أكبر الجوّالة سنّا بسنواتها الأربع والعشرين ونيف.

جرى اجتماع سريع لمجلس العشيرتين المكوّن من جميع أفرادهما، وتمّ تقسيم المهامّ. كان على كلّ عشيرة أن ترشّح فردين لتحضير وجبات اليوم، الغداء والعشاء، على أن يتداول الجميع على المهمّة طيلة أيّام الرّحلة الثلاثة. ثمّ تلا أمين، قائد عشيرة الجوّالة مهامّ الرّحلة وأهدافها.. مهامّ رياضيّة، ممارسة التسلّق والمشي ثمّ الغطس.. مهامّ لتطوير القدرات الذاتية، ألغاز وتحدّيات ذهنية.. مهامّ كشفيّة، قراءة الخرائط، استكشاف المغارات.. مهامّ علميّة، التعرّف على النّباتات والحيوانات النّادرة الّتي تستوطن الجزيرة. وكان

علـى كلّ عشـيرة أن تقـدّم تقريـرا في نهايـة الرّحلـة عـن المهـامّ كلّهـا، موثّقـا بالصّـور وبالأدلّـة العينيّـة أيضـا.

خرجـت ليلى مـع الدّليلات في جولـة استطلاعيّة. تنقّلـن لساعتين، بـين أطـلال المنـازل الـتي كانـت يومـا مقامـا لإيطاليـين وفرنسـيّين أو تونسـيّين منفيّـين، ومازالـت دعامتهـا صامـدة بعـد مـرور عقـود، وآثـار رومانيّـة مردومـة، كشـفت عنهـا سـيول الأمطـار بعـد أن جرفـت التّربـة، ومقابـر قديمـة، وكهـوف رطبـة موحشـة. ومـع ذلـك، فقـد كان الإحسـاس بالأمـان والطمأنينـة هـو الطّاغـي. في ذلـك الفضـاء شـبه المقفـر مـن البشـر، أمكنهـا التوحّـد مـع الطّبيعـة والاسـتغراق في التأمّـلات الطّويلـة!

وقفـت أعـلى تلّـة، ومـدّت بصرهـا نحـو الأفـق، ثـمّ فتحـت ذراعيهـا وأغمضـت عينيهـا لتأخـذ نفسـا عميقـا مـن نسـيم البحـر المحمّـل برائحـة اليـود، وعبـير زهـور بريّـة، وعبـق أعشـاب لا تعرفهـا. عـلى صفحـة المـاء، تلمـح سربـا مـن النّـوارس، تطـير منخفضـة ثـمّ تنقـضّ عـلى سـمكات يمنـع صيدهـا عـلى السـيّاح، وبـين ثنايـا الجبـل القريـب، يـتراءى لهـا قطيـع مـن الماعـز الوحـشيّ يرعـى نباتـات بريّـة ويتقافـز في اتّجـاه نبـع عـين جاريـة تتدفّـق إلى سـفحِ المرتفـعِ. مـلأت عينيهـا مـن سـحر المحميّـة الـتي لـم تدنّسـها يـد المدنيّـة، ثـمّ صرخـت بمـلء صوتهـا لـيردّد هتافهـا الصّـدى:

- يا تونس الخضراء!

سمعت ضحكات خلفها. ربّما يحسبونها قد جنّت. لكنّها لم تبال.

حـين رجعـت إلى المخيّـم، كانـت وجبـة الغـداء جاهـزة. تنـاول الكشّـافة طعامهـم، ثـمّ انـزوت كلّ عشـيرة لتقييـم النّشـاط الأوّل. تـمّ اسـتعراض الصّـور الـتي التقطهـا الجميـع، والأعشـاب الـتي قطفـت، ثـمّ بـدأ التحضـير لنشـاط التربيـة الذّاتيّـة. كانـت هنـاك جملـة مـن المواضيـع، يقـوم الكشّـافة بدراسـتها واحـدا إثـر الآخـر، متعلّقـة بالآفـات المحدقـة

بالشّـباب: الإلحـاد، التّدخـين، شرب الخمـر، المكيّفـات، المراهنـة، الأنانيّـة. وقـد كان محـور الرّحلـة هـذه المـرّة: المكيّفـات.

همس أمين لليلى جانبا:

- لست مضطرّة للمشاركة اليوم.. يمكنك الاكتفاء بالاستماع.

ابتسـمت مطمئنـة وهـزّت رأسـها. إنّهـا تـدرك سـبب قلقـه. ثـمّ توسّـط أمـين الحلقـة ليعلـن بـدء النّقـاش.

تـداول أفـراد المجموعـة عـلى أخـذ الكلمـة. يقـف كلّ منهـم ليـشرح الجزئيّـة الـتي عهـد إليـه بدراسـتها قبـل الرّحلـة. تحدّثـت نسريـن عـن أنـواع المكيّفـات مـن تلـك الرّخيصـة المتداولـة عـلى مقاعـد المـدارس الثّانويّـة إلى غاليـة الثّمـن الـتي تبقـى حكـرا عـلى الطّبقـات الغنيّـة. ثـمّ جـاء دور أيمـن ليـشرح مخاطرهـا، متدرّجـا مـن الإدمـان والتبعيّـة وصـولا إلى الوفـاة. ثـمّ قدّمـت لميـس جملـة مـن الحلـول التّوعويّـة الـتي يجـب إدراجهـا ضمـن البرامـج المدرسـيّة لتحصـين المراهقـين ضـدّ تلـك الآفـة.

كان أمـين يهـمّ بختـم الجلسـة، حـين فاجأتـه ليـلى بوقوفهـا. اسـتدارت الأعـين في اتّجاههـا في فضـول. لـم يكـن قـد عهـد إليهـا بتحضـير شيء للنّقـاش. لكنّهـا أخـذت تقـول:

- لعـلّ معظمكـم لا يعـرف هـذا، لكنّـني فقـدت شـقيقتي، توأمـي، بسـبب جرعـة زائـدة مـن المخـدّرات، منـذ سـنوات!

سرت همهمـات دهشـة بـين أفـراد المجموعـة، بينمـا رمقهـا أمـين في شـكّ.

- لقـد كنـت أفكّـر وأنـا أسـتمع إليكـم، مـاذا لـو أنّ حنـان كانـت جـزءا مـن هـذه المجموعـة.. مـاذا لـو أنّهـا شـغلت بنشـاط جـادّ ومفيـد عـن مخالطـة رفـاق السّـوء.. مـاذا لـو أنّهـا وقفـت في هـذه الحلقـة نفسـها وقدّمـت تقريـرا بمخاطـر المكيّفـات؟ ربّمـا تغـيّر كلّ شيء حينهـا.

فجأة، انطلقت جوقة الكشّافة لتنشد بصوت واحد في استحسان:

ما قولكم، ما قولكم؟ نعم، نعم!

ما رأيكم، ما رأيكم؟ حسن، حسن!

إنّ الحكيم قد صدق، وبالصّواب قد نطق!

تضرّج وجه ليلى خجلا من الصّيحة الكشفيّة التي لم تتعوّد عليها بعد. كانت شجاعة منها أن تشاركهم تلك التّجربة الشّخصيّة المؤلمة. وقد كان لكلماتها وقع طيّب لدى رفاق رحلتها.

حين انفضّ المجلس، اقترب منها أمين ليقول في استغراب:

- ما الذي قلته الآن؟ حنان لم تمت بسبب جرعة زائدة! لقد كانت حادثة سيّارة!

حدجته بنظرة مشفقة. هل يحاول مثل الآخرين أن يموّه الحقيقة، أم لعلّه مخدوع هو الآخر؟ لكنّها قد عرفت كلّ شيء في حفل الشّواء. لولا تلك الصّدفة غير المتوقّعة لبقيت على جهلها.

***

استسلمت بسهولة للنّوم في كيسها القماشيّ الدّافئ المحشوّ بالقطن. كانت تحسب النّوم في العراء سيمثّل تحدّيا عسيرا لبرود أعصابها، ولم تتخيّل لحظة واحدة أنّها ستنام ملء جفنيها داخل خيمة صغيرة على شاطئ منعزل، بلا حراسة! حين فتحت عينيها، كانت الشّمس قد بدأت تتسلّق جدار السّماء في مشوارها اليوميّ من الشّرق إلى الغرب. كانت أكياس جاراتها خالية ومطويّة بعناية. كانت آخر المستيقظين. قامت على الفور، لفّت كيس نومها ورصفته إلى

جانب أمثاله، ثمّ خرجت.

على الشّاطئ، كان الجوّالة والدّليلات مجتمعين، يستعدّون لطقس الكشّافة الصّباحيّ في «ساحة العلم» وقد ارتدوا الزيّ الرّسميّ كاملا. كان قد جرى تركيب سارية طولها أمتار أربعة في وقت مبكّر من الصّباح، وانتصب الجميع حولها في وضعيّة الاستعداد. سارعت لتلحق بهم، وبما أنّها لا تلبس الزّيّ الرّسميّ فقد توجّب عليها أن تقف في الخلف، بينما رشّح كلّ قائد ممثّلا من العشيرة لسحب الحبل ورفع الرّاية. أمسك أحدهما الرّاية القانية ليفردها، بينما أخذ الثّاني يشدّ الحبال بتؤدة.

كانت المرّة الأولى بالنّسبة إلى ليلى، أن تلتقي وجها لوجه مع العلم التّونسيّ، وبذلك القرب. لم يكن العلم الخفّاق فوق مبنى السّفارة يثير فيها أدنى قدر من غرائز الانتماء والهويّة من قبل. لكنّ هذا العلم المغروس في رمال شاطئ جالطة، في الخلاء، كانت له دلالة أخرى. لقد بدا لها أداء التحيّة بذلك الشّكل الدّقيق والخاشع نوعا من الالتزام الذّاتي، بوازع وطنيّة صافيّة. لم تكن هناك وفود أجنبيّة تراقب، ولا مسؤول حكوميّ يتمّ استقباله، ولا حتّى وحدة عسكريّة تؤدّي واجبها الصّارم. لقد كانوا مجرّد مدنيّين في جزيرة نائية، يرفعون علم بلادهم في إيمان وتفانٍ مجرّدين من كلّ ضغوطات أو دوافع خارجيّة.

بعد انتهاء تحيّة العلم، تفرّق الجميع استعدادا لبرنامج اليوم. في الميناء، كان مركب صيد في انتظارهم، ليبحر بهم باتّجاه جزر الأرخبيل المجاورة. تطاير رذاذ الماء ليصيب وجوههم وسواعدهم، بينما يمرّ المركب قبالة منارة قديمة شيّدت منذ قرن ونصف، ثمّ توقّف في عرض البحر، ليقفز الكشّافون إلى الماء. كانت برودته لاذعة في ذلك الوقت من السّنة، لكنّ ثراء النّظام البيئيّ البحريّ تحت

أرجلهم، أغراهم بالغطس. طحالب غريبة غزيرة ومتلاصقة، تشكّل مرجا بحريّا، زهراته أسماك ملوّنة ذات أشكال غير مألوفة، تطلّ من جحورها وتحرّك زعانفها برفق ثمّ تنزلق بخفّة إلى مخابئها حين تميّز الوجود البشريّ الدّخيل.

بعد ساعتين، توقّف المركب على شاطئ جزيرة صغيرة، وترجّلت المجموعة لاستكشاف كهوف الفقمة. رغم أنّ آخر مراقبة عينيّة للحيوان المهدّد بالانقراض على شاطئ الجزيرة كانت منذ ربع قرن تقريبا، فإنّه لم يكن يليق بزائر الأرخبيل أن يتجاوز المغارات دون إلقاء نظرة. في طريق العودة، توقّف المركب ليفاصل الشّباب أحد مراكب الصّيد المحملة بالسّمك على صندوق متخم بسمكات زرقاء طازجة لامعة، ثمّ ساروا إلى المخيّم في حماسة، يعدون أنفسهم بشواء السّمك المرتقب!

في المساء، وبعد الانتهاء من الأنشطة، وترديد الأناشيد، استلقى البعض على الشّاطئ طلبا للسّمر، في حين أوى آخرون إلى خيامهم بغية الرّاحة بعد عناء يوم حافل وممتع. اقتربت نسرين من ليلى التي جلست ترقب الأفق وتحدّق في الموج. بادرتها بعد أن جلست إلى جوارها:

- أنت صديقة القائد أمين؟

- بل ابنة عمّته.

لمحت لمعة في عيني الفتاة ذات العشرين ربيعا، فأدركت أنّ لأمين معجبة خفيّة.

- أنت حديثة عهد بالحركة الكشفيّة؟

- هذا مخيّمي الأوّل. ماذا عنك؟

- لقد تدرّجت عبر الفرق، منذ كنت في الخامسة!

- هذا مدهش! أغبطك على تجربتك الجميلة.

ابتسمت نسرين في فخر، ثمّ استلقت على ظهرها إلى جوار ليلى، موجّهة بصرها نحو السّماء. انضمّت إليها ليلى واسترخت على الرّمال الباردة. في ذلك الوقت، كانت غيوم متفرّقة تسبح فوق رأسيهما. ما عدا ذلك، فقد كان بالإمكان تمييز ما لا حصر له من النّجوم بشكل واضح. غمغمت ليلى:

- إنّها رائعة!

قالت نسرين على الفور، متباهية بخبرتها:

- في كلّ مرّة نخرج فيها إلى الخلاء، يمكننا رؤية النّجوم بشكل واضح. في الحقيقة، أضواء المدينة هي السبب في ظلمة السّماء!

لم تكن ليلى تجهل تلك المعلومة. لكنّها بدت لها في تلك اللّحظة غاية في البلاغة. الأضواء.. سبب الظلمة! الأضواء المتطفّلة، تعمي البصر، وتطمس مواطن الجمال التي تستحقّ التأمّل. تساءلت، كم في حياتها من أضواء لا حاجة لها بها، تخفي عنها ما يجدر بها الاهتمام به؟ العلم، والنّشيد الوطنيّ ولغتها العربيّة الأمّ، وتفاصيل كثيرة أخرى انتبهت إليها متأخّرة، بعد أن خبت أنوار جينيف الخاطفة! لقد كانت تلك الأنوار في وقت مضى سببا للظلمة في قلبها، ولغربتها عن بلدها جسدا وروحا. لكنّها في هاته الآونة بالذّات، وهي تفترش رمال جالطة وتحدّق في النّجوم البرّاقة، تبصر بعيون قلبها حقيقة من تكون. أغمضت عينيها وابتسمت، وقد تملّكها يقين دافئ. إنّها تنتمي إلى هذا المكان.

فجأة، سقطت على وجهها قطرة ماء، تلتها قطرات، متفرّقة أوّلا ثمّ ازدادت كثافة. لقد كانت تمطر. استوت البنتان في دهشة. مدّت نسرين كفّيها لتتلقى الحبيبات الرّطبة.

ثمّ وقفت وهرولت في اتّجاه الخيمة وهي تصرخ في استمتاع:

- يا بنات، إنّها تمطر!

خلال لحظات، كان الجميع قد غدوا في الخارج، يرقصون تحت المطر، ويردّدون في مرح:

وأنا أغنّي تحت المطر.. وأنا أغنّي تحت المطر!

كانت الفتيات يرفعن أذرعهنّ إلى السّماء، يمددن أرجلهنّ إلى الأمام، يقرفصن ثمّ يقفزن في الهواء في نسق منسجم، وكأنهنّ راقصات على خشبة المسرح، يؤدّين لوحة مدروسة. حاولت ليلى أن تجاريهنّ، وهي لا تتوقّف عن الضّحك. كان للكشّافة روتين معيّن خاصّ بكلّ موقف ومناسبة، ونشيد ملائم لكلّ حدث وظرف، وهي تكتشف كلّ ذلك في جذل طفوليّ!

حين رجعت الفتيات إلى خيمتهنّ، كنّ يقطرن ماءً. جفّفن ثيابهنّ وتدثّرن بالأغطية الصّوفيّة وجلسن يتسامرن في مرح. كانت القائدة لميس قد سمحت لهنّ بالسّهر بشكل استثنائيّ. سألت نسرين ليلى مرّة أخرى:

- لقد عرفت أنّك عدت إلى تونس منذ فترة بسيطة.. كيف وجدتها؟

ابتسمت ليلى في حرج، ثمّ قالت:

- كان يجب أن أغادر العاصمة، لأرى الجمال الحقيقي!

- لهذا كنت تصرخين أعلى التّلّة.. يا تونس الخضراء!

ضحكن جميعا، ثمّ أضافت لميس وهي تغمزها:

- إذا انضممت إلى الجوّالة بشكل رسميّ فستتعرّفين إلى مناطق رائعة كثيرة أخرى. أعدك!

ضحكن مرّة أخرى، قبل أن تغيّر نسرين الموضوع فجأة:

- هل سمعتنّ يا بنات؟ لقد أعلن طارق رمضان عن زيارته لتونس في القريب!

- حقًّا!

- متّى تكون الزّيارة؟

- لم يحدّد الموعد بعد، لكنّه سيقيم سلسلة من النّدوات الفكريّة تناقش مستقبل الثّورة.

تعالت هتافات الفتيات الحماسيّة، ثمّ غمزت لميس ليلى وقالت مداعبة:

- إنّه مواطنك السّويسريّ!

ابتسمت ليلى في حرج وعلقت بوجهها علامات الدّهشة. إنّها تعرف طارق رمضان من حضوره التّلفزيّ على القنوات الأوروبيّة، ووالدها مولع بمحاضراته ومؤلّفاته. لكنّها لم تتوقّع أن يكون ذا شعبيّة عالية لدى فتيات لم يبلغن العشرين. فلتعترف، لم تكن أطروحاته تخاطبها في وقت ماضٍ، وهي تشعر الآن بأنّ هؤلاء المراهقات يتجاوزنها باهتماماتهنّ الفكريّة النّاضجة!

شرحت لميس:

- بعد الثّورة، تزايدت المنتديات الفكريّة، وتوافد مفكّرون ومثقّفون من مختلف أنحاء العالم لزيارة البلاد، بعد أن كان النّظام السّابق يمنعهم! هذا ترف لم يُكن متاحا منذ شهور قليلة!

أضافت نسرين:

- هذا أمر ضروريّ في هذه المرحلة، لرفع مستوى الوعي السّياسيّ لدى الشّباب.

أومأت ليلى في اهتمام، ثمّ علّقت:

ـ لقد لاحظت أنّ السّياسة قد غدت الاهتمام الأوّل للجميع!

ـ أنت لا تتخيّلين الوضع! لقد كانت السّياسة حتّى وقت قريب من المحظورات التي لا ينبغي التطرّق إليها في العلن، وأيّ كلمة معادية للنظام القائم تقع عند أذن متلصّصة قد تودي بك إلى المهالك! لقد سيطر الخوف لعقود، وعقدت الألسن، ومن تجرّأ على الكلام هجّر أو سجن.. لذلك، ما إن استعيدت الحريّة حتّى عمّت الفوضى! الكلّ أصبح بين يوم وليلة محلّلا مخضرما يمكنه تقييم الوضع وتقديم حلول استشرافيّة! هذه الحالة تبدو صحّيّة للوهلة الأولى، لكنّها مهلكة على المدى البعيد. ومن الضروريّ التركيز الآن على توضيح الرّؤية وتوعية الشّباب بألف باء السّياسة.

أضافت ضحى:

ـ نحن جيل صنع الثّورة، لكنّنا جيل شديد الجهل بتاريخه وماضيه! معظمنا، ما لم يكن له قريب معارض، راقب معه عن كثب معنى القمع والظلم، لا يعلم شيئا عن طبيعة الحياة السّياسيّة في ظلّ حكم الفرد. لقد كبرنا ونحن لا نعرف إلّا الاستسلام والخنوع، وتربّينا على اللّامبالاة والحياد. لكنّنا استمعنا إلى القصّة كاملة خلال أيّام الثورة التسعة والعشرين، بعد أن فاض الكيل! استرجعنا الماضي، واستعددنا لاستلام مقاليد الحاضر.. لكنّنا عاجزون تماما عن تخيّل المستقبل، كيف يجب أن يكون!

قاطعتها نسرين في اندفاع:

ـ المستقبل سيكون مشرقا.. وستتحقّق كلّ الأحلام!

سرت موجة ضحك أخرى. أمّنت ضحى:

ـ طالما كنّا جيلا قادرا على إزاحة رئيس وتنصيب آخر، فلن يقف في وجهنا شيء! وإن لم يناسبنا الرّئيس الجديد، فسنخرج إلى الشّارع

مـرّة أخـرى، ونزيحـه. لقـد عرفنـا أنّنـا أقويـاء، وقـادرون عـلى قلـب الموازيـن، لذلـك لـم يعـد مـن الممكـن أن نخضـع ونستسـلم للظلـم والقهـر والدّيكتاتوريّـة! لـن نكـون خانعـين مثـل الأجيـال السّـابقة. كيـف كان لهـم أن ينتظـروا كلّ هـذا الوقـت دون أن يفعلـوا شـيئا مـن أجـل تغيـير مصيرهـم؟

في اللّيلـة الأخـيرة، كـدّس الكشّـافون عيـدان الحطـب في شـكل هرمـيّ وأضرمـوا النّـيران، اسـتعدادا لطقسـهم الأخـير.. «نـار المخيّـم». كانـت أنشـطة المخيّـم تختـم حـول شـعلة ملتهبـة. يقـدّم كلّ فريـق تقريـرا بنشـاطاته، ويكافـأ المتميّزون، ثـمّ ينشـد الجميـع حـول النّار في جـوّ مرح. وحـول النّـار أيضـا يحتفـل بالمناسـبات الخاصّـة، ومـن ضمنهـا انضمـام فـرد جديـد إلى العشـيرة. عنـد السّـاعة الثّامنـة، دخـل أمـين خيمتـه، ثـمّ عـاد محمّـلا بكيـس مغلّـف وأشـار إلى ليـلى. حـين فتحـت الكيـس، وجـدت زيّ الدّليـلات الـذي أعـدّه أمـين مـن أجلهـا بشـكل مسـبق. حدّقـت فيـه غـير مسـتوعبة، فقـال:

- ارتـدي الـزيّ، وتعـالي لأداء الوعـد أمـام الجميـع.. سـتصبحين جـزءا مـن عشـيرة الدّليـلات.

انصاعـت في ارتبـاك. دخلـت الخيمـة وفـردت محتويـات الكيـس: القميـص، النطـاق، المنديـل وعقدتـه، الجـوارب والحـذاء الجلـديّ. بالإضافـة إليهـا، كانـت هنـاك قصاصـة تـشرح طريقـة أداء الوعـد بشـكل مفصّـل. قرأتهـا بضـع مـرّات، حـتّى حفظتهـا، ثـمّ ارتـدت زيّهـا الرّسـميّ الكامـل. خرجـت مـن الخيمـة ومشـت في خفـر باتّجـاه مجلـس الكشّـافة.

كانـوا يقفـون جميعـا في شـكل دائـرة، في وسـطها كانـت القائـدة لميـس في انتظارهـا مـع نسريـن وضحـى، وقـد أمسـكتا سـويّة بالعلـم التّونـسيّ مطويّـا. أمرتهـا لميـس بلهجـة حازمـة:

- ليلى تقدّمي!

اقتربـت، وهـي تشـعر بالإثـارة والارتبـاك في آن. وقفـت في وضعيّـة الاسـتعداد قبالتهـا وحيّـت الحاضريـن. بادرتهـا لميـس:

- هل تعرفين قانون الدّليلات اللّواتي تنتمين إليهنّ؟

- نعم، أعرفه وأعمل به.

- هل أنت مستعدّة لأداء الوعد؟

- إنّي مستعدّة.

- تفضّلي وأدّي الوعد.

بينمـا كانـت تأخـذ نفسـا عميقـا، كان الكشّـافة الآخـرون قـد رفعـوا أيديهـم بالتّحيّـة الكشـفيّة، ووقفـوا في اعتـدال وخشـوع. اسـتدارت ليـلى نحـو رفيقتيهـا، وضعـت يدهـا اليسرى عـلى العلـم المطـويّ ورفعـت اليمـنى بالتّحيّـة الكشـفيّة بدورهـا، الإبهـام فـوق الخنـصر.. «القـويّ يحمـي الضّعيـف»، والأصابـع الثلاثـة الأخـرى مرفوعـة.. «الصّراحـة والتّضحيـة والإخـلاص».. ثـمّ شرعـت تتلـو نـصّ الوعـد الـذي حفظتـه عـن ظهـر قلـب، وهـي تستشـعر معـنى كلّ كلمـة تتلفّـظ بهـا:

- أعـد بـأن أبـذل جهـدي لأقـوم بواجـبي نحـو الله والوطـن، وأسـعد الغـير وأعمـل بقانـون الكشّـاف.

ابتسمت لميس وهي تقلّدها شعار الدّليلات والعلم، وقالت:

- إنّي واثقـة أنّـك سـتفين بعهـدك، فأهنّئـك لأنّـك أصبحـت الآن واحـدة مـن الدّليـلات، وعنـصرا مـن عنـاصر الحركـة الكشـفيّة.

التمعت العبرات في مقلتي ليلى، وهي تحيّي قائدتها من جديد، ثمّ تدور نصف دورة، لتحيّي أفراد العشيرة. حين أخذت مكانها ضمن الدّائرة، شرع الجميع في تلاوة النّشيد الوطنيّ.

وهي تردّد كلمات القصيدة بصوت حازم وجسد متيقّظ، انتابها إحساس يضاهي ما يشعر به الجنديّ الذي أدّى قسم الولاء للوطن، وانتظم ضمن صفوف الجيش. فكّرت، هل تدرك حقّا ماهية واجبها، تجاه الله والوطن؟ يمكنها أن تلتزم بقانون الكشّاف ببنوده الواضحة، وأن تعمل على إسعاد الغير من حولها.. لكن ماذا عن واجباتها التي وعدت ببذل جهدها لأدائها؟

حين انتهى طقس «الوعد»، بادرها أمين مداعبا:

- كيف تشعرين الآن؟

قالت على الفور:

- أشعر بالرّهبة! لا أدري إن كنت أهلا للحفاظ على العهد.

رفع حاجبيه في دهشة. لم يكن يتوقّع أن تأخذ الأمر بتلك الجدّيّة. قال أخيرا:

- استرخي.. ودعي ضميرك يكون الحكم.

- حقّا؟ هل يدرك ضميرك أنت ما هو واجبك تجاه الله والوطن؟

أومأ وهو يقول ببساطة:

- ألّا أخذل الحقّ!

تذكّرت قناعاته التي سبق أن طرحها بخصوص العدالة الاجتماعيّة، وأدركت أنّ مبادئه واضحة وبسيطة بالفعل. يمكنه بيسر أن يقف مع ما يحسبه حقّا، دون حساب لقرابة أو صداقة. في تلك اللّحظة، حسدته على وضوح رؤيته، وتمنّت أن تتعرّف على واجبها، وتعانقه

دون تفكـير.

وصلـت العائلـة إلى المزرعـة قبيـل الغـروب. كانـت الخطّـة أن يقـضي الجميع عطلـة نهايـة الأسـبوع هنـاك معـا، ولـم تمانـع الجـدّة الانضمـام هــذه المــرّة. كانــت الخالــة مريــم قــد جهّــزت مائــدة العشــاء قبيــل وصولهــم. ورغــم حفاوتهــا المعتــادة، فقــد بــدت بــاردة وواجمــة في حضـور السـيّدة الكبـيرة. كان الخـلاف القديـم بـين المرأتـين طاغيا عـلى علاقتهمـا، ولـم يبـد أن مـرور عقـود مـن الزّمـن قـد غـيّر شيئا.

عـبر نوافـذ الشّرفـة المشرعـة، كان بإمكانهـم تأمّـل خيـوط المطـر الـتي أخـذت تنهمـر بغـزارة في تلـك الأمسـية الرّبيعيّـة، وقـد بـدأ الظـلام يسـحب رداءه عـلى التّـلال والمـزارع عـلى مرمـى البـصر.

بعـد العشـاء، رنّ هاتـف نبيـل، وظهـر رقـم دوليّ عـلى الشّاشـة. بـدا عليـه الاهتمـام وهـو يفـارق مقعـده ويتّجـه إلى غرفـة داخليّـة، وهـو يغمغـم عـلى عجلـة:

- عليّ أن أردّ على هذا الاتّصال.

بعـد أن سـاعدت الخالـة مريـم في جمـع الأطبـاق وتنظيـف المائـدة، وضعـت ليـلى مقعـدا في الشّرفـة، وجلسـت قـرب الحاجـز لتصبـح السّـماء مكشـوفة أمـام ناظريهـا. كان التّواصـل مـع الطّبيعـة الخـام الأسـبوع المـاضي قـد خلّـف في نفسـها توقـا دائمـا لاسـتئناف المغامـرة. مدّت كفّهـا لتسـتقبل ذرّات المـاء الـتي تذرفهـا السّـماء بسـخاء، وهـي تسـترجع مـرح فتيـات الكشّـافة تحـت المطر،شـعرت بحركـة مـا خلفهـا. كانـت تسـمع صـوت رانيـا، وهـي تشـاكس عمّهـا أمـين، وصـوت التّلفـاز الـذي يدمـن ياسـين مشـاهدته في غـير أوقـات العمـل. يمكنهـا الآن أن تشـعر بخطـوات

فراس التي لا وقع لها. قالت دون أن تلتفت:

ـ هناك أمر ما زال يحيّرني.. لماذا تزوّجتها؟

بوغت بسؤالها. إذن لقد عرفت بوجوده خلفها. اقترب خطوتين، حتّى صار قرب الحاجز المعدنيّ بدوره. يفصل بينهما متر واحد. تنهّد بصوت مسموع وأطرق مفكّرا، ثمّ رفع رأسه لتلمح على شفتيه ابتسامة ساخرة:

ـ أظنّني أحببتها!

رفعت حاجبيها غير مصدّقة، فأضاف:

ـ كانت مشاعر معقّدة.. في البداية، كانت نوعا من الحبّ الأبويّ. كانت يتيمة الأبوين، رغم أنّهما على قيد الحياة! ثمّ توفّيت عمّتي نجاة .. ولم يظهر عمّي نجيب في الصّورة أبدا. وفي وقت ما، اعتبرت نفسي مسؤولا عنها. اكتشفت شبها بيني وبينها.. كنت قد عشت فترة تمرّد مشابهة في مراهقتي، لكنّها انتهت بسلام.. وعرفت أنّ حنان بحاجة إلى من يحتويها، كما تمنّيت أنا حينها أن أجد من يحتويني.. هكذا بدأ الأمر. ثمّ اكتشفت أسرارها، وشعرت بأنّني أعرف عنها أكثر من أيّ شخص آخر في محيطها.. ولمّا كانت بحاجة للسّفر من أجل علاجها من الإدمان، ولم يكن والدي قادرا على ترك الشّركة لوقت طويل، قرّرت مرافقتها.. وهكذا عُقد قراننا.

ـ آه، هكذا إذن.

ـ ليس هكذا تماما.

ـ ماذا؟

ابتسم من جديد، ثمّ أضاف في مرارة:

ـ لقد أخبرتك، إنّها مشاعر معقّدة. لم يكن حبّا صرفا.. فقد كرهتها

أيضا، لأنّها لم تعط لحياتها أيّة قيمة.. حاولت الانتحار.. ولأنّها لم تقدّر التّضحيات التي أقدمت عليها من أجلها.. ترك دراستي، وتأخير التخرّج مرّة بعد مرّة، وضياع فرص كثيرة بسبب السّفر لمرافقتها.. ثمّ.. محاولتها قتلي.

شهقت ليلى غير مصدّقة:

ـ حاولت قتلك؟!

ـ أقصد، قتلنا جميعا.

ـ من تقصد؟

ـ أنا وأنت وعمّي نجيب.. وهي طبعا. لكن شاء القدر أن ترحل وحدها.

ازدردت ليلى لعابها في توتّر، وأخذت أنفاسها تتسارع. عادت إليها صور كابوسها المتكرّر. حادث السيّارة. صراخها الهستيريّ، والوجوه المألوفة حولها.

ـ هل.. كنّا جميعا، في تلك الحادثة؟

أومأ برأسه موجبا. عضّت على شفتيها ورمشت في عصبيّة.

ـ ألم تكن وفاتها بجرعة زائدة من المخدّرات؟

ـ تلك الشّائعة التي انتشرت لدى رفاقها في الجامعة.. ولم ينفع شيء لتفنيدها.

ـ أخبرني أرجوك.. كيف حصل ذلك بالضّبط؟

همست في لهفة، فأومأ برأسه وشرع يسرد تفاصيل الحادثة:

ـ خرجنا لقضاء عطلة نهاية الأسبوع في منطقة جبليّة، وممارسة بعض التزلّج. كانت حنان حتّى ذلك الوقت تقيم في المصحّ.. وبما أنّها كانت تبدي تجاوبا مع العلاج، فقد كان يسمح لها بالمغادرة في

نهاية الأسبوع، وبعض الأمسيات. كنّا معا في السيّارة.. أنت ونجيب في المقاعد الأمامية.

قاطعته معترضة:

- أنا كنت في المقعد الخلفيّ! أذكر ذلك!

- لا.. أنا وحنان كنّا في المقاعد الخلفيّة!

عقدت حاجبيها في شكّ. لماذا تبدو الأمور مختلفة في ذاكرتها؟

- كان عمّي نجيب خلف المقود.. فجأة، صرخ بأنّه غير قادر على كبح السّرعة. كانت تمطر في الخارج، وكانت الطّريق زلقة، ونحن في مسار متعرّج.. حينئذ، أخذت حنان تضحك بشكل هيستيريّ، وتصفّق وتغنّي «سنموت جميعا.. سنموت جميعا»! أعتقد أنّها عبثت بمكابح السّيّارة، لتقتلنا جميعا.. لم تكن حالتها النّفسيّة مستقرّة في تلك الفترة، وقد عاودتها النّزعة الانتحاريّة.

تسمّرت ليلى مكانها، وشحب وجهها تماما ليحاكي الثلج في بياضه. ثمّ وقفت فجأة، وسارت بخطى سريعة نحو الدّرج المؤدّي إلى السّاحة المفتوحة، أمام نظرات فراس المشدوهة. لم تكن الأمطار قد توقّفت في الخارج، والظلام قد هبط تماما الآن. لم تكن الرّؤية واضحة، لكنّها ابتعدت عن المبنى، تركض بكلّ قواها عبر الأشجار، والدّمع يملأ عينيها. لم تكن ترى شيئا أمامها. لا تسمع إلّا حفيف الحشائش التي تحتكّ بثوبها، ولهاثها المختنق، وشهقتها الآثمة. لكنّها لم تتوقّف. لا تدري إلى أين تمضي، لكنّها لم تكن تهتمّ. كانت تهرب من نفسها. من وجودها عينه. لكنّها تدرك استحالة الهرب. كان عليها أن تواجه الحقيقة العارية، لينهار كلّ شيء داخلها.

لم تحتج لأكثر من بضع ثوان لتدرك كل شيء سقط من ذاكرتها سهوا!

أنت مجرمة!

***

دلف نبيل إلى الغرفة وأغلق الباب خلفه في إحكام. حين أصبح في مأمن من وصول كلماته إلى الآخرين، ضغط على زرّ الإجابة.

- مراد.. كيف حالك؟

تبادل ومخاطبه عبارات الودّ والمجاملة ثمّ سأل نبيل بلهجة جادّة:

- طمئنّي.. كيف تسير الأمور عندك؟

- سأقوم بتحويل الحسابات كلّها باسم ابنك الأوسط كما طلبت.. حسابات سويسريّة.

- ممتاز.. يجب أن يتمّ كلّ شيء في أقرب الآجال.. الوقت يداهمنا!

- نعم.. أعلم ذلك. لا تقلق، سيكون كلّ شيء على ما يرام.

أنهى اتّصاله، وزفر بقوّة. تذكّر زيارته ذلك الصّباح لصهره نجيب في سجنه. لقد اتّفقا على كلّ شيء. وما الذي لا يفعله الوالدان لضمان مستقبل أبنائهما؟ لم يكن نجيب قد ألغى أصول شركته بعد، يمكنه أن يعيد بعثها من جديد، برأس مال مشترك. بقي أن يتحدّث إلى فراس.

رجع نبيل إلى غرفة الجلوس بعد أن أنهى اتّصاله، وتلفّت حوله في اهتمام. كان ياسين يغطّ في النّوم، والجدّة قد أوت إلى فراشها، ومنال تطالع رواية قديمة وجدتها على الرّفّ، بينما انشغل أمين في ملاعبة رانيا. دخل المطبخ. كانت مريم تنهي تنظيف مخلّفات العشاء. لم يكن أحد معها. عاد ليلقي نظرة عبر الشّرفة المفتوحة. كانت الأمطار

تواصل انهمارها بغزارة وقوّة. رجع إلى الدّاخل وهتف في حيرة:

ـ أين فراس وليلى؟

رفع أمين ومنال رأسيهما وتبادلا نظرات متسائلة. قالت منال:

ـ لقد كانا في الشّرفة، منذ حين.

نهض أمين على الفور وقال وهو يتّجه إلى الدّرج:

ـ سأتفقّد الغرف بالأعلى.

صعد الدّرجات أربعة أربعة، ثمّ نزل بالسّرعة نفسها وهو يلهث.

ـ لا أحد هناك!

***

واصلت ركضها عبر الطّين المبلّل، تغوص قدماها من حين لآخر وتتعثّر، لكنّها لم تتوقّف. تتحرّك ساقاها لا إراديّا بغية الفرار. لم تكن تفرّ من شيء آخر يتهدّدها، فقط من أفكارها. لم تستطع أن تكبح تلك الفكرة الأليمة التي ملأت عقلها وأفقدتها صوابها. لقد حاولتِ قتل أبيك وشقيقتك وزوجك! أنت مجنونة، وقاتلة! لماذا نجوت؟ لماذا عشت وماتت ليلى؟ لماذا أنت هنا، تحملين اسمها، وتعيشين في ثوبها؟ تصرخ بداخلها ألف «لماذا»، تقطّعها مثل سكاكين حادّة، فتنزف ندما وحسرة ومرارة.

ـ ليلى.. توقّفي!

لم تسمع صوته قبل أن يصير خلفها مباشرة. كانت قد ابتعدت تماما عن المزرعة وتوغّلت في أرض غريبة. امتدّت كفّه لتقبض على ذراعها بقوّة وتوقف اندفاعها، ثمّ استدار ليصبح قبالتها:

ـ أنت بخير؟ ما الذي حصل؟ لماذا تركضين كالمجنونة؟

التفتت بوجه مفجوع. تشوّش العبرات وزخّات المطر رؤيتها، لكنّها تميّز عينيه القلقتين. زوجها. ويتصاعد داخلها إحساس شنيع بالخزي. دفعت كفّه عن ذراعها في حدّة وصرخت بين دموعها:

ـ أنا لست ليلى.. لست ليلى!

لم يفهم فراس شيئا من كلماتها. لم تبد في حال يقظة عقليّة تامّة. لام نفسه، لم يكن عليه أن يثير قصّة الحادثة. لقد كانت الذّكرى حتّى وقت قريب تولّد لديه أزمات عصبيّة ونفسيّة. كان يجب أن يتوقّع. كان يجب. رفع ذراعيه إلى أعلى، وهمس:

ـ اهدئي أرجوك.. وتنفّسي.

يهتزّ صدرها بقوّة، ولا تزيدها كلماته إلّا ارتجافا وبكاء. أنّى لها أن تهدأ؟ وأين لها أن تذهب؟ لا يليق بها الآن إلاّ أن تهيم على وجهها في الفلاة، لتفترسها الوحوش.

ـ ليلى.. لقد تبلّلت.. يجب أن نرجع الآن.. سيقلق لغيابنا الآخرون!

آه، لقد تبلّلت بالفعل. تشعر بثوبها قد التصق بجسدها وأثقل خطاها. انتبهت إلى نقطة أخرى في كلامه. الآخرون؟ نعم، جدّتها وخالها ومريم وأمين وياسين ومنال. كلّهم شهدوا ولا شكّ اندفاعها المجنون إلى الخارج. سينفضح أمرك الآن. انتهت المسرحيّة سخيفة الإخراج. سقط عنك القناع.. أيتّها القاتلة!

انهارت على الأرض، وقد فقدت وعيها.

موطني.. موطني!

الشّباب لن يكلّ، همّه أن يستقلّ أو يبيدْ

نستقي من الرّدى، ولن نكون للعدى

كالعبيدْ، كالعبيدْ

فتحـت عينيهـا، مشوّشـة ومخـدّرة الحـواس. ردّدت بصرهـا في أرجـاء المـكان.. إنّهـا في غرفـة مظلمـة، تسـتلقي عـلى سريـر دافئ، والوقـت مـازال ليـلا. اسـتيقظ إدراكهـا تدريجيّـا، ولمّـا وصلـت إلى نقطـة التّمـاسّ مـع لحظاتهـا الأخـيرة قبـل الإغمـاء، هبّـت جالسـة وقـد اسـتولى عليهـا الهلـع مـن جديـد.

ـ ليلى، لقد استيقظت! حمدا للّه على سلامتك!

كانـت منـال قـد غفـت عـلى المقعـد إلى جوارهـا. اقتربـت وبيدهـا مقيـاس الحـرارة. وضعـت طرفـه في أذن ليـلى وانتظـرت الإشـارة الصّوتيـة.

ـ الحمـد لله.. انخفضـت حرارتـك! مـاذا حصـل بـالله عليـك؟ لقـد أفزعتنـا.

لـم تسـتطع ليـلى أن تنطـق بكلمـة واحـدة. بـل أخـذت تنشـج بصـوت مختنـق. هرعـت إليهـا منـال واحتضنتهـا في قلـق:

ـ ما الأمر الآن؟ لماذا البكاء؟

عانقتهـا ليـلى بقـوّة. شـدّت بأصابعهـا عـلى فسـتانها تـكاد تمزّقـه، وارتفعـت شـهقاتها، ومنـال تحـاول أن تواسـيها بكلمـات لا تجـدي نفعـا. لبثـت تحتضنهـا لدقائـق طويلـة، حـتّى عـاد إليهـا الهـدوء رويـدا رويـدا، وغلبهـا النّعـاس مـن جديـد، دون أن تفارقهـا الشّـهقات.

سـوّت منـال وضعيّتهـا عـلى السّريـر وغطّتهـا جيّـدا، ثـم تسـلّلت برفـق خـارج الغرفـة. كان نبيـل وفـراس وأمـين ومريـم يترقّبونهـا في غرفـة الجلـوس وكأنّ عـلى رؤوسـهم الطّـير، أمّـا الجـدّة،ف لـم تكـن قـد

انتبهت من نعاسها. استدارت إليها أزواج الأعين القلقة على الفور حال وصولها، وتعلّقت بها النّظرات في لهفة.

ـ لقد انخفضت حرارتها.. إنّها نائمة الآن.

هزّ نبيل رأسه في ارتياح ثمّ التفت إلى فراس وقال في شيء من الحدّة:

ـ أنت متأكّد أنّك لا تعرف السّبب وراء حالتها؟

ـ قلت لكم مائة مرّة.. لا فكرة لديّ. لقد وقفت فجأة وخرجت تجري تحت المطر!

ثمّ قام متّجها إلى غرفته. سمع لغطهم يرتفع وراءه، من جديد. وصلة أخرى من التكهّنات بسبب أزمتها. أغلق عليه باب الغرفة وزفر في إعياء. يشعر بقشعريرة باردة تغمره. من فرط توتّره وضغط الموقف، نسي أن يغيّر ملابسه المبتلّة حتّى جفّت عليه أو كادت. ذكّرته مريم بأن يفعل أكثر من مرّة، لكنّه اكتفى بهزّ رأسه ولم يفارق مجلسه. لم يكن محموما، إنّه الإرهاق وحسب. ليلة نوم عميق ستخلّصه من بقايا السّهرة العسيرة. أخذ حمّاما دافئا، ثمّ استلقى على السّرير، واستمرّ يحدّق في الظلام.

استعاد ببطء لحظات الهلع تحت المطر. يركض وينادي اسمها، وهي تلهث وتئنّ، ولا تلتفت. ثمّ انهيارها على الأرض. انتشلها وهرول مفجوعا تحت السّيل الذي لا يفتر. كم كانت طويلة وعصيبة تلك الدّقائق التي مضت قبل أن يصبح على مشارف المزرعة، ويلمح والده وأمين يفتّشان السّاحة بالأضواء الكاشفة. الأمتار الأخيرة كانت الأسوأ على الإطلاق. يشعر بأنفاسه تنقطع، وبأنفاسها تخفت بين ذراعيه.. ويستعيد مشهدا شبيها، منذ أربع سنوات خلت.

ارتطام السيّارة بحاجز الطّريق وانقلابها على سقفها، ثمّ انزلاقها

لعدّة أمتار على الأسفلت المبتلّ. يستلّ جسده بصعوبة من هيكل المعدن المطحون، ثمّ يجاهد ليسحبها وراءه وهو يناديها في ذعر.. حنان، حنان.. وجهها غارق في الدّماء وهي في غيبوبة.. لم تكن قد فارقت الحياة بعد. يحملها بين ذراعيه، ويهرول تحت المطر، في الفلاء المقفر، حيث لا بشر ولا بنيان على مرمى البصر. يصرخ بصوت مختنق لا يكاد يسمعه.. النّجدة! تنضب طاقته لآخر قطراتها، ويجتاحه إنهاك شامل. ترتعش ركبتاه وتتصلّب ذراعاه تحت حمله الثّقيل. تخور قواه أخيرا. ينهار بدوره على الأرض، ثمّ يفقد وعيه.

بسط كفّيه على وجهه وضغط بأطراف أصابعه على مقلتيه، يوقف سيل الذّكريات التي اقتحمت ليلته. هذه ليلة سيّئة أخرى. إذا ما غلبه النّعاس، ستزوره كوابيسه المعتادة.

فراس لم يقل شيئا.

أيقنت بذلك حين أفاقت صباحا، ووجدت إفطارها على المنضدة جوارها. جاء خالها لرؤيتها والاطمئنان عليها، ثمّ تناوبت مريم ومنال على مرافقتها. ليلى، كان الاسم الذي ورد على ألسنتهم جميعا.

لم تكن ذكريات الأمس جليّة في ذهنها. هل قالت ما تخال نفسها قالته، أم أنّها مجرّد أفكار في رأسها، لم تتجاوز شفتيها قطّ؟ مهما كان، تلك هي الحقيقة التي تعلمها هي، وربّما عرفها شخص ما غيرها.. أو سيعرف ذلك عن قريب. لم يكن الاحتفاظ بسرّ هويّتها المكتشفة هيّنا.

دخلت الجدّة متذمّرة من ألم ركبتيها. كان عليها الصّعود إلى الطّابق

الأوّل لتفقّد المريضة. هممت وهي تلهث، محاولة التقاط أنفاسها:

- ما الذي حصل بحقّ الله؟ أنام وأصبح لأجد الدّنيا قد قامت ولم تقعد؟

كانت قد استقرّت على الأريكة للتوّ، حين دخلت منال مستعجلة، وهمست لليلى:

- الطّبيب هنا.. سيأتي لرؤيتك.

- الطّبيب؟ من طلبه؟ أنا بخير.

- لقد طلبناه من أجل فراس.. وطالما أنّه هنا فمن الأفضل أن يفحصك أيضا.

هزّت رأسها في تفهّم، وقد امتقع وجهها. فراس؟ ما شأنه؟

قامت الجدّة من فورها، وخرجت. لا شكّ أنّها ذاهبة إلى غرفة فراس. دخل الطّبيب بعد حين. تفقّد نبضها وحرارتها، وأوصى لها بالرّاحة، ثمّ انصرف. غادرت سريرها، ووقفت أمام النّافذة، تطالع السيول التي استمرّت تهطل طوال اللّيل والنّهار دون انقطاع، وتفرك كفّيها في قلق.

حين دخلت منال مرّة أخرى حاملة كوبا من عصير اللّيمون الطّازج سألتها:

- هل فراس بخير؟

- أرجو أن يصبح بخير قريبا.

تحرّكت باتّجاه المنضدة لتضع الكوب، وبدا عليها العبوس. ازداد قلق ليلى.

- ماذا أصابه؟

- لم يستيقظ من غيبوبته بعد.

- ماذا؟!

- أصابته الحمّى بالأمس، أثناء نومه.. ولم ننتبه إلّا صباحا، حين تأخّر في الاستيقاظ. وضعنا له الكمّادات، ومخفّضات الحرارة.. لكنّ الحرارة لا تنزل! لقد حقنه الطّبيب منذ حين، ووصل المضادّ الحيويّ ومحلول التغذية بوريده. إذا لم يتحسّن حتّى المساء، فسيكون علينا نقله إلى المستشفى.

أحست ليلى بقلبها يغوص في صدرها، وبأنفاسها تنقطع، وترنّحت خطواتها حتّى وصلت إلى السّرير لتنهار عليه.

- ليلى، أنت بخير؟

هزّتها منال برفق وهي تطالعها باهتمام. لكنّها لم تستطع أن تردّ بكلمة. انهمرت عبراتها في صمت، ثمّ ما لبثت شهقاتها أن ارتفعت مرّة أخرى، وطغى عليها إحساس الأمس الشّنيع بالذّنب. أنت السّبب! ألا يكفي أنّك حاولت قتله منذ أربع سنوات؟ تريدين الإجهاز عليه الآن؟ لو لم يخرج خلفك تحت المطر، لما أصابه ما أصابه. انتابتها نوبة أخرى من الأفكار البشعة وازدراء النّفس. كان يجب أن تموت. كان يجب أن تموت في تلك الحادثة!

هدأت أخيرا بعد أن ذرفت كلّ آلامها وحسراتها دمعا. ليت الدّمع يغسل خطاياها ويمسح الماضي. ليتها ولدت من جديد بعد الحادثة، بسجلّ نظيف من الذّنوب، كما كانت ذاكرتها نظيفة! ليتها!

لم تغادر غرفتها حتّى المساء. تستلقي على السّرير، وتدفن رأسها في وسادة رطبة من دموعها. تهبّ من مرقدها في لهفة، كلّما دخلت عليها منال، تتحرّى عن حالة فراس. وكانت منال تهزّ رأسها في أسف كلّ مرّة. لا جديد.

كانت تهوّن على نفسها، إنّها مجرّد نزلة برد! ثمّ يميل مزاجها إلى

الدّراميّـة، فتسـتحضر تعـداد الوفيـات السـنويّ بسـبب الـزّكام. تطـرد الأفـكار السّـوداء بسرعـة، فـراس قـويّ، وقـادر عـلى التحمّـل. لكـنّ الحمّـى المتواصلـة قـد تسـبّب أضرارا دائمـة لأعضـاء الجسـم الحيويّـة!

وكلّمـا رفعـت رأسـها، نهشـتها نظـرات الجـدّة الصّامتـة والمليئـة بالعتـاب. تجـرّ الحاجّـة فريـدة سـاقين متعبتـين بـين غرفـتي حفيديهـا وتتذمّـر بصـوت عـالٍ، مـن ركبتيهـا وصداعهـا والطّقـس السّـيّئ بالخـارج، لكنّهـا لا تسـألها شـيئا عـن أحـداث اللّيلـة الماضيـة. تناولـت وجباتهـا معهـا، في غرفتهـا، مـع أنّ ليـلى لـم تضـع في جوفهـا شيئا طيلـة النّهـار، وطلبـت سـجّادتها، لتقيـم صلواتهـا هنـاك أيضـا.

بعـد صـلاة العشـاء، استلقت الجـدّة عـلى الأريكـة، وغفـت. تناهـى شـخيرها الرّتيـب إلى ليـلى الرّاقـدة، وقـد اسـتبدّت بهـا الرّجفـة مثـل ورقـة خريـف. في تلـك اللّحظـة، داهمهـا ذلـك الخاطـر الغريـب. اسـتوت جالسـة، وألقـت نظـرة متفقّـدة عـلى جدّتهـا الغارقـة في سـباتها. ثـمّ اسـتدارت لتحـدّق في السـجّادة الـتي كانـت لا تـزال مفروشـة في اتّجـاه قبلـة الصّـلاة. دفعـت الغطـاء وتركـت سريرهـا في تصميـم. كانـت تشـعر بالضّعـف، وقـد غادرتهـا قواهـا كلّهـا، واسـتنزفها البـكاء والإعـراض عـن الطّعـام. قطعـت بضـع خطـوات، ثـمّ انهـارت عـلى قطعـة القمـاش المخمليّـة، في وضعيّـة السّـجود. سـجدت طويـلا، وسـكبت العـبرات بسـخاء، وكأنّ مخـزون دموعهـا لا ينضـب، وهـي تدعـو الله أن تنتهـي اللّيلـة عـلى خـير.

بعـد سـاعة، دخلـت منـال مبتسـمة. أخبرتهـا أنّ فـراس قـد اسـتيقظ، وانخفضـت حرارتـه.

***

لـم ترجـع مـع العائلـة إلى القصـر في الغـد. طلبـت أن تظـلّ في المزرعـة ليومـين إضافيّـين، ولـم يعـترض أحـد. كانـت تحسـب تلـك المهلـة ستمكّنها مـن ترتيـب أفكارهـا، وإيجـاد مخـرج لأزمتهـا. لكنّهـا كانـت مخطئـة في تقديرهـا. كانـت تسـتيقظ كلّ صبـاح عـلى إحسـاس شـنيع بالتّعاسـة، وتـزداد غوصا في مسـتنقع الكآبـة كلّ سـاعة مـن سـاعات النّهـار.

بعـد يومـين، عـاد منـال وياسـين لاصطحابهـا. كانـت شـاكرة للعائلـة الصّغـيرة الـتي تهتـمّ لأمرهـا، وللمربّيـة الـتي سـهرت عـلى راحتهـا ولـم تثقلهـا بالأسـئلة. لكـنّ تأجيـل المواجهـة مـع مصيبتهـا لـم يخفّـف شـيئا مـن وطأتهـا عـلى نفسـها. رجعـت مكرهـة إلى غرفتهـا في القصـر الكبـير، ولـم تغادرهـا لأيّـام.

لـم يحـاول أحـد أن يجبرهـا عـلى مشـاركتهم مائـدة العشـاء كمـا جـرت العـادة، وتفهّـم خالهـا رغبتهـا في الانـزواء، رغـم أنّ سرّ أزمتهـا بقـي مجهـولا لديـه. وكانـت الجـدّة تزورهـا كلّ يـوم، تصعـد الدّرجـات مـن أجلهـا، تلهـث وتتذمّـر، ثـمّ تلـين، تحدّثهـا لبرهـة عـن أعمـال الجمعيّـة المتوقّفـة في انتظـار رجعتهـا، ثـمّ تحتـدّ قليـلا وتوصيهـا بصحّتهـا، قبل أن تزفـر في تسـليم أمـام الجـدار الصّامـت الـذي لا يبـدي حـراكا، وتنـصرف.

لـم تحـاول أن تخـرج إلى الشّرفـة أيضـا. كانـت فكـرة رؤيـة فـراس وحدهـا تجعـل قشـعريرة بـاردة تـسري في جسـدها، وتدخلهـا في نوبـة بـكاء جديـدة. عرفـت أنّـه قـد اسـتردّ صحّتـه، ورجـع إلى عملـه بعـد ملازمته الفـراش لثلاثـة أيّـام. حـين اطمأنّـت، توقّفـت عـن تحـرّي أخبـاره. لـم يحـاول بـدوره اقتحـام عزلتهـا، مـع أنّهـا كانـت تتلقّـى زيـارات أمـين ومنـال، إن صـحّ أن تسـمّيها زيـارات. لـم تكـن تقـدر إلّا عـلى البـكاء والصّمـت، رغـم محـاولات صديقيهـا المقرّبـين سـبر أغوارهـا. وهـل كان بيدهـا أن تقـول شـيئا؟ أن تعلـن بصفاقـة مـن تكـون؟ لـم تكـن بعـد قـد تقبّلـت وضعهـا ولا عرفـت مـا يجـب عليهـا فعلـه إزاءه، فكيـف يمكنهـا

مواجهـة الآخريـن بهويّتهـا؟

وفي غمـرة تخبّطهـا في ظلمـات الوحـدة والحسـرة، وقعـت نظراتهـا عـلى المصحـف الـذي أهدتهـا إيّـاه وداد. كان لا يـزال قابعـا فـوق مكتبهـا، ولـم تقـرأ فيـه بعـد. هـل كانـت خلايـا عقلهـا الـتي تطلـب النّجـدة مـن طـول اجترارهـا للأفـكار السّـوداء مـا دفعهـا إلى مـدّ كفّهـا باتّجـاه الكتـاب؟ أم تراهـا ذكـرى سـجودها تلـك اللّيلـة الماطـرة تدعـو الله أن يشـفي ابـن خالهـا، فيسـتجيب؟ كانـت تفتّـش عـن بصيـص أمـل، عـن قشّـة تتشـبّث بهـا، وقـد هـيّئ إليهـا أنّ ذلـك المصحـف، كلام الله، هـو قشّـتها. لقـد اسـتجاب مـرّة، فهـل تـراه يسـتجيب مـن جديـد؟

فتحـت المصحـف، وتلـت الفاتحـة. هـذه سـورة تحفظهـا عـن ظهـر قلـب. ثـمّ شرعـت تقـرأ سـورة البقـرة. تقـرأ ببـطء، وهـي ترتجـف، وتبـكي. فهمها بطـيء والمعـاني تتراقـص في ذهنهـا دون انتظـام، لكنّهـا تسـتمرّ. تترقّـب لحظـة مـا، تنبثـق خلالهـا الرّاحـة في صدرهـا، مـن مصـدر مجهـول.

يـوم زيـارة والدهـا، تجـاوزت اكتئابهـا وخرجـت بعـد أن انـصرف كلّ سـكّان القـصر إلى أعمالهـم. لـم تكـن تفـوّت موعـد الزّيـارة مـادام لـم يشـغلها شـاغل يفـوق طاقتهـا. ولا شـكّ أنّ غيابهـا الأسـبوع المـاضي قـد أثـار جزعـه. قـرأت اللّهفـة عـلى ملامحـه فـور وصولهـا.

- أنت بخير؟

- نعم.

- خالك بخير؟

- الجميع بخير.

- هل من جديد من المحامي؟

- لا شيء.

كان صمتها وتكتّمها مريبين. لم تدر كم يمكنها أن تصمد. كلّما همّت بالكلام، خنقتها العبرة. انهارت على حين غرّة، وأخذت تبكي دون انقطاع.

ـ ما الأمر يا ليلى؟ ماذا دهاك؟

قالت بنظرة عتاب:

ـ لماذا أخبرتني بوفاة حنان بعد سنة كاملة من وقوعها؟

ـ ماذا؟

ـ لم تخبرني أنّها توفّيت في نفس الحادثة.. أنّنا كنّا جميعا في السيّارة!

ـ لأنّك كنت تحت تأثير الصّدمة.. لم تتعرفي إلى نفسك، فكيف أعرّفك على من رحل من أهلك؟

هزّت رأسها في عدم تصديق:

ـ لقد عنيت أن تخفي الأمر.. وكأنّ وفاتها حصلت في وقت لاحق!

ـ كانت تلك نصيحة الطّبيب. أن أنشّط ذاكرتك بالإيحاء، بدون ذكر مباشر للتفاصيل.. حقيقة وجود توأم لك، ربّما كانت لتعيد قسما من ذكرياتك.

ـ لكنّ ذلك لم يحصل.

ـ نعم، ليلى.. للأسف.

عادت إليها كلمات فراس. هل كانت تسترجع ذكريات باهتة، تستخرجها من قاع الذّاكرة؟ أم تصنع ذاكرة بديلة قوامها الصّور؟ نظرت إليه في رجاء، وهتفت مستعطفة:

ـ هل أنا ليلى.. حقّا؟

ـ ما الذي تعنينه؟ طبعا أنت ليلى! ما هذا السّؤال الغريب؟

- أنا.. لا أذكر شيئا.. عن ليلى! بعد الحادثة، لم أعرف من أكون.. فكيف عرفت أنّني ليلى؟ لماذا لا أكون حنان؟

- ما هذه التّخاريف؟ كيف لي ألّا أعرف ابنتي التي رعيتها منذ نعومة أظفارها؟ حنان هي التي ماتت في الحادثة!

- أخبرني الحقيقة.. أنت الوحيد الذي كان بإمكانه التعرّف على الجثّة وتوقيع شهادة الوفاة. هل يمكن أن تكون قد أخطأت؟ هل يمكن أن تكون في حالة صدمة، ولم تتأكّد من هويّة النّاجية؟ أو لعلّك رغبت من كلّ قلبك أن تكون ابنتك المفضّلة هي التي على قيد الحياة؟

- ليلى.. توقّفي! هذا هراء! من الذي زرع الشكّ في نفسك؟ لماذا تسألين الآن هذه الأسئلة الغريبة؟

توقّفت فجأة، هذا لا يجدي نفعا. لن يخبرها شيئا، حتّى لو كان يعرف. إنّها تسأل الشّخص الخطأ. والدها سيحميها، حتّى لو كان متأكّدا من ارتكابها لجريمة قتل. هكذا يكون الآباء. ولعلّه أنكر هويّتها في لا وعيه، وأقنع نفسه بأنّها ليلى حقّا! وحدها تدرك الحقيقة الآن. الكوابيس كوابيسها. لا أحد يرى بوضوح تفاصيل الحادثة كما تراها. قالت في فتور:

- أنا مرهقة. أريد أن أستعيد ذاكرتي، وأعرف من أكون حقّا.

- ليلى، عزيزتي.. سيأتي ذلك في أوانه. أنت لست في حاجة إلى ذاكرتك، لتكوني نفسك! وأنا أحبّ ما أنت عليه اليوم!

طبعا، الجميع يحبّون ما هي عليه اليوم! لقد كانت حنان ممقوتة من الكلّ! حتّى زوجها، تحوّلت عاطفته نحوها إلى ضغينة! انتابتها نوبة بكاء جديدة، أمام نظرات نجيب الدّهشة.

خرجت من عنده، ولم يتوقّف نزيف ألمها.

لقد كانت الذّكرى بغيتها منذ أيّام. تمنّت بكلّ طاقتها أن تتذكّر،

وها أنّ ذلك قد حصل! وهي تسبح في أفكارها، تستعيد مديح فراس للنّسيان. تدرك متأخّرة جدّا، كم هو نعمة لمن اقترفت يداه ذنوبا بقدر ما فعلت.

لكنّ النّسيان لا يصلح شيئا!

هل يمكن لوطنها الثّائر وقد استردّ حريّته وكرامته، أن يصالح خونة الماضي، يربّت على أكتفاهم ويحتضنهم من جديد كأنّ شيئا لم يكن؟

هل يمكنها أن تصالح ذاتها الآثمة وتصفح عن خطاياها؟ تذر الرّماد في عيني ضميرها، وتنسى؟

لا!! الوطن يحاسب مفسديه ويفرض على كلّ من سرق ونهب وآذى واستنزف وخان أن يدفع الثّمن!

كذلك ينطبق الأمر عليها. إن كانت قد ارتكبت جريمة قتل، فلا يمكنها إخفاء ذلك إلى الأبد، ولا حتّى تجاهله بينها وبين نفسها! إن كانت مجرمة، فعليها أن تدفع الثّمن!

تذكّرت فجأة قسمها الكشفيّ.. «أن تبذل جهدها لتقوم بواجبها تجاه الله والوطن».

إنّ هذا واجبها تجاه الله والوطن معا.

فتحت محرّك البحث ذلك الصّباح. بحثت عن حكم القاتل المتعمّد! كان يلزمها أن تتوب إلى الله، فالتّوبة تجبّ ما قبلها. والتّوبة النّصوح تستوجب منها النّدم وعدم العودة إلى سالف عهدها. هذا أمر يسير. لكن تبقى عليها حقوق تجب تأديتها. وذنوب حنان التي تعرفها كثيرة، فما بالها بتلك التي لم يصلها خبرها! في نهاية المطاف، كان عليها أن تسلّم نفسها.

خرجت من عند والدها، ومشت على غير هدى. تدور في حلقات

مفرغـة، تتـوه مـع أفكارهـا، ولا تقـدر عـلى العـودة إلى قـصر خالهـا. لـم تكـن ترغـب في العــودة إلى جــدران الغرفــة، والعيــون الجزعــة لأفــراد عائلتهـا. حـين لمحـت مئذنـة مسـجد قريـب، تهلّلـت أسـاريرها.

هذا بيت الله، وهي تريد أن تحدّثه بتوبتها!

كان الوقـت ضحـى، وكان المسـجد خاليـا تمامـا مـن المصلّـين. خطـت فـوق السّـجاد، عاريـة الـرّأس حافيـة القدمـين. تربّعت في سكون، وأنصتت إلى الصّمـت الخاشـع، فشـعرت بالطمأنينـة تجتاحهـا. مـن يحتـاج همهمـة ورقصـا مجنونـا ليصـل إلى حالـة صفـاء شـاملة؟ مـا كانـت فيـه في تلـك اللّحظـة كان عـين التصـوّف. أغمضـت عينيهـا، وأخـذت تناجـي خالقهـا.

يـا الله، لقـد جئـت إليـك. لأنّـني لا أعـرف أحـدا غـيرك بيـده أن يحـلّ أزمـتي.

يا الله، لقد سدّت الأبواب في وجهي، ولا مهرب إلّا إليك.

يـا الله، لقـد ظلمـت نفسي، وأسرفـت في الظلـم. لـم أقـدّر حيـاتي حـقّ قدرهـا، ولا توانيـت عـن إلحـاق الـضّرر بالآخريـن، حـتّى ذهبـت شـقيقتي ضحيّة جنـوني.

يـا الله، مـا أنـا فاعلـة الآن؟ أسـألك أن ترشـدني إلى مـا ينبغـي عـليّ القيـام بـه.

مضـت سـاعتان عـلى جلوسـها السّـاكن ذاك، تحـدّث الله بمصيبتهـا، وتسـأله العـون والمغفـرة. رُفعـت صـلاة الظهـر، فصلّـت مـع ثـلاث نسـاء أخريـات، وأوصالهـا ترتجـف. ارتـدت عبـاءة ووشـاحا، كانـا متاحـين عـلى شـمّاعة في المدخـل. حـين قُضيـت الصّـلاة، تحاملـت عـلى نفسـها، وخرجـت.

كانـت قـد ابتعـدت مسـافة كافيـة، حـين انتبهـت إلى أنّهـا قـد نسـيت عليهـا الوشـاح والعبـاءة! قلّبـت نظراتهـا في حـيرة. كان عليهـا أن تعـود

أدراجهـا، وتعيـد مـا اسـتعارته مـن المسـجد، لكـنّ قلبهـا انقبـض لذلـك الخاطـر. كأنّ الرّاحـة الـتي عرفتهـا في بيـت الله سـتختفي، إن هـي تجـرّدت مـن ثيـاب الحشـمة تلـك! كأنّ سرّهـا الدّفـين سـينفضح، لـو أنّهـا نزعـت عنهـا السّـتر! شـعرت بصـوت داخلهـا يقـول زاجـرا، لقـد سـترك الله، فاسـتري نفسـك!!

تـردّدت لثـوانٍ، ثـمّ قـرّرت. تناولـت هاتفهـا واتّصلـت بـوداد. كانـت تشـعر بالخجـل، لكنّهـا لـم تعـرف مـن غيرهـا يمكنـه أن يتفهّـم ما تعيشـه في تلـك اللّحظـة. حـضرت وداد عـلى جنـاح السّرعـة بعـد تلقّيهـا الاتّصـال الغريـب، مصحوبـا بطلـب أغـرب. كان بيدهـا كيـس، يحـوي عبـاءة ووشـاحا. رافقتهـا حـتّى المسـجد، حيـث أعـادت الثّـوب الـذي كان عليهـا، وارتـدت مـا أحضرتـه وداد، ثـمّ خرجتـا معـا. لـم تسـألها وداد شـيئا، بـل عانقتهـا بقـوّة، في شـوق، كمـا عانقتهـا منـذ أسـابيع وهـي تودّعهـا. قالـت ليـلى في حـرج:

- لـم أعـرف مـن أيـن يمكنـني أن أشـتري الثّـوب، لذلـك اتّصلـت بـك. سـأردّ إليـك ثمنـه حالمـا أعـود إلى القـصر.

- لا تفعلي، هذه هديّة منّي!

في طريـق العـودة، أخـذت الأفـكار تنتظـم في رأسـها شـيئا فشـيئا. ستسـلّم نفسـها، لكـن ليـس الآن. كانـت لديهـا مهـامّ أخـرى لا تصـحّ توبتهـا دونهـا. حـين تفـرغ منهـا، سـتعود إلى جينيـف، وتنهـي الأمـر بنفسـها.

سـتعطي نفسـها مهلـة، حـتّى ينتهـي تجديـد شـقّة والدهـا. سـيكون ذلـك كافيـا.

حـين تخطّـت عتبـة القـصر، قـرأت الدهشـة في العيـون المحدقـة بهـا. ابتـداءً مـن الحـارس، والعـمّ صابـر، وصـولا إلى أمـين الـذي لاقاهـا في

البهو. شعرت بتردّده، بين السّرور لرؤيتها خارج أسوار معتزلها، وبين القلق للتّغيير الذي طرأ على شكلها. قال أخيرا، بأسلوبه المازح المعتاد:

- هل فاتني شيء؟ نظرا للتغييرات السّريعة، لم يعد بإمكاني التنبّؤ بما سيحصل لاحقا!

قالت في هدوء:

- لا تحاول التنبّؤ.. أنا نفسي لا أعرف، ما الذي سيحصل لاحقاً.

قال وهو يشير بسبّابته إلى الوشاح الذي يغطّي شعرها:

- هل أنت جادّة بهذا الشّأن؟ أقصد، هذا لا يشبهك.

ابتسمت، وقالت في سخرية:

- حقّا؟ ما الذي يشبهني إذن؟

إنّها تتفهّم حيرة أمين. ليست القرارات السّريعة وغير المدروسة من عادتها. إنّها لا تعرف أصلا إن كانت جادّة بشأن الحجاب. لا يمكنها حتّى أن تدّعي أنّها محجّبة قد ارتدت الحجاب عن اقتناع. لا تدري كم من الوقت ستحتفظ بغطاء رأسها. لم تكن قد فكّرت في ذلك على الإطلاق. بل لعلّها لم تكن تدرك رمزيّة الوشاح الذي تضعه الآن، والعباءة التي تستر جسدها! لقد كانت مجرّد «حاجة» انتابتها فجأة. أن تكون أقرب إلى الله، أن تحتفظ بلباس الصّلاة الذي يوحي إليها بقربها منه، كأنّها في صلاة لا تنقطع. كأنّها ستشعر بحضوره داخلها وحولها، طالما تشبّثت بالعباءة. ربّما يكون تفكيرها سخيفا، وساذجا. لكنّها في تلك اللّحظة في حاجة إلى كلّ الأفكار السّاذجة والسّخيفة التي تبقيها مطمئنّة، وثابتة القدمين. كانت تخشى أشدّ ما تخشى أن تترنّح، وتفقد اتّزانها من جديد. وهي في حاجة إلى تركيزها كلّه في الفترة المقبلة.

- فراس، تعال تعرّف على ابنة عمّتك الجديدة!

انسحبت الدّماء من وجهها، بعد كلمات أمين. ثمّ شعرت بخطوات فراس تقترب، وهو يتجاوز المدخل. كان راجعا من مكتبه. توقّفت الخطوات على مقربة، لكنّها لم تقدر أن ترفع عينيها باتّجاهه. استمرّت تحدّق في الأرض، أمامها، متجاهلة وجوده. كانت تعرف أنّها ستراه على العشاء، لكنّها لم تكن مستعدّة بعد.

- ليلى، أنت بخير؟

رغم إرادتها، يعيدها صوته إلى وقفتها تحت المطر، مبلّلة من رأسها إلى أخمص قدميها، وهي تصرخ فيه «أنا لست ليلى.. لست ليلى!». شعرت بالدّوّار فجأة. إنّها تترنّح. سمعت خطواته تبتعد وهو يهتف بأمين:

- إنّها ليست بخير! اجعلها تجلس على الأريكة، سأرسل بهجة بكوب ليمون!

ثمّ اختفى. انقادت إلى ذراع أمين، واسترخت على الأريكة، وهي تتنفّس في اضطراب. سمعت صوت أمين يقول في حدّة:

- ليلى، ما الذي حصل تلك الليلة في المزرعة؟ ما الذي فعله فراس؟

رفعت رأسها مذعورة. ما الذي يعتقده أمين الآن؟ همست نافية:

- لم يفعل شيئا.

- لماذا ردّة الفعل هذه إذن؟ لقد كنت بخير منذ قليل.

- إنّه.. مجرّد دوّار. لم آكل جيّدا في الأيّام الماضية.. وبذلت جهدا كبيرا اليوم.

جاءت بهجة مهرولة، وبكفّها كوب العصير، بناء على طلب فراس، لكنّه لم يرجع إلى البهو. سقتها إيّاه على مهل، بينما لازمت عيني

أمـين نظـرة غـير مقتنعـة. كان يـدرك أن شـيئا مـا قـد حصـل بـين ليـلى وفـراس.

-١٣-

كان أوّل ما فعلته حين دلفت إلى غرفتها هو أن فتحت درج المنضدة العلويّ وأخرجت مفكّرة فراس. كانت قد نسيت أمرها في الأيّام الماضية. انشغلت عنها بكلّ ما داهمها من مستجدّات. لكنّها تعود إلى تفكيرها بقوّة الآن. قرّرت أنّ عليها أن تعرف نفسها، وتستعيد ما خبا من ذكرياتها. حتّى وإن كانت الجريمة أكيدة عندها، باعتبار شهادة فراس وكوابيسها، فإنّ هويّتها باهتة في ذهنها. إن كانت حنان، فلا أحد يعرفها أكثر منه. ولا شكّ أنّها ستجد أثرا لها في مذكّراته!

فتحت المفكّرة، وأخذت تبحث عن حنان فيها. تقفز السّطور، وتتوقّف عند الأحداث التي تهمّها.

١٤ مارس ٢٠٠٦

كعادتها، حنان هربت من المدرسة. جاءت إلى غرفتي هذا الصّباح وطلبت أن أوصلها إلى المكتبة. أعلم يقينا أنّ المكتبة هي نقطة الانطلاق إلى وجهتها الحقيقيّة. والدي يزجرها في كلّ مرّة يرده إنذار من الناظرة بشأن غيابها، لكنّه لم يتّخذ أيّ إجراء للحدّ من جموحها وتهوّرها.

إنّها لا تبدو على طبيعتها هذه الأيّام، عصبيّة ومزاجيّة. لقد كانت مدلّلة منذ الأزل، لكنّ الأمر يفوق المحتمل. صرت أخشى إن أنا رفضت طلبها أن تلجأ إلى الصّراخ وتحدث الفوضى. ما تفعله بنفسها ليس من شأني. الكلّ يعلم أنّ الدّراسة ليست من اهتماماتها، ولا أحد يتوقّع لها أن تدخل الجامعة أصلا!

أوصلتها إلى المكتبة ورحلت. أعلم أنّها لن تدخلها أصلا. ستكون شلّتها في انتظارها عند المنعطف، لتمضي نهارها في التسكّع.

٢ أبريل ٢٠٠٦

كنت في طريق العودة من الكليّة، حين رأيت حنان تحت الجسر مع مجموعة من الشّباب المشبوه. كانت تبدو في حال مزرية. أوقفت السّيّارة ونزلت. صرخت بوجهي أن أرحل، ثمّ تفرّق أصحابها وتركوها. أجبرتها على ركوب السيّارة وهي لا تتوقّف عن الرّكل والتخبّط. ثمّ انتابها ضحك هستيريّ.

شككت في الأمر. لم تكن في حال طبيعيّة أبدا. فكّرت أنّه من غير اللاّئق أن تدخل الفيلا وهي على تلك الحال. كان أوّل ما فكّرت فيه أنّها قد تكون استهلكت مشروبات كحوليّة.. وقد يكون من المفيد جعلها تتقيّأ. توقّفت عند الصيدليّة وطلبت دواء يساعد على التقيّؤ.. ما كلّفني تحقيقا صارما من الصيدليّ، ورفضا لصرف الدّواء دون وصفة طبّيّة. عدت إلى السيّارة. كانت حنان قد نامت.

توجّهت إلى الكورنيش. أوقفت السيّارة لمدّة ساعة أو أكثر. انتظرت بصبر أن تصحو من سباتها. ثمّ عدنا إلى الفيلا.

١٠ أبريل ٢٠٠٦

تردّدت في إخبار والدي بأمر حنان الأسبوع الماضي. إنّه مشغول على الدّوام، ولا أعتقد أنّه سيفعل شيئا غير الصّراخ في وجهها قليلا وأخذ وعد كاذب منها بأن تقلع عن حماقاتها. لقد بلغت الثامنة عشرة، وهي تعتبر راشدة ومسؤولة في نظر القانون.

قرّرت أن أراقبها بنفسي.

١٢ أبريل ٢٠٠٦

أمين وحنان كانا صديقين مقرّبين منذ طفولتهما. لكنّ دخول أمين الجامعة هذه السّنة ترك فراغا في حياة حنان. لم يعودا يتشاركان كلّ شيء، فلكلّ منهما وجهته المختلفة. لذلك تورّطت حنان مع شلّة أصدقاء سيّئين، يبدو أنّ تأثيرهم عليها يتفاقم.

اليوم، وأنا أنتظر حنان أمام مدرستها، انتبهت إلى شابّين يقفان في موقف السيّارات، يتستّران ويمرّر أحدهما إلى الآخر قرطاسا مطويّا صغير الحجم. شعرت بالخطر قريبا جدّا.. وتساءلت، هل تعرف حنان هؤلاء الأشخاص؟

٤ مايو ٢٠٠٦

منذ أن شرعت في مراقبة حنان وتوصيلها من وإلى المدرسة، بدت أكثر التزاما وأقلّ شغبا. لم تثر مشكلة في البيت، ولم ترد شكاوى من المدرسة.

لكنّني أشعر بالقلق. ما زلت أشكّ أنّها تخفي أمرا ما.

١٦ مايو ٢٠٠٦

اليوم اكتشفت حقيقة ما تخفيه تلك البنت!

كنت قد لاحظت منذ أيّام أنّها رغم حرارة الطقس المتزايدة، ترتدي ثيابا محتشمة على غير العادة. أعرف حنان، تنتظر الرّبيع بفارغ الصّبر، لتكشف ذراعيها وساقيها وترتدي الفساتين والتنانير القصيرة. لكنّها هذه المرّة بدت محافظة على غير طبيعتها. الأكمام الطّويلة بالذّات، ليست ما تحبّه حنان!

أثـار ذلـك فضـولي، وتذكّـرت مشـهد الولديـن في موقـف سـيّارات المدرسـة. كان يجـب أن أنتبـه أيضـا إلى سـحنتها الشّـاحبة، وهـالات عينيها العميقـة السّـوداء، وسرحانهـا الدّائـم، كأنّهـا غائبـة عـنّي. لـم نكـن نتبـادل سـوى كلمـات يسـيرة في السـيّارة حـين أوصلهـا. عـزوتُ ذلـك إلى ضيقهـا بمراقبـتي اللّصيقـة. وفـسّرت شـحوبها إلى سـهرها المتواصـل عـلى ألعـاب الفيديـو. لكنّـني لـم أتوقّـع أن تكـون الأمـور بهـذا السّـوء!

لـم أكـن لأعـرف شـيئا لـولا خطـأ ارتكبتـه هـي، شـمّرت عـن سـاعدها في حركـة لا إراديّـة متأفّفـة مـن الحـرّ.. ثـمّ أعـادت الكـمّ إلى مكانـه، كأنّمـا تذكّـرت شـيئا. أثـارت حركتهـا ريبـتي. في غفلـة منهـا، أمسـكت بسـاعدها ورفعـت الكـمّ قـسرا، رغـم صراخهـا ودفاعهـا. رغـم كلّ العلامـات الـتي كان مـن المفـترض أن تنبّهـني، فإنّـني كنـت أتوقّـع بقعـا زرقـاء مثـلا، نتيجـة شـجار مـا.. أو وشـما بذيئـا تحـاول إخفـاءه عـن العيـون.. لكـنّ آثـار الإبـر عـلى سـاعدها كانـت الفاجعـة!

كان عليّ أن أخبر والدي بكلّ شيء هذه المرّة.

٢٠ مايو ٢٠٠٦

حنان محبوسة في غرفتها منذ أربعة أيّام. أسمع أنينها طيلة اللّيل.

أعلـم أنّهـا تحقـد عـليّ الآن. تعتـبرني السّـبب الرئيـسي لمعاناتهـا. لقـد كشـفت سرّهـا الكبـير، فتعرّضـت للعقـاب، ومنعـت عنهـا آفاتهـا المخدّرة.

جـاء الطّبيـب لزيارتهـا في غرفتهـا، ووصّـل محلـولا بذراعهـا، ليسـاعدها عـلى تحمّـل آلام انسـحاب المخـدّر. لكنّهـا نزعـت الإبـرة وحطّمـت القـارورة وعبثـت بمحتويـات غرفتهـا، فحبسـت مـن جديـد.

٢٢ مايو ٢٠٠٦

هربت حنان من غرفتها، واختفت. قفزت من الشّرفة وعبرت الحديقة الخلفيّة ومنها إلى الشارع. لم ننتبه لغيابها إلّا حين صعدت مدبّرة المنزل في السّاعة الثامنة لتقدّم لها عشاءها. بحثنا عنها طوال الليل دون جدوى. لقد اختفت.

٢٥ مايو ٢٠٠٦

اتّصلت بي حنان هذا الصّباح. كانت مختبئة عند أحد أصدقائها، لكنّ أهله اكتشفوا أمرها، واضطرّت إلى المغادرة. ضربت لي موعدا عند دوّار السّاعة وسط المدينة. لم أتعرّف إليها منذ النّظرة الأولى. لم تكن قد أكلت شيئا يذكر منذ أيّام، فنحل وجهها وغارت وجنتاها. وكان شعرها مهوّشا وثيابها مهملة ونظراتها زائغة. انفطر قلبي حين رأيتها على تلك الهيئة. كانت تعرج بشكل واضح. أخذتها إلى المستشفى على الفور. كانت قد كسرت ساقها اليسرى حين نطّت من الشّرفة، لكنّها لم تهتمّ بعلاجها في حينها، فتفاقم الأمر. وُضعت لها جبيرة ورجعنا إلى المنزل.

في الطّريق، وعدتني وهي تبكي بأنّها ستقلع عن المخدّرات.

توقّفت عن القراءة وتحسّست ساقها اليسرى. كانت لديها ندبة قديمة. والدها قال أنّها أصيبت عندما كانت في سنّ العاشرة وكسرت ساقها. لم تكن تعرج. التأم العظم تماما. لكنّها تشعر بألم خفيف أحيانا حين تطيل المشي أو الوقوف.

حتّى النّدب السّخيفة تتخذ معاني مختلفة حين تكتشف الحقيقة التي وراءها!

٣٠ يونيو ٢٠٠٦

نجحت حنان. هذه معجزتي، وأنا فخور بها. لم تذهب جهودي في تدريسها طيلة الشهر الفارط سدى. كان يجب أن تنجح، لتبتعد عن أصدقاء السّوء، وتبدأ حياة جديدة.

تهانيّ القلبيّة، يا جميلتي المدلّلة.

١٠ سبتمبر ٢٠٠٦

أوصلت حنان اليوم إلى الجامعة. إنّه يومها الأوّل في كليّة الفنون الجميلة. كانت سعيدة وهي تعبر البوّابة. لوّحت لي وابتسمت قبل أن تغيب في الدّاخل.

هل يمكن أن أطمئنّ الآن إلى مرور مرحلة تهوّرها ومراهقتها؟

أرجو ذلك.

٢٢ أكتوبر ٢٠٠٦

الآفة تعود من جديد!

حنان، لماذا تفعلين هذا بنفسك وبي؟

كلّما اعتقدت أنّ الأوضاع تتحسّن، اتّجهت إلى الأسوأ. مواجهة، ثم

شجار وصراخ، وحبس وعقاب. هذه الآفة تقتلك يا حبيبتي! تمتصّ شبابك وتُذوي جمالك. هل العالم سيّئ إلى هذه الدّرجة في نظرك؟ هل تبحثين عن الهرب بأيّ ثمن؟

على العشاء، لم يظهر طيف فراس. نقلت بهجة عنه رسالة شفهيّة. يشعر ببعض الإرهاق ويرغب في تناول عشائه في غرفته. تفهّم الكلّ رغبته. لقد كان مرضه الحديث شفيعا كافيا. وحدها ليلى أدركت على الفور أنّه يتجنّبها. أو بالأحرى، يسايرها.

لقد انتبه إلى ردّة فعلها في البهو!

لا شكّ أنّه قد بات يعرف الآن أنّها لا تطيق رؤيته! لكنّها لا تتخيّل نوع الأفكار التي تراوده بهذا الشّأن. لم يبد عليه الوعي بحقيقة هويّتها. لم تظهر في ردود فعله علامة واحدة تشي باعتقاده أنّها حنان. تلك التي يناديها في مذكّراته بـ«حبيبتي»، واعترف ليلة المزرعة أنّه قد صار يمقتها! أي تفسير يجده لسلوكها إذن؟ لم يكن بإمكانها أن تخمّن.

تساءلت، كم من الوقت يمكنه التّظاهر بالإرهاق؟ وكم مرّة سيمرّ غيابه عن مائدة العشاء دون ملاحظات أو إثارة شكوك؟

كانت تعتصر أصابعها في كفّيها المتشابكين على حجرها في توتّر، حين امتدّت كفّ منال الدّافئة واحتضنت كفّيها. رفعت رأسها لتلتقي بعينيها الباسمتين. سمعتها تتمتم وهي تشير إلى غطاء رأسها.. مبارك!

لم يعلّق أحد غيرها، وأمين ذلك العصر، على مظهرها الجديد. كان ذلك متوقّعا من ناحيتها. أمين ومنال كانا أقرب أفراد العائلة

إليهـا، وإن كانــت ردود أفعالهمـا متباينــة. بالنّســبة إلى خالهـا وياســين، فـإنّ مـا تفعلـه بنفسـها يعتـبر حريّـة شـخصيّة. ثيابهـا تقـع في نطـاق سـيطرتها، في مسـاحة تصرّفهـا الـتي لا تعـني أحـدا. بالنّسـبة إلى الجـدّة، راعيـة العـادات والتّقاليـد في العائلـة، طالمـا كان التطـوّر نحـو الاحتشـام، فذلـك يناسـبها.. مـع أنّهـا لـم تسـتنكر مـن قبـل شـكلها المتحـرّر.

سمعتها تقول في تذمّر:

ـ ألا يمكن لجمع هذه العائلة أن يكتمل على المائدة دون نقصان!

همست منال لليلى:

ـ إنّها تعنيني طبعا.

كانـت منـال تتغيّـب كثيرا عـن المائـدة، مـن أجـل سـهراتها الاجتماعيّـة. وقـد اختفـت ليـلى الأسـبوع المـاضي، واليـوم قـد كان دور فـراس.

مـا عـدا تلـك الملاحظـة العابـرة، مـرّت تجربـة عشـائها الأوّل بعـد الأزمة بسـلام. تنهّـدت وهـي ترجـع إلى غرفتهـا. يمكنهـا أن تفعلهـا. يمكنهـا أن تسـتمرّ في رؤيتهـم جميعـا حولهـا، وأن تتكيّـف مـع نسـق حياتهـا مـرّة أخـرى، وتتجاهـل مـن تكـون حقيقـة، وتنجـح في تنفيـذ بنـود خطّتهـا. يمكنهـا.

منذ وصولها إلى تونس، اكتفت بالمراقبة. كانت تكتشف بعينين فضوليّتين أفراد عائلتها، نسق الحياة في موطنها، عادات البلاد، شكل الشّوارع والمحلّات، التّناقضات الصّارخة بين طبقات المجتمع، وتتذوّق على مهل مواطن الجمال في بلد يعيش ربيعين في السّنة ذاتها. وما عدا تلك المرّات التي جرّتها خلالها الجدّة للتورّط في أنشطة غير مألوفة، فقد لزمت الحذر في علاقاتها.

بعد حادثة الطّلاء على جدارها، أدركت أنّها كانت في غاية السّلبيّة. لو أنّها اجتهدت في كسب المحيطين بها، لما وصلت الأمور إلى ذلك المستوى المتردّي. لم تكن حفلة الحديقة سوى خطوة صغيرة وغير كافية. تدرك الآن أنّ ما خلّفته حنان السّابقة من جروح نفسيّة أعمق من أن يشفى بين عشيّة وضحاها. قبل أن ترحل، كان عليها أن تتفانى في تضميد الجراح القديمة، لعلّها تبرأ ولو بعد حين.

لقد حان الوقت، لتهتمّ بالقسم الثّاني من عهدها الكشفيّ الذي تلفّظت به أمام أفراد عشيرتها، أن تسعى لإسعاد الآخرين! لم تكن قد فعلت شيئا لتحقيق ذلك بعد.

بدأت خطّتها مع منال. اعترضت طريقها ذات صباح، وهي تهمّ بالخروج مثل عادتها. أجلستها على أريكة الاستجواب في الصّالة العلويّة وبدأت:

- حدّثيني.. كيف تقضين يومك؟

ضحكت منال، وارتبكت قليلا، ثمّ أخذت تشرح:

- لا شيء مهمّ! تعرفين.. في أيّام المدرسة، آخذ رانيا صباحا إلى

صفّها، ثم أرجع لأنام حتّى العاشرة.. مثل اليوم. فأذهب لزيارة والدتي، حيث تجتمع صديقاتها ومعارفها للدردشة حول فنجان قهوة حتى الظهيرة.. عند الثانية ظهرا، أمرّ لأخذ رانيا من المدرسة، نتناول غداءنا في الخارج، ثمّ نذهب إلى النّادي حتى غروب الشمس.

ـ جميل.. ماذا تفعلان في النّادي؟

ـ لا شيء محدّد.. أتركها تلعب مع الأولاد، وأجلس في الشرفة مع بعض المعارف، نراقب الأطفال ونثرثر.

هزّت ليلى رأسها في استياء، ثمّ أردفت:

ـ والآن، أخبريني.. ما الذي كنت تتمنين فعله قبل الزّواج، ولم تواصلي مشوارك فيه أو لم تحاولي أصلا؟

سكتت منال لبرهة متفكّرة، ثمّ ابتسمت:

ـ كنت أودّ تعلّم اللّغة الإسبانية! وقد وددت على الدّوام أن أحافظ على قوام رشيق.. لكن كما ترين، ليس الوضع على أفضل ما يكون!

ـ ماذا أيضا؟

ـ أردت أيضا أن أتعلّم نشاطا فنّيّا.. مثل الرّسم على الزّجاج، أو على الخزف!

ـ جميل.

أخرجت ليلى ورقة وقلما ورسمت جدولا زمنيّا محدّدا بالسّاعات، ثمّ قالت:

ـ لديك فترتان في اليوم تمضينهما في الدّردشة والثرثرة، في منزل والدتك.. ثمّ في النّادي.. ولا شكّ لديّ أنّ هناك فترة أخرى في السّهرة! لن نستغني عنها كلّها دفعة واحدة، فالعلاقات الاجتماعيّة شيء جميل، لكنّها ليست كلّ شيء في الحياة! سنبدأ بحذف فترة السّهرة..

حذفا تامّا وباتّا. لا تنظري إليّ هكذا.. ستشكرينني فيما بعد! فلتكن تلك الفترة للعائلة.. لرانيا وياسين بشكل خاصّ. يجب أن تتوقّف رانيا عن مشاهدة التلفاز حتى وقت متأخّر.. وأن يعتدل ياسين في العمل.. العمل قد يشكّل إدمانا أحيانا، وغيابك المتكرّر، وعدم مطالبتك بحقّك في زوجك يشجّعانه على الإدمان، هل تفهمين؟

هزّت منال رأسها في انتباه وانصياع تامّين، فواصلت ليلى:

- فترة السّهرة إذن، تساوي العائلة! ثمّ فترة الصّباح.. سنقسّمها إلى ثلاثة أنواع.. حصص تعلّم اللّغات، حصص النشاط الفنّي، ومجلس والدتك.. فليكن المجلس مرّة واحدة في الأسبوع.

قاطعتها منال ضاحكة:

- ستكرهك والدتي!

- صدّقيني، ستحبّني حين ترى التّأثير الإيجابيّ عليك! إذن الثرثرة مرّة واحدة، ثلاث حصص للغة، وثلاث حصص للفنّ.. اتّفقنا؟ سنبحث معا عن مركز ثقافيّ مناسب لنشاطك حين ننتهي من وضع الجدول.

كانت ليلى تملأ خانات الجدول بينما واصلت منال هزّ رأسها في اهتمام.

- سنحتفظ بجزء النّادي.. لكن ليس بالشّكل الذي اعتدت عليه! سيكون عليك التّسجيل في حصّة رياضيّة على الأقلّ.. وحين تستعيدين لياقتك وترغبين في حصّة إضافيّة، تسجّلين في الثّانية.. لكن سنبدأ بحصّة واحدة. اتّفقنا؟ رانيا ستسّجل معك في حصص الأطفال.. تدخلان الحصص بشكل متوازٍ، ثمّ تمضيان بعض الوقت في اللّعب المعتاد إذا شئت.. مع أنّني أفضّل أن تقلّلي من جلوسك في النّادي بدون نشاط يشغلك.

أضافت وهي تغمزها بلهجة محفّزة:

ـ ستصبحين شخصيّة مهمّة، حين يصبح حضورك نادرا وملحوظا! الأشخاص المتواجدون على الدّوام، لا أهمّيّة لهم، لأنّهم متفرّغون وبلا عمل.. لكن من يتواجدون لفترات قليلة هم عادة أشخاص مشغولون!

هتفت منال على الفور وهي تضرب كفّا بكفّ:

ـ أنت محقّة! لاحظت أنّ السّيّدات اللواتي لا يتردّدن على النّادي بكثرة يحظين بالاهتمام حين يحضرن، وتتحلّق حولهنّ الأخريات لسماع أخبارهنّ!

ـ إذن هذه خطّتك.. أن تصبحي امرأة مشغولة وعمليّة!

ضحكت منال في استمتاع ونظرت إلى جدول يومها وقد امتلأ بأنشطة جديدة، ثمّ هتفت في حماسة:

ـ نبدأ بالبحث عن مركز تعلّم اللّغات؟

صارت تمرّ كلّ صباح على المطبخ، حيث يجتمع الخدم في أوقات فراغهم، فتسأل عن أحوالهم وتجاذبهم أطراف الحديث. كان عليها أن تبني جسور الثقة لبنة لبنة. كانت الخادمات يتحرّجن في البداية من التحدّث بمشكلاتهنّ أمامها، ويلتزمن الصّمت في وجودها.. ثمّ تداعت ريبتهنّ وألفن حضورها اليوميّ وعفويّتها.

بعد أسبوع من تردّدها على المطبخ، دخلت لتجد مدبّرة المنزل راضية باكية، والأخريات يواسينها. بعد إلحاح وإصرار، سمعت منها الحكاية. كان هناك شابّ قد تقدّم لخطبتها، لكنّه لا يعلم أنّها تعمل في خدمة المنازل، وهي متردّدة في مصارحته، لأنّه ذو وظيفة

محترمـة.. وتخـاف أن يتركهـا أو يحتقرهـا!

أمسكت ليلى بكفّيها بشدّة ونظرت في عينيها وقالت بلهجة صارمة:

- أخبريـني.. هـل أنـت محرجـة مـن عملـك؟ هـل هـو شيء مخزٍ بالنّسـبة لك ؟

هزّت راضية رأسها بقوّة نافية، فواصلت ليلى:

- هـل كنـت لتـتردّدي في القبـول بخاطبـك، إن كان هـو أيضـا يعمـل في خدمـة الآخريـن؟

هنـا، ظهـر عـلى راضيـة الارتبـاك والـتردّد، وبانـت الحـيرة في نظرتهـا. لـم تكـن واثقـة مـن قرارهـا. ربّتـت ليـلى عـلى ذراعهـا في حنـوّ وقالـت:

- هـوّني عليـك.. إن كان الأمـر كذلـك، سـنجد لـك مخرجـا. أخبريـني، مـا هـي مؤهّلاتـك؟

- درسـت المحاسـبة لسـنتين في الجامعـة.. ثـمّ انقطعـت حـين تـوفّي والـدي، واضطـررت إلى العمـل.

- كم مضى على عملك في القصر؟

- أربع سنوات.

- إنّها فترة كافية. دعيني أتحدّث إلى خالي أوّلا.

في الغـد، دخلـت إلى المطبـخ مبتسـمة، ثـمّ هتفـت حـين رأت راضيـة ترقّـب وصولهـا في قلـق:

- أيـن الـتي تريـد أن تغادرنـا وتدخـل قفـص الزّوجيّـة؟ مبـارك عليـك عملـك الجديـد!

لوّحـت بعقـد العمـل الـذي أمضـاه نبيـل ذلـك الصّبـاح بنفسـه. مهمّـة مكتبيّـة في الشّركـة. كان خالهـا متفهّمـا جـدّا بشـكل أدهـش ليـلى نفسـها. اسـتمع إليهـا دون مقاطعـة، ثـمّ قـال في جدّيّـة:

- الفتاة لم تقصّر في خدمتها للقصر وأهله.. ووجب علينا مكافأتها.

كان اللّقاء قصيرا ومثمرا. وعدها بعقد عمل، وقد كان جاهزا في الصّباح التالي.

أخذت الفتيات يتراقصن في المطبخ وقد احتضنّ راضية، سعيدة الحظّ، ثمّ عانقن ليلى في امتنان. لم تكن تدري أنّ إسعاد الآخرين كان متعة في حدّ ذاتها، إلا حين وجدت نفسها بين أحضانهنّ، تشاركهنّ القفز والهتاف الجذل، وتختلط دموعها بدموعهنّ.

- ما الذي ستفعلينه الآن؟

- سيأتي مع والدته لزيارة والدتي يوم السّبت!

لم تكن الدّموع قد جفّت على الخدود، حين بادرتها ليلى في حماس:

- هل لديك فستان مناسب؟

ارتبكت راضية مرّة أخرى، ولم تدر بما تردّ.

- تعالي، سأختار لك واحدا.

صعدتا إلى غرفتها، وفتحت ليلى صوان ملابسها أمام ضيفتها. أخذت تقلّب الفساتين، ثمّ انتقت من بينها ثلاثة، محتشمة وزاهية. وضعتها بين ذراعي راضية ودفعتها في اتّجاه الحمّام:

- هيّا جرّبيها.

خرجت راضية بعد حين وهي تمشي على استحياء، ونظراتها ملتصقة بالأرض. صفّقت ليلى في حماس، وهي تتأمّلها في الثّوب الورديّ الذي اختارته:

- هذا الفستان يناسبك تماما.. إنّه لك!

***

دخلت المطبخ ذات صباح، لتجد الفتيات وقد تأهّبن للخروج. لم تنقطع أحاديثهنّ هذه المرّة عند دخولها كما كنّ يفعلن في السّابق. سألت:

- إلى أين؟

فردّت بهجة في حماس:

- هناك مسيرة تخرج من ساحة «القصبة». سنذهب جميعا لحضورها! هل تأتين؟

كنّ قد طلبن إذنا بالغياب بعد أن تأكّدن من قضاء الاحتياجات المستعجلة لأهل القصر. تردّدت ليلى. مسيرة؟ ما الأمر هذه المرّة؟ شرحت جليلة:

- الانتخابات على الأبواب، والنّظام الذي قَطع رأسه مازال جسده حيّا، وهو الآن يعيد تنظيم صفوفه تحت أسماء أحزاب جديدة تريد أن تدخل السّباق الانتخابيّ! يجب أن يُمنع خونة الماضي من دخول الانتخابات البرلمانيّة!

فكّرت ليلى.. هذا مطلب مشروع. لكن أن تخرج في المسيرة بنفسها، فذلك أمر آخر! اعتذرت، وغادرت المطبخ. مشت في اتّجاه الدّرج، فقابلتها منال عائدة من درس اللّغة. كانت قد قلّبت الأمر في رأسها أثناء مشيها. خطر لها فجأة أن تجرّب. لمَ لا؟ يمكن أن تكون المسيرة جزءًا من خطّتها التّطهيريّة، أن تذوب في الكتلة البشريّة، وتعيش هموم الآخرين كأنّها همومها! لقد اعترفت منذ قليل، إنّه مطلب ديمقراطيّ لا شائبة فيه، ويمكنها أن تتماهى معه لو أرادت.

- منال، هل تودّين حضور مسيرة؟

- ماذا؟

سألتها منال مصعوقة.

ـ تعالي، سأشرح لك في الطّريق!

أوصلتهما سيّارة الأجرة إلى ساحة «القصبة». حين نزلتا، ألفتا الميدان غاصًا بالخلق، وقد ارتفعت الهتافات الهائجة من الجهات الأربعة. كان من اليسير تمييز الشّعارات الخاصّة بمختلف الأحزاب السّياسيّة على اللّافتات المرفرفة، وقد تكتّل مناصرو كلّ حزب في معزل عن الباقين. السّاحة تجمع الكلّ، لكنّ الفرقة واضحة. تساءلت منال:

- ماذا نفعل الآن؟

فهزّت ليلى كتفيها في حيرة.

حين تحرّكت المسيرة أخيرا، اندمجت الفرق المشتّتة، وانجرفت منال وليلى ضمن تيّار المتظاهرين. لم يكن يعنيهما خلف أيّ فريق مشتا، ولا أيّ شعارات ردّدتا. لقد كانتا هناك من أجل التّجربة وحدها.

كانت البنتان تشعران بالإثارة. هذا إحساس لم تختبراه قطّ من قبل. ضغطت منال على كفّ ليلى، وهما تشاركان في الصّراخ وتكرّران الشعارات الرّنانة مع الآخرين. كانت عيونهما تتّقد ببريق غريب وهما تتبادلان ابتسامات متواطئة. لم تعرفا شيئا أكثر حماسة من هذا.. أن تكونا جزءًا من كتلة أكبر، من حركة أقوى، أن تتقاسما شعارا وهتافا وقضيّة مع شعب بأسره.

فكّرت ليلى.. هذا إحساس مخدّر بالنّشوة. حماس معدٍ ومغرٍ بالإدمان. مثل الرّقص الجامح في علبة ليليّة، أو الصّراخ بأعلى صوتك من تلّة مرتفعة تردّد صداه. هذا متنفّس للغضب والكبت والألم. هنا يمكن لكلّ فرد أن يصبّ مكنونات صدره، مهما كانت، ويسمّيها ثورة. هنا يختلط الصّراخ، وتتخدّر الحواسّ، وتلتحم الأجساد. هنا يعيش كلّ شخص لحظته المنفردة.. لحظة نصره الشّخصيّ على

أحزانـه الصّغـيرة، لأنّـه قـد صـار جـزءًا مـن قضيّـة أكـبر.

فكّـرت، هـل تـراه هـذا يكـون واجبهـا تجـاه الوطـن؟ تعلـم أنّ أمـين يؤمـن بذلـك.. ولعـلّ معظـم المتظاهريـن مـن حولهـا يؤمنـون بالـشّيء نفسـه. الحفـاظ عـلى المكاسـب الثّوريّـة، حمايـة الثّـورة.. شـعارات يفترض بهـا أن تكـون وطنيّـة!

حين افترقتا عن الجموع واتّخذتا طريق العودة، هتفت منال:

- أنت خطيرة! لا أعلم إلى أين سيأخذني الانقياد وراءك هكذا!

ضحكـت منـال وابتسـمت ليـلى. لـم تكـن تـدري هـي الأخـرى إلى أيـن تقودهـا خطواتهـا المتهـوّرة.

انشـغلت في تلـك الفـترة بمشـكلات الآخريـن، فشـغلتها عـن مشـكلتها. كانـت تتابـع مـع منـال حميتهـا الغذائيّة وتنظيـم حياتهـا العائليّـة، وتقدّم نصائـح لراضيـة بخصـوص زواجهـا المرتقـب، ثـمّ سريعـا مـا صـارت المستشـار الرّسـميّ لجميـع مدبّـرات المـنزل. كانـت أوّل مـن اكتشـف ضعـف نظـر جليلـة الـذي حاولـت إخفـاءه عـن الجميـع، وسـاعدتها في تقبّـل النّظـارة الطبيّـة الـتي مثّلـت معضلـة نفسـيّة لديهـا. ثـمّ صارحهـا العـمّ هاشـم بمـأزق ولـده الـذي طـرد مـن عملـه بشـكل تعسّـفيّ فتأزّمـت نفسـيّته حـتّى لـزم الفـراش. بعـد أن اطّلعـت عـلى بنـود عقـده، تمكّنـت بمعرفتهـا القانونيّـة أن تجـد مخرجـا يتيـح لـه الحصـول عـلى تعويضـات مناسـبة مـن صاحـب العمـل. وحـين وضعـت زوجـة مـروان الجنائـيّ، طفلتهـا الأولى، ذهبـت لزيارتهـا في المستشـفى، ودفعـت تكاليـف المحضنـة الاصّطناعيّـة الـتي اضطّـرت الطفلـة السّـابقة لأوانهـا إلى قضـاء شـهرين فيهـا.

وصـارت أيضـا تتبّـع أخبـار المسـيرات، وتخـرج في كثـير منهـا خلسـة! أحيانـا مـع مدبّـرات المـنزل، وأحيانـا أخـرى مـع منـال.. وكثـيرا بمفردهـا.

تتوه وسط الجموع المستنفرة، تطلق صوتها مندّدة ومهدّدة، وترفع قبضتها في الهواء مع الرّافعين. وكلّما خرجت، وصرخت، شعرت بأنّها تتفهّم أمين أكثر وأكثر. وتضع نفسها مكان سحر وتستوعب موقفها. وفي كلّ مرّة، تدمع عيناها وتتعالى بداخلها موجة حماسة مُسْكِرة، وتنسى أنّها على أبواب النّهاية قريبا.

وكانت كلّ ليلة، تجلس لتفكّر، وتعتصر ذهنها، دون أن تجد جوابا شافيا للمشكلة الوحيدة المتبقّية. كان بإمكانها أن تعوّض كلّ أولئك الذين آذتهم في الماضي، وتساعد المحيطين بها على تجاوز أزماتهم، وتذوب في زحام قضيّة الوطن والثّورة. كان بإمكانها أن تبحث وتنقّب وتجتهد لاسترجاع ذاكرتها، رغم أنّها لم تتوصّل بعد إلى نتائج تذكر.. إلّا أنّ بوسعها المحاولة. لكنّ معضلة واحدة لم تكن تجد لها أيّة حلول محتملة أو خطوات يسعها تجربتها.

فراس!

لم تكن تدري كيف يمكنها أن تعوّضه! كيف يمكنها أن تمحو ما خلّفته حنان السّابقة من دمار شامل في حياته؟ وكلّما فكّرت، تعاظم إحساسها بالعجز. وكان الوقت يمرّ، والمهلة التي منحتها لنفسها قد شارفت على الانتهاء. كلّما زارت موقع البناء، تجلّت أمامها معالم الشّقّة التي يشرف فراس بنفسه على تجديدها. قريبا ستكون جاهزة. أسابيع قليلة.. شهر على الأكثر. بعدها سيكون عليها الرّحيل إلى جينيف، وتسليم نفسها إلى السّلطات.

هل يمكنها أن تجد مخرجا في الوقت القليل المتبقّي؟

حاول تجنّبها منذ تلك اللّيلة ما استطاع. طالما أرادت العزلة، فيمكنه أن يمنحها ذلك. في نهاية الأمر، هو المسؤول عن الحالة التي أصابتها. حين عرف من العمّال أنّها تزور الشّقّة في الصّباح، صار يرجئ المرور عليها إلى نهاية دوامه. لم تعد تشارك العائلة مائدة العشاء، ولم يثر أحدهم الموضوع على الإطلاق، مهما بدا شغور المقعد المخصّص لها مربكا للجميع. ثمّ حين غادرت سجنها الفرديّ الاختياريّ، كان عليه أن ينسحب طواعيّة من مجالها البصريّ. لقد رأى بأمّ عينه كيف انهارت في البهو، لمجرّد سماع صوته! ورغم أنّه لم يستوعب بشكل جليّ وكليّ علاقته بأزمتها، فإنّه تفهّمها دون كثير تفكير. لقد مرّ بتلك الأزمة من قبل. يمكنه أن يضع نفسه مكانها. في نهاية الأمر، لا أحد يمكنه أن يتوقّع ما قد تخلّفه الصّدمة عند أحدهم. ولعلّه ذكّرها في تلك اللّيلة بأحداث مؤلمة كانت قد توارت في مكان سحيق من لاوعيها.

ومهما احتفظ بمسافة عنها منذ ذلك المساء، فإنّه أبدا لم يستغن عن جلسته في الشّرفة عصر كلّ يوم. كان يجلس وينتظر، وكلّه أمل أن يصله صوتها ذات يوم وهي تقرأ الشّعر مثل سالف عهدها، ليعلم أنّها قد صارت بخير.

لكنّه أبدا، لم يتوقّع أن يفاجئه ظهورها بذلك الشّكل المباغت.

لم يشعر بوجودها في الشّرفة المجاورة ذلك العصر، ولم يصله أدنى صوت يدلّ على قدومها، لكنّها أدهشته ذلك اليوم بإتقانها للعبة التسلّل الخفيّ خاصّته، حين بادرته على حين غرّة، وهو سارح في أفكاره، وسألت:

- هل يمكن في يوم ما.. أن تسامحها؟

كان صوتها واضحا وقريبا، ولهجتها عميقة وكئيبة. كانت تعلم

يقينا أنّه هناك. وكان سؤالها مباشرا ومربكا. مرّت ثوانٍ طويلة قبل أن يتجاوز صدمته، ويفكّر في السّؤال الغريب. ردّد في تشوّش:

- أن أسامحها؟ علامَ بالضبط؟

- على كلّ شيء.

مرّت لحظات أخرى، تصاعدت خلالها مرارة الذّكريات لتسيطر على وعيه وتطغى على تفكيره.. يمرّ شريط الـ«كلّ شيء» بذهنه بسرعة، ويختبر مرّة أخرى أحاسيس المرارة والضّغينة.

- كلّ ما فكّرت فيه.. هو أن أكون خصيمها يوم القيامة، وأترك لله أن يقتصّ منها، ويشفي غليلي!

ساد صمت طويل من الجانبين. خيّل إليه أنّها كانت تبكي دون صوت. لا شكّ أنّها كانت تفعل. لم يدر ما الذي عليه فعله. هل زاد الطّين بلّة؟ لم يكن عليه أن يكون بتلك القسوة؟ مهما كان الأمر، فهي توأمها. كان يحاول تركيب اعتذار، يخفّف وقع كلماته السّابقة، لكنّها سبقته بقولها:

- هل تدري.. أحيانا يكون الغفران بوّابة للنّسيان والتّجاوز.. إن أنت غفرت لها ما مضى، قد يكون من الأيسر عليك تخطّي الماضي واستئناف حياتك.

لقد سمع كلاما مثل هذا، في دروس التنمية الذاتية! كلام باهت، لم يجد له في صدره صدى، ولم يتناوله بشكل جدّيّ على الإطلاق.

- لقد رحلت منذ زمن، ولعلّها تحاسب الآن.. لقد تسبّبت في حياتها القصيرة في الكثير من الألم للآخرين.. وتركت ندوبا لا تمحى. ربّما لو سامحتها، لوجدت بعض الرّاحة في قبرها. فكّر بأنّك ستكون خيرا منها.. وأنّها كائن ضعيف ومثير للشّفقة.. وعفوك سيزيدها ذلّا ويرفعك درجة. في النّهاية، سيكون كلاكما أفضل حالا من الآن. فكّر

في هذا.. هل تعدني؟

مرّة أخرى، استغرق ثواني طويلة ليحلّل اقتراحها ويستوعب ما ينطوي عليه. تنهّد أخيرا، ثم تمتم بصوت شبه مسموع:

- أعدك.

ثمّ، لا شيء على الجانب الآخر. بعد دقائق من الصّمت، أدرك أنّها غادرت في هدوء منذ فترة. لم يتمالك نفسه أن ابتسم.

في الأيّام التّالية، صاحبه السّؤال في كلّ وقت. كان يجلس متأمّلا ويسأل نفسه. هل يمكنه أن يسامحها؟ في المرّات الأولى، انتابه غضب شديد حيال الفكرة. هل يمكن للضّحيّة أن تسامح قاتلها؟ هذا ممّا لا قِبَل له به. كيف تجرّأت على مثل هذا الطّلب؟ إنّها لا تعي شيئا ممّا مرّ به! مهما حدّثها عن تفاصيل حياته مع حنان، لا يمكنها أن تستوعب قسوة الخيبة ومرارة الخيانة التي مرّ بهما. لا يمكن لأحد أن يشعر بما عايشه، ولا أن يقدّر معاناته! هذه مأساته التي لا يدرك عظمها شخص غيره.

مع تكرار السّؤال، وتعمّقه في معالجته، أصبح يفكّر في وجوهه الأخرى. كان ينسى حين يفكّر في حزنه ومحنته الخاصّة أنّ حنان كانت تعاني من اكتئاب حادّ في أيّامها الأخيرة. لم يعتبرها يوما عديمة الأهليّة أو مجنونة، لكنّها كانت قريبة من ذلك في الحقيقة! كان أمله في شفائها حيّا حتّى اللحظات الأخيرة. لم يفقد إيمانه بأنّها سترجع يوما، لتكون الشابّة الجميلة، المتّقدة حيويّة التي تمنّى أن ترافقه في مشوار حياته. بحجم التوقّعات التي هدهدت أحلامه، كانت الخيبة التي حطّمته إلى أشلاء.

هل يمكنه أن يسامحها؟

يدور في فلك التّساؤل المرّ، وتتخبّط نفسيّته بين الغضب والتفهّم

والألم والحنين. لو أنّه يسامحها الآن، هل يمكنه حقًّا أن يستعيد حياة سويّة لا كوابيس فيها ولا تردٍّ عميق في فجاج الخذلان؟ هل...؟

تشـعر بأنفاسـها ضعيفـة، تـتردّد في صدرهـا بخفـوت، وثقـل عظيـم يجثـم فـوق صدرهـا. تفتـح عينيهـا بوهـن، فتبـصر عيونـا حمـراء تحـدّق بهـا في الظـلام الدّامـس. لا شيء يظهـر مـن حولهـا عـدا العيـون الدّمويّـة المتّقـدة، والمخالـب والأنيـاب البرّاقـة. تحـاول أن تتحـرّك، فـلا تقـدر. تعـود نظراتهـا إلى الثّقـل الـذي يغمرهـا، ويلتـفّ حولهـا. جسـد رجـل، يضمّهـا بـين ذراعيـه. وقـع فوقهـا، ولـم يفلتهـا. تشـعر بالاختنـاق. تحـاول التملّـص مـن قبضتـه، وعيناهـا لا تفارقـان وميـض النّظـرات المفترسـة المحدقـة بهـا. ثـمّ، رأتهـا تنقـضّ. رأت الأنيـاب والمخالـب تمـزّق الـذّراع العاريـة الـتي تحميهـا، وتنهـش ظهـره الـذي يصـدّ عنهـا الأذى. رأت الذئـاب تنشـب قواطعهـا في لحمـه، وهـي آمنـة خلـف جسـده، لا تطالهـا الوحـوش.

حاولـت أن تـصرخ. حاولـت أن تنـادي باسـمه، لعلّهـا توقظـه، فيدافـع عـن نفسـه! لعـلّ صراخهـا يطـرد الحيوانـات الشّرسـة. لعـلّ النّجـدة تصل! لكـنّ صوتهـا لـم يغـادر حلقهـا أبـدا. بقيـت الصّرخـة حبيسـة صدرهـا. وحدهـا عيناهـا الفزعتـان كانتـا تبـصران في عجـز، والألـم يعتـصر كلّ قطعـة في جسـدها الواهـن.

استيقظت، غارقـة في عرقهـا، حلقهـا جـافّ واللّهـاث يقطـع أنفاسـها، ثـمّ انهـارت في بـكاء مريـر. تشـدّ اللّحـاف وتـئنّ، وتضغـط رأسـها عـلى الجـدار، ولا تسـتطيع أن تطـرد قسـاوة المشـهد الماثـل أمـام عينيهـا.

تعـرف الآن، لمـاذا لا تسـتطيع أبـدا، أن تنطـق باسـمه. فـراس. صرخـة بقيـت حبيسـة صدرهـا، ولـم تغـادره منـذ ذلك الحـين. كانـت ترتعـد، كأنّ

بها حمّى. هل كان ذلك الكابوس حقيقة؟ هل هاجمتهم الذّئاب على الطّريق المقفرة؟ تغرق في نوبة بكاء ثانية، ويرتفع نشيجها أقوى.

بعد زهاء السّاعة، انقطع بكاؤها، ولمّا يفارقها الاضطراب. لبثت في السّرير، تحدّق في الفراغ بنظرات هائمة. بعد الفجر، نجحت في العودة إلى النّوم.

استفتحت يومها على مكالمة صباحيّة غير متوقّعة. كانت سحر تتمنّى لها يوم مولد سعيدًا! وقد كانت مكالمات سحر في الغالب خارج نطاق توقّعاتها، وكثيرا ما أخرجتها من مزاجها الكئيب. لقد نسيت يوم مولدها هذه السّنة. لم تفكّر في ظلّ ظروفها الرّاهنة أنّها من الممكن أن تحتفل بذلك الحدث. لم يكن يوم مولدها وحدها. إنّه يوم مولد توأمها كذلك. وليلى لم تعد موجودة. وهي السّبب في غيابها!

استسلمت أمام إلحاح سحر، ووعدت بالخروج برفقتها بعد زيارة والدها. فور دخولها قاعة الزّيارات، بادرها بابتسامة:

- لا تبدين سعيدة في عيد مولدك.. كان يجب أن تقيمي حفلة، وتدعي أصدقاءك.

- لا رغبة لي في الاحتفال.

- الخامسة والعشرون، مرحلة مميّزة.. أنت الآن أكثر نضجا، وفي سنّ مناسبة للزّواج.

فاجأها بإثارة موضوع الزّواج. كلّما ذكّرته بخطبة مأمون، انتهيا إلى طريق مسدود. سارعت تقول مغلقة الحوار الذي لم يبدأ بعد:

ـ بالنّسبة إلى شقيق سحر.. لقد انتهى الأمر.

ـ حقّا؟!

لم يكن يتوقّع أن تستسلم بتلك البساطة. أردف على الفور:

ـ إذن.. ما رأيك بفراس؟

تسمّرت في مكانها، ولم تنطق. فراس؟ ما الذي يعنيه؟ إنّه زوجك أيتها الغبيّة! عادت إليها الشّكوك التي أنكرها في المواجهة السّابقة. هل تكون عودتهما إلى الوطن بنيّة مبيّتة؟ يساعدها على استعادة ذاكرتها؟

تسارعت الأسئلة في رأسها بشكل جنونيّ، بينما استمرّ صمتها بشكل محرج. همست أخيرا بصوت مبحوح:

ـ ما.. شأنه؟

ـ أعني، أنّه شابّ ناضج ومسؤول.. ذو نسب معروف ومركز عائلته مرموق، وهو فوق ذلك رجل وسيم ومهندس ناجح.. كلّ المواصفات التي يتمنّاها أب في الزّوج المستقبليّ لابنته الوحيدة!

شعرت بكفّ تعتصر صدرها بشكل مؤلم. فكّرت، ما هو مدى براءة هذا المقترح؟ لماذا قد يودّ والدها أن يزوّج كلتا ابنتيه من الرّجل نفسه؟ إلّا إذا كان يشكّ أو يعلم.. أنّ البنت التي نجت من الحادثة فاقدة للذاكرة، هي نفسها التي كانت زوجته؟

اضطرب تنفّسها وغامت عيناها. قالت بلهجة جافّة:

ـ لا أفكّر في الزّواج في الوقت الحالي.

أشفق عليها، حين رآها على وشك البكاء، وإن لم يبد له السّبب مفهوما.

ـ حسن.. خذي وقتك.

التقت سحر عند السّاعة الحادية عشرة. تناولتا وجبة إفطار متأخّرة في مطعم راقٍ وسط المدينة، تطلّ شرفته في الطّابق الرّابع على الشّوارع المزدحمة وسكّة المترو الصّاخبة. لكنّها أحبّت الضّوضاء والفوضى من حولها، وهواء المدينة المترب، والعابق بروائح الدّخان والبنزين وعطر زهور الشّرفة اليانعة. كان جميلا أن تتلهّى عن صخب الأفكار في رأسها بصخب النّاس والعربات.

حين قدّمت لها سحر هديّة مأمون من أجلها، استيقظت من فاصل المرح الذي أوهمت نفسها بأنّه ممكن. تذكّرت حكاية مأمون المعلّقة.. والتي لم تعد ممكنة. تأمّلت السلسلة الفضيّة التي يتدلى منها حجر زمرّدي بحجم حبّة اللّوز، وذكّرت نفسها بأنّها تُعدّ متزوّجة، وإن لم تكن كذلك على الورق! لم يكن من حقّها بعد الآن أن تأمل أو تحلم، أو تترك مأمون يأمل ويحلم. كان يجب أن تنهي كل شيء في أقرب وقت. قالت بصوت منكسر بعد أن دفعت علبة الهدية لتعيدها إلى سحر:

- أعيديها إلى أخيك.. وأخبريه بأن ينسى أنّه عرف يوما فتاة اسمها ليلى.

حدّقت فيها سحر غير مستوعبة وقالت في شك:

- ما الذي حصل؟ هل هو والدك مرّة أخرى؟

هزّت رأسها نافية وأضافت في هدوء:

- إنّه قراري هذه المرّة، ولا رجعة فيه. أنت صديقتي، وستبقين كذلك.. هذا الأمر لا يؤثر على علاقتي بك.

ثمّ تهدّج صوتها، ومال إلى البكاء. أخذت سحر تربّت على كفّها مواسية، لكنّها لم تكن تدرك ما الذي أصاب صديقتها. بعد دقائق، استعادت ليلى هدوءها. خرجتا تتمشيان عبر الطّرقات في صمت.

تعبران أمام واجهات المحلّات ولا تتوقّفان. ثمّ افترقتا عند محطّة المترو، ولم تتواعدا على لقاء جديد.

عادت إلى القصر قبيل العصر، ونامت على الفور. كلّما ضاقت بها الحال، هربت إلى النّوم.

تناولت وجبة العشاء في الموعد المعتاد مع خالها وأولاده. وكانت ساهمة طيلة الوجبة. تفكّر في حديث والدها، وما يمكن أن يعرفه بالضّبط عن الحادثة وتفاصيلها. مال عليها أمين هامسا:

- فيمَ سرحانك؟

منذ عودتها من المزرعة، كانت تبدو أقلّ إشراقا من السّابق، وأبهت حضورا. لا يمكنه الادّعاء أنّها كانت تجاريه في ثرثرته أو تتحدّث حتّى بما تستدعيه اللّباقة. لكنّها على الأقلّ كانت هناك. تبتسم أحيانا، تبدي ردود فعل على ما يجري حولها، عبوسا واستحسانا وحماسا في أوقات أخرى. يقرأ كلّ ذلك في عينيها، حتّى حين تحافظ على صمتها. لكنّها الآن، حاضرة غائبة. إنّها بينهم، لكنّ أفكارها، ونظراتها ليست معهم على الإطلاق. ومنذ عاد فراس للانضمام إلى مائدة العشاء، صار ضيقها أبرز للعيان. رغم إنكارها، يدرك أنّ شيئا ما قد حصل تلك اللّيلة.

هزّت رأسها نافية وقالت بهدوء:

- لا شيء يستحقّ الذّكر.. المشاغل المعتادة.

بعد العشاء، اعتذرت منال لمواعيد اجتماعيّة مسبقة، ولم تحاول ليلى أن تردعها أو تعاتبها حتّى لخروجها عن الجدول الذي وضعتاه سويّا. كانت لاهية عنها بهمومها، فصعدت إلى غرفتها على الفور. بعد نصف ساعة، تعالت ضربات على بابها. فتحت، لتجد مدبّرة المنزل بهجة.

ـ آنستي، عرفت من قام بطلاء جدارك بالأحمر!

ـ بهجة، عزيزتي.. لقد انتهينا من هذا الأمر.

ابتسمت وهي ترمقها في عتاب.

ـ فكّرت أنّك قد ترغبين في تلقي اعتذار.

هزّت رأسها علامة النفي، فأضافت بهجة بسرعة:

ـ إذن هناك أمر هامّ آخر.. يجب أن ترافقيني إلى الرّدهة!

ـ ما الأمر الآن؟

ـ ستعرفين هناك! هيّا بنا أرجوك!

سحبتها من كفّها مستعجلة، فاستسلمت ليلى رغم ضيقها وتبعتها.

في الأسفل، كان فراس ينتظر في غرفة المكتب أن ينتهي والده من مكالمة عاجلة، ليعرف سبب استدعائه المفاجئ له. لم يكن هناك أيّ جديد في الفترة الأخيرة.. عدا أنّ اليوم هو عيد مولد حنان. هل يعقل أن يكون قد نسي التّاريخ؟ لو لم تكن مفكّرته الإلكترونيّة تحفظ الذّكرى، هل كان هذا اليوم ليمرّ بسلام، دون سرحان طويل واجترار لصور من الماضي؟

انتبه حين اقترب والده ليجلس قبالته بعد أن أنهى اتّصاله. قال مبتسما:

ـ هل جعلتك تنتظر طويلا؟

هزّ فراس رأسه بسرعة وتطلّع إليه في فضول.

ـ هل كانت تريدني في أمر ما؟

رمقه نبيل بنظرة فاحصة، ثم قال متمهّلا:

ـ قل لي.. ما رأيك في ليلى؟

- ليلى؟

تردّد فراس برهة متفكّرا، ثمّ قال بلهجة محايدة:

- إنّها تبدو مختلفة عن السّابق.

شجّعه نبيل بإيماءة من رأسه:

- و...؟

- هذا كلّ شيء.

لم يبد على والده الاكتفاء. قال بشكل مباشر:

- ما رأيك بها.. كزوجة؟

بدت على ملامح فراس الدّهشة. لم يكن والده قد حدّثه بشأن الزّواج خلال السّنوات الأربع الماضية. كان من الغريب أن يبادر الآن، وخاصّة أن يقترح عليه شقيقة زوجته الرّاحلة! بل توأمها! تذكّر بسرعة ضيوف ليلى ليلة حفل الشّواء. إن لم يخب حدسه، فهناك علاقة ما بين ليلى وشقيق صديقتها، طبيب الأطفال. لا شكّ أنّ لديها مشاريعها الخاصّة التي تمتدّ جذورها إلى ما قبل مجيئها إلى القصر. قال على الفور:

- لا أفكّر في الزواج في الوقت الحالي!

لم يبد على نبيل الرّضا. قال مترفّقا:

- الظّروف لم تعد كما كانت.. وأنا أريد لك ولإخوتك الأفضل.. لذلك فكّرت في زواجك من ليلى، ومرافقتك لها إلى سويسرا.. افعل هذا ليطمئنّ قلبي!

سأله في حدّة:

- لماذا أنا؟ لماذا ليلى؟ ولماذا سويسرا؟ كلّ هذا يبدو لي مريبا!

عقد نبيل ذراعيه أمام صدره وقال:

ـ لماذا أنت؟ لأنّ ياسين متزوّج.. وأمين مشغول في مشاريعه الثّوريّة، والمغفّل لا يدري أنّ والده يعلم كلّ شيء عن تحرّكاته! يظنّ نفسه روبن هود العصر الحديث، يأخذ من الأثرياء ويعطي الفقراء! لماذا ليلى؟ لأنّها ابنة عمّتك، ولأنّها تحمل الجنسيّة السّويسريّة، ولأنّ وضعها شبيه بوضعك.. والدها ووالدك في مأزق. هذا هو الحال!

ـ مأزق؟ أيّ مأزق؟

ابتسم نبيل وقال مؤنّبا:

ـ لقد سحبتني إلى موضوع لا أريد إثارته.. ليس في هذا التّوقيت. لكن بما أنّنا نتصارح، فسأخبرك بكلّ شيء!

استند إلى الخلف واستعدّ لحديث طويل:

ـ في هذه البلاد، حتّى تدخل مجال الأعمال، يجب أن تتزلّف وتتملّق وتكوّن العلاقات مع رجال الأعمال الأكبر منك.. وإلا سحقوك ووأدوك في المهد! في هذا البحر، الحوت يلتهم الأسماك الصّغيرة! هذا هو قانون الطّبيعة. والسّمكة الصّغيرة، عليها أن تجد لقمتها، وتأمن الحوت العملاق.. فتؤدي من أجله بعض الأعمال، لنقل، غير النّظيفة! تماما كما تنظّف الأسماك الصّغيرة فم الحوت من الشّائبات، يقوم صغار رجال الأعمال بالتّنظيف وراء رجال الأعمال الكبار! بعض الصّفقات الصّغيرة هنا وهناك، ليستمرّ المركب بالجميع.. لكن حين تتأزّم الأوضاع، يُضحّى دائما بالأسماك الصّغيرة، فتقع في شباك الصيّاد، لتنجو الحيتان الكبيرة بجلدها! نحن أكباش فداء لنجاح ثورة هذا الوطن! سيتحدّثون كثيرا عن مكافحة الفساد ومحاسبة الفاسدين، لكنّهم سيطاردون الأسماك الصّغيرة، ويتركون الحيتان نائمة في جحورها.. هل تفهمني يا بنيّ؟

بدت علامات الصّدمة جليّة على ملامح فراس، بينما واصل نبيل:

ـ هذه الثّروة رزق حلال.. أقسم على ذلك! كسبتها بالعمل الشّريف والدّؤوب طيلة أكثر من ثلاثين سنة! لكنّهم يريدون أن ينهبوا كلّ ذلك باسم الثّورة. هل أتركهم يفعلون؟ وتعبي وشقائي؟ يذهب هدرا؟ ومستقبل أبنائي؟ أضحّي بكلّ هذا؟ مستحيل! الجزء الرّئيسيّ من الثّروة سأقوم بتهريبه إلى سويسرا.. في حساب باسمك. لقد اتّفقت مع نجيب على كلّ شيء. سأترك لهم الشّركة على مشارف الإفلاس، ويمكنهم أيضا مصادرة الفيلا والمزرعة ومنزل الشّاطئ والسيّارات والتّحف والمجوهرات.. سأضحّي بكلّ ذلك.. في المقابل، ستعيد تنشيط شركة عمّك نجيب في جينيف، وتستثمر رؤوس الأموال التي بحوزتنا..

غادر فراس المكتب في ذهول، وانبرى يصعد الدّرج بذهن مشتّت. ما عرفه اليوم في مكتب والده مرعب ومزلزل. والده يعتمد عليه لإنقاذ ثروته! يهرب؟ إلى سويسرا؟ شعر بجسده يترنّح، أغمض عينيه، ووضع كفّه على الجدار لئلّا يفقد توازنه. مضت ثوانٍ قبل أن ينتبه إلى الظلام الدّامس من حوله. لم يكن خللا في رؤيته. كانت الرّدهة والصّالة العلويّتان مظلمتين بالفعل. لم يكن من عادة مدبّرات المنزل إطفاء الأضواء قبل خلود جميع السّكّان إلى النّوم. امتدّت كفّه إلى زرّ الإنارة ليضيء المكان، فارتفع صراخ في الظّلام، وأعاد أحدهم إغلاق الإضاءة:

ـ أطفئ الضوء!

ـ اششششش.. هدوء!

ارتدّ فزعا، ولم يشعر إلا بكفّ تشده إلى الدّاخل.

في تلك اللّحظة، كانت بهجة تغادر غرفة ليلى وهي تسحبها وراءها.

ـ إلى أين نذهب؟

ـ سترين الآن.. لحظة واحدة.

حين وصلت إلى الصّالة العلويّة الغارقة في الظلام، انتابها نفس الخاطر الذي راود فراس قبلها بدقيقة واحدة. امتدّت يدها نحو زرّ الإنارة، وهي تفكّر أنّها لم تر المكان مظلما من قبل.

ـ من الذي أطفأ المصابيح؟

ـ مفاجأة!!!

شعرت بغتة بموجة من البالونات والشّرائط الملوّنة تندفع في اتّجاهها مع أصوات الصّافرات الصّاخبة والصّراخ. اتّسعت عيناها في ذهول، وهي تكتشف تلك الجموع التي أحاطت بها من كلّ اتّجاه. كان خدم القصر جميعا هناك، بلا استثناء، بالإضافة إلى منال التي تظاهرت بالمغادرة لتفاجئها.. وأمين وفراس وياسين أيضا! تسمّرت مكانها مذهولة، وامتلأت عيناها بالدّمع. لم تكن تأمل أن تحتفل بعيد مولدها اليوم. وكلّ محاولات التّهنئة من سحر ووالدها انتهت نهايات أليمة لا شأن لها بالمزاج الاحتفاليّ.

ـ كيف.. كيف عرفتم؟

تمتمت مشدوهة، ثمّ انتبهت إلى أنّ تاريخ اليوم لا يمكن أن يكون مجهولا بالنّسبة إليهم. تذكّرت بسرعة صور الاحتفالات التي كانت تنشرها حنان على مواقع التّواصل الاجتماعيّ. لقد كان عيد مولدها مناسبة مشهودة في سنواتها الأخيرة، يتجنّد لها الخدم عن بكرة أبيهم، فلا عجب أن يذكروا جميعا موعدها السّنويّ!

على المنضدة، اكتشفت كعكة مغلّفة بالكريمة البيضاء وحبّات الفراولة المغرية. لقد تذكّر العمّ هاشم أنّها كعكتها المفضّلة! اقتربت في ارتباك على وقع الغناء المستمرّ، في نشاز واضح، وبطبقات صوت متباينة، لكنّها حماسيّة وسعيدة، ونفخت شمعاتها الخمسة

والعشرين، وقد اغرورقت عيناها دمعا. همست منال وهي تحتضنها:

ـ هذا ليس وقت البكاء.. إنّه وقت الاحتفال!

ثمّ تداول الجميع على تهنئتها واحدا واحدا، مقدّمين لها علب الهدايا المغلّفة. وكانت التّهاني مصحوبة باعترافات مؤثّرة. تكلّم العمّ هاشم عن ولده الذي تسلّم التّعويض أخيرا من مشغّله القديم، ويفكّر في فتح مشروعه الخاصّ، بفضل الاستشارة القانونيّة التي قدّمتها الآنسة ليلى! ثمّ رفعت جليلة نظارتها الطبيّة عن عينيها، وقالت في سخرية:

ـ لم أكن أرى شيئا تقريبا، لكنّني واصلت العمل في إنكار تامّ لحالتي الصحيّة.. لولا أن اكتشفت الآنسة ذلك، وأجبرتني على الكشف على عينيّ!

أمّا راضية، فقد كان خاتم خطبتها يزيّن بنصرها. عانقت ليلى بشدّة، ثمّ تلقّت التّهاني بدورها من الآخرين. كانت قد انقطعت عن العمل في القصر منذ أسبوع، لكنّها جاءت خصّيصا لتشارك في حفلة الآنسة!

تنحنح ياسين وقال غامزا منال بطرفه:

ـ ليلى.. شكرا لأنّك أعدت إليّ زوجتي!

ضحك الجميع لوجه منال الملتهب. كانت تبدو متألقّة في تلك السّهرة، وقد نقص وزنها بشكل واضح. كان كل من في القصر يعلم أنّها قد غدت سيّدة مشغولة، ولم يعد من النّادر أن تُرى عائدة من المركز الثقافي، محمّلة بكتب ودفاتر. كانت تحمل بين ذراعيها تحفة زجاجيّة ملوّنة، ربط عند عنقها شريط الهدايا. قدّمتها إلى ليلى وهي تقول:

ـ هذا إنجازي الأوّل.. وقد أحببت أن أهديه إلى أعزّ صديقاتي.

تلقّتها ليلى بين ذراعيها في تأثّر، وتعانقتا طويلا.

لم تكن ليلى وحدها من تلقّى مفاجأة بتلك الحفلة، فقد استمرّ ذهول فراس فترة أطول من اللازم وهو يحدّق في الوجوه، غير مستوعب ما يحصل. لقد خرج مصدوما من مكتب والده، ليتلقّى صفعة من نوع آخر. انتبه إلى أنّه الوحيد من بين الحضور دون هديّة! حتّى أمين الذي تنازل عن سهرته المعتادة، كان يحمل علبة مغلّفة! صدمته الحقيقة، لقد اتّفقوا جميعا من ورائه لمفاجأتها.. أشقاؤه وكلّ الخدم، حتّى راضية التي لم تعد تعمل هنا، كانت على علم.. لكنّ أحدا لم يكلّف نفسه مشقّة إعلامه! لماذا يدهشه ذلك؟ ألم يكن الحاضر الغائب لفترة طويلة؟ لقد تعوّدوا منه اللامبالاة وعدم الاهتمام، حتّى أنّه لا يذكر أنّه قد قدّم هديّة لأحد ما، أيّ أحد، منذ سنوات خلت! كلّ المناسبات الاجتماعيّة التي حضرها، صادف أن كان موجودا خلالها دون رغبة حقيقيّة منه. وكلّ العلاقات التي يحتفظ بها اليوم، هي محض علاقات مهنيّة!

راقبها وهي تتلقّى الهدايا في تأثّر، وفكّر بأنّ عليه الانسحاب. ثمّ توقّفت عيناها عليه فجأة. لقد رأته وانتهى الأمر. ابتسم وهو يلوّح بكفّيه الخاويين، ثمّ همس:

- يوم مولد سعيد!

واستدار منصرفا.

عادت إلى غرفتها محمّلة بالهدايا. أخذت تفتحها واحدة إثر الأخرى، وتتّسع ابتسامتها أكثر وأكثر. لقد أقامت حفلات في أعيادها السّابقة.. حفلات فاخرة، تليق بسعادة السّفير السّابق ورجل الأعمال النّاجح.. وكان زوّارها ومهنّئوها كثرا، يهمّهم والدها، أكثر ممّا تهمّهم ذاتها عديمة الشّأن. وقد شعرت بالغربة كثيرا، بين تلك الوجوه الغريبة.. وقد أوقعها غياب ذكرياتها في مواقف محرجة مع الكثيرين من ضيوفها. ببساطة، لم تكن تذكرهم، ولا تذكر هداياهم الغالية السّابقة، ولا تعلم مصيرها! لقد كانت حفلاتها تقام في النّزل وفي قاعات الاحتفالات الواسعة.. لكنّها لم تكن مليئة بالحبّ، كما كانت حفلة اليوم الصّغيرة والمرتجلة!

لم تشعر بالسّعادة التي عاشتها اليوم في أيّ وقت مضى. ولا حتّى حين خطبها مأمون.. ولا حين تسلّمت شهادة تخرّجها! أن تكون محاطة بنفوس مُحبّة، لا متزلّفة ولا مهادنة، وأن تكون محطّ الاهتمام والرّعاية من كلّ أولئك الذين كانت تعدّهم غرباء منذ شهور قليلة.. هل يعني ذلك نجاحها في مهمّتها؟ شعرت بالحرارة تغمرها.. لقد نجحت!

قامت من مجلسها، وأدارت المفتاح في قفل درج المنضدة العلويّ، وأخرجت المفكّرة. تذكّرت وجه فراس هذا المساء. لقد كان محرجا، لقدومه دون هديّة، وانصرف مبكّرا. فتحت المفكّرة، ومرّرت أصابعها على الكلمات.. لا يدري أنّه سبق أن قدّم إليها أثمن هديّة.. هذه المفكّرة!

كلّما قرأت في صفحاتها، كانت تصطدم بين سطر وآخر بمشاعر فراس الصّافية، تجاه حنان لا مبالية وناكرة للجميل. وكلّما فعلت، غرقت في نوبات بكاء، واحدة إثر الأخرى. فقد كان يشقيها يقينها بأنّ زواجها التّعيس كما تحدّث عنه الجميع، والذي لا تذكر شيئا من

تفاصيل يوميّاته، كان يمكن أن يكون قصّة مبهجة ورائقة.. لو أنّها لم تكن كما كانت!

لكنّها لم تستوعب، لماذا لا تستعيد ذاكرتها؟ لماذا لا ترى ومضات من الماضي وهي تقرأ مذكّرات فراس؟ لماذا تبدو لها أحداثا كرتونيّة، مجرّد قصّة على الورق، لا تنبعث حياة في مخيّلتها؟ ما الذي يمكنها فعله لتنشيط ذاكرتها ورتق ما تمزّق من دفاترها القديمة؟

كان التّساؤل يلازمها، كلّ يوم، وهي تسير في ردهات القصر وممرّات حديقته، تعيد رسم الحوادث التي قرأتها في فضائها الحقيقيّ، وتحاول أن تبصرها بعين الذّاكرة، فتفشل في كلّ مرّة.

وفي تلك الأحايين التي يملؤها خلالها الشكّ، كان يساورها إحساس غريب بأنّها ليست حنان! لقد بحثت عن حنان في داخلها، لكنّها لم تجدها. حنان التي في مذكّرات فراس، وحكايات الخالة مريم، وأحاديث الخدم.. لم تكن تميّز لها أدنى أثر. هل تكون ليلى في نهاية الأمر؟ لكن لا.. تبقى الكوابيس التي تراها بوضوح متزايد برهانا غير قابل للدّحض على حقيقتها المُرّة!

إنّها تكاد تفقد الأمل في استرجاع ذكرياتها قبل حلول الأجل المحدّد، لكنّ ذلك لن يمنعها من المضيّ في الخطّة.

***

فكّر فراس كثيرا ذلك المساء، حتّى كاد يشعر بخلايا عقله تحترق. كان طلب والده المفاجئ مربكا. لكنّه فوق ذلك لا يعنيه وحده. هناك ليلى على الطّرف الثّاني، والكبار يحاولون الآن تقرير مصيرها في غفلة منها. إن كان والداهما قد اتّفقا، فهل يمكنهما إلّا الإذعان؟ هذه ظروف طارئة، ومستقبل العائلتين يعتمد على قرارهما!

لقد عاش سنواته الأخيرة بعد الحادثة في قوقعته الخاصّة. لم تكن شؤون الآخرين تعنيه، ولا أحد يتدخّل في شأنه. وكانت فكرة الغفران التي اقترحتها ليلى تعود إلى ذهنه بين فترة وأخرى. أن ينسى، ويثق بالآخرين مرّة أخرى، وأن تكون لديه علاقات طبيعيّة بأشقّائه.. لماذا لا يحاول؟ لماذا لا يمنح نفسه هذه الفرصة؟ وقد كان يوشك على اتّخاذ قرار هامّ ببدء مرحلة جديدة من حياته. والآن، هذا الطّلب من والده يهدم كلّ شيء! توقيت سيّئ.. سيّئ جدّا!

تذكّر لقاءه السّابق بالدّكتور مأمون، وشعر بثقل في صدره. هل يكون السّبب في التّفريق بينها وبين رجلها؟ هل يجازي جميلها بالنّكران؟ تذكّر سعادتها اليوم، في حفلتها.. وتمنّى أن يكون في مقدوره الحفاظ عليها، لا تدميرها. اتّخذ قراره، مازال بوسعه أنّ يقدّم لها هديّة متأخّرة بمناسبة عيد مولدها! تناول هاتفه، وبحث عن رقم مسجّل في الذّاكرة أدخله منذ فترة. كان قد تبادل مع الدكتور مأمون أرقام الهاتف أثناء حفل الشّواء. لقد أحسن فعلا.

حين وصله صوت مأمون، قال بلهجة جادّة ومباشرة:

- دكتور مأمون، إن كنت جادّا بشأن ليلى.. فأنصت جيّدا لما سأقول.

فوجئت ليلى باتّصال سحر، باكرا في الصّباح التّالي. لم تكن تتوقّع أن تسمع منها في القريب بعد ما جرى بينهما بالأمس. كانت تعلم أنّ سحر متعلّقة بشقيقها بقدر يفوق المعتاد. لقد كانا صديقين، فوق كونهما شقيقين. وردّها له بذلك الشّكل المفاجئ والفجّ كان مهينا وجارحا. وكان يحقّ لسحر أن تغضب لشقيقها. لذلك، أدهشها صوت سحر المرح والحاني على الهاتف. بعد لفّ ودوران كثير، وسؤال متكرّر عن الصحّة والأحوال، قالت فجأة في عتاب:

ـ لقد اختلفنا في وجهات النّظر سابقا، ومواقفنا السّياسيّة متباينة ولا شكّ، لكنّني لم أصدّق لحظة واحدة أنّك قد تكونين خائنة أو متلوّنة! كنت أعلم أنّ شيئا ما قد حصل!

ـ ماذا؟

ـ كان يجب أن تقولي أنّ عائلتك تضغط عليك للزواج من قريبك!

سيطرت عليها الصّدمة لبرهة. كيف عرفت سحر؟ لم تكن قد أطلعت أحدا على الإطلاق على فحوى لقائها مع والدها. ولا يمكن للخبر أن ينتشر، إلّا إذا كان والدها قد قرّر الإخبار به بنفسه! ومن يمكنه أن يوصل الخبر إلى سحر من بين زوّاره القلائل في سجنه؟ إنّه أمر مستبعد إلى حدود الاستحالة! غمغمت في ارتباك:

ـ كيف.. كيف عرفت؟

ـ ابن خالك اتّصل بمأمون بالأمس.. ونصحه بلقاء خالك بأسرع وقت، بصفته وليّ أمرك مادام والدك في السّجن.. صحيح أنّ ثروة خالك عليها نقاط استفهام كثيرة، لكنّه يبقى وليّ أمرك!

ـ ابن خالي؟ من؟

ـ فراس! كان قد تبادل أرقام الهاتف في زيارتنا السّابقة، تذكرين؟

فغرت فاها، ولم تحر جوابا. فراس؟ هكذا تبدو الأمور أوضح. لا

شكّ أنّ خالها قد فاتحه بالأمر مثلما فعل والدها معها. هذا يفسّر كلّ شيء. لكن فراس.. كيف عرف بخطبة مأمون لها؟ هل تحدّثا بالأمر تلك الليلة؟ والآن، ما الذي يريده من لقاء مأمون بخالها؟ هل يعلن بذلك رفضه لها؟ هذا أمر وارد.. إن لم يكن يدرك بعد أنّها...

ـ بالمناسبة، من هو قريبك هذا الذي يريدون فرضه عليك؟

كتمت ليلى ضحكة صفراء كادت تفلت منها. لقد أغفل ناقل الخبر تفاصيله. ما الذي ترمي إليه يا فراس؟ تخلّصت من أسئلة سحر بسرعة وأنهت المكالمة. كان عليها أن تنظر في حلّ لهذه الأزمة الجديدة التي تسبّب بها فراس من حيث لا يدري! خرجت على الفور وطرقت باب غرفته. كان لا يزال هناك. فتح الباب مدهوشا وهو ينهي تزرير قميصه. لم يكن يتوقّع زيارة صباحيّة.. تماما كما لم تكن تتوقّع مكالمة سحر المبكّرة! بادرته على الفور:

ـ أنت اتّصلت بالدّكتور مأمون وطلبت منه لقاء خالي؟

هزّ رأسه علامة الإيجاب. كان من المدهش أن يصلها الخبر بتلك السّرعة.

ـ إذن أوقف كلّ هذا على الفور.. لا يجب أن يلتقي بخالي لأيّ سبب كان!

كانت لهجتها صارمة وحاسمة. حسن، لم يكن هذا ردّ الفعل الذي توقّعه! لا شيء من العرفان الذي انتظره! بل لعلّها بدت غاضبة، كأنّما ارتكب جرما بتدخّله السّافر في شؤونها. زوى ما بين حاجبيه، ثمّ هزّ رأسه ببطء. سيفعل إن كانت هذه رغبتها. كان هدفه المساعدة، لا أكثر! أخرج هاتفه أمام ناظريها واتّصل بمأمون:

ـ دكتور مأمون، أين أنت؟ حسن، انتظرني رجاء.. سأكون هناك خلال دقائق.

أنهى الاتّصال، ثمّ طالعها في صمت، ولسان حاله يقول: هل أنت راضية الآن؟ همّت بالانسحاب إلى غرفتها، ثمّ عادت كأنّما تذكّرت شيئا:

- لا أدري كيف عرفت بخطبة مأمون لي.. لكنّني سبق أن رفضته! لذلك فضّ الأمر بالطّريقة المناسبة.. لقد كان خطؤك أن تدخّلت وأنت لا تعرف تفاصيل القصّة!

ثمّ أضافت بلهجة ساخرة:

- وإن كان قصدك أن ترفض طلب والدك، فقد كان بإمكانك التحلّي بالشجاعة وتقديم اعتذار مباشر.. لا اتّباع الطّرق الملتوية!

ثمّ دارت على عقبيها ودخلت غرفتها موصدة الباب خلفها. بينما سيطر الذّهول على فراس. لا يدري كيف انقلب الوضع ضدّه! لم يكن يريد شيئا غير المساعدة!

وقفت ليلى خلف الباب، تسترجع أنفاسها. لقد انفعلت. لامت نفسها. ما كان يجدر بها أن تعبّر عن ضيقها بشكل مباشر. لقد تسرّعت. لكن ما الأمر؟ لماذا يضايقها رفضه؟ إنّه لا يعلم أنّها زوجته! ومع ذلك، كان من المهين لها كحنان أن تراه يدفع بها في اتّجاه رجل آخر، ويسعى لحلّ مشكلاتها العاطفيّة! ومن المهين لها أكثر، كليلى كما يراها، أن يتمّ رفضها بتلك البساطة! صحيح أنّها رفضت هي أيضا. لكنّ دوافعها مختلفة!

زفرت. ما الذي تريده بالضّبط؟ سينتهي هذا الأمر برمّته اليوم. فراس سيصلح خطأه مع مأمون ووالده. لكنّها لا تشعر بالرّضا. ليست راضية أبدا.

وصل فراس إلى مكتبه بعد أن مرّ بشكل عاجل على شركة القاسمي للمقاولات. من حسن حظّه أنّه قد التقى مأمون عند مكتب الاستقبال، قبل أن يتسنّى له تقديم نفسه أو طلب موعد مع والده! اعتذر. اعتذر كثيرا. لقد كان خطؤه أن تسرّع في تأويل الموقف. لم يستطع أن يشرح الكثير لمأمون، أخبره فقط أنّ ليلى لن تجبر أبدا على زواج لا تريده. وإن كانت قد رفضته كما يبدو فهو قرارها الخاصّ. قرأ الخيبة في ملامح الرّجل، فازداد حرجه. لقد منحه أملا مزيّفا.

تفارقا أخيرا عند مدخل الشّركة. صافحه بحرارة، واعتذر مرّة أخرى. عرض أن يوصله في طريقه، لكنّ مأمون رفض. شيّعه بنظراته حتّى ركب سيّارة أجرة، ثمّ ركب سيّارته بعد أن اطمأنّ لانصرافه.

حين انفرد بنفسه أخيرا، فاجأه خاطر جديد. إنّها ليست مرتبطة كما اعتقد! هل يغيّر هذا موقفه من اقتراح والده؟ ليس واثقا. فكّر من جديد في سؤاله: كيف تراها كزوجة؟ ليلى الجديدة، ليلى التي عرفها في الشّهور الأخيرة، هل يمكنه أن ينفي ارتياحه إليها؟ هل ينكر اهتمامه لأمرها، انتظاره لها في الشّرفة، توقه للاستماع إلى إلقائها الشّعريّ، رغبته في إسعادها؟ أذهلته اكتشافاته المتأخّرة لسلوكه الذي أفلت زمامه تماما! متى، وكيف صارت علاقته بها على هذا النّحو؟

غيّر وجهته فجأة. أوقف السيّارة عند شقّتها ونزل. ما الذي تحاول إثباته الآن يا فراس؟ أخذ نفسا عميقا ثمّ هرول في اتّجاه الدّرج. صعد الدّرجات أربعًا أربعًا، حتّى أصبح أمام باب الشّقة الموارب. وقف في الخارج، وأصغى في انتباه. سمع صوتها قادما من الصالة وهي تحادث المشرف على البناء. لم تكن راضية على لون الطلاء. ابتسم. كان يعلم أنّها ستكون هنا، في هذا الوقت من النّهار. وقد اشتاق فجأة إلى صوتها. ماذا؟ ماذا؟ هل يدرك معنى اعترافه هذا؟

سمع وقع خطوات قادمة في اتّجاه المدخل. استدار على عقبيه وقفز السلالم دون تفكير. كان عليه أن يختفي. لم يكن بوسعه مواجهة نفسه حتّى في تلك اللحظة، فكيف بمواجهتها هي؟!

كان لقاؤه الأوّل بليلى في جينيف.

كانت حنان تقيم في المصحّ معظم الوقت، وهو يزورها باستمرار، يمضي معها معظم ساعات النّهار. يحمل حاسبه الآليّ، ودفاتره ويجلس وإيّاها في ساحة المصحّ. يتحدّثان قليلا، ويحاول هو العمل على مشروع تخرّجه الذي يجب أن ينهيه في الأجل المحدّد. تغيب عنه ساعة أو اثنتين، من أجل حصص علاجها، ثمّ تعاود الجلوس في سكينة على المقعد إلى جواره، حتّى تنتهي ساعات الزّيارة المسموحة.

وفي أحد اتّصالات والده، مدّه بعنوان نجيب في جينيف! اقترح أن يزوره، ويعرّفه بحالة ابنته. كان فراس يكتشف أنّ والد زوجته على قيد الحياة، بل في المدينة نفسها! حين وصل إلى العنوان، فتحت ليلى الباب. نسخة أخرى من حنان. شلّته الصّدمة للحظات، قبل أن يستوعب أنّها ليست هي، بل شقيقتها التّوأم!

كانت فتاة متعالية، ومتعجرفة. تتكلّم الفرنسيّة معظم الوقت وأحيانا الإنجليزية، وبلكنة سليمة ومثالية. كانت سويسريّة خالصة، ثقافة ولغة وانتماءً.

بعد لقائه بنجيب، ذهب ثلاثتهم لزيارة حنان في المصحّ. كانت ردّة فعل حنان مفاجئة، عند رؤيتها لتوأمها. انفجرت في ضحك هستيريّ، وهي تشير إلى ليلى وتمسك بطنها. ثمّ حين هدأت، عبّرت عن

سعادتها بشقيقتها المكتشفة.

لم تكن ليلى تشاركها المشاعر ذاتها. خيّل إليه أنّها مجبرة على الحضور لزيارة شقيقة لا رغبة لها بوجودها. لقد كانت حياتها مثالية حتى تلك اللحظة، بدون أقارب مزعجين وشقيقة مدمنة! وقد كان مجيئه ذلك المساء إلى شقّة والدها بداية المتاعب، كما صرّحت له بشكل مباشر ذات مرّة!

خلال الشّهور الثلاثة لعلاج حنان، التقاها بضع مرّات، في المصحّ أو في شقّة والدها، وقد كانت العلاقة بينهما متوتّرة. هذا أقل ما يمكن أن يقال عنها. ثمّ عاد وحنان إلى تونس، وقد أوشكت أن تتماثل للشّفاء. عادت حياته إلى وتيرتها الاعتياديّة. استأنف دوامه في الجامعة، وحنان كذلك. لكنّ الأمور سرعان ما تدهورت.

كانت علاقته بحنان حتّى ذلك الوقت، نوعا من الصّداقة.. من طرف واحد. نظرا للظّروف الاستثنائيّة التي تمرّ بها حنان، لم يكن يُلزمها بأيّ نوع من الواجبات تجاهه. حاول أن يكون نوعا ما، طبيبها النّفسيّ الملازم لها. وقد كانت تستجيب لعاطفته أحيانا، وتقابلها بالتمرّد معظم الأحيان. حتّى أقدمت على محاولة الانتحار!

كانت قد عادت إلى تعاطي المخدّرات فور عودتها إلى الجامعة! نسفت شهور العلاج الثقيلة والمرهقة في سويعات قليلة، ما إن التقت مجدّدا بشلّتها القديمة! كانت إرادتها منعدمة، وانسياقها وراء هواها الجامح تامّا. ذهبت تضحياته كلّها هباء. حين اكتشف الحقيقة، بعد شهرين من رجوعهما، انتابه شعور مقيت بالخذلان. تشاجرا. عنّفها.. نفّس عن غضبه، وكانت كلماته جارحة. كانت صدى للجراح التي بداخله. فكّر للحظات بالطّلاق. لم يكن بقاؤه إلى جانبها يعني لها شيئا، وقد كانت مرارته عميقة. يمكنها أن تواصل تدمير

نفسها بعيدا عنه.. لم يكن يتحمّل أن يراها تنحدر إلى مستنقعها القديم أمام عينيه!

وصله الخبر، في الكلّيّة، وهو على وشك دخول مناقشة مشروع تخرّجه! لم يكن بإمكانها اختيار توقيت أكثر سوءًا! وقفت على سطح البناية، بعد أن كتبت على موقع الجامعة، خطابا مؤثّرا عن زواجها الفاشل، وزوجها العنيف، وطلاقها الوشيك! ترك كلّ شيء وجرى إليها. لام نفسه بعد ذلك، لقد كان السّبب في انهيارها. مرّت به أيّام عصيبة، بعد قبولها في مصحّ نفسيّ هذه المرّة، بالعاصمة التّونسيّة. لازمها خلال إقامتها التي دامت أسبوعين، وأجّل تخرّجه إلى الفصل التّالي. كانت تحت تأثير المسكّن معظم الوقت، وكانت تمرّ بفترات جنون حين تستيقظ، بفعل انسحاب المخدّر. لكنّه لم يتركها لحظة واحدة.

ثمّ تقرّر سفرها إلى سويسرا من جديد. كان يلزمها أن تخضع لعلاج أطول وأكثر تركيزا.. وتبتعد تماما عن محيطها السّابق.

التقى ليلى في رحلته الثّانية إلى جينيف.

لم يكن يدرك سبب عدائها السّافر. يفهم حقّا أنّها تعدّ حنان منافسة على اهتمام والدهما ورعايته. لكنّ الغيرة في تلك السّنّ كانت صبيانيّة جدّا! لقد كانت فتاة راشدة. كلتاهما ترتاد الجامعة، ومن المفترض بهما النّضج والعقلانيّة. لكنّ إحداهما كانت مدمنة والثّانية تعاني غيرة مرضيّة!

كان بإمكانه أن يتغاضى عن كلّ عيوبها ومساوئها ونزواتها الشّخصيّة، فهي لا تعنيه. لكنّ سلوكها خلال رحلة التزلّج كان مريعا. يمكنه أن يتجاهل كلّ شيء، إلّا ما فعلته في اللّيلة الأخيرة، قبيل الحادثة. لذلك لم يكن مستعدّا على الإطلاق لاقتحامها حياته من جديد.

لـم يكـن يتوقّـع أن يراهـا في صـورة مختلفـة بعـد كلّ ذلـك الوقـت. فكّـر أنّ الحادثـة كانـت بركـة ونعمـة لليـلى. لقـد وُلـدت بعدهـا، بذاكـرة نقيّـة وفطـرة سـليمة.

ليته يفقد الذّاكرة أيضا!

-١٦-

صدر الحكم ذلك الصّباح. السّجن لسنتين، وغرامة مالية بمائة ألف دينار. هنّأها المحامي عند باب المحكمة. هذا حكم يسير. لقد انقضت شهور أربعة على سجن والدها، ممّا يعني أنّ الفترة المتبقّية هي سنة وثمانية أشهر. انهارت باكية وهم يخرجونه في ثياب السّجن، والقيود في معصميه، في اتّجاه سجنه الجديد. وقف نجيب محاطا بحرّاسه، احتضنها وطمأنها، سيكون بخير. لكنّها كانت تبكي لسبب آخر. لن تكون حرّة حين يسترجع هو حرّيّته. سيكون عليها أن تسلّم نفسها في القريب.

كانت قد مرّت على الشّقة بالأمس، وعرفت أنّ الأشغال قد انتهت. نفدت مهلتها. غادرت المحكمة وقصدت وكالة أسفار. حجزت لها تذكرة إلى جينيف، صباح الغد. تذكرة ذهاب دون عودة.

عادت إلى القصر، وأخذت تتجوّل بين الغرف والأروقة بهيئة مودّع. احتضنت العاملات، وشكرتهنّ على تقبّلهنّ لها واعتبارهنّ لها صديقة لهنّ. فعانقنها مستغربات. كان سلوكها مريبا. أثنت على الطبّاخ والجنائنيّ والحارس والقائم بالخدمة واحدا واحدا، وقدّمت للجميع هدايا رمزيّة. باقات ورد وأكاليل صنعتها من زهور الحديقة. كان الجميع قد عرف بالحكم الصّادر بحقّ والدها. فعزا البعض سلوكها للصّدمة، والبعض الآخر توقّع اقتراب رحيلها إلى شقّتها التي اكتمل تجديدها.

بعد العصر، جلست مطوّلا إلى منال. تحدّثتا عن أيّ شيء وكلّ شيء. وبدا أنّها لا تريد للجلسة أن تنتهي. كانت تفتقد صديقتها مسبقا،

وتريد تعبئة مخزون من الحكايات، تجترّها لاحقا في وحدتها. استرجعتا مواقفهما المسلّية والمؤثّرة معا.. ضياعهما على طريق المزرعة، وكرة الماء التي أصابتها في رأسها، تغيير ورق جدران غرفتها، تحضير جدول منال الجديد وخروجهما في المظاهرات خلسة.. وضحكتا كثيرا. قالت منال فجأة:

- يسعدني أن أراك تضحكين اليوم.. لقد خفت أن يكون مزاجك سيّئا بعد جلسة النّطق بالحكم!

- أنا بخير.. لا تقلقي.

ابتسمت، وكتمت تنهيدة طويلة في صدرها.

على العشاء، كانت منطلقة عن العادة. جارت الجميع في الأحاديث، وكانت طيلة الوقت مبتسمة. فكّرت، من الأفضل أن يذكروها بهذا الشّكل، رائقة ومنفتحة.

كانت تهمّ بالصّعود إلى غرفتها، حين استوقفها فراس. ارتجفت. لم تكن مستعدّة لمواجهته. ليس بعد. حتّى وهي تفكّر في الرّحيل صباح الغد بلا رجعة. لوّح بسلسلة مفاتيح، وابتسامة واسعة على شفتيه:

- هنيئا.. شقّتك جاهزة الآن!

تلقّتها بدون حماس. انطفأت شعلتها التي حافظت على اتّقادها طيلة السّهرة. قرأت على ملامحه الحيرة. ليس هذا ما توقّعه. كلّما فكّر في صنع شيء يسعدها جاءت النّتيجة معاكسة! قال في ارتباك:

- هناك شيء آخر.

- ماذا؟

نظرت إليه في انتباه:

ـ تذكريـن اقتراحـك بالغفـران، والبدايـة الجديـدة؟ أظنّـني أصبحـت جاهـزا الآن، لأسـامحها.

أضـاءت نظراتهـا فجـأة، ورأى وميـض السّـعادة في عينيهـا. كان يمكنـه أن ينتظرهـا عـلى الشّرفـة مثـل عادتـه، ويقـول مـا قالـه مـن وراء حجـاب. لكنّـه أراد أن تكـون في مواجهتـه، فقـط لـيرى ذلـك البريـق الفاتـن في مقلتيهـا. ابتسـم، وقـد حقّـق تصريحـه التأثـير المنشـود.

تركها تصعد إلى غرفتها وذهب لرؤية والده في غرفة مكتبه.

ـ أنا موافق!

رفـع نبيـل حاجبيـه، وحـدّق في سـحنة فـراس الجـادّة، ثـمّ ابتسـم. لكـنّ فـراس أضـاف عـلى الفور:

ـ فقط إذا كانت ليلى موافقة!

ـ ستوافق، لا تقلق.

ربّـت والـده عـلى كتفـه في رضـا، ثـمّ شـدّ ذراعـه ليدعـوه إلى الجلـوس حـذوه. كان هنـاك الكثـير ليتّفقـا عليـه. ترتيبـات الـزّواج والسّـفر وإدارة الأعمـال.

سـحبت حقيبتهـا الثّقيلـة بهـدوء عـبر الممـرّ، حـتّى السّـلالم الخلفيّـة، ثـمّ نزلـت بحـذر درجـة إثـر الأخـرى. كانـت تهـمّ بالعبـور إلى الحديقـة، حـين فتـح البـاب أمامهـا فجـأة، وظهـر فـراس. كانـت السّـاعة تشـير إلى السّادسـة صباحـا. وكان فـراس عائـدا مـن حصّـة الجـري الصّباحيّـة. تسـمّرت مكانهـا وانحبسـت أنفاسـها. كان عليهـا المغـادرة مبكّـرا، لتحلـق

برحلـة التّاسـعة. نظـر فـراس في دهشـة إلى الحقيبـة في يدهـا وقـال:

- إلى أين؟ في مثل هذا الوقت؟

ثمّ أضاف مازحا:

- هل أنت مطاردة؟

كان يعلـم يقينـا أنّهـا سـتنتقل في القريـب إلى شـقّتها الـتي أصبحـت جاهـزة. لكـن أن تفعـل ذلـك خلسـة، في ذلـك الوقـت المبكّـر، وتتسـلّل مـن البوّابـة الخلفيّـة، فهـو مـا يجـده غريبـا حقّـا. انتبـه بغتـة إلى تذكـرة السّـفر الـتي تطـلّ مـن حقيبتهـا. مـدّ كفّـه في جـرأة ليسـتلّ الورقـة، وقـد غلبـه الشـكّ. قـرأ الاسـم، موعـد الرّحلـة والوجهـة.

- جينيف؟ الآن؟ ما الأمر؟

انهمرت أسئلته في قلق. قالت مستعجلة:

- إنّها مسألة خاصّة بي.. والآن لو سمحت، لديّ رحلة تنتظرني!

كانت تهمّ بتجاوزه، لكنّه سدّ الطّريق أمامها في إصرار:

- أيّ مسألة تستدعي سفرك دون إعلام أحد، في وسط اللّيل؟

ازدردت ريقها بصعوبة وتمتمت:

- هناك دَيْن.. عليّ قضاؤه.

- ديـن؟ هـل يسـتوجب الأمـر سـفرك بنفسـك؟ ألا يمكـن لأحـد قضـاؤه عنـك؟ تحويـل بنـكي يفـي بالغـرض!

- إنّه دين معنويّ.. وليس ماديًّا!

حدّق فيها في ارتياب. لم يكن الأمر مريحا. بتاتا. سألها فجأة:

- متى تعودين إذن؟

لـم ينتظـر جوابهـا، وأخـذ يقلّـب أوراق سـفرها بـين يديـه، ثـم قـال

في حدّة:

- لا أرى رحلة العودة! ماذا يعني هذا؟

- لا أعلم متى أعود بعد.. حين أقضي الدّين، ربّما أفعل.

ربّما. قالت ربّما. آذته لامبالاتها. باغتته بحركة سريعة واسترجعت أوراقها. راوده خاطر مؤلم. هل تكون فارّة بجلدها، من الزّواج المرتّب الذي ينويه لها خالها؟ كان يهمّ في لحظة يأس أن يتنحّى عن طريقها ويتركها ترحل، لكنّه توقّف فجأة. كانت هناك نظرة كئيبة في عينيها. وهو لم يكن مطمئنّا لرحيلها بهذا الشّكل. حتّى لو جرحت كرامته، لا يمكنه أن يتجاهل حدسه بضرورة إيقافها. قال بصوت منكسر:

- ليلى.. قولي رجاء، ما الأمر؟

غاص قلبها بين ضلوعها. ليلى؟ أنت راحلة الآن لتسليم نفسك. ما الفرق، إن علم أنّك حنان أو لم يعلم؟ لم يعد هناك داعٍ للكتمان بعد الآن. لقد أزفت ساعتك. همست بصوت واهنٍ يقطر مرارة:

- ما الأمر؟! الأمر هو أنّني.. لست ليلى!

للحظة، لم يستوعب قصدها. ثمّ حين ظنّ أنّه فهم ما تقصد، لم يستطع أن يصدّق. كان توتّره قد بلغ أعلى مستوياته، وقد أوشك صبره أن ينفد. قال في عصبيّة:

- ماذا تعنين؟ هل استرجعت ذاكرتك؟

- ليس تماما.

- إذن ما الذي يجعلك تعتقدين أنّك لست ليلى؟

- لم أسترجع ذاكرتي التي تسبق الحادثة.. لكنّني أذكر الحادثة.. بكل تفاصيلها.

ـ ثم؟

ـ أذكر السيّارة المنقلبة، صراخي الهستيريّ، والذّئاب.

هل قالت الذّئاب؟ حدّق فيها غير مصدّق. الذّئاب. لا أحد يعلم عن الذّئاب من أفراد عائلته، ما عدا والده الذي جاء لرؤيته على عين المكان في غرفة العناية المركّزة، وقد استحلفه بأن يكتم تفاصيل إصابته عن كلّ أحد. حتّى نجيب لا علم له. لقد بقي عالقا في السيّارة مع ليلى، فاقدين للوعي حتّى وصول النّجدة. الذّئاب، هاجمته هو فقط، وحنان التي حاول حمايتها.

كانت تنظر إليه، والعبرات تسيل أنهارا على وجنتيها. تابعت وهي تشير بكفّها.

ـ لقد مزّقت ذراعك اليسرى، هنا.. وهنا.. وظهرك أيضا، على مستوى الكتف اليسرى.

عقد حاجبيه في شكّ. إنّه متأكّد، لم يكشف عن ندوبه أمام أحد قطّ. ولا حتّى والده. لا أحد يفترض به أن يعلم. لقد انقطع عن السّباحة وكرة الماء التي يعشقها لهذا السّبب، وفي المرّات القليلة التي غامر فيها بدخول الماء، كان يرتدي حلّة الغطس الكاملة. رفع كمّ قميصه، وكشف عن المواضع التي أشارت إليها. كانت العلامات الشّائهة هناك بالفعل، شاهدة على صدق ذكراها. شهقت وهي ترى آثار الحادثة ماثلة أمام عينيها، لا في الحلم، ثمّ وضعت كفّها على فمها، لتواصل البكاء في صمت. أعاد فراس كمّه إلى موضعه في هدوء، بينما كان عقله يغلي بأفكار لا حدّ لها ولا حصر. حسم أمره أخيرا. وماذا لو كانت حنان؟ قال بلهجة قاطعة:

ـ لا يهمّ من كنت في الماضي.. ما يهمّ هو من تكونين الآن! لقد كانت الحادثة ولادة جديدة لك.. لذلك لا حاجة لك بهويّتك القديمة.

كوني ليلى أو كوني حنان على الورق.. لكنّك أنت.. أنت.. في الحقيقة!

- أنت لا تفهم.. إن كنت حنان، أكون قد قتلت ليلى!

صرخ معترضا:

- لماذا تكونين قتلتها؟ لقد كانت حادثة!

ابتسمت وهي تقول في عتاب:

- ألا تذكر؟ أنت من قال ذلك! حنان عبثت بالفرامل!

- لقد قلت ذلك، لأنني أحقد على حنان! لكن كلامي ليس دليلا! التحقيق أسفر على اكتشاف عطب بالفرامل، من الوارد أن يكون بفعل فاعل أو أن يكون عطلا مفاجئا.. وقد رجّحت أنا، حينها، بتفكيري المريض، وتحليلي الفاشل، أنّ حنان قد فعلتها! لقد كنت شخصا متحاملا، وأنت تعلمين أنّ شهادة المتحامل لا يعتدّ بها! إن كان هذا دليلك، فها أنّني قد فنّدته! عودي الآن إلى الدّاخل!

كان منفعلا، وقد أخذ صدره يعلو ويهبط في اضطراب. لكنّها لم تتحرّك من مكانها. قالت في إصرار:

- إذن يجب أن نتأكّد من هذا الاحتمال.. سأسلّم نفسي ليستريح ضميري، وأترك للقانون تحليل الأدلّة.

زفر في عصبيّة وأشاح ببصره عنها. تنفّس ببطء محاولا السّيطرة على اضطرابه.. ثمّ عاد ليقف في اعتداد وهو يقول بصرامة:

- حسن إذن.. تقولين أنّك حنان؟ إذن لا يمكنك السّفر بدون إذن زوجك يا سيّدتي المحترمة! هيّا، إلى غرفتك!

ثمّ، وقبل أن تستوعب عبارته، استلّ من كفّها جواز السّفر والحقيبة بحركة سريعة، وسبقها صاعدا الدّرج. صعقت لردّه، ولم تحر جوابا، ثمّ التهبت وجنتاها حرجا. زوجها. قال زوجها! وقفت

عند المدخل الخلفيّ متردّدة. تسمع وقع خطواته الثّقيلة وهو يصعد الدّرج ثمّ يجرّ الحقيبة في الممرّ. أخذت نفسا عميقا، وانبرت تصعد الدّرجات على مهل. حين وصلت إلى الغرفة، كان فراس بالدّاخل. وضع الحقيبة قرب الصّوان، ثمّ لوّح بالتّذكرة وجواز السّفر وقال:

ـ سأحتفظ بهذه، حتّى نجد حلّا لهذه المسألة!

ثمّ انصرف قبل أن يستمع إلى ردّها. قبل أن تستردّ أنفسها، فوجئت به يفتح الباب مرّة ثانية. اقترب مادّا كفّه وقال بلهجة آمرة:

ـ جواز السّفر الثاني!

أخرجت جوازها السّويسريّ دون مقاومة. خرج صافقا الباب وراءه.

بعد ساعتين، دخلت بهجة إلى غرفتها وهي تصرخ في هلع:

ـ آنستي.. المدّعي العامّ بالأسفل! إنّهم يحجزون القصر.. معهم أمر بمصادرة ممتلكات السّيد نبيل!

-١٧-

ارتدت ليلى ثيابها على عجل وهرولت إلى البهو. كان جميع سكّان القصر مجتمعين هناك. لمحت خالها يجلس على الأريكة، يتناول قهوته الصّباحيّة مثل العادة، دون أن يرفّ له جفن، ويجلس قبالته المدّعي العام الذي جاء لتنفيذ أمر الحجز. كان رجال الأمن يدخلون ويخرجون من غرفة المكتبة، محمّلين بالدّفاتر والملفّات والكتب. وراء الأريكة، وقف كلّ من ياسين وأمين وفراس، وعلى ملامح كلّ منهم تعابير متباينة. بدا على فراس الضّيق، بينما قرأت الاطمئنان في وجه ياسين، تماما كما بدا لها خالها. إذن هذه هي وجوه رجال الأعمال المتمرّسين، لا يكشفون مشاعرهم بسهولة! أمّا أمين، فقد كان يبتسم في سخرية، بشكل مستفزّ.. كأنّما يشمت. وما إن التقت نظراتهما، حتّى أشار لها بحاجبيه، مذكّرا إيّاها بحديث قديم، ولسان حاله يقول: ألم أخبرك؟

على الجانب الآخر، كان الخدم مجتمعين عن بكرة أبيهم، متراصّين وملتحمين، وقد ارتفع نشيج خافت. أدركت ليلى أنّه صوت بهجة. هذه صدمة للجميع. لكنّها كانت تعلم. حدّقت في الوجوه مرّة أخرى. كم واحدا هنا كان يتوقّع مثلها ما سيحصل، بالإضافة إلى أمين طبعا؟

التفتت ناحية قاعة الطّعام. كانت منال مع ابنتها هناك. تحاول إلهاء الصّغيرة بتناول الكعك. انضمّت إليهما. شدّت على كفّ منال وتبادلتا نظرة جزعة. همست إليها:

ـ أين جدّتي؟

ـ لقد أغمي عليها.. أخذتها الخادمات إلى غرفتها.

بعد دقائق، كان رجال الشّرطة قد انتهوا من عملهم. وقف المدّعي العام، ولوّح بقرار المحكمة:

ـ لديكم أربع وعشرون ساعة لإخلاء المبنى.. الحاجيات الشّخصيّة فقط! لا تحف ولا مجوهرات ولا لوحات ثمينة! ستظلّ الحراسة في الخارج حرصا على تنفيذ الأوامر بشكل سليم.

ثمّ اقتيد خالها أمام الجميع إلى السيّارة القابعة في الفناء.

ران الصّمت، بعد أن خَفُت وقع الأحذية الثقيلة على الرّخام. استلم ياسين زمام الأمور على الفور. نظر إلى الخدم وقال بلهجة مطمئنة:

ـ يمكنكم الرّحيل الآن. سيصلكم جميعا خلال أيّام، ظرف يحوي كلّ مستحقّاتكم الماليّة، ومكافأة نهاية الخدمة أيضا.

تحرّكت الأقدام في ارتباك وانصرف الخدم، في حسرة بادية. كانت أيّام عزّ تمضي وأيّام ضنك تقبل. خمّنت ليلى أنّ الوضع في الشّركة سيكون أسوأ. مئات العمّال والموظّفين سيصبحون دون عمل. سرت قشعريرة باردة في جسدها، ثمّ وقفت. عليها الاطمئنان على الجدّة.

حين دلفت إلى الغرفة، ألفت السيّدة الكبيرة تجلس في سريرها، مستغرقة في التّفكير. تساءلت ليلى إن كانت قد تظاهرت بالإغماء منذ قليل؟ تعرف جدّتها، ليست بذلك الضّعف. اقتربت حتّى جلست على حاشية المرتبة. رفعت الجدّة عينيها إليها ثمّ تنهّدت.

ـ هل ترين ما أرى؟ إنّه النّحس من جديد!

أطرقت ليلى. لم تكن واثقة من دور النّحس فيما يحصل لخالها. كلّ سيدفع ثمن ما اقترفت يداه. إنّها تؤمن بذلك. لكنّه قلب الأمّ.. لا يمكن للحاجّة فريدة أن تتحمّل رؤية حياة ولدها الوحيد المتبقّي

تنهار، وعائلته تتشرّد.

- سأرحل إلى بيتي بعد قليل.. هل تأتين للإقامة معي؟

تردّدت. فكّرت أنّها قد تفعل. لكنّ شقّتها جاهزة. قالت معتذرة:

- سآتي لزيارتك كثيرا.

حين خرجت، كان أبناء خالها مجتمعين في غرفة الاستقبال. ما إن لمحها ياسين حتّى قال:

- ليلى، من حسن الحظّ أنّ شقّتك جهزت في الوقت المناسب.. يمكنك الآن الانتقال إليها حتّى ننظر في الإجراءات التّالية.

هزّت رأسها ببطء وتفرّست في وجوه الآخرين. الآن لديها شقّتها. ماذا عن أبناء خالها؟ واصل ياسين:

- سأنتقل مع منال إلى منزل والدتها.. حتّى نجد حلّا بديلا.. فراس، ماذا عنك؟

- يمكنني البقاء في المكتب. الأريكة مريحة ومناسبة للنّوم.

- أمين؟

كان أمين يعقد ذراعيه أمام صدره في استهانة، قال في لامبالاة:

- يمكنني تدبّر أمري!

أومأ ياسين برأسه وواصل دون نقاش:

- جيّد.

بدا أنّ الاجتماع قد انتهى عند ذلك الحدّ. تصرّف الجميع بشكل عمليّ ومتعاون. تساءلت ليلى.. بكلّ هذه البساطة؟ لا يبدو أحدهم منهارا أو متأثّرا. كانت على وشك الانصراف، حين استوقفها ياسين:

- ليلى.. أريدك في أمر ما.. هلّا انتظرت؟

عادت أدراجها، بينما واصل ياسين:

- فراس، أنت أيضا.. اتبعاني إلى المكتبة.

سار ثلاثتهم إلى المكتبة التي صارت رفوفها شبه خالية.. بينما غادر أمين على الفور، دون أن يأخذ شيئا من حاجياته، وصعدت منال إلى جناحها لتعدّ حقائبها. استأنف ياسين دون مقدّمات:

- لقد أوصى والدي برحيلكما إلى سويسرا.. على الفور!

- ماذا؟

هتفت ليلى في دهشة، والتفتت إلى فراس. بدا هادئا وغير متفاجئ. قال متسائلا:

- ماذا عنك؟

- سأبقى هنا في الوقت الحالي.. يجب أن يهتمّ أحدنا بمتابعة القضيّة.

عبست ليلى، وحدّقت فيهما. لقد كانت تفكّر في السّفر اليوم بالذّات. لكنّها لم تعد تستطيع ذلك بعد ما حصل. نعم، لقد كانت تتوقّعه، لقد حذّرها أمين.. ومأمون أيضا. لكنّ وقوع البلاء ليس مثل توقّعه! نظرت إلى فراس مستجوبة:

- ما معنى السّفر الآن؟ عائلتك في مأزق، كيف يمكنك الفرار وتخليف كلّ شيء وراءك؟

نظر إليها في حدّة:

- هل تظنّين أنّني أريد ذلك؟ إنّها رغبة والدي!

استطرد ياسين في برود:

- لن يكون زفافا فاخرا كما خطّط له الرّئيس.. لم تعد الظّروف مناسبة لهذا الآن. سترافقاني في الغد إلى مكتب عدل الإشهاد، نعقد

قرانكما ثمّ ترحلان على الفور.. اتّفقنا؟

صرخت ليلى هذه المرّة في انفعال:

ـ ما الذي تتحدّث عنه؟

قال فراس مستوقفا ياسين:

ـ رويدك.. لم يكن والدي قد أخذ موافقتها بعد. لقد تسارعت الأمور بشكل غير متوقّع.

ـ آه.. أنا آسف. أشرح لك إذن منذ البداية.. والدي ونجيب اتّفقا على جعلك وفراس وصيّين على الثروة. لقد تمّ تحويل الأموال إلى حساب سويسريّ. بعد زواجكما سيكون بإمكانكما الإقامة في جينيف بشكل طبيعيّ، حتّى إشعار آخر. حين تهدأ الأوضاع في البلاد سأبلغكما بكيفيّة التصرّف.

انهارت ليلى على الأريكة. حاولت ألّا تستخدم مفردات كبيرة لوصف ما يحصل. تهريب أموال؟ بعد صمت قصير، قالت في صرامة:

ـ آسفة.. لن أجاريكما في هذا.

***

صعدت إلى غرفتها وأوصدت بابها. نسيت كلّ شيء عن حنان، وتسليم نفسها. كان الغضب يملؤها. لن تكون شريكة في هذه الجريمة. لم يكن عليها أن تجمع حاجياتها. كانت حقيبتها جاهزة منذ الأمس، تقف قبالة الصّوان، شاهدة على محاولة هربها الفاشلة. لكنّها لم تتحرّك. لبثت قابعة على السّرير، باطنها يغلي، ووعيها لا يقدر على قرار واحد.

عنـد الظّهـيرة، طرقـت منـال بابهـا. كانـت آثـار الدّمـع جليّـة عـلى وجنتيهـا. عانقتهـا بقـوّة، وتناثـرت بقيّـة عـبرة لـم تذرفهـا وهـي تلملـم متاعهـا وتسـتعدّ للرّحيـل. كانـت جاهـزة للمغـادرة.

- هذا ليس وداعا.. سأراك قريبا!

- طبعا، نحن عائلة واحدة!

تعاهدتـا عـلى لقـاء قريـب، ثـمّ انسـحبت منـال. كانـت الجـدّة قـد انصرفـت دون وداع. لـم تشـأ أن يشـهد أحـد انكسـارها.

هبـط اللّيـل. خيّـم الظّـلام عـلى الحديقـة. لـم يـضئ أحـد الممـرّات ولا الأروقـة الخارجيّـة. مـن مجلسـها، كانـت تـرى العتمـة وحدهـا. حـوالى السّـاعة السّـابعة، طُـرق بابهـا مـرّة أخـرى. كان فـراس. بادرهـا بلهجـة محايـدة:

- لقـد غـادر الجميـع.. لـم يبـق غيرنـا. أنـت جاهـزة؟ سـأوصلك إلى شـقّتك.

لـم ينتظـر ردّهـا، أخـذ الحقيبـة الـتي صعـد بهـا الـدّرج الخلفـيّ ذلـك الصّبـاح وسـار في اتّجـاه البهـو الرّئيـسيّ. سـارت وراءه في استسـلام، وركبـت إلى جـواره، في سـيّارته. حـين تجـاوزت البوّابـة، لمحـت كشـك الحـارس الـذي أصبـح يشـغله رجـل أمـن الآن، بالإضافـة إلى السـيّارتين الرّسـميّتين المتوقّفتـين قبالـة القـصر. كان عليـه أن يوقـف السـيّارة عنـد الحاجـز الأمـنيّ ويسـمح للشرّطيـين بتفتيـش صندوقهـا، والتثبّـت مـن أنّ المجوهـرات والتّحـف المصـادرة لـم يقـع تهريبهـا.

كانـا صامتـين طيلـة الطّريـق، كلّ مسـتغرق في أفـكاره. لـم يتبـادلا كلمـة واحـدة، حـتّى توقّفـت السـيّارة أسـفل بنايتهـا. نـزل بنفـس الهـدوء، وحمـل حقيبتهـا حـتّى الطّابـق الثّـاني. أوسـع لهـا المجـال لتديـر المفتـاح في القفـل، ثـمّ دفـع الحقيبـة إلى الدّاخـل.

وقـف قبالتهـا في الصّالـة دون أن ينطـق، كفّاه عنـد خـصره، ونظراتـه سـارحة. تسـاءلت في قلـق، مـا الـذي يفكّـر فيـه؟ حـين طـال الصّمـت، تجـاسرت عـلى السّـؤال:

ـ ما الذي ستفعله الآن؟

ألقى عليها نظرة ساخرة وقال متهكّما:

ـ هل هذه دعوة للبقاء؟

ازدردت ريقهـا في عصبيّـة. هـل يشـير إلى حديـث الصّبـاح؟ كونهـا حنـان؟ زوجتـه؟ لقـد كانـت مسـتعدّة لتقبّـل هويّتهـا الجديـدة، لكـن ليـس بهـذا الشّـكل. لقـد رضيـت بمسـؤوليّتها عـن كلّ شيء.. لكنّهـا لـم تتحـضّر لتكـون زوجـة فجـأة!

لانت ملامحه وقال مطمئنا:

ـ أنت ليلى.. وستبقين ليلى، حتّى يثبت خلاف ذلك.

شـعرت ببعـض الرّاحـة. فكّـرت في سـخرية. إنّهـا مثـل هـذا الشّـعب تمامـا، يريـد الثّـورة، لكنّـه ليـس مسـتعدّا لتقديـم كلّ التّضحيـات المطلوبـة. هنـاك تنـازلات يقبلهـا عـن طيـب خاطـر ومسـؤوليّات أخـرى لا يستسـيغها. إنّهـا بهـذا الشّـكل تمامـا.. لقـد قبلـت أن تكـون حنـان، أن تطلـب الصّفـح وتدفـع ثمـن أخطائهـا، لكنّهـا لا تريـد أن تفـي بـكلّ التزامـات حنـان السّـابقة.. زواجهـا عـلى سـبيل المثـال!

ـ ستكونين بخير بمفردك؟

أومأت برأسها بسرعة. آها.

ـ لا تفتحي الباب لأحد!

ابتسمت. هل يظنّها طفلة؟

ـ ستكونين فتاة عاقلة، أليس كذلك؟

إنّه يشير إلى محاولتها الفرار ذلك الصّباح. أومأت مرّة ثانية. كانت صادقة. لم يعد لها نيّة الهرب، أو تسليم نفسها. لا يمكنها أن تنفي شبه اقتناعها بمرافعته الصّباحيّة. لم تعد تؤمن بمسؤوليّتها الكاملة عن الحادثة. يمكنها النّظر في ذلك في وقت لاحق. أمّا الآن، فلديها مسؤوليّة أخلاقيّة تجاه عائلتها. هذا ما تؤمن به في تلك اللّحظة.

بعد أن انصرف فراس، تنفّست الصّعداء. تجوّلت في الشّقة، وهي تشعر بالوحشة. كانت الإقامة عند الجدّة لتكون أخفّ وطأة في ليلة كهذه.

رنّ الجرس فجأة، فقفزت في مكانها. اقتربت من الباب في حذر، وهتفت من خلف الدّفّة الموصدة:

ـ من هناك؟

ـ هذا أنا.. افتحي!

ميّزت صوت فراس. فتحت في دهشة. ما الذي عاد به بعد نصف ساعة فقط؟

تجاوزها محمّلا بأكياس مشتريات، ومضى مباشرة في اتّجاه المطبخ. ميّزت رائحة شهيّة، فتبعته. انتبهت إلى علبة البيتزا، وهو يضع الأكياس على الطاولة. لقد نسيت أن تأكل طوال النّهار! إنّها تتضوّر جوعا بالفعل. تخلّص فراس من حمله ثمّ استدار مغادرا على الفور. أغلقت الباب وراءه، ثمّ هرولت إلى المطبخ وأخذت تفتح الأكياس في فضول.. كان قد اشترى حاجيات الطّبخ الأساسيّة من أجلها، السّكّر والقهوة، الحليب والزّيت والملح، معجون الطّماطم، الأرز وبعض المعجّنات، بالإضافة إلى سلّة خضار وفواكه متنوّعة. ابتسمت في امتنان.

كانت تُنهي آخر شرائح البيتزا، حين رنّ هاتفها. كانت سحر.

ـ هل أنت بخير؟

خمّنت أنّ خبر مصادرة ممتلكات خالها قد انتشر!

ـ لقد عقد الوزير الأوّل ندوة صحفيّة منذ قليل، وأعلن عن الشّروع في تطبيق قانون المحاسبة.. ألقي القبض على عشرات رجال الأعمال الفاسدين اليوم، والنّاس يحتفلون في الشّوارع!

سخرت في سرّها. بماذا يحتفلون؟ رؤوس الأموال تهرّب خارج البلاد إلى الملاذات الضريبيّة والماليّة! كانت ممزّقة في داخلها. هل كان يجدر بها الاحتفال مع المحتفلين؟ هل يحتفل أمين اليوم مع رفاق ثورته؟ لماذا تشعر بغصّة في حلقها، حين تذكر مشهد الصّباح المهين، لعزيز قوم ذُلّ؟ لقد لامت والدها، وآمنت بضرورة دفعه ثمن أخطائه. لكنّ أخطاء خالها تبدو أكثر فداحة. لم يصادر أحد شقّتها، ولا بطاقاتها الائتمانيّة!

***

تململ فراس على الأريكة غير المريحة. فكّر أنّ عليه شراء أريكة متحوّلة، يستعملها سريرا في الليل وتستقبل ضيوفه في النّهار. ربّما استمرّت إقامته في المكتب لبعض الوقت. لكنّ خشونة فراشه وقلّة اتّساعه لم تكن ما منع عنه النّوم. كان قد تلقّى اتّصالا من ياسين يستعجله. قال متهرّبا:

ـ ليلى غير مستعدّة الآن.. أمهلني بعض الوقت لإقناعها.

لكنّه لم يكن في حاجة إلى إقناع ليلى، بقدر ما كان يحتاج إقناع نفسه! كان مشتّتا حتّى تلك اللّحظة، بين قرارين أحلاهما مرّ. إمّا أن يخذل والده.. وإمّا أن يخذل نفسه، وليلى، ومبادئه وأحلامه. تساءل

في مـرارة. منـذ مـتى كانـت لديـه أحـلام؟ أحلامـه وليـدة، عمرهـا أيّـام قليلـة. لقـد عـاش سنوات بـدون أحـلام أو آمـال أو أدنى مخطّطـات. ألا يمكنـه أن يئـد تلـك الأحـلام المتطفّلـة؟ لقـد جـرّب الحيـاة دونهـا.. وقـد كان بخـير!

بخـير؟ لـم يكـن بخـير! إذا كان يمكـن أن يطلـق عـلى سـنوات ضياعـه وتجمّـد مشـاعره ولامبالاتـه حيـاة، فهـي لـم تعـد ترضيـه اليـوم. ليـس بعـد أن استيقظ قلبـه وانتفضـت أحاسيسـه! أن يعـود إلى مواتـه اختيـارا، أن يتجاهـل إرادتـه ورغباتـه، أن يمـضي في طريـق يـرى في نهايتهـا ظلامـا.. هـذا ظلـم!

لكنّـه يـدرك أنّ اختيـاره ذاتـه وأحلامـه لـن يكفـل لـه السّـلام النّفـسيّ! سـيكون ذلـك عـلى حسـاب سـعادة الآخريـن.. والـده الـذي وضـع ثقتـه فيـه، وشـقيقه الأكـبر وعائلتـه الصّغـيرة! وطالمـا كان سـببا في تعاسـتهم، فلـن تنفعـه الأحـلام! سيشـقى بهـا، ويتذكّـر دائمـا أنّـه كان أنانيّـا. سـتطارده نظراتهـم المعاتبـة أو الحانقـة. وربّمـا يقاطعونـه!

نعـم، لديـه شـكوك بشـأن شرعيّـة ثـروة والـده. نعـم، لا يعتقـد أنّ اتّهامـات المدّعـي العـام قـد جـاءت مـن فـراغ. نعـم، يسـتوعب أنّ إرجـاع الحقـوق إلى أصحابهـا مطلـب مشروع. لكنّـه لا يسـتطيع أن يكـذّب والـده. إن كان يقـول بـأنّ جـلّ ثروتـه حلالـه، مـا عـدا بعـض التّجـاوزات الصّغـيرة، فعليـه أن يصدّقـه! لـو أنّـه اعـترف بلسـانه، لـو أنّـه أعلـن مسؤوليّته عـن الجرائـم الـتي يتّهـم بهـا، لاختلـف الأمـر. لـم يكـن ليحتار. كان ليرفـض طلبـه صراحـة، ويعلـن امتناعـه. لكـن وهـو يقسـم بأنّهـا مـن عـرق جبينـه، هـل يسـعه أن يتجاهـل رجـاءه؟

اتّصل به ياسين بعد يومين. قال في نفاد صبر:

ـ هل توصّلت إلى حلّ؟

ـ ليس بعد.

ثمّ أضاف في جدّيّة:

ـ دع ليلى خارج الموضوع. لا أظنّها ستقتنع.

لم يكن قد فاتحها في الموضوع ولا رآها منذ أوصلها إلى شقّتها. لكنّه قرّر ألّا يقحمها في مشكلته. هذه مسألة عائليّة بحتة. إن كان عليه أن يجاري والده، فلا علاقة لها بذلك. زفر ياسين في ضيق، ثمّ قال:

ـ حسنا.. دع الأمر لي.

لم يكن يدرك ما ينطوي عليه تصريح ياسين. لكنّه تنفّس الصّعداء، وترك الأمر له! ظنّ لبرهة بأنّه تخلّص من الحمل الثّقيل. ياسين سيتصرّف. ياسين يتصرّف دائما. لديه حلول لا تخطر على بال أحد. ألم يكن يجدر بوالده أن يعهد بهذه المسؤوليّة لذراعه اليمنى؟ لم يخيّبه من قبل، ولطالما اعتمد عليه في كلّ أعماله. لكنّه لم يعرف أنّه سيكون جزءًا من حلّ ياسين هذه المرّة، حتّى ورده اتّصاله بعد يومين آخرين. قال في اقتضاب:

ـ مرّ عليّ في السّاعة العاشرة، صباح الغد.

كانت سيّارة ياسين رباعيّة الدّفع قد صودرت، بالإضافة إلى سيّارة والده المرسيدس، وسيّارة أمين الرّياضيّة. لم يُبق إلّا على سيّارته هو، الّتي أمكنه الاستظهار بفواتيرها. كان قد اشتراها بماله الخاصّ.

كان ياسين في انتظاره أمام بوّابة منزل والدَيْ منال. ركب إلى جواره وأشار إليه بالانطلاق. أعطى ياسين التّعليمات طوال الطّريق. اتّجه إلى اليمين، إلى اليسار، ادخل الطّريق السّريعة، خذ المخرج رقم... إلى اليسار ثمّ إلى اليسار مرّة أخرى، توقّف، وصلنا.

ـ تفضّل، من هنا.

حدّق فراس في واجهة المبنى الذي قد أصبحا قبالته في استغراب. كانت عمارة قديمة، لا لافتات ولا لوحات على واجهتها. سأل في شكّ:

- أين نحن؟

أخذ ياسين ذراعه وقال في تهكّم:

- تعال.. سأعرّفك على زوجتك الجديدة!

جذب فراس ذراعه في حدّة وقال في ضيق:

- هذا ليس وقت المزاح!

- لست أمزح.. هذا مقرّ «الشّركة».. تطلب زوجة، بمواصفات معيّنة، فيحضرونها! نريدها سويسريّة، وهي متوفّرة لحسن حظّك!

حملق فيه فراس غير مصدّق، فأضاف ياسين:

- لا تنظر إليّ هكذا.. إنّها مجرّد صفقة! سنوقّع عقدا بالدّاخل ونحصل على خدمة. لست مضطرا للعيش معها تحت سقف واحد.. إنّما ستدفع لها لقاء توقيعها على عقد الزّواج الصّوري، وللفترة التي تناسبك. نختار نوع الخدمة.. تأشيرة دخول، إقامة، إقامة لعشر سنوات، جنسيّة.. ثمّ توقّع على العقد! لكلّ خدمة ثمنها، ومدّتها. الجنسية قد تحتاج استمرار الزّواج لسنوات، ولذلك ستدفع لها أجرة شهريّة، حتّى يقع الطّلاق.. هل فهمت؟

ارتجف. لم يكن هذا الحلّ الذي توقّعه. تردّد لثوانٍ، ومرّت بباله ليلى. ثمّ حسم أمره. قال في عصبيّة:

- لا أريد أن أراها! اجعلها توقّع على العقد، وأحضر الأوراق إلى هنا.. لا أريد أن أدخل هذا المكان القذر!

حين رجعت إلى الشّقّة ذلك المساء، كان فراس ينتظرها عند الباب.

سرت قشعريرة باردة في جسدها حالما وقعت عيناها على سحنته المتعبة. كان يستند إلى الجدار بظهره، كفّاه في جيوبه، ونظراته ملتصقة بالأرض. رفع رأسه مع اقتراب خطواتها. بدا أنّه قد انتظر قدومها لوقت طويل. لم يكن أحدهما يعرف رقم هاتف الآخر! كانت تتصل بمنال كلّ يوم، وتسأل عن الأخبار. لكنّها لم تعرف شيئا عن فراس. كانت منال منشغلة بمأساتها، ترثي نفسها وانهيار حياتها طيلة المكالمة، ولم تحاول ليلى أن تقاطعها. لذلك، حين ظهر أمامها فجأة، في حال يُرثى لها.. ارتجف قلبها.

فتحت الباب ودعته إلى الدّاخل.

كانت قد فكّرت طيلة الأيّام الماضية في الطّريقة الملائمة التي يجدر أن تعامله بها إذا ما زارها في شقّتها، وكانت تثق في أنّه سيفعل. لكنّه خيّب ظنّها وتأخّر أسبوعا كاملا. قرّرت أنّها ستعامله كأجنبيّ، لكن ببعض المرونة. ستحاول أن تتعوّد عليه، وتتعرّف إليه عن كثب.. حتّى يسهل عليها تقبّل وجوده في حياتها.. أو حتّى تستعيد ذاكرتها، أو تثبت هويّتها.

جلسا متقابلين في الصّالة التي اختارها لها بنفسه، وبقيا صامتين. كانت هي محرجة، تصارع أفكارها المتناقضة، حول المسافة التي يجوز لها أن تبقيها بينها وبينه، وبدا هو سرحان تماما، مشغولا عنها بأفكاره. سألها أخيرا في فتور:

ـ هل اعتدت على الشّقة؟ رتّبت حياتك بشكل جيّد؟

أومأت برأسها في صمت. تبخّر كلّ الكلام الذي جهّزته في رأسها. كانت تريد أن تحدّثه عن مقابلة عملها ووظيفتها الجديدة في جريدة وسط المدينة.. عن زياراتها لوالدها وهواية القراءة المستحدثة لديه،

بعد أن صارت الكتب متوفّرة في السّجون.. وعن جارتها أمّ أحمد التي تستوقفها كلّ مرّة لتستجوبها بخصوص عائلتها.. وأيضا عن الطّرائف الصّغيرة التي واجهتها وهي تجرّب التسوّق بمفردها من بقالة الحيّ، وتركب المواصلات العامّة لأوّل مرّة.

لكنّها أدركت على الفور أنّ ما يكتمه أهمّ من كلّ ما بجعبتها من حكايات سخيفة. لكنّه لا يقول شيئا.

- هل خالي بخير؟

- إنّه يبلي بلاء حسنا. لقد استعدّ نفسيّا للأزمة قبل وقوعها.

عاد الصّمت ليسيطر من جديد، قبل أن تقول على استحياء:

- لقد وجدت وظيفة.. في جريدة أسبوعيّة.

- ممتاز!

التمعت عيناه وهو يهنّئها. ثمّ، لا شيء. إنّه لا يقول شيئا. استمرّت المحادثة متقطّعة. أسئلة مستهلكة، وإجابات مقتضبة. بعد دقائق من التململ، بدا أنّه لن ينطق بما يُحرق جوفه. نهض ببطء، وطالعها بابتسامة صغيرة:

- اهتمّي بنفسك جيّدا.

شعرت بانقباض مفاجئ. لماذا يبدو كأنّما جاء يودّعها؟ هل يفعلها؟ يسافر كما أراد له والده؟ رأته يتّجه إلى الباب، يهمّ بالمغادرة. كان وقتها ينفد، وفرصتها تمضي. فكّرت أنّها ستندم، إن لم تفعلها. استجمعت شجاعتها، واستحضرت كلّ تدريباتها أمام مرآتها، وهتفت:

- فراس!

استدار في دهشة. إنّها تنطق باسمه للمرّة الأولى، منذ جاءت لتقيم مع عائلته، قبل أربعة أشهر! وجد لاسمه على لسانها نغمة حلوة.

ودّ أنّه تجاهلها، لتنادي مرّة أخرى! لكنّ لهفته سبقت، والتفت إليها بكلّ اهتمام وإنصات.

- هل تحتاجين شيئا؟

رأى دمعة معلّقة على أعتاب رموشها.

- ستسافر؟

كان في لهجتها عتاب واتّهام. وهو مُدان لا ينكر ذنبه. اعترف ببساطة:

- وهل أملك ألّا أفعل؟

لمست المرارة والانكسار في صوته. سيسافر. شعرت بألم مفاجئ في صدرها. تعترف الآن أنّها قد تعلّقت بهذا الرّجل وألفت وجوده في حياتها. لا تذكر شيئا عن علاقتهما القديمة، قبل الحادثة، لكنّها تعوّدت على الرّجل الذي أمامها.. جار شرفتها، صاحب المذكّرات المؤلمة، صديقها الشّهم في أوقات العسرة. وهو الآن يخبرها برحيله، إلى أجل غير معلوم.. فتشعر بالخيانة والخذلان.

أحسّت بحرقة في حلقها وسيلان في أنفها. تشعر بالدّمع على بعد ملّيمترات من المجرى، لكنّها تمسكها بكلّ ما بداخلها من أنفة. تبادلا نظرة طويلة مؤلمة، مثل خناجر تُسدّد في صمت، فتصيب هدفها بكلّ دقّة.

فكّرت أن عليها أن تثنيه عن عزمه.

فكّر لو أنّها فعلت، فسيستجيب.

لكنّها لملمت شتاتها بسرعة. ازدردت ريقها، ومنعت العبرة من الانحدار على وجنتها. اجتهدت لترسم بسمة باهتة على ثغرها، وهمست:

- رافقتك السّلامة!

موطني.. موطني!

لا نريدْ، لا نريدْ

ذلّنا المؤبّدا، وعيشنا المنكّدا

بعد سنتين..

استيقظت عند السّاعة السّابعة. كان والدها قد سبقها في الاستيقاظ بنصف ساعة كعادته. كان قد أعدّ الإفطار، وجلس قرب النّافذة، يطالع جريدته ويرقب تدرّج الشّمس في منازلها باتّجاه كبد السّماء. طبعت على جبينه قبلة سريعة وجلست قبالته مبتسمة. أكلت على مهل بينما كان نجيب يقرأ لها آخر الأخبار من صفحة السّياسة. أصغت إليه بانتباه. يمكنها الآن أن تجاريه في شغفه وقد صارت السّياسة مركز اهتمامها ومحور حياتها. كانت الصّحافة الاستقصائيّة اختصاصها، والاطّلاع على ما تكتبه المنافسة على مائدة الإفطار يختصر عليها ساعات عمل يمكنها استثمارها في النّشاط الميدانيّ.

قبيل السّاعة السّابعة والنّصف، كانت تنزل الدّرج بخطوات عجلى لتلحق بعربة المترو. حشرت جسدها بين الأجساد المتدافعة، وانسلّت بهدوء حتّى وجدت لها مكانا مناسبا، بعيدا عن زحام الأبواب وتيّارات الصّعود والنّزول. هذا روتينها اليوميّ منذ التحقت بعملها. تسرح نظراتها عشرين دقيقة، عبر زجاج النّافذة، ترقب المارّة والسّيّارات، ثمّ تعود إلى واقعها حين تعلن اللّافتة عن محطّة «الحبيب ثامر» وسط العاصمة.

حثّت خطواتها حتّى وصلت إلى مقرّ الجريدة. حيّت زميلتها زبيدة، ورمت بحقيبتها على المقعد. دخل العمّ صادق، نادل المطعم الواقع أسفل البناية ذاتها على إثرها، وفي كفّه الصّينيّة اليوميّة. أعلن بصوت جهوريّ:

- الإفطار وصل!

دار على نفسه بحركة رشيقة ووضع على مكتبها قهوتها المعتادة مع توست المربى وفطيرة الجبن وقطعة فاكهة، ووضع المكوّنات نفسها على بقيّة المكاتب. ابتسمت في رثاء لحالها. كأنّ إفطارا واحدا لا يكفي! كان زملاؤها قد اتّفقوا مع المطعم على تزويدهم بوجبتي الإفطار والغداء كلّ يوم. وكان عليها أن تكون جزءًا من الصّفقة حتى يحصل الجميع على التخفيض الذي وعد به صاحب المطعم!

شربت جرعة من القهوة وشرعت تتصفّح الملفّات المكدّسة على المكتب أمامها. في السّاعة التّاسعة، رنّ المنبّه المبرمج على هاتفها ليذكرها بمواعيد مقابلاتها. رتّبت أوراقها ووضعتها في المحفظة، ثمّ جمعت مكوّنات وجبتها في كيس ورقيّ بعد أن اكتفت بالقهوة، وخرجت.

وهي تجدّ على رصيف شارع باريس، تذكّرت شيئا. توقّفت ودسّت كفّها في جراب داخليّ صغير في حقيبة يدها، لتخرجها قابضة على خاتم. أدخلته في بنصر يدها اليسرى وابتسمت في سخرية. إنّه خاتم رخيص، اقتنته من بسطة في سوق «أبو منديل»، مطليّ باللّون الذّهبي، ويبدو لمشاهد غير مدقّق مثل خاتم خطبة! إنّه الإشارة الواضحة التي تحتاجها لتعلن أنّها «غير متاحة» وتتجنّب الإحراج المتكرّر.

عرّجت على شارع الحبيب بورقيبة، حيث لمحت أوّل ما لمحت خيام المعتصمين المنصوبة حديثا قبالة المسرح البلديّ. مشت بخطوات ثابتة في اتّجاه الخيمة الأولى.

من فتحة الخيمة الجانبيّة، رآها أمين مقبلة، فأغمض عينيه وولّى المدخل ظهره. لكزه جاره منبّها وقال مشيرا إلى الخارج:

ـ ابنة عمّتك أنت!

تأفّف. نعم، يمكنه أن يرى ذلك. يعرف مواعيدها. كلّ من بالخيمة يعرف مواعيد مرورها. كانت قد وصلت أمام الخيمة، وخرج الآخرون لاستقبالها. أستاذة ليلى، هكذا ينادونها. قالت بعد أن تلقّت موجات من عبارات التّرحيب والغزل والتودّد:

ـ آسفة يا شباب، ليس لديّ جديد من أجلكم اليوم!

كانت مع ثلّة من الصّحفيين والمحامين الشّبّان المنخرطين في «الرابطة التّونسيّة لحقوق الإنسان»، تتابع قضيّة المعتصمين ضدّ الحكومة. اقتربت من أمين أخيرا بعد أن انفضّ بقيّة المعتصمين من حولها. رمت في حجره الكيس الورقيّ، وقالت مثل كلّ يوم:

ـ تشاركها مع الآخرين!

تلقّاه في اهتمام وفتحه على الفور وهو يقول:

ـ إنّها لي وحدي اليوم.. البقيّة مضربون عن الطّعام! تعالي يا فطيرتي الحلوة!

عبست ليلى وهي تسأل في اهتمام:

ـ مضربون؟ منذ متى؟

ـ مالك منذ مساء الجمعة.. منتصر منذ ظهر السّبت.. قولي، ألا يعدّ المطعم غير فطيرة الجبن؟ عليهم تنويع قائمة الطّعام قليلا!

أخذ قضمة شرهة من الفطيرة وأخذ يلوكها في استمتاع، بينما أردفت ليلى:

ـ هذا ليس جيّدا.. سأعلم الرّابطة حتّى يُرسل طاقم طبيّ لمتابعة حالتهم.

هزّ أمين رأسه وواصل الأكل في صمت. رمقته لبرهة ثمّ قالت

مقرّعـة:

- إنّهـم يعتصمـون ويضربـون عـن الطّعـام، وشكواهم معروفـة.. فما دواعـي اعتصامـك هـذه المـرّة؟

قال في لهجة مسرحيّة:

- قضيّتهم هي قضيّتي!

- هـذا لا يُسـمّى اعتصامـا.. هـذا تـشرّد! أنـت لا تغـادر اعتصامـا حـتّى تدخـل آخـر.. تبحـث عـن قضايـا الآخريـن لتتبنّاهـا.. فمـتى تهتـمّ لقضيّتـك الخاصّـة؟

قال في هدوء:

- ليست لديّ قضيّة خاصّة!

- بلى، دراستك التي نسيت أمرها! مستقبلك الذي أهملته!

هزّ كتفيه في حركة مستهينة، وأخرج حبّة الموز من الكيس.

- هـذه ليسـت حيـاة! قـل لي، مـتى تنـوي التوقّـف عـن الاعتصـام وتنـاول الأمـور بجدّيّـة؟ كلّهـم يعتصمـون فـترة، ثـمّ يعـودون إلى حياتهـم حـين تُلبّى مطالبهـم أو يُخفـق الاعتصـام.. مـاذا عنـك؟ أنـت في الثّامنـة العشريـن، لكـنّ تصرّفاتـك مراهقـة جـدّا!

حدّق فيها في حدّة وقال في عصبيّة:

- هـل هـذا الـكلام مناسـب لموعـد الأكل! لـم أعـد أريـد صدقتـك.. خذيهـا! هيّـا ارحـلي مـن هنـا.. الآن!

قـال ذلـك ورمـى في اتّجاههـا الكيـس الـذي خـلا مـن محتوياتـه تقريبـا. أخـذت ليـلى نفسـا وتلفّتـت حولهـا زامّـة شـفتيها. هـذا لا ينفـع. إنّهـا تخـوض معـه الحـوار نفسـه منـذ شـهور بـلا فائـدة. لقـد كان في اعتصـام الرّحيـل واعتصـام الصّمـود واعتصـام تقريـر المصـير! لقـد كان هنـاك،

عضوا قارًا في كلّ الحركات الاحتجاجيّة، كأنّ حياة التشرّد واتته ولم يعد يريد سقفا يؤويه وعائلة ينتمي إليها. منذ رحل عن القصر ذلك الصّباح وقال «سأتدبّر أمري»، لم تعد له صلة بعائلة القاسمي.

قال في مرارة، دون أن ينظر إليها:

ـ هذا ما بقي لي.. أن أعتصم! هل تعلمين؟ لقد كنت ألعب مع بعض الرّفاق في صالة ألعاب الكترونيّة ذلك العصر، حين اندلعت الاحتجاجات الأكبر في العاصمة التي أطاحت بالرّئيس المخلوع.. كنّا نلعب، ثمّ فوجئنا بتيّار بشريّ هائل يملأ الشّارع من أوّله إلى آخره، وصراخه المدوّي يصمّ الآذان «ديقاج» (ارحل)! خرجنا مذهولين، لا ندرك ما يحصل.. لم تكن السّياسة حتّى تلك اللحظة تعني لنا شيئا، ولم نكن نتابع أو نهتمّ لما يحصل في الجهات الدّاخليّة من بلبلة.. وسرعان ما مرّت إلينا عدوى الحماسة، وانخرطنا في الجسد الأعظم، جسد الشعب الواحد، وأصبحنا جزءًا من حراك مدمّر زحف حتّى مباني الحكومة وأضرم النّار في مقرّات أمنيّة! لقد هرم الجيل السّابق، قبل أن يشهد لحظات تاريخيّة كتلك.. حتّى خلّدت مقولة الرّجل الأشيب، هنا قريبا من هذا الموقع، في نفس هذا الشّارع «لقد هرمنا، من أجل هذه اللّحظة التّاريخيّة!».. وانظري إلى ما وصلنا إليه بعد انقضاء تلك اللّحظات بنشوتها وبهجتها! بعد عامين من الثّورة، لم يصدر قرار ثوريّ واحد، ولم يتحرّك واقع المواطن العاديّ إنشا واحدا! نحن نسير نحو استقرار تدريجيّ، بدون تحقيق مطلب واحد من مطالب الثّورة! وخوفي أن نهرم نحن أيضا، دون أن نعيش تلك اللّحظات التّاريخيّة مرّة أخرى، لأنّنا اكتفينا بهروب المخلوع، وتركنا للنّخبة السّياسيّة ذاتها أن تواصل تسيير شؤون البلاد! فهل يمكنني أن أفعل شيئا غير الاعتصام، لأعبّر عن إنكاري للواقع الذي أصبحنا عليه؟

ابتسمت ليلى وتطلّعت إليه في إشفاق، ثمّ قالت:

ـ هذا خطاب مؤثّر يا عزيزي، يجعلك في أعلى سلّم الغيريّة والإيثار! هل تريد أن تقنعني بأنّ العبث الذي أنت فيه هو من أجل حماية الثورة المغدور بها، وإيقاظ الجيل الذي يفوّت على نفسه فرصة صناعة لحظات تاريخيّة متكرّرة؟ أفق من سباتك، أرجوك! هذا فرار مُقنّع.. من خيبتك وفشلك! تطلّع إلى وجهك في المرآة، وأعد خطبتك العصماء على نفسك.. ستضحك! صدّقني.. أنت تخدع نفسك قبل أن تخدعني!

ثمّ أضافت في حدّة:

ـ تريد أن تخدم الثّورة والوطن؟ اخدمها بنجاحك وسعيك، لا بالخمول والاتّكال! منذ سنتين، تقتات على المساعدات، مثل فقير معدم! ولا تقدّم شيئا من أجل نجاح ثورتك! بالمناسبة، متى أصبحت ثورتك؟ لقد كنتَ هناك صدفة، شهدت المظاهرات صدفة، وغمرتك سكرة الاحتجاج! فأصبحت تحتجّ بلا مبرّر أو دافع.. هذه ليست ثورة، هذا استسهال!

نظر إليها مستنكرا، ثمّ أشاح بوجهه معرضا. مرّت لحظات من الصّمت قبل أن تقول ليلى:

ـ هل اتّصلت بياسين؟ منال تقول أنّه يجدّ في البحث عنك!

ـ هل تذكّر الآن أنّ لديه شقيقا ضائعا؟

قال في تهكّم، ثمّ التفت إليها فجأة كمن تذكّر شيئا، وقال مشيرا إلى كفّها:

ـ متى تقدّمينه لنا.. خاطبك المجهول؟

حرّكت الخاتم في إصبعها في حركة لا إراديّة، ثمّ قالت في حدّة:

- حين تصبح شخصا محترما، سأقدّمه إليك!

- حسنا، دعك منّي.. هل تعرفه منال؟ ياسين؟ عمّي نجيب؟ الحاجّة فريدة؟

كانت نظرة مستهزئة في عينيه. لم يكن يصدّق ما تدّعيه. لكنّها ابتسمت في ثقة، وقالت في شفقة:

- يمكنك أن تصدّق ما تريد.. ليس يهمّني ما تعتقده!

ثمّ استدارت مبتعدة وهي تقول:

- لقد أضعت الكثير من الوقت على أحمق مثلك! لديّ عمل ينتظرني!

سارت بخطوات سريعة في اتّجاه المحكمة، حيث تغطّي قضيّة فساد ضدّ رجل أعمال معروف. تذكّرت تلك اللّحظة، منذ سنتين، بعد سفره بأسبوعين. كانت تزور منال، وكان ياسين هناك. في معرض الحديث، ودون أيّ نيّات مسبقة، قالها ياسين ببساطة لا غبار عليها. لقد تزوّج سويسريّة وسافر! مازال أثر تلك الطّعنة حيّا نازفا في صدرها. كلّما تذكّرت الموقف، أحسّت بالجرح الذي لم يندمل يفتح من جديد، فتتجدّد أوجاعها.

دلفت إلى قاعة المحكمة، ووقفت ترافع بصوت قويّ ثابت.. سيّدي الرّئيس، حضرات المستشارين، هذا القلب الذي في صدري غبيّ لا يتعلّم من الماضي! إنّه ما زال ينتظر، رغم الخيانة والغدر السّابقين، أن يعود الزّوج الهارب يوما! هذا مأزق لا فكاك منه.. أوراق الهويّة سليمة وتسمح بارتباط جديد، والعقل يؤيّد النّسيان والتحرّر من قيد زواج لا أثر له إلّا في كوابيسي.. لكنّ الضّمير يؤيّد القلب. لا يجوز، لا ينبغي أن أبدأ حياة أخرى، مادمت على عصمة رجل آخر، لا يقدّر ارتباطي به ولا يهتمّ! وهذا الخاتم السّخيف، دليل دامغ على الغباء

المستفحل لهذا القلب. ماذا تحكم عليه سيّدي الرّئيس؟ فلتسجنه طويلا، طويلا جدّا في زنزانة النّسيان!

خرجت من المحكمة، وانطلقت إلى الشّركة التي يديرها رجل الأعمال المعنيّ. كان عليها أن تسجّل شهادات بعض الموظّفين، وتحصل على بعض الوثائق، ثمّ ترجع إلى مكتبها، حيث تنهي ساعات النّهار. سيكون غداؤها قد برد وصار لحم الدّجاج بلا طعم، والبطاطس هزيلة بلا قوام. تنهّدت، وهي تنهي تسجيل ملاحظاتها. التفتت لتشكر الرّجل الواقف إزاءها وتعيد إليه القلم الذي استعارته. فجأة، شعرت بدمائها تتجمّد في عروقها، وهي تحدّق في نهاية الممرّ. كانت ثانية واحدة، لمحت خلالها طيفا يمرّ. وجه يشبه وجهه. ازدردت ريقها، وانتبهت إلى أصابعها التي تضغط على القلم، تمدّه إلى صاحبه ولا تفلته. اعتذرت وقد استردّت تركيزها. ماذا دهاك يا ليلى.. إنّها مجرّد تهيّؤات. ليست المرّة الأولى. كثيرا ما خيّل إليها أنّها تراه. لكنّها كانت مخطئة في كلّ مرّة. نظرة ثانية كانت تكفي لتقطع الشكّ باليقين، وتدرك الألاعيب التي يستمتع عقلها بممارستها. عادت لتدقّق في نهاية الممرّ. لم يكن هناك، ذلك الوجه المألوف. لقد مرّ بسرعة، ولم يسعها أن تفنّد ظنّها مثل كلّ مرّة. لكنّها واثقة، لا يمكن أن يكون هو.

وقفت ومضت لشأنها. هذا يوم آخر يمرّ، تعيش فيه للآخرين.. ولا نصيب لنفسها منه أبدا.

لـو أنّ لهـا أن ترسـم صـورة مبسّـطة عـن حياتهـا، منـذ وعـت بهـا، لقالـت إنّهـا سلسـلة مـن الصّدمـات. كلّ صدمـة، ترسـم لهـا مسـارا مغايـرا وتبعـث في وجودهـا معـاني كانـت في غفلـة عنهـا. الحادثـة الـتي أفقدتهـا ذاكرتهـا، القبـض عـلى والدهـا في مطـار تونـس قرطـاج، اكتشـافها اللُّبـس في هويّتهـا، ثـمّ رحيـل فـراس.. كلّهـا صدمـات تركـت في كيانهـا آثـارا لا تُمحـى. كان عليهـا أن تفتّـش عـن الصّدمـة التّاليـة لتجـد طريقهـا. كانـت تمـشي متلفّتـة منتبهـة لأبسـط الأحـداث، تبحـث عـن بـوادر الصّدمـة فيهـا.. وتتسـاءل، هـل يصلـح هذا بـذرة لزوبعـة تهـزّ أركان حياتهـا الرّتيبة؟ وكلّما هـيّئ لهـا أنّ الصّدمـة آتيـة، تشـبّثت بهـا وقالـت هـا هـي ذي! لكنّهـا سرعـان مـا تشـيح عنهـا حـين تجدهـا عقيمـا مـن دوافـع التّغيـير. مَثلهـا في ذلـك كمثـل صيّـاد يصطـاد السّـمكات ثـمّ يلقـي بهـا في البحـر، يترقّـب سـمكة أكـبر. حـتّى وقفـت ذات يـوم وقالـت: هـذه صدمـتي، هـذه أكـبر!

كان ذلـك حـين دخـل الأسـتاذ عبدالـرّؤوف، رئيـس التّحريـر، ذات عشـيّة وخاطبها متسـائلا:

- لقد وصلتك هذه الرّسالة من ألمانيا.. هل تعرفين أحدا هناك؟

كان قـد اقـترب حـتّى مكتبهـا ملوّحـا بالظّـرف الـذّي خُطّـت عـلى صفحتـه كلمـات باللّغـة الألمانيّـة. أخذتـه منـه في فضـول. طالعـت الغـلاف وقـرأت: «مركـز دراسـات الأنثروبولوجيـا الاجتماعيّـة والثّقافيّـة في هامبـورغ، إلى السـيّدة ليـلى كامـل». فضّـت المغلّـف وفـردت الورقـة، وأخـذت تطالعهـا في صمـت. سـألتها زبيـدة فجـأة:

- هل تفهمين الألمانيّة؟

هزّت رأسها، ثمّ شرعت تقرأ وتترجم بشكل فوريّ ودون تعثّر:

- إلى الأستاذة ليلى كامل.. تحيّة وبعد.. لقد اطلعنا على تقريرك الذي يحمل عنوان «حقوق الإنسان في سجون تونس ما بعد الثّورة»، وتسعدنا دعوتك للمشاركة في دراسة معمّقة يعمل المركز على إنتاجها، وتشمل حقوقيّين وإعلاميّين من بلدان الرّبيع العربي.. بالإضافة إلى ثلّة من علماء الأنثروبولوجيا وعلماء الاجتماع من جميع أنحاء العالم.

توقّفت فجأة عن القراءة مبهوتة، في حين هتف الأستاذ عبدالرّؤوف:

- هذا رائع يا ليلى! إنّها فرصة ممتازة!

كانت قد أعدّت ذلك التّحقيق بالفعل منذ ثلاثة أشهر، لفائدة رابطة حقوق الإنسان، وإلهامها الأساسيّ تجربة والدها. وقد عرفت أنّه قد نشر أيضا في مواقع مختلفة، وبعد شهر من انتشاره، طلبت منها الرّابطة ترجمته إلى الانجليزيّة، وقد فعلت. الكلّ كان يشيد بإقدامها وجسارتها. لم تكن تهتمّ إلّا بتغطية القضايا الشّائكة والمواضيع الحرجة. لكنّها تدرك أنّها لم تكن بالشّجاعة التي يدّعونها. لو أنّها كانت، لأقدمت على الكتابة بالعربيّة! بعد مرور سنتين من تجربتها الصّحفيّة، لم تتجرّأ على نشر مقالها الأوّل بلغتها الأمّ. كانت تكتب المسودّة إثر الأخرى، لكنّها لا تجرؤ أبدا على إرسالها إلى رؤساء التّحرير.

تعالت وتيرة التّهاني، من زميلتها زبيدة والصحفيّ المتمرّن والكاتبة، بينما بدت ليلى ذاهلة لبرهة. أردف عبدالرّؤوف بسرعة:

- إنّهم يقدّمون أجرا لائقا، أليس كذلك؟

هزّت رأسها ببطء، وهي تلقي نظرة على بقيّة النّص، وقالت بلا تركيز:

- وظيفة باحث زائر لمدّة ستّة أشهر، والعرض التفصيليّ مرفق.

قالـت ذلـك في سرحـان، ثـمّ طـوت الرّسـالة وهتفـت في اضطـراب وهـي تجمـع حاجاتهـا:

ـ أعتذر أستاذ عبدالرّؤوف.. سأغادر المكتب مبكّرا اليوم!

ضحك الرّجل وهو يقول مداعبا:

ـ بالتّأكيد.. اذهبي واحتفلي يا صغيرتي!

خرجـت متعجّلـة، تسـابق الرّيـح، وقـد اسـتحوذت فكـرة واحـدة عـلى تفكيرهـا.. هـل تكـون هـذه صدمتهـا؟ هـل هـذه هـي الهـزّة المنشـودة؟ كانـت تحتـاج إلى إجابـة واحـدة لتهـدأ. ركبـت المـترو، ونزلـت في محطّتهـا. هرولـت حـتّى البنايـة، وارتقـت الدّرجـات قفـزا، حـتّى وصلـت أمـام بـاب شـقّتها. وقفـت في الخـارج، تسـترجع أنفاسـها. ثـمّ أدارت المفتـاح في القفـل، وخطـت إلى الدّاخـل.

لوهلة، حسبت نفسها تتوهّم.

كان هنـاك صـوت واضـح يصلهـا مـن غرفـة المعيشـة. صـوت مألـوف.. ومسـتبعد! لكنّـه هنـا الآن، يطـرق أذنيهـا! هـل هـو يـوم الصّدمـات؟ فليكـن، سـتطرح سـؤالها إذن، مـرّة واحـدة! ازدردت ريقهـا وأخـذت نفسـا عميقـا، رغـم ذلـك ارتجفـت، وهـي تعـبر الصّالـة حـتّى وصلـت إلى مصـدر الصّـوت.

كان نجيـب يضحـك وهـو يسـتمع إلى ضيفـه، يـروي دعابـات ونـكات لا تنتهـي. التفـت الرّجـلان، حالمـا انتبهـا إلى وجودهـا. سـيطرت عـلى رجفتهـا، ألقـت التحيّـة، ثـمّ جلسـت إلى جـوار والدهـا عـلى الأريكـة. قالـت بابتسـامة بـاردة وهـي ترنـو إليـه:

ـ أرى أنّ لدينا ضيوفا اليوم!

ـ فراس وصل هذا الصّباح، وقد حرص على المجيء ليسلّم على عمّه العجوز.. لم تقصّر يا ولدي!

قالت في سخرية مبطّنة:

ـ طبعا.. التّقصير ليس من طبعه!

تجنّبت أن تطالع في اتّجاهه بشكل مباشر، بينما كانت تشعر بنظراته عليها طيلة الوقت. قالت فجأة:

ـ تذكّرت اليوم شيئا.. هل كانت حنان تجيد الألمانيّة؟

رفعت رأسها على حين غرّة، وحدّقت فيه مع سؤالها، فرأت الدّهشة في عينيه. نعم. لقد كان السّؤال موجّها إليه دون غيره. قال في ارتباك:

ـ لا أعتقد ذلك.. لم تكن مولعة باللّغات!

ابتسمت في تهكّم لاذع، ثمّ التفتت إلى والدها:

ـ أبي، قل لي.. هل تعلّمتُ الألمانيّة في صغري؟

ردّ نجيب على الفور بكلّ حماس:

ـ لقد كانت لغتك المفضّلة في المدرسة الثانويّة! وقد سافرت إلى زوريخ في رحلة لغويّة مدّة شهرين، وتعلّقت بمؤلّفات جوته ونيتشه في وقت مبكّر!

عادت بعينيها إلى فراس، بنظرة انتصار صاخبة. ثمّ قالت في هدوء:

ـ عن إذنكما.. سأحضّر القهوة!

مشت حتّى المطبخ، متظاهرة بالثّبات. لكن ما إن توارت عن أنظارهما، حتّى انهارت على المقعد الأقرب إليها. هذه صدمتها.. هذه أكبر! وضعت رأسها بين كفّيها، وأخذت تضحك في عصبيّة.. ثمّ انتابتها رغبة ملحّة بالبكاء. لقد كانت صدمة مضاعفة. فراس هنا..

وأنـت، ليـلى! ليـلى! لقـد أضعـت سـنتين مـن عمـرك في انتظـار الرّجـل الخطـأ! لكـنّ المريـح هـو أنّـك غـير مضطـرّة للانتظـار بعـد الآن! أنـت حـرّة! لقـد تفتّتـت قيودهـا الوهميّـة! انتهـت الحـيرة والتمـزّق!

أخـذت تعـدّ القهـوة في مـزاج يتقلّـب سريعـا بـين الضّحـك البـكاء.. تضحـك سـخرية مـن نفسـها، وفرحـا بحريّتهـا.. وتبـكي غباءهـا الـذي سـجنها في قمقـم حنـان لأكـثر مـن سـنتين! هـدأت أخـيرا، وتنفّسـت وهـي ترصـف الفناجـين عـلى الصّينيّـة. أنـت لـم تقتـلي أحـدا، لـم تكـوني مدمنـة، ولـم تسـيئي إلى أحـد.. وخاصّـة، لسـت زوجـة أحـد!

عـادت إلى عينيهـا نظـرة التحـدّي وهـي تسـير في الاتّجـاه المعاكـس وصـولا إلى غرفـة المعيشـة. لـم يعـد فـراس يـروي النّكـات ويضحـك الآن. كان نجيـب يتحـدّث وحـده، عـن أحـوال البلـد، وأمـور السّياسـة، وبـدا فـراس غائبـا تمامـا. يهـزّ رأسـه في صمـت، وعينـاه تراقبـان بـاب المطبـخ المـوارب بنظـرات قلقـة.

عـادت وهـي تحمـل الصّينيـة. وضعتهـا عـلى الطاولـة المنخفضـة، ثـمّ قالـت بصـوت ثابـت، رغـم البراكـين الـتي تتفجّـر داخلهـا:

- أبي.. لقـد وصلتـني اليـوم دعـوة مـن مركـز أبحـاث ألمـانيّ.. لأشـارك في بحـث أكاديمـي لمـدّة سـتّة أشـهر.. إنّـه عـن مسـتقبل الثّـورات العربيّـة وتأثـير بعضهـا عـلى بعـض. مـا رأيـك؟

التفـت إليهـا نجيـب بكليّتـه، وأمسـك بكفّيهـا وقـد لمعـت عينـاه في إثـارة:

ـ هذا جميل يا عزيزتي.. جميل جدّا!

اتّسـعت ابتسـامتها، وسـكن كلّ التّوتّـر المتقافـز في باطنهـا.. حـتّى تكلّـم فـراس، وقـال بصـوت مبحـوح:

ـ هذا خبر رائع.. تهانينا!

ثمّ التفت إلى نجيب وقال معتذرا:

- عليّ الانصراف الآن.. لقد كانت أمسية جميلة.. ليلى، تهانيّ مرّة أخرى!

صافح نجيب بحرارة، ثمّ مشى في اتّجاه المخرج. وقفت ليلى، وسارت وراءه، مدفوعة برغبة لا تتحكّم بها. وقف عند الباب، ثمّ التفت إليها. أطرقت بنظراتها، فوقعت عيناها على حقيبة أوراقه السّوداء. بدا لها الشّعار المرسوم عليها مألوفا. لم تكن قد خمّنت أين سبقت لها رؤيتها، حين سمعته يقول بابتسامة باهتة:

- تبدين في حال جيّدة!

سكتت. فكّرت أنّه لم يكن بخير على الإطلاق. لكنّه لم يبد متفاجئا أيضا لاكتشافها. أحسّت بالألم القديم يغزو صدرها. سألته بغتة:

- منذ متى تعرف؟

- لا أدري.. لم أستطع أن أصدّق أبدا.. أنّك حنان! لكنّك بدوت مقتنعة.

- لذلك تركتني لتهيّؤاتي كلّ هذا الوقت؟!

كانت هجمتها مباغتة. ارتقى صوتها طبقة في شراسة، واحتدّت قسماتها.

- هل كنت لتغيّري قناعتك، لو أنّني أخبرتك برأيي؟ لقد قلت لك سابقا.. أنت ليلى حتّى يثبت خلاف ذلك! لكنّك صدّقت الكوابيس وحدها.

سكن غضبها قليلا. بينما أضاف فراس معترفا:

- لكنّ ذلك على الأقل كان يضمن لي أنّك ستكونين في انتظاري.. لم

أكـن أريـد خسـارتك.

انحبسـت أنفاسـها، وارتجفـت. لـم يكـن يريـد خسـارتها؟ هـذا اعترافـه، يـأتي متأخّـرا. لـم تعـد بحاجتـه الآن. لقـد اسـتلمت صـكّ عتقهـا اليـوم، وليسـت تفكّـر في الرّجـوع إلى العبوديّـة، قبـل أن تسـتمتع بحريّتهـا! ابتسـمت في سـخرية وقالـت بـبرود:

ـ لكنّك خسرتني.. وانتهى الأمر!

تنهّـدت وهـي تغلـق البـاب بعـد انسـحاب فـراس مذيّـلا بالخيبـة، وشـعرت برغبـة البـكاء تعاودهـا. كـم يبـدو كلّ شيء سـخيفا الآن. حـين ودّعتـه منـذ سـنتين، وقفـا تلـك الوقفـة نفسـها عنـد البـاب. وكانـت تتمـنّى أن تسـمع تلـك العبـارات. انتظريـني.. لا أريـد خسـارتك. لا يمكنهـا في تلك اللّحظـة أن تقـدّر مـدى خسـارتها أو ربحهـا في مـداولات اليـوم العاطفيّـة! سـارت إلى الدّاخـل مهـزوزة ومشـوّشـة.

كان نجيب في انتظارها في غرفة المعيشة. قال مبتسما:

ـ ما رأيك الآن؟

لـم يكـن ذهنهـا بالصّفـاء الـذي يسـمح لهـا بوضـع الخطـط، لكنّهـا اجتهـدت:

ـ السّفر سيكون خلال شهر تقريبا.

ـ لا أتحدّث عن السّفر!

كانت في عينيه نظرة شقيّة. أضاف مداعبا:

ـ لسـت سـاذجا لأصـدّق أنّ فـراس قـد هـرول لرؤيـة زوج عمّتـه العجـوز، في اليـوم الأوّل لوصولـه بعـد غيـاب دام سـنتين!

أطرقت في حرج، وأخذت أصابعها تعبث بطرف وشاحها في توتّر.

ـ أعـرف.. قبـل الأزمـة، كنـت قـد أثـرت الموضـوع، وقـد رفضـتِ..

لكنّني أحسب أنّ شيئا ما قد تغيّر منذ ذلك الوقت، أليس كذلك؟ أعني أنّك خلال سنتين رفضت كلّ المتقدّمين.. ألا يعني ذلك أنّك كنت تنتظرين شخصا بعينه؟

عادت رغبتا البكاء والضّحك لتتجاذباها بنفس الإلحاح. لو أنّها أفلتت عنان جنونها، سيجزع والدها بالتّأكيد. قالت مستنفرة كلّ ما تبقّى داخلها من ثبات:

- أبي.. لا أريد الحديث في هذا الآن. لقد قرّرت السّفر.. أليست فرصة جيّدة؟

صمت نجيب في وجوم، ثمّ قال مسلّما:

- نعم.. إنّها فرصة جيّدة.

تذكّرت فجأة. الشّعار! إنّه الشّعار نفسه! كان ذلك شعار شركة والدها! نظرت إليه في شكّ، ولم ترد أن تصدّق. هل يكون والدها قد تورّط في خطّة خالها لتهريب أمواله؟ واجهته في صرامة وقالت:

- أبي، أخبرني بصراحة.. ما علاقتك بما كان يفعله فراس في سويسرا؟

تنهّد نجيب، ثمّ عاود الجلوس على الأريكة، بينما وقفت ليلى قبالته في تحفّز واستمعت إلى شرحه:

- لقد كان من المفترض أن أكون شريك نبيل، في مشروعه الجديد بجينيف. كان يحتاج أصلا تجاريّا جاهزا، وقد كنت أملك واحدا. لذلك اقترح الشّراكة، وزواجك وفراس. لكن بعد أن فشلت الزّيجة وتداعى الوضع سريعا، جاء ياسين لزيارتي في الحبس، وصاغ اقتراحا جديدا.. أن أبيعه الأصل التّجاريّ بشكل نهائيّ.

- وهل فعلت؟

- نعم، لقد اتّصلت بالمحامي الذي كان موكّلا للتصرّف في غيابي،

وقد تمّت عمليّة البيع بعد وصول فراس إلى جينيف.

استردّت ليلى أنفاسها. هكذا أفضل. لو أنّ والدها كان شريكا لخالها في العمليّة، لا تدري أيّ خيبة كانت لتكون من نصيبها.

***

حين خرجت في اتّجاه الجريدة في الصّباح التالي، لم تفكّر في وضع الخاتم المزيّف في بنصرها. كانت الحاجة إليه قد انتفت. حاولت أن تستحضر بواعث السّعادة وهي تركب المترو مثل كلّ يوم، لكنّها بدت أكثر عبوسا من العادة. لم تكن حريّتها المستعادة كافية لتلقي ظلال المرح على يومها.

أمام البناية، كان فراس في انتظارها.

كشّرت في استياء. ما الذي يحاول فعله الآن؟ لكنّها شعرت بتحسّن غير متوقّع في مزاجها. تجاهلت وجوده وارتقت الدّرج حتّى الطّابق الثالث حيث مقرّ الجريدة. تبعها في صمت، ثمّ دخل البهو على إثرها. جلست إلى مكتبها دون أن تبدي اهتماما بحضوره، لكنّها سمعت صوته يخاطب الكاتبة:

- هل الأستاذ عبدالرّؤوف موجود؟

- لم يصل بعد.. تفضّل يمكنك انتظاره هنا.

أصغت إلى وقع خطواته وهو يتحرّك في اتّجاه مقاعد الانتظار، ثمّ ساد الصّمت من جديد. حين دخل العمّ صادق بطبق الإفطار رفعت عينيها ببطء لتلقي نظرة عابرة على مقاعد الانتظار. فوجئت بنظراته ثابتة عليها! أشاحت بوجهها بسرعة، وعادت إلى ملفّاتها دون

تركيز.

لم تكن السّاعة قد بلغت التّاسعة، حين قرّرت أنّ عليها الخروج. ازدردت ما تبقّى من قهوتها دفعة واحدة، وعبّأت إفطارها في الكيس الورقيّ مثل العادة، وانطلقت. كما توقّعت، وقف فراس على إثرها. مشت على رصيف شارع باريس، بنسقها المعتاد في اتّجاه خيمات الاعتصام أمام المسرح البلديّ. ومشى فراس خلفها على بعد خطوات دون أن يقول شيئا.

حين أصبحت على مشارف شارع الحبيب بورقيبة، استدارت في حدّة وهتفت:

ـ ما الذي تريده الآن؟

ـ ألا تريدين أن تسأليني شيئا؟ ما الذي فعلته خلال سنتين؟

ابتسمت في سخرية. باستثناء زواجه من سويسريّة؟ قالت في برود:

ـ لست مهتمّة!

قال في رجاء:

ـ أعلم أنّني أخطأت بحقّك، ولست أنكر! لذلك سأعمل على إصلاح كلّ شيء، حتّى أستحقّ عفوك!

زفرت في ضيق ثمّ استدارت لتعاود المشي في عصبيّة. حسنا.. كان عليه أن يدفع ثمن انتظارها، وهي تعرف كيف تجعله يفعل!

ما إن وصلت إلى موقع الاعتصام حتّى تحلّق حولها الشّبّان:

ـ أنت مبكّرة اليوم أستاذة ليلى!

ـ لديك موعد؟

أشار أحدهم إلى فراس الذي وقف جانبا، قريبا بشكل كافٍ ليستمع إلى كلّ ما يقال. غمزها ثالث وقال بلهجة ذات معنى:

ـ صاحب الخاتم؟

ـ أين الخاتم؟

كانوا قد انتبهوا إلى غياب الخاتم اليوم. علّق الأوّل:

ـ تشاجرتما؟

ـ هل أصبح المجال مفتوحا لي الآن؟

ـ اسكت أنت.. لست في مستوى الأستاذة ليلى! تزوّجيني أنا! صحيح أنّني عاطل عن العمل، لكنّني أحمل شهادة ماجستير!

ضحك الجميع رغم المرارة البادية، ولم تعلّق ليلى. قالت أخيرا في جدّيّة:

ـ كيف حال الإضراب؟

ـ لا تخافي.. نحن صامدون!

ـ لقد مرّت البعثة الطّبّيّة بعد ظهر الأمس.. شكرا لاهتمامك أستاذة!

هزّت رأسها وهي تستمع إلى خليط شكاواهم وتطميناتهم، ثمّ ألقت نظرة إلى داخل الخيمة. لم يكن أمين قد ظهر. التفتت إلى فراس وقالت بلهجة آمرة:

ـ اتبعني!

كانت حركتها مفاجئة، لكنّه انصاع دون تردّد. داخل الخيمة، كان أمين يلفّ نفسه بالملاءة ويولّيهما ظهره. خمّنت أنّه قد رأى فراس يقف خارجا. قالت ليلى في سخرية:

ـ تسألني إن كنت أريد أن أعرف ما الذي فعلته خلال سنتين؟ فهل اهتممت أنت بأن تعرف، ما الذي كان شقيقك الأصغر يفعله خلال هاتين السّنتين؟

عقـدت ذراعيهـا أمـام صدرهـا وهـي تشـير إلى الرّجـل المتكـوّر عـلى الأرض، محتميـا مـن نظراتهـا الصّارمـة، ونظـرات فـراس المصدومـة.

ـ أمين؟ هذا أنت؟!

قالت ليلى في اقتضاب:

ـ لديّ عمل ينتظرني.. أرني كيف ستصلح الأمور الآن!

ثمّ استدارت مغادرة، مخلّفة الأخوين وجها لظهر.

ما معنى رجوعك الآن يا فراس؟

لازمه السّؤال طيلة رحلة الطّائرة، إلى أن لامست قدماه أرض الوطن. لماذا انتظر سنتين حتّى اتّخذ هذا القرار؟ كان بإمكانه أن يتمهّل قليلا بعد.. حتّى يتمّ مراحل الخطّة التي رسمها ياسين، أو أن يرفض السّفر منذ البداية! لكنّ العودة الآن، بعد أن قطع نصف المسافة، ماذا تعني بالضّبط؟

لم تكن هناك إجابات كثيرة. كان صبره قد نفد. ذلك النّوع من الحياة، لم يعد يطيقه!

فكّر وهو يجلس في قاعة الرّكوب مترقّبا إقلاع الطّائرة.. ألم يكن بمقدوره أن يتّخذ ذلك الموقف منذ سنتين، ويرفض السّفر؟ لماذا رضي بضياع سنتين إضافيّتين من عمره هباءً؟ لقد كان من اليسير أن يقتنع في ذلك الوقت بمعاني الوفاء والتّضحية والعائلة.. لكن منذ أصبح الرّحيل وشيكا، بدأ إحساس مقيت ينمو داخله بأنّ تضحيته بلا معنى!

لقد ظنّ أنّ نبل نيّته سيشعره بالارتياح.. وأنّه سيكون قادرا على الصّبر والتحمّل. لكنّه غرق في مستنقع النّدم قبل أن يسافر حتّى.. منذ وضع توقيعه على عقد الزّواج البغيض ذاك! لقد عرف أنّ انصياعه لتعليمات ياسين كان خطأ منذ البداية. واستمرّ يجترّ الألم والخيبة كلّ يوم، حتّى اتّخذ قراره بالعودة.

حين ظهر أمام ياسين، في شقّته الجديدة، مساء اليوم الثاني لرجوعه، قرأ علامات الصّدمة في ملامح أخيه:

ـ فراس! ما الذي جاء بك؟

عاتبته منال وهي تشير إلى الصّالة:

ـ رحّب بالرّجل أوّلا، يا لبرودك! اعذرنا يا فراس، تفضّل أرجوك!

جلس على الأريكة في صمت، بينما حاصرته نظرات ياسين في إصرار:

ـ هل حصل شيء؟ هل أمور الشّركة بخير؟

الشّركة؟ هذا كلّ ما يهمّ ياسين. ألم يخطر بباله لحظة واحدة أنّ أخاه ليس بخير؟ أنا لست بخير يا ياسين، ولم أكن بخير يوما واحدا منذ غادرتكم. ابتسم فراس في تهكّم وقال بلهجة مرّة:

ـ لا تخف.. كلّ شيء على ما يرام!

ـ إذن.. ماذا تفعل هنا؟

ـ لقد قرّرت العودة.. الدّور عليك الآن!

ـ ماذا؟ ماذا تقصد؟

ـ لقد فعلت ما طُلب مني.. واتّبعت التّعليمات حرفيّا. رتّبت أمور الشّركة في سويسرا وتواصلت مع العملاء والمزوّدين والمصانع.. أنت تعلم أفضل منّي كيف هو نشاط الشّركة.. التقارير تصلك أوّلا بأوّل!

ـ أعلم طبعا.. لقد قمت بعمل جيّد.. لكن...

ـ لكنّني تعبت! تعبت من كوني أعيش حياة بديلة!

أطلق ياسين ضحكة عصبيّة:

ـ تعبت؟ وهل هناك من يتعب من سويسرا؟ هل جننت؟ نحن كلّنا شبه مساجين هنا، نتحرّك خفية خوفا من الرّقابة! وأنت تصول وتجول في جينيف برفقة سويسريّة حسناء، وتقول أنّك تعبت؟ دعنا نتبادل الأدوار يا أخي!

رمقته منال بنظرة حارقة، في حين قال فراس بلهجة عدائيّة:

ـ هـل هـذا مـا أخـبرت بـه ليـلى؟ أنّـني أصـول وأجـول برفقـة سـويسريّة حسـناء؟

رفع ياسين كفّيه في حيرة وقال متضاحكا:

ـ متى دخلت ليلى على الخطّ؟ اعذرني، لقد اختلط الأمر عليّ!

أمام صمت فراس، هتف ياسين في شكّ:

ـ هل هناك شيء بينك وبين ليلى؟

ـ بفضلك.. لم يعد هناك!

ضرب ياسين كفّا بكفّ، ثمّ التفت إلى منال:

ـ هل كنت تعرفين شيئا عن هذا؟

هزّت منال رأسها في حيرة، وأردف ياسين:

ـ لـو أنّـني كنـت أعلـم منـذ البدايـة.. لاجتهـدت في إقنـاع ليـلى! تعـرف أنّهـا كانـت الخيـار الأوّل.. ابنـة عمّتنـا أولى مـن الأجنبيّـة! لكنّـك اقترحـت بقاءهـا خـارج الصّفقـة! ألـم تفعـل؟

هتف فراس في انفعال:

ـ لأنّني لم أرد تلويثها.. يكفي أن أتلوّث وحدي في هذه الصّفقة!

ـ الآن أصبحت شركة والدك مصدر تلوّث؟!

ارتفعت أصوات الأخوين واحتدّت، فتدخّلت منال مهدّئة:

ـ أخفضا صوتيكما.. رانيا نائمة بالدّاخل!

أشـاح فـراس بوجهـه في اتّجـاه النّافـذة دون أن يفارقـه التجهّـم، في حـين أطـرق ياسـين وكفّـاه يحتضنـان رأسـه، ثـمّ سـأل فجـأة:

ـ أين زوجتك؟

أجاب فراس دون أن يلتفت إليه:

- طلّقتها.

- هل جننت؟ لم يبق إلّا القليل لتحصل على الجنسيّة!

- لا أريـد الجنسيّة.. الإقامـة تفـي بالغـرض.. كمـا أنّـني لـم أعـد أحتمـل البقـاء هنـاك. دورك لتسـتلم مقاليـد العمـل!

- ألا تعلـم؟ العيـون كلّهـا علينـا! لا يمكنـني اسـتئناف نشـاط الشّركـة بشـكل رسـميّ! سـيقولون مـن أيـن لـك هـذا؟ وسـنتعرّض للمحاسـبة مـن جديـد!

- لا تبالـغ. لقـد مـرّت سـنتان الآن، ولـم يعـد أحـد في السّـوق يعـرف مـن هـو نبيـل القاسـمي.. كمـا أنّ اسـم الشّركـة قـد تغيّر ومقرّهـا في جينيـف. يمكنـك أن تقـدّم عقـد وكالـة مـع شريـك أجنـبيّ، أو.. تـصرّف يـا أخـي! أعلـم أنّـك أوسـع حيلـة مـني ولـن تعـدم الأفـكار إن أنـت أردت أن تفعـل!

زفـر ياسـين في تسـليم. لـم يكـن هنـاك مـن سـبيل لإقنـاع فـراس بالعـدول عـن قـراره. كان قـد وصـل إلى طريـق مسـدود. قـال في اهتمـام:

- من سيكون صلتنا هناك؟

- دانيـال.. إنّـه أهـل للثّقـة. وإن لـم يقنعـك أداؤه يمكنـك أن تـوكّل مـن تـراه مناسـبا. أنـت لسـت ممنوعـا مـن السّـفر، ويمكنـك أن تحصـل عـلى تأشـيرة بسـهولة بعـد توقيـع عقـد الشّراكـة الـذي في حـوزتي!

ثمّ أشار إلى حقيبة أوراقه. ابتسم ياسين ساخرا:

- أرى أنّك قد فكّرت في كلّ شيء يا أخي العزيز!

رمقه فراس بنظرة حادّة، ثمّ قال متهكّما:

- بمناسبة الأخوّة، أين أمين؟

- أمين؟ لا تسألني عنه! إنّه مختف منذ آخر مرّة.. في القصر!

- مختف؟ كيف ذلك.. وقد رأيته صباح اليوم؟

ـ رأيته؟ أين؟ كيف وجدته؟ نحن نبحث عنه منذ سنتين!

ـ تبحث؟ لا شكّ في ذلك!

وقف فراس، أخرج العقود من حقيبته وألقى بها على المنضدة.

ـ إلى أين؟ لم ننه حديثنا بعد!

ـ أنا متعب. أريد بعض الرّاحة.

ـ طيّب.. ألا تبيت عندنا؟

ـ سأبيت في المكتب.. إنّه مريح كفاية!

***

سار ببطء على الرّصيف، بعد أن هبط الظّلام على العاصمة. كانت السّاعة قد ناهزت السّابعة مساءً، والحركة مستمرّة في الشّارع. يتناهى إليه صوت أبواق السيّارات المستعجلة وأزيز العجلات المراوغة في الزّحام، وضجيج المقاهي المتخمة بروّاد الشّيشة والورق، وصرخات مشجّعي «دربي العاصمة» الصّاخبة.. وروائح المحروقات وسندويتشات الشاورما والكفتاجي، وأكوام الزّبالة التي لم تُرفع منذ أيّام.. فيتأكّد إحساسه بأنّه ليس يحلم. هذه هي معالم الوطن التي يألفها!

ها أنّك قد رجعت، فماذا بعد؟ لقد ضاع كلّ شيء في غيابك! ضاعت الأخوّة، ضاعت ليلى، وضاع احترامك لنفسك!

شعر بغصّة في حلقه. هل يستسلم الآن؟ لديه الكثير ليهتمّ به، لكنّ طاقته نافدة. لقد كانت لقاءاته منذ الأمس مخيّبة! زار والده في السّجن، وتحدّث إلى ظهر أمين المتجاهل، وتشاجر مع ياسين الغارق

حتّى النّخاع في أمور العمل.. واستقبلته ليلى بالنّفور والبرود. ماذا كان يتوقّع؟ جرعة من الطمأنينة، قليلا من الدّفء والاحتواء، لمسة حنيّة وشوق! هل هذا كثير؟ لكنّه قد عاد مثل غريب غير مرغوب. لم يكن أحد بانتظاره!

بلى، ليلى كانت تنتظره! لكنّها لم تعد تفعل.

تذكّر كلمات طرقت مسامعه عند خيمة الاعتصام، جعلته يحبس أنفاسه ويصغي في انتباه شديد. لقد كانت تضع خاتما! ابتسم لذلك الخاطر، وراوده بعض الارتياح. لقد كانت تعلن ارتباطها به! كانت تلك الفكرة كافية لتهوّن عليه خيبته الثّقيلة. لم تعد تفعل، لكنّها فعلت طيلة سنتين. حتّى لو كان ذلك على وجه الخطأ، حتّى لو كان نتيجة التباسها في هويّتها، فقد فعلت! لم يكن هناك شيء يجبرها على أن تفعل. لقد أرادت ذلك. وهذا يُسعده ويُحرقه في آن!

كان عليه أن يضع خاتما في يدها قبل رحيله! لقد كان عليه أن يفعل! أن يصارحها بما يشعر به، ويأخذ منها عهدا بأن تنتظر. أو يستميت في إقناعها بأن ترافقه. لكنّه كان أكثر جبنا من أن يفعل. لقد فضّل أن يحتفظ بالأمل، حتّى لو كانت النتيجة وهما.

أخذ هاتفه يهتزّ فجأة في جيب سترته. طالع الرّقم الغريب في حيرة. كان خطّا حديثا قد حصل عليه بالأمس في المطار إبّان وصوله. ولم يكن قد شاركه الكثيرون.

- ألو؟

- فراس؟ هل يمكنك المجيء غدا إلى مقرّ الجريدة؟

كان صوتها! هي ولا أحد غيرها! كان قد أعطى الرّقم لنجيب في زيارة الأمس. هل طلبت منه الرّقم؟ هل عدلت عن جفائها؟ وتطلب منه المجيء؟

ـ أنا قريب من الشّقّة الآن.. هل تحتاجين شيئا؟

لـم يسـتطع أن يخفـي لهفتـه. لمـاذا الانتظـار إلى الغـد؟ بوسـعه الذّهـاب الآن حـالا!

ـ جوازات سفري!

ـ ماذا؟

ـ هل مازالت بحوزتك؟

تسـأل إن كانـت جـوازات سـفرها بحوزتـه؟ وأيـن يمكـن أن تكـون؟ إنّـه يحتفـظ بهـا مـع أوراقـه الشـخصيّة عـلى الـدّوام. نـسي أن يردّهـا قبـل سـفره، وسرّه أن يحتفـظ منهـا بذكـرى.. مهمـا كانـت! لكنّـه لـم يفكّـر أنّهـا قـد تطلبهـا يومـا. لقـد مـرّت سـنتان. كان بوسـعها أن تُسـجّل محـضر ضيـاع، وتُصـدر أخـرى منـذ زمـن!

ـ طبعا.. سأحضرها.

ليـلى.. لمـاذا الغضـب؟ ألـم تكـن ردود أفعالهـا مبالغـا فيهـا منـذ رؤيتـه؟ لقـد بـدت عصبيّـة ومزاجيّـة للغايـة، في حـين أنّـه لـم يكـن هنـاك مـا يسـتحقّ. لقـد رحـل، ثـمّ عـاد.. مثلمـا يفعـل الآخـرون. لـم تكـن هنـاك علاقـة مـن أيّ نـوع بينهمـا في أيّ وقـت مـن الأوقـات.. عـدا كونـه ابـن خالهـا طبعـا! ألـم تكـن عـلى وشـك الارتبـاط بمأمـون حـين عرفتـه، ولـم تنتـه علاقتهـا بـه إلّا بسـبب سـوء الفهـم الـذي وقعـت فيـه؟ حـتّى أنّهـا ردّ فعلهـا إزاء زواج مأمـون لـم يكـن ينطـوي عـلى أدنى حـدّة أو وجـع. حـين اتّصلـت سـحر تعلمهـا الصّيـف المـاضي، هنّأتهـا دون تـردّد. لـم

تكن مجروحة أو تعيسة. لقد مضى كلّ منهما في سبيله، وانتهى الأمر.. مهما بدا ذلك قاسيا للوهلة الأولى. فلماذا لا تواجه فراس بنفس البساطة؟

لقد حسبت نفسها حنان لبعض الوقت.. لسنتين ونصف إن أرادت الدّقّة. وكان هذا خطأها وحدها.. وقد كيّفت نفسها في تلك الفترة، وقرّرت تقبّل وجود رجل في حياتها. نعم هو ذاك.. مجرّد تكيّف! والآن ما عليها إلّا أن تكيّف نفسها على العكس. سيعود رجلا غريبا.. بدون ضيق أو انفعال.

لقد استشاطت غضبا حين عرفت بزواجه. لكنّ ذلك أمر طبيعيّ. حتّى أكثر الزّوجات تعاسة كانت لتشعر بالخيانة إذا ما تزوّج زوجها عليها! لقد تقمّصت دور الزّوجة، هذا كلّ ما في الأمر! لقد عاشت دور الزّوجة المتروكة والمعلّقة. وهو إحساس فظيع ومرّ. لكنّها الآن قد تحرّرت من الوهم.. وعليها أن تتحرّر أيضا من كلّ الأحاسيس الجانبيّة التّابعة.

أخذت نفسا عميقا وهي تفتح باب الشّقّة. كانت السّاعة تشير إلى السّابعة والنّصف مساءً. اتّصلت به منذ نصف ساعة فقط، وها هو قد وصل. رسمت على شفتيها ابتسامة هادئة. إنّها تستقبل ضيفا، وعليها أن تكون طبيعيّة ومسترخية. هكذا يُستقبل الأغراب من الضّيوف. لا انفعالات مبالغ فيها.

ـ تفضّل أرجوك.. أعتذر على الاتّصال المفاجئ.. وعلى تعبك.

بدت على ملامحه الصّدمة، لاستقبالها غير المتوقّع. كيف تكون قد تحوّلت مائة وثمانين درجة منذ الصّباح؟

تبعها إلى غرفة المعيشة، حيث كان نجيب يتابع مباراة رياضيّة.

ـ سأحضّر القهوة.

انسحبت بسرعة إلى المطبخ. هنّأت نفسها وهي تضع الماء على النّار. لقد كانت هادئة وأداؤها مقنعا. بإمكانها أن تعيد كلّ شيء إلى نصابه. غالبت أحاسيسها المشوّشة، وابتلعت غصّتها. ستتعوّد مع الوقت. لن يثير فيها حضوره أو غيابه أيّ نوع من المشاعر بعد الآن. كوني قويّة يا ليلى. كلّ هذا سيمرّ.

عادت إلى غرفة المعيشة، وضعت الصّينيّة على المائدة المنخفضة، وتعلّقت نظراتها بشاشة التّلفاز. سمعت والدها يقول في إصرار:

ـ يجب أن تبقى للعشاء معنا اليوم! ليلى أعدّت السّلطة بنفسها!

أطلق نجيب ضحكة قصيرة ثمّ قال مشاغبا:

ـ ليس من السّهل أن تتذوّق شيئا من صنع يديها! أنت لا تعلم كم تُغرق نفسها بالعمل.. حتّى أنّ دخولها المطبخ مناسبة تستحقّ الاحتفال!

احمرّ وجهها في خجل وهمّت بالاعتراض، لكنّها تمالكت نفسها. لمحت الابتسامة على شفتيه ونظرته الحائرة. إنّه ينتظر دعوة منها. صمتها سيعني استمرار غضبها، والدّعوة نوع من الكياسة واللّباقة.. تجاه الضّيف الغريب. اعترفي يا ليلى، أنت ترغبين في بقائه لشيء في نفسك. تتذرّعين باللاّمبالاة والنّسيان، لكنّ رؤيته لدقائق أطول تشعرك بالرّضا!

استمرّ صمتها أكثر من اللاّزم، فوصل تردّدها إلى فراس. قال معتذرا:

ـ مرّة أخرى ربّما.. لقد تناولت الغداء في وقت متأخّر، ولا أشعر بالجوع!

ثمّ أخرج ظرفا من حقيبة أوراقه، ووضعه على المائدة.

ـ لقد جئت لتسليم هذا.. لا غير.

ـ شكرا لعنائك!

هـذه المرّة، لـم تقـم لترافقـه حـتّى البـاب. تناولـت الظّـرف، ودخلـت غرفتهـا. تفقّـدت الجـوازات ووضعتهـا في مكانهـا في درج المنضـدة، ثـمّ بقيـت هنـاك. أتاهـا صوتـه مـن وراء البـاب المغلـق، يتبـادل عبـارات الشّـكر والتحيّـة مـع والدهـا. ثـمّ صـوت بـاب الشّـقّة وهـو يوصـد، وخطـوات نجيـب وهـو يعـود أدراجـه وحيـدا. تنهّـدت. لقـد رحـل أخـيرا.

ـ ليلى.. أنت هنا؟

كان والدها يقرع باب غرفتها. فتحت في ارتباك.

ـ سأضع العشاء حالا!

ـ اهدئي.. لست مستعجلا على العشاء.

كان يطالعهـا بذلـك النّـوع مـن النّظـرات الـذي يجيـده الآبـاء، فتسـبر الأغـوار وتقـرأ الأفـكار. جلسـا عـلى طـرف سريرهـا، ثـمّ قـال بلهجة جـادّة:

ـ ما الذي جاء فراس من أجله؟

قالت في حرج:

ـ جوازات سفري.

ـ حسنا.. هل لي أن أسأل، كيف وصلت جوازات سفرك عنده؟

ـ كان ذلـك منـذ زمـن بعيـد.. حـين كنـتّ في السّـجن. حصـل موقـف مـا.. واضطـررت إلى إيداعهـا عنده.

رمقها بنظرة طويلة، ثمّ تنهّد.

ـ ليلى، اصدقيني القول.. ما الذي بينك وبين فراس؟

هزّت رأسها بقوّة وإصرار:

ـ لا شيء! صدّقني لا شيء!

- إذن ما الذي يشغلك؟ لا تحسبي أنّ همومك تخفى عليّ!

- السّفر! أريد السّفر.. في أقرب وقت!

قالـت ذلـك، وعانقتـه بشـدّة وقـد ارتفعـت شـهقاتها. أخـذ نجيـب يربّـت عـلى ذراعهـا في حـيرة. ليتـه يـدري مـا الـذي يشـقيها!

- فلتسافري يا ابنتي.. فلتسافري إن كان في ذلك راحتك!

للأسبوع الماضي عنوان واحد: السّفر!

شـغلت يومهـا كامـلا بالتّجهـيزات لرحلتهـا المرتقبـة. معامـلات إداريّـة، اسـتخراج وثائـق وتسـوّق. كانـت تمـضي القليـل مـن الوقـت في مقـرّ الجريـدة، والكثـير منـه في المصالـح الحكوميّـة ومحـلّات الملابـس الشّـتوية، بعـد أن تفهّـم الأسـتاذ عبدالـرّؤوف ظروفهـا وأمـر بتوزيـع مهامهـا عـلى زملائهـا.

كانـت فكـرة السّـفر نفسـها مفاجئـة، واسـتعجالها السّـفر خـلال عـشرة أيّـام فقـط مـن وصـول الدّعـوة جعـل أيّامهـا ماراثونـا مسـتمرّا، لترتيـب كلّ شيء في أجـل قصـير. يـوم الأحـد، كانـت حقيبتهـا جاهـزة، ووثائقهـا كاملـة. لكـنّ قلبهـا متعـب ومختنـق.

بعـد الظّهـر، ذهبـت لزيـارة منـال مودّعـة. لـم يكـن ياسـين هنـاك. مـا إن دخلـت، حـتّى أمسـكت منـال بذراعهـا وهتفـت في عتـاب:

- هل تعلمين؟ لقد حسبتنا صديقتين! لكنّني آخر من يعلم!

ابتسمت ليلى في حرج:

- لقـد جـاء قـرار السّـفر فجـأة.. وقـد كنـت مشـغولة بالتحضـيرات طيلـة الأسبوع.

تغيّرت قسمات منال إلى الدّهشة:

- تسافرين؟! إلى أين؟ ولماذا؟

- هامبورغ، ألمانيا.. من أجل بحث أكاديمي!

رمقتها منال في صمت ثمّ قالت:

ـ لماذا الآن؟ فراس عاد منذ أسبوع واحد.. والآن تسافرين أنت؟

ـ لقد أخبرتك.. جاءت الدّعوة بشكل مفاجئ.

ضايقها ذكر فراس، فسارعت تقول مغيّرة الموضوع:

ـ إن لم تكوني على علم بموضوع السّفر.. فعلام العتاب إذن؟

ـ أنت لم تخبريني.. أنّ هناك شيئا بينك وبين فراس!

ضحكت ليلى في عصبيّة. لم يكن هناك مفرّ من سيرته!

ـ لم يكن هناك شيء لأخبرك عنه.. صدّقيني!

لكنّ نظرات منال كانت مليئة بالشّك.

ـ لقد كان فراس هنا منذ أسبوع.. تشاجر مع ياسين، ولم نره منذ ذلك الوقت.. كان يلومه، لأنّ الزّواج الصّوريّ كان من تدبيره.. ولأنّ ذلك أفسد علاقتكما!

شحب وجه ليلى وازدردت لعابها بصعوبة. زواج صوريّ؟ لم يذكر أحد ذلك التّوصيف أمامها من قبل. ولا حتّى فراس نفسه. تذكّري يا ليلى، أنت رفضت الاستماع إليه! لحظة واحدة.. هذا لا يعني شيئا في مطلق الأحوال! كان ذلك ليخفّف من غضب حنان، الزّوجة المكلومة.. لكنّه لا يمثّل شيئا في نظر ليلى! ركّزي!

قالت في برود:

ـ ما كان بيني وبين فراس.. مجرّد سوء فهم!

ـ سوء فهم؟!

ضحكت منال في عدم تصديق، ثمّ أردفت بجدّيّة:

ـ ربّما كان سوء فهم من ناحيتك.. لكنّني أعرف فراس جيّدا. إنّه جادّ تماما بشأنك!

قالت ليلى في ضيق:

ـ أرجوك، هلّا انتهينا من هذا الموضوع؟ سأسافر مساء الغد.. هل نسيت ؟

تنهّدت منال في استسلام، ثم قالت في استياء:

ـ سفرك بهذه السّرعة، يسمّى هروبا!

ابتسمت ليلى في وهن. ربّما هو كذلك. قالت دون اكتراث:

ـ سمّه ما شئت!

ـ متى تعودين؟

ـ ربّما خلال ستّة أشهر.

ـ أرسلي رقمك إليّ.. لا تنسي!

همّت أن توصيها، بألّا تعطي الرّقم لأحد.. ثمّ عدلت. لا يهمّ لو أنّها أعطت أو لم تعط. لا يهمّ إن اتّصل أو لم يتّصل. أو لعلّها تترك باب الأمل مفتوحا؟ إنّها لا تعرف بعد ماذا تريد بالضّبط. مازالت مشاعرها تتأرجح، في نسق غير مضبوط. سينتهي كلّ هذا قريبا.. خلال شهور قليلة ستكون قد نسيت كلّ شيء عن إرث حنان المشؤوم.. وستقول نفسها المطمئنّة حين تغمرها السّكينة من جديد: ألم أقل لك؟

كان عليها أن تودّع الجدّة أيضا. كانت لا تزال تعاتبها رغم مرور سنتين، على رفضها الإقامة معها. وهذا الخبر الجديد بالسّفر، لم يكن نبأ سعيدا البتّة. رمقتها بنظرة جانبيّة وهي تنهمك في حياكة الصوف التي أدمنتها منذ أقعدها الرّوماتيزم عن مشاويرها الخارجيّة، وقالت لائمة:

ـ تتغرّبين مرّة أخرى؟ وما هو الخير في هذه الغربة حتّى تغريك بتكرار التّجربة؟

قالت ليلى مترفّقة:

- هـذه التّجربـة مفيـدة لمسيرتي المهنيّـة.. وربّمـا تتيـح فرصـة الحصول عـلى شـهادة في الدّراسـات العليا.

ارتفع صوت الحاجّة فريدة غاضبا:

- شـهادة أخـرى! مـا تصنعـين بهـا؟! أليـس مـا حصّلتـه مـن الدّراسـة كافيـا؟! مـا يلزمـك الآن هـو زوج وأطفـال.. وليـس شـهادة!

ابتسـمت في وهـن. حـتّى أنـت يـا جـدّتي؟ لقـد تآمـر الجميـع عليهـا، هـذا مؤكّـد.

توقّفـت عنـد خيمـة المعتصمـين في آخـر زيـارة لهـا لمقـرّ الجريـدة. حدجهـا أمـين بنظـرة طويلـة، وهـي تعلـن رحيلهـا المزمـع، ثـمّ قـال بلهجـة حـادّة:

ـ أنت تهربين، من جديد!

ـ من جديد؟

لـم تسـتنكر الهـرب، فهـي تـدرك أنّهـا تفعـل. لكـن مـتى كان هربهـا الأوّل؟

ـ لقـد فـررت أوّلا إلى مـلاذ «الالـتزام الدّيـني»! وهـذا سـلوك معـروف في علـم النّفـس، الارتمـاء في أحضـان الرّوحانيّـات، والاحتمـاء بالغيبيّـات، لاسـتعادة الاطمئنـان وتمويـه الأزمـات! هـذه خطّـة دفـاع قديمـة، قـدم النّفـس البشريّـة، وقـدم الأديـان الوضعيّـة والسّـماويّة.. لكـن يبـدو أنّهـا لا تـزال فعّالـة في عصرنـا الحديـث أيضـا.

ابتسمت في سخرية وقالت:

ـ تبدو ملمّا بالموضوع!

ـ أكـثر ممّـا تتصوّريـن! لكـنّ الهـروب السّـابق لـم يكفـك. هـا هـي قطعة

القماش ما زالت على رأسك، ومع ذلك تمعنين في الفرار. وهذا يعني شيئا واحدا.. أنّ مصدر الخطر قد صار أقرب!

تحزر ما يدور في خلد أمين الآن. لم ينس مطلقا شكوكه السّابقة بشأن علاقتها بفراس. ولقد كان محقّا في تخمينه، مرّتين. لكن هيهات أن تعترف. قالت منكرة:

ـ كفاك فلسفة فارغة، وافعل شيئا ينفع.. حين أعود، يجب أن تكون قد صنعت شيئا ذا فائدة لنفسك. هل تعدني؟

دفن أمين رأسه متأفّفا تحت الغطاء:

ـ ألن ننتهي من هذا الحديث؟ حسنا، حسنا، عمّتي ليلى! سأكون ولدا مطيعا!

ابتسمت وهي تمشي مبتعدة. لماذا تشعر بمسؤوليّتها تجاه ذلك الولد الذي يكبرها بسنة كاملة!

***

في الصّباح التّالي، تلقّت اتّصالا من زبيدة. كانت قد أوصتها بأن تبلّغها بكلّ ما يستجدّ بشأن الاعتصام. لكنّها لم تكن تتوقّع أن تتطوّر الأمور بتلك السّرعة. لقد فضّت قوات الأمن الاعتصام بالقوّة! أزيلت الخيام التي انتصبت على السّاحة لأكثر من شهرين، وضُرب المعتصمون بالهراوات لإجبارهم على مغادرة المكان.

هرعت إلى شارع الحبيب بورقيبة على الفور. لم تفكّر في تغطية الحدث كصحفيّة، بل شعرت أنّ المعتصمين بحاجة إلى مواساتها. لقد قرأت على وجوههم الخيبة بالأمس وهي تودّعهم. لا شكّ أنّهم قد

شعروا بالخذلان. واليوم، تدخّل الشّرطة لطردهم قد يكون القطرة المشؤومة التي تفيض كأس يأسهم المترعة أصلا. ما الذي يفعله أحدهم بعد أن تسدّ كلّ الطّرق في وجهه.. بعد تقديم المطالب للوزارات والتّظاهر ثمّ الاعتصام والإضراب عن الطّعام؟

حين وصلت إلى الشّارع، تراءى لها الجواب أمام عينيها.

كان المارّة يتجمّعون قرب مبنى المسرح، ورؤوسهم متّجهة إلى أعلى، تطالع عيونهم مشهدا سرياليّا لشابّ يتسلّق عامود الكهرباء. حثّت ليلى الخطى وقد تملّكها الفزع. اقتربت حتّى تبيّنت ملامح الشّاب. لقد كان شكّها في محلّه. إنّه منتصر! واحد من شباب الاعتصام. يمكنها أن تميّز جذعه النّحيل ووجنتيه الغائرتين، بفعل أسابيع متّصلة من الإضراب عن الطّعام، وتلك الثّياب الرّثّة السّوداء التي لم يغيّرها منذ شهرين، علامة حداد واحتجاج.

تذكر بوضوح كلماته المحرجة وهو يحدّثها عن وضعيّته، وأسلوبه المطعّم بمزاح أسود، متوائم مع سوداويّة مزاجه. كان أصيل ولاية «القصرين»، واحدة من المناطق التي هُمّشت طويلا على مرّ العقود الماضية، وكانت أولى الانتفاضات الثوريـة، بعد سيدي بوزيد، قد اندلعت في ربوعها. منتصر ليس مختلفا كثيرا عن أقرانه، ثلاثينيّ صاحب شهادة جامعيّة، ومعطّل عن العمل. كان المعيل الوحيد لعائلته المكوّنة من ثمانية أفراد، بعد أن أقعد حادث شغل والده. لكنّ محاولاته المتكرّرة للتّوظيف في تخصّصه باءت بالفشل. وبعد سنوات من العمل في المقاهي والحظائر، انتفض على وضعه وقرّر مطالبة الدّولة بتعويضات لوالده المقعد، وتعيين له في الوظيفة العموميّة.

الآن، تحدّق في هلع في منتصر الذي أنهى تسلّقه، وجلس على

قمّة العامود في تحدّ. عند قاعدة العامود، رجال أمن يبعدون المارّة ويحاولون إقناع الشّاب بالنّزول. هتفت بصوت عالٍ:

- منتصر.. ما الذي تفعله! انزل حالا!

استدارت نحوها عيون مستطلعة، ثمّ اقترب رجل أمن:

- هل تعرفين الشّاب؟ تعالي من هنا أرجوك.

تبعت الرّجل حتّى اقتربت من عامود الكهرباء. كانت مضطربة ومرتبكة، لكنّها لن تسمح للشّابّ بإنهاء حياته أمام عينيها دون أن تحرّك ساكنا. عليها أن تحاول على الأقلّ. استرجعت ما تعلّمته من فنون التّفاوض. يمكنها أن تجرّب طمأنته، تحفيزه أو مخاطبة عواطفه. انتقت الخيار الأخير. لكنّها ظلّت ترتجف، وصورة مهتزّة ترتسم في رأسها، لحنان تقف على سطح مبنى الكليّة وتهدّد بإلقاء نفسها. صرخت ليصل صوتها إليه، في خضم الجلبة واللّغط المرتفعين:

- منتصر، هذا ليس حلا.. من لعائلتك من بعدك؟ أنت تفرّ الآن وتخلّفهم بلا عائل! هل هذا ما وعدت به أمّك؟ ألّا ترجع خالي الوفاض؟ تريد أن تهديها جثّة؟

لم يبد منتصر مهتمّا بكلماتها، لم تتحرّك عيناه باتّجاهها، ولم تبد على ملامحه علامات الاستماع إلى ما تقول. كان في عالمه المنفصل، كأنّه يؤدّي طقوسا خاصّة تستغرقه تماما. شاهدته يفلت كفّيه، وينتصب واقفا على رأس العامود في وضعيّة خطرة، ثمّ يمدّ بصره في اتّجاه الأفق، وبحركة مسرحيّة يلقي قبلة في الهواء إلى كيان مجهول وغير مرئيّ.. فجأة، ألقى بنفسه، لا إلى الأسفل، ولكن إلى الأمام، ليعانق جسده أسلاك الكهرباء المعلّقة، ذات التيّار العالي!

أمام عشرات المتفرّجين، اشتعلت النّار في جسد منتصر، مثل قطعة حطب لا شأن لها. تطاير الشّرر في الهواء، وتصاعد دخان

أسود مع احتراق قماش قميصه أوّلا، ثمّ انبعثت رائحة شواء كريهة. رأت ليلى الجسد الملتهب يتهاوى من ارتفاعه الشّاهق ويحطّ على الأسفلت، على بعد أمتار قليلة من موقفها. شهقت في لوعة، لتتزامن شهقتها مع شهقات كثيرة أخرى للوجوه التي كانت تراقب المشهد حتّى تلك اللّحظة، في فضول وشفقة. لم يقترب أحد. كان الكلّ متيقّنا أنّ الرّوح قد فارقت وعاءها لا محالة، إن لم يكن من الصّعقة الكهربائيّة، فمن السّقطة الحرّة. استمرّت النّيران تطقطق وتلتهم الجسد المسجّى بينما سرت همسات ضيق وتقزّز، حتّى اقترب رجل أمن ورمى فوق الجثّة بطانية أطفأت اللهب.

تناثرت العبرات على وجنتي ليلى في حسرة وغضب. كيف انتهى الأمر إلى هذه الحال؟ لقد كان نابضا بالحياة منذ أيّام، يرسل النّكات ويبتسم رغم كلّ شيء. لكنّه قد غدا اليوم أثرا بعد عين. تلفّتت، تساءلت أين يكون الآخرون.. أمين ومالك ورفاقهما؟ هل يتابعون المشهد من مسافة ما؟ هل كان أحدهم على علم بما نواه منتصر؟

انتبهت حين اقترب منها رجل الأمن:

- لو سمحت، هل يمكنك تأكيد هويّة المنتحر؟

أومأت وهي تلاحق رجل الأمن مرّة أخرى، بدون حماس. توقّفت بعد أن خطت خطوتين، وهتفت وهي تشير إلى جسد منتصر المحترق الّذي توارى تحت الغطاء:

- هل سيبقى هنا؟

هزّ الرّجل كتفيه في ضيق وقال:

- يجب أن يصل رجال الحماية المدنيّة أوّلا!

حطّت الطّائرة القادمة من تونس العاصمة في هامبورغ بعد الساعة السّادسة مساء بدقائق قليلة، ونزلت ليلى ووالدها مع ركّاب الدّرجة السّياحيّة. كانت آخر رحلة لهما معا، من أوروبا إلى تونس قد صارت ذكرى بعيدة ومثيرة للشّجن. لقد حصل الكثير منذ ذلك الوقت. أكثر ممّا كانت تأمل أو تتوقّع أو تتخيّل. خلال سنتين ونصف، أثقل رصيدها في الحياة بخبرات لا حدود لها.. ونضجت بشكل متسارع. واجهت سجن والدها وانهيار عائلة خالها، تزوّجت -في خيالها- وانفصلت، حملت ثقل جريمة قتل ودفعت ثمن توبة لا تعنيها، نزلت إلى الشّارع مع المتظاهرين ودافعت عن المعتصمين، وتصدّت لانتهاكات حقوق الإنسان! ليلى، هذه أنت.. هذه امرأة لا يعرفها الشقّ الأوروبيّ من هويّتك!

تلك رحلتها الأولى، دون جواز السّفر الدّيبلوماسيّ وفي غير درجة رجال الأعمال. تغيير يتناسق مع التحوّل في باطنها. هذه ليلى الكادحة التي تركب المواصلات العامّة، وتسير مسافات على قدميها كلّ يوم، بين مقرّ الجريدة والمحاكم والسّجون وخيام الاعتصام ومحطّات المترو والشّقة.

ضحكت طويلا وهي تستعرض مع نجيب الفروقات المذهلة بين حياتهما السّابقة في جينيف، والحياة الحاليّة في تونس. لم يكن أحدهما يتحسّر أو يشعر بالمرارة. لقد كانت محطّة السّجن تطهيريّة بالنّسبة إلى نجيب.. وكانت ليلى قد مرّت بما هو أقسى. لذلك، فقد كانت حياة الصّحفيّة الوديعة ورجل الأعمال المتقاعد تعتبر رخاءً

بعد شدّة.

كان المركز قد أعدّ من أجلها شقّة مفروشة في السّكن الجامعيّ، مكوّنة من غرفة نوم وصالة. قالت ليلى وهي تنهي جولتها الاستكشافيّة:

- الصّالة واسعة.. يمكننا تقسيمها إلى جزء خاصّ بالنّوم وآخر للمعيشة.

قاطعها نجيب في حسم:

- لا تتعبي نفسك.. مجيئي كان للاطمئنان عليك وحسب.. سأغادر خلال يومين.

رمقته في عبوس. لم يقتنع أبدا بالبقاء، رغم محاولتها استعطافه طيلة الرّحلة.

- ستكونين بخير؟

هزّت رأسها علامة النّفي، فأطلق ضحكة مرحة.

- لقد كنت على ما يرام أثناء سجني.. أعرف أنك ستبلين بلاء حسنا.

يوم الأربعاء، غادر نجيب عائدا إلى تونس، وانسجمت ليلى مع حياتها الجديدة.

كانت آخر الواصلين في البرنامج البحثيّ عن الثّورات العربيّة. كان هناك تونسيّة أخرى قد سبقتها بالانضمام، ومصريّان -رجل وامرأة- وسوريّ واحد.. بالإضافة إلى فريق متعدّد الاختصاصات من أوروبا وآسيا.

استقبلها مدير المركز وقال معتذرا:

- المشرف على رسالتك، البروفيسور باورمان Bauermann في إجازة..

لـم نحسـب أنّـك سـتصلين بهـذه السّرعـة!

ابتسمت في حرج. لقد شعر الجميع بلهفتها!

في يومها الأوّل، بادرتها سوسن -المصريّة- قائلة:

- البروفيسور باورمان لا يشرف على الإناث عادة، لأنّ صديقته غيورة!

ضحكـت ليـلى في سـخرية. هـذا مـا ينقصهـا! رجـاء أخـرى؟ وألمانيـة أيضـا؟ لكـنّ سوسـن أضافـت:

- كمـا أنّ انضمامـك في مثـل هـذا الوقـت مـن السّـنة أمـر غـير مألـوف! البحـوث تبـدأ عـادة في مطلـع السّـنة الدّراسـيّة.. وطلبـات القبـول والتّسـجيل تكـون جاهـزة منـذ الصّائفـة.. أنـت الوحيـدة في البرنامـج الـتي حصلـت عـلى دعـوة اسـميّة للمشـاركة، وهـذا يثـير الكثـير مـن التّسـاؤلات في المركـز!

لـم تبـد سوسـن مازحـة أبـدا. حـتّى أنّ ليـلى نفسـها قـد انتابهـا الشـكّ. لمـاذا وجّـه إليهـا البروفيسـور باورمـان الدّعـوة بشـكل خـاصّ؟ كانـت هناك احتمـالات معقولـة.. أن يكـون أحـد أسـاتذتها السّـابقين في جينيـف -وهـو أمـر لا تذكـره- أو أن يكـون صديقـا قديمـا لوالدهـا -وهـو أمـر مسـتغرب، لأنّ البروفيسـور باورمـان في نهايـة الثلاثينـات مـن عمـره، ولا يمكـن أن يكـون في دائـرة معـارف السّـفير السّـابق! كان أمـر دعوتهـا غامضـا ومحـيّرا.. والبروفيسـور لـم يعـد بعـد مـن إجازتـه.

استطردت سوسن مغيّرة الموضوع:

- هـذا لا يمنـع أنّـك وصلـت في الوقـت المناسـب! سـيبدأ الثلـج في التّسـاقط عـلى المناطـق الجبليّـة قريبـا، والمركـز ينظّـم رحلـة تزلّـج الشـهر المقبـل!

لـم تسـتطع منـع نفسـها مـن التعليـق في داخلهـا متهكّمـة. حقـوق الإنسـان والثّـورات العربيّـة، كانـت مواضيـع مناسـبة لرحلـة التّزلّـج في

المرتفعات الألمانيّة!

خلال يومين، كانت قد اجتمعت بكلّ المساهمين في الدّراسة، وجلست معهم في حلقات عمل للتعرّف على إصدارات كلّ منهم والظّروف التي أدّت به إلى الوصول إلى هذا المركز.

كانت التّونسيّة الأخرى نجاة، في منتصف الأربعينات، أستاذة جامعيّة في الفلسفة، تصارع طول النّهار خصلاتها اللّولبيّة الثّائرة وترفع نظارتها الطبيّة عن أنفها في لازمة لاإراديّة. زوجها معارض سياسيّ اشتراكيّ وسجين رأي، وكانت بدورها قد تعرّضت للحبس والتّعذيب في عهد النّظام السّابق. لم تكن قد غادرت تونس في ظلّ ديكتاتوريّة الرّئيس الواحد، لكنّها لم تحتمل البقاء يوما واحدا بعد أن فازت الأحزاب الإسلاميّة بأغلبيّة المقاعد في مجلس نوّاب الشّعب. صادف سفرها الإعلان عن مشروع الدّراسة، فتقدّمت هي وزوجها.. لكنّها قبلت وحدها، بعد أن اعتبر ماضي زوجها السّياسيّ عائقا أمام مساهمة موضوعيّة ومحايدة في الدّراسة.

وكان الشابّ السّوريّ نزار أصغر المشاركين عمرا، بسنواته الأربع والعشرين. مهاجر وصل بحرا في قارب متخم بالفارّين من سوريا المحترقة منذ سنة ونصف، بعد أن فقد أهله جميعا.. وحصل على منحة دراسيّة في بداية السّنة ليعدّ رسالة الماجستير. كانت شجاعته ومقدرته على البدء من جديد مثالا يحتذى بالنّسبة إلى ليلى.

أمّا صديقتها سوسن، المصريّة المفعمة بالحيويّة، فقد كانت في بداية الثلاثينات، رغم أنّها تبدو أصغر من سنّها بكثير. لا يظنّها الرّائي قد تجاوزت الخامسة والعشرين، رشيقة وقصيرة القامة، وترتدي ملابس رياضيّة عمليّة طول الوقت. كانت تلازمها منذ وصولها. تتأبّط ذراعها وتأخذها في جولات في الحرم الجامعيّ، تعرّفها إلى الأشخاص

والمبـاني والخدمـات. عرفـت ليـلى أنّهـا كانـت تعـاني وحـدة قاتلـة قبـل وصولهـا، نظـرا إلى التّركيبـة العمريّـة للباحثـين.

ولـم يكـن الباحـث المـصريّ الأخـير إلّا أكـبر المشـاركين سـنّا، وقـد بـدا الدّكتـور فـوزي رجـلا وقـورا عـلى مشـارف السّـتّين، لـه أربعـة أبنـاء متوزّعـون في أصقـاع الأرض مـن أجـل الدّراسـة والعمـل. فكّـرت ليـلى أنّ لوالدهـا فرصـة في القبـول أيضـا! لكـنّ نجيـب ضحـك مـن اقتراحهـا حـين فاتحتـه بالأمـر.

- دماغـي لـم يعـد قـادرا عـلى الدّراسـة والتّحليـل! لقـد أحلتـه عـلى التّقاعـد وانتهـى الأمـر!

سريعـا بعـد وصولهـا، انضمّـت ليـلى إلى الشّـلّة الشّـبابيّة في الفريـق، بزعامـة سوسـن. كانـت كثـيرا مـا تُـرى في الممـرّات متبوعـة بليـلى ونـزار، يتناولـون وجبـة الغـداء معـا ويثرثـرون في الاسـتراحات بلهجـات عربيّـة هجينـة، هـي خليـط مـن لهجاتهـم المحليّـة والعربيّـة الفصحـى، مطعّمـة بكلمـات إنجليزيـة.

بعد أسبوع، قالت سوسن حال دخولها المكتب:

- لقد رجع البروفيسور باورمان!

كانـت قدرتهـا عـلى تقـصّي الأخبـار مذهلـة بالنّسـبة إلى ليـلى. ولـم تخطـئ سوسـن، إذ دخـل البروفيسـور المكتـب في السّـاعة العـاشرة، واتّجـه نحوهـا مبـاشرة بابتسـامة عريضـة. كان ألمانيّـا صرفـا، بقامتـه الفارعـة وشـعره الأشـقر وعينيـه الزرقاويـن وبشرتـه البيضـاء الـتي تحمـرّ بسرعـة كلّمـا ضحـك.. وكثـيرا مـا كان يفعـل. فكّـرت ليـلى في سـخرية أنّـه ربّمـا يكـون رجـل أحـلام الكثـيرات في الجامعـة.. لـو أنّـه كان مسـلما، لربّمـا انضّمـت إلى فريـق المعجبـات!

تحـدّث بلهجـة وديّـة، وحـدّد موعـدا للاجتمـاع بهـا بعـد الظّهـر، ريثمـا

يكون قد راجع بعض الملفّات. عندي السّاعة الثّانية، حملت أوراقها وطرقت باب مكتبه. جلست على المقعد المقابل وهي تحدّق في دهشة في الفوضى المهولة التي تغرق فيها الغرفة. كانت الأوراق مكدّسة على سطح المكتب وعلى الرّفوف وعلى الأرض. أوراق وأوراق ومزيد من الأوراق! لم يكن بإمكانها أن تستوعب أنّ البروفيسور الثلاثيني ما زال يفضّل الورق على التّكنولوجيا الرّقميّة!

انتبه باورمان إلى نظرتها المستهجنة، فقال:

- أرى أنّك قد تعرّفت إلى مهمّتك الأولى.. تصنيف الدّراسات التي ترينها أمامك كلّها!

اتّسعت عيناها في فزع، فأطلق ضحكة صاخبة ثمّ قال مطمئنا:

- أمزح! كلّ شيء مرتّب كما هو الآن.. إيّاك أن تحرّكي ورقة من مكانها!

هزّت رأسها في صمت.

- قبل أن نبدأ العمل.. هل لديك تساؤلات معيّنة، عن المركز أو البرنامج؟

خمّنت ليلى أنّ خصلتين فيه تروقانها حتّى الآن.. المرح والعمليّة. يمكنها التّغاضي عن فوضويّته وطريقة عمله عتيقة الطّراز، فتلك سمة العباقرة. كانت قد فكّرت منذ أيّام في طريقة مناسبة لتسأل عمّا يحيّرها، دون أن تبدو وقحة. قالت في لباقة:

- لقد كانت الدّعوة مفاجأة لي.. وقد أردت أن أشكر المسؤول عنها بنفسي.

- العفو.. وصل امتنانك!

إذن فقد كان صاحب الدّعوة بالفعل! سألت بابتسامة:

- هل لي أن أعرف، كيف ولماذا وقع عليّ الاختيار؟

عقد ذراعيه أمام صدره وأخذ يحرّك كرسيّه الدوّار يمنة ويسرة وهو يقول:

- حسنا.. لم يكن الأمر بسيطا. الدّراسة طرحت من قبل قسم علم الاجتماع السّنة الماضية، وقد وصلتنا خلال فترة وجيزة طلبات انضمام كثيرة. بعد أن نظرنا في الترشّحات، حاولنا أن نراعي التنوّع في القبولات.. من حيث الشريحة العمريّة، التجربة البحثيّة، الاختصاصات، والخلفيّة السّياسيّة.. ثمّ أرسلنا دعوات لبعض المؤسّسات العلميّة والحقوقيّة لترشّح بدورها أسماء مناسبة.. ومن ضمنها رابطة حقوق الإنسان في تونس. كان اسمك قد ورد في قائمتها، مرفقا بالتقارير التي عملت عليها خلال نشاطك الحقوقيّ.. لقد كان عملك مميّزا، لكنّ ذلك لم يكن كافيا، فقد كان على القائمة أفراد لهم مساهمات بحثيّة أو ميدانيّة أكثر قيمة. كانت سيرتك الشّخصيّة هي العامل الحاسم!

امتقع وجه ليلى. سيرتها الشّخصيّة؟ ما الذي يعنيه؟

- تونسيّة سويسريّة، عشت طيلة عمرك في أوروبا، ثمّ رجعت بعد الثّورة.. ليس لأنّك من الفئة المضطهدة أو ممّن يحملون خلفيّة سياسيّة مناهضة للنظام السّابق، لا! أنت ابنة سفير سابق، بل أكثر.. إنّ والدك ممّن طالتهم المحاسبة بتهمة الفساد! ما الذي يجعل شخصا مثلك ينخرط في المنظومة الحقوقيّة ويشارك بشكل فعّال في تدوير عجلة الثّورة؟ هذا شيء مذهل في نظري.. وأنا أحييك بشدّة!

التهبت وجنتاها حرجا. إنّه يعرف عنها كلّ هذا! ذلك المذهل بالنّسبة إليها. لو أنّه يدرك أنّ ثوريّتها الحديثة ما هي إلّا نتاج أزمات

شخصيّة لم تجد لها متنفّسا! عدّت نفسها محظوظة لأنّ تحرّياته لم تصل إلى تلك الدّرجة من العمق.

- ثمّ أخيرا، وهي نقطة لا تقلّ أهميّة.. أنت تجيدين اللّغة الألمانيّة! وهذا مريح لي بشكل خاصّ!

الألمانيّة! هي نفسها لم تكن تدرك إتقانها للّغة قبل أن يصلها خطاب المركز! فكّرت، من أين استقى معلوماته؟ سيرة ذاتيّة قديمة؟ سجلّها الدّراسيّ؟

استطرد باورمان:

- دعينا نبدأ بتجربة صغيرة.. معظم الباحثين الأجانب في المركز لا يتكلّمون الألمانيّة.. ما عدا أولئك الذين يحضّرون لرسالة الماجستير، فإنّهم يأخذون دروس لغة.. لذلك فاللغة الرّسميّة للتواصل في المركز هي الانجليزيّة. حين نكون مجتمعين مع الآخرين، إذا ما خاطبتك بالألمانيّة.. جاريني في ذلك!

سكتت ليلى في استغراب ثمّ سألت:

- هل لذلك علاقة بالبحث؟

- ربّما! سأترك لك الاستنتاج في نهاية التّجربة!

لم تفهم الكثير. لكنّها أومأت في انصياع.

صباح الغد، عُقد اجتماع في قاعة النّدوات. كان هناك عدد قليل من الألمان، والكثير من الأجانب، وكان هؤلاء يتكتّلون في مجموعات عرقيّة بشكل شبه تلقائيّ. بعد أن انفضّ الاجتماع، كان من السّهل تمييز المجموعات العربيّة والآسيويّة والأوروبيّة، وهي تغادر مقاعدها بشكل منظّم. كانت ليلى قد وقفت مثل عادتها مع سوسن ونزار، وغير بعيد عنهما نجاة وفوزي، رغم التّنافر الواضح بين هاذين الأخيرين. فجأة اقترب باورمان من المجموعة وقال بالألمانيّة وبصوت

واضح سمعه جميع من بالقاعة:

- ليلى، هل تريدين تناول كوب من القهوة في مكتبي؟

ارتبكت ليلى وقد فاجأها الاقتراح، لكنّها تذكّرت الاتّفاق على الفور، فقالت ببساطة:

- نعم، بالتّأكيد!

ثمّ اعتذرت من رفيقيها وتبعته في صمت. خمّنت أنّ كلمة «قهوة» Kaffeeستكون مفهومة بالنّسبة للجميع، وكلمة «مكتب» Buro قريبة بشكل كبير من كلمة Bureau الفرنسيّة، وبالتّالي ستكون نجاة قادرة على استنباط المعنى الإجمالي للعبارة. وربّما كان نزار أيضا قادرا على فكّ الشّيفرة نظرا لمتابعته دروس اللّغة، وإن كان لا يزال مبتدئا. لم تكن الجملة البسيطة لتشكّل تحدّيا لغويّا عويصا على المجموعة. بإمكانهم التوصّل إلى المقصد ببعض التفكير وتشارك الخبرات! لكنّها لم تصل بعد إلى مغزى التّجربة بالنّسبة إلى البروفيسور باورمان.

حين صارا في مكتبه قال مبتسما:

- ما الذي تعتقدين أنّه سيحصل الآن؟

شرحت استنتاجاتها بسرعة، وقالت:

- أعتقد أنّ الجميع يظنّ الآن أنّنا نشرب القهوة في مكتبك!

ضحك ثمّ قال:

- بإمكاني أن أؤكّد لك أنّ ما يقال الآن أكثر من ذلك!

- ماذا تقصد؟

- هناك شائعة تنتشر بينما نتحدّث بأنّ هناك علاقة خاصّة بين البروفيسور باورمان وطالبته الجديدة!

- ماذا؟!

تصاعد الدّم إلى وجهها، بينما أردف البروفيسور موضّحا:

ـ المسألة لا تتعلّق بمضمون الجملة.. بل باللّغة المستعملة! لقد تحدّثنا بلغة لا يتقنها الآخرون.. وهذا يوحي بنوع من الخصوصيّة لمن يتابع المشهد.. بشيفرة خاصّة، أو قناة تواصل أكثر حميميّة! وهذا يجعل النّاس يمرّون إلى الاستنتاجات المستعجلة.. حتّى لو كان ما قلته مجرّد كلمات متداخلة بلا معنى!

فكّرت ليلى.. أوّلا الدّعوة الاسميّة، ثمّ قناة التّواصل الخاصّة. هذا سيغذّي الشّائعات بالتّأكيد.

ـ نحن في مجتمع علميّ بامتياز، والجميع هنا على قدر من النضج والوعي. لكنّ عوامل صغيرة وبلا معنى أحيانا توجّه التفكير الجمعيّ في اتّجاهات مغلوطة.. وسرعان ما تنتشر الشّائعات بشكل لا يمكن السّيطرة عليه! أسقطي هذا على واقع شعوب الرّبيع العربي، وائتني باستنتاجاتك!

خرجت من المكتب بتفكير مشوّش. لعلّها تسرّعت في الحكم عليه! لقد حسبته قديم الطّراز، لكنّ أساليبه البحثيّة تعتبر غير تقليديّة بالمرّة!

ما إن دخلت المكتب، حتّى استقبلتها سوسن بابتسامة ذات معنى.

ـ كيف كانت القهوة مع البروفيسور باورمان؟

كتمت ليلى ضحكتها. كيف يمكن أن تشرح لها أنّه ما من قهوة أساسا!

ـ قولي.. ما الذي تخفينه بالضّبط؟

ـ لا شيء!

ـ انتظري حتّى يصل الخبر إلى صديقة البروفيسور!

التفتت إليها ليلى في دهشة. يصل إليها الخبر؟ كيف يصل؟ وأيّ خبر في الأصل؟ أنّها تحدّثت الألمانيّة مع المشرف على رسالتها؟ أم أنّهما قد تناولا القهوة بعد الاجتماع؟ يمكنها أن تتفهّم غيرة الأنثى، لكنّ الصّديقة الألمانيّة لن تحدث زوبعة لمجرّد حدث تافه أو كلمات بسيطة! لا شكّ أنّها أكثر تعقّلا!

في الغد، وبعد أن ناقشها باورمان في بعض نقاط البحث، قالت بعد تردّد:

- تجربة الأمس، لقد قمت بها وأنت تعلم بشكل مسبق بأنّ الشّائعات ستنتشر.. ألا يضايقك هذا؟ أعني.. الأمر محرج بالنّسبة لي أيضا!

هزّ كتفيه وهو يقول ببساطة:

- أنا لا أهتمّ.. إنّها مجرّد ثرثرة!

ثمّ أضاف ضاحكا:

- أنت تقصدين.. صديقتي الغيورة! هل وصلك خبرها؟!

هزّت رأسها علامة الإيجاب، فارتفع ضحكه أكثر:

- اطمئنّي، تلك الصّديقة لا وجود لها! إنّما هي نتاج تجربة سابقة، ربّما أقصّ عليك تفاصيلها يوما! انسي ذلك الآن وركّزي في البحث!

ثمّ وقف مغادرا وهو يواصل الضّحك.

منذ وصولها، لم تتوقّف عن تحرّي أخبار المعتصمين. كانت تتّصل بزبيدة من حين إلى آخر لتتقصّى الأنباء. وتفتح محرّك البحث لتفتّش في أخبار السّياسة، تتحقّق هل من اعتصامات جديدة في العاصمة. قدّرت أنّ أمين الذي ألف حياة الشّوارع سيكون قد انضمّ إلى أحدها! فكّرت أنّ فراس ربّما يكون متابعا لأخباره. لم تعرف أبدا ما دار بينهما ذلك الصّباح، يوم تركتهما معا داخل الخيمة. ربّما يكونان على اتّصال.. وربّما يكونان قد تشاجرا وتنافرا، تماما كما كان الأمر مع ياسين!

سرعان ما انشغلت عن المسألة بعد وصول زملائها إلى المكتب المشترك، وانغمست طيلة النّهار بالتّفكير في تجربة البروفيسور باورمان. كانت تلك مهمّتها الأولى، وهو ينتظر منها في الغد تقريرا باستنتاجاتها. كانت قد أمضت الأسبوع المنصرم منكبّة على التفكير، بينما تحاصرها النّظرات ذات المعاني المبطّنة، كلّما تحدّث إليها باورمان بالألمانيّة أمام الآخرين! كان حرجها وضيقها يزدادان مرّة بعد مرّة، بينما كان يبدو عليه الاستمتاع! لم يعد يطلب منها أن توافيه إلى المكتب أو تطبع بعض الأوراق وحسب.. في إحدى المرّات، وقف لربع ساعة يناقشها في نقاط البحث في قاعة الاستراحة باللغة الألمانيّة على مرأى ومسمع من الجميع. كان الأمر ليكون بسيطا وبلا أهميّة، لو أنّه التزم لهجة جديّة، لكنّه كان يلقي النّكات ويطرح أمثلة مضحكة طيلة الجلسة بشكل يوحي بأنّ الحديث ودّيّ لا عمليّ!

طمأنها ذلك الصّباح وهو يقول في مرح:

- غدا ستنتهي التّجربة، بعد الاستماع إلى تقريرك!

في المساء، اتّصلت بوالدها مثل عادتها. فكّرت أن تسأل عن أمين، إن كانت قد وصلته أخباره بشكل ما. لكنّها عدلت. كانت تعلم أنّ فراس يزوره باستمرار. لو أنّ خبرا ما قد طرق مسامعه فسيخبرها بنفسه. سألها نجيب مداعبا:

- كيف تسير الأمور معك؟ هل فكّت عنك نجاة الحصار؟

كانت زميلتها التّونسيّة خبيرة في الاعتراض. لعلّها حسبت من المفيد إسقاط تجربة زوجها في المعارضة على مجموعة المركز! كانت تناقر الدّكتور فوزي بشكل مستمرّ، لخلفيّته الإسلاميّة التي تمقتها، فيحتدّ النّقاش بينهما أحيانا.. وكثيرا ما تفاجئها هي وسوسن بأسئلة غريبة بلا سياق، تستخدمها في تصنيف محادثيها بناء على الإجابات المثاليّة التي في تصوّرها.

سألتها ذلك الصّباح وهي ترمق بنظرة ازدراء حجاب رأسها:

- ما رأيك في نظريّة التطوّر؟

حدّقت فيها ليلى مستغربة، ثمّ قالت بلا اهتمام:

- ليس لديّ رأي في الموضوع!

- ماذا تقصدين؟ هل توافقين النّظريّة أم تعترضين؟ الجواب بسيط: نعم أم لا!

لم تستفزّ حدّتها ليلى، بل قالت بهدوء:

- للأسف لست مطّلعة بشكل كاف.. إنّها نظريّة بيولوجيّة.. وأنا مختصّة في الإعلام كما تعلمين! كيف لغير مختصّ أن يبدي رأيه في نظريّة بعيدة عن مجاله؟ حتّى أهل الاختصاص، إنّهم يمضون سنوات طوال، يضعون النّظريات ثمّ يعملون على إثباتها أو دحضها!

سؤالك غريب، وغير علميّ بتاتا.. لم أكن أتوقعه من أكاديميّة مثلك. هذا سلوك جدير بالعامّة!

حين روت الحادثة على والدها، ضحكا كثيرا، وعلّق نجيب في سخرية:

- نجاة ونجاة.. لا يبدو أنّهما تتشاركان الاسم فقط!

غمغمت ليلى في وجوم:

- رحمها الله.

كان نادرا ما يأتي على ذكر والدتها. وكان الحديث في سيرتها ينقطع قبل أن يبدأ.

قالت مغيّرة الموضوع:

- هناك رحلة تزلّج ينظّمها المركز خلال أسبوعين.

- ستكونين بخير؟

لم يكن يخفى عليها سبب قلقه. لم يكن أحدهما قد اقترب من محطّة تزلّج أو منطقة جبليّة منذ تلك الحادثة. وهو لا شكّ يخشى أن تثير التّجربة بداخلها آلاما منسيّة. قالت مطمئنة:

- لقد مضت سبع سنوات الآن. سيكون كلّ شيء على ما يرام!

لم تكن واثقة. كان بوسعها الاعتذار لو أنّها أرادت. لكنّ المواجهة مع ماضيها وكوابيسها كانت مغرية. فكّرت ساخرة، من يدري، ربّما تتعرّض لصدمة أخرى تُرجع إليها ذاكرتها!

في الصّباح التّالي، كان باورمان ينتظرها في قاعة النّدوات. كان عليها أن تعرض بشكل أكاديميّ نتائج بحثها خلال الأسبوع الماضي. وقفت في ثقة وأخذت تقدّم فقرات عرضها. تحدّثت عن دور الشّائعات في صنع الرّأي العام بشكل عام وعن دورها في تحويل مجريات الحياة

السّياسيّة بشكل خاصّ.. قدّمت أمثلة معروفة في تاريخ الدّيمقراطيّات الأوروبيّة، ثمّ تطرّقت إلى دور الشّائعات في دفع عجلة الثّورات أو تعطيلها، وما لجأت إليه بعض الأنظمة العربيّة من تشويه لسمعة الجماعات الثّوريّة لتفتيت دعاماتها وتحطيم شعبيّتها. ثمّ ختمت التّقديم بتساؤلات حول التّأثير المستقبليّ لهجمات الأحزاب السيّاسيّة بعضها على بعض على محطّات التلفزيون من خلال بثّ الاتّهامات الملفّقة أو المفتقرة إلى الأدلّة الملموسة في صناعة حكومات ما بعد الثّورة.

وقفت في ترقّب تتطلّع إلى ردّة فعل باورمان. كان مازال يتصفّح التقرير المكتوب دون أن تظهر على ملامحه أيّة انفعالات. أغلق الملفّ أخيرا ورفع نظراته إليها:

- سطحيّ جدّا! هذا الكلام مستهلك وقديم، لا قيمة له في عالم الأبحاث! لا يمكننا أن ننشر شيئا كهذا حتّى لا نتعرّض لسخرية العالم! من الجيّد أنّ الجلسة كانت مغلقة، وإلا لكانت النّتيجة كارثيّة!

شحب وجه ليلى، وتجمّعت العبرات في مقلتيها. لم يكن عليه أن يكون بتلك القسوة. إنّها ليست مختصّة في علم الاجتماع، بل الإعلام! كان باورمان يواصل تقييمه:

- تحليلك منغلق على المعنى المباشر للمصطلحات.. لقد توقّفت عند معنى واحد للتّجربة: الشّائعات! في حين أنّ المنطلق كان اللّغة المشتركة، لو تذكرين! تجرّدي.. وغادري أسوار تجربتك الشّخصيّة ومنطقة أمانك المألوفة!

هل يجهل سبب تركيزها على نقطة الشّائعات؟ لأنّ الشّائعات هي ما أصبحت تحاصرها مؤخّرا، بسبب تجربته السّخيفة! كانت تشعر بالغيظ والسّخط على أسلوبه المستفزّ. لكنّه زاد الطّين بلّة حين قال

بمرحه المعتاد:

- طبعا، سنواصل تجربتنا الصّغيرة، حتّى تصلي إلى النّتائج المرجوّة!

غادرت القاعة بمزاج متعكّر. ما إن دخلت مكتبها حتّى بادرت سوسن ونزار قائلة في تصميم:

- في الغد، حين يحضر البروفيسور باورمان.. سنتحدّث بالعربيّة!

حدّقا فيها في عدم استيعاب، فأضافت:

- جارياني وحسب!

في الصّباح التّالي، كانت مستعدّة ومتحفّزة. جاء باورمان في تمام السّاعة العاشرة في جولته الصّباحيّة المعتادة، وتوقّف عند مكتبها. قال بالألمانيّة في لهجة ودّية:

- لا أريد لعرض الأمس أن يحطّ من عزيمتك.. هذه البداية، والتّعثر أمر طبيعي. منهجيّة البحث أمر مستجدّ بالنّسبة إليك، ستبلين حسنا مع الوقت.

التفتت فجأة إلى سوسن وقالت بالعربيّة:

- إنّه يظنّ لعبته السّخيفة هذه ممتعة.. ولكنّها ليست كذلك بالنّسبة إليّ!

التفتت سوسن مفزوعة حين انتبهت إلى أنّ ليلى قد تجاهلت باورمان وصارت تخاطبها! تجلّت علامات الصّدمة على ملامح باورمان للحظة، ثمّ ما لبث أن انفجر ضاحكا وقال:

- هجوم معاكس غير متوقّع! محاولة جيّدة.. لكنّني لو تعلمين طالب مجتهد، يمكنني أن أتعلّم العربيّة بأسرع ممّا تعتقدين!

كان يواصل حديثه بالألمانيّة، بينما تكلّمت ليلى بالعربيّة مرّة أخرى:

- يعتقد أنّ تعلّم العربيّة أمر سهل! طيّب، جرّب لنرى! ثمّ إذا أنت

أخـذت دورة في العربيّـة الفصحـى فمـن أيـن لـك بـدورات في اللّهجـات مـن الـشّرق إلى المغـرب العـربي؟ قـد تحتـاج عـشر سـنوات، وقـد لا تكـون كافيـة حتّى!

لـم تسـتطع سوسـن أن تكتـم ضحكتهـا، وانضـمّ إليهـا نـزار أيضـا. كانـت عـدوى الضّحـك قـد مـرّت إلى ليـلى، فقـد كان الموقـف كوميديّـا بامتيـاز. اسـتغرق ثلاثتهـم الضّحـك، في حـين امتقـع وجـه البروفيسـور. وقـف بهـدوء وقـال هـذه المـرّة بالإنجليزيـة:

- حسنا.. لقد فهمت.

ثمّ استدار مغادرا في وجوم.

وقفت سوسن وهبّت إلى ليلى:

- هـل جننـت؟ لقـد أغضبـت باورمـان! هـل تدركـين مـا الـذي فعلتـه بالضّبـط؟

حدّقـت ليـلى في البـاب الـذي أغلـق عـلى قامـة البروفيسـور الفارعـة وملامحـه الصّارمـة، وعـاد إليهـا إدراكهـا الـذي غيّبـه الانفعـال. مـا الـذي فعلتـه يـا ليـلى؟! إنّـه يبقـى المـشرف عـلى بحثهـا ورئيسـها المبـاشر في المركـز، وسـلوكها يعـدّ وقاحـة عـلى أقـلّ تقديـر! انسـحبت الدّمـاء مـن وجههـا، ودفنـت رأسـها بـين كفّيهـا. مـاذا سـتفعل الآن؟

خـلال الأيّـام التّاليـة، رأت وجهـا جديـدا لباورمـان. كان جديّـا بشـكل غـير معهـود، متجّهمـا وجـافّ اللّهجـة بشـكل مريـك، وقـد انقلبـت لغتـه إلى إنجليزيّـة غايـة في الرّسـميّة. لـم يكـن مـن العسـير عـلى ليـلى أن تـدرك كـم هـو غاضـب! كان عليهـا أن تفكّـر في طريقـة للاعتـذار.. لكنّهـا، وبعـد ثلاثـة أيّـام مـن الـتردّد، لـم تجـد إلّا الأسـلوب المبـاشر. كان اليـوم جمعـة، وعطلـة نهايـة الأسـبوع مقبلـة، ولـم نكـن تريـد أن تسـتقبل الأسـبوع الجديـد عـلى وجهـه العابـس.

بعـد الاجتمـاع، راقبتـه في صمـت وهـو يجمـع أوراقـه، وأخـيرا تجـاسرت وقالـت بالألمانيّـة وعيناهـا إلى الأرض:

- بروفيسور، أنا آسفة على ما حدث يوم الثلاثاء.

- آسفة علامَ بالضّبط؟

- على المزحة السّخيفة.

ابتسم، ثمّ قال مستعيدا مرحه:

- جيّـد أنّـك اعتـذرت اليـوم! كانـت نهايـة الأسـبوع لتكـون كئيبـة لـو أنّـك لـم تفعـلي!

احمـرّت وجنتـا ليـلى فجـأة. لقـد عـاد إلى المـزاح بـأسرع ممّـا توقّعـت. أردف باورمـان ضاحـكا:

- لـو أنّـك لـم تعتـذري اليـوم، كنـت أنـا لأفعـل! التّظاهـر بالجدّيّـة لثلاثـة أيّـام كان عقابـا كافيـا.. ألا تعتقديـن ذلـك؟ لقـد تعلّمـت الـدّرس!

ضحكت رغما عنها.

- لقد كنت مرعبا، أليس كذلك؟

كانـت مازالـت تصـارع رغبـة الضّحـك، فأومـأت برأسـها في صمـت وهـي تعـضّ عـلى شـفتيها. واصـل باورمـان:

- إليـك الاقـتراح.. نتحـدّث الألمانيّـة في مكتـبي.. والإنجليزيّـة أمـام الآخريـن.. هـل اتّفقنـا؟

- اتّفقنا.

كانت الأجواء حماسيّة في المركز منذ بداية الأسبوع، والجميع يتحدّث دون انقطاع عن رحلة التزلّج المرتقبة. كانت ليلى تبتسم دون حماس. لم تكن تدري ما الذي تخفيه لها تلك الرّحلة، لكنّها كانت تعيش نوعا آخر من الترقّب. تجربة تعنيها وحدها.

كان باورمان قد التزم بالاتّفاق. كان يبدو أكثر جديّة حين يخاطبها أمام الآخرين بالإنجليزية، ويقتصر مزاحه على الألمانيّة في المكتب!

يوم الجمعة، بعد انتهاء الدّوام، كانت الحافلة الخاصّة بالرّحلة متوقّفة أمام مبنى المركز. خلال نصف ساعة، كانت الحقائب قد عبّئت وانتظم الرّكاب في مقاعدهم. كانت البداية مقلقة بالنّسبة إلى ليلى. الحافلة ستنطلق عند السّاعة السّادسة مساء، ليستمرّ السّفر لمدّة ثلاث ساعات. لم يكن السّفر ليلا أمرا مريحا. كان لاوعيها يربط العوامل بالذّكرى السّابقة بشكل آليّ.

جلست إلى جوار سوسن، وأخذت زميلتها تتحدّث بحماس عن تجربتها الأولى للتزلّج التي لم تحصل بعد! تساءلت ليلى، هل تراها تجيد التزلّج؟ لا شكّ أنّها تفعل. هل يمكن أن تقيم في سويسرا طيلة حياتها ولا تفعل؟ لقد نسيت أن تسأل والدها! فكرت في سخرية، لن تعرف حتّى تقف بنفسها على الحلبة!

بدا الأمر محرجا، حين تجوّل أحد المشرفين بين المقاعد، يجمع أسماء المسافرين ويسجّل درجة خبراتهم في التزلّج! قالت ليلى في ضيق:

ـ مضى وقت طويل منذ تزلّجت آخر مرّة.. ربّما أكون نسيت! هل

يمكن أن أكون مع المبتدئين؟

طالع الرّجل أوراقه ثمّ قال معتذرا:

- فرقة المبتدئين تخصّ من لم يسبق له التزلّج على الإطلاق.. وعددهم كبير في الحقيقة، أكثر ممّا تسع المجموعة! لذلك سأضطرّ إلى تسجيل اسمك مع الفرقة المتوسّطة.. هل يناسبك هذا؟

أومأت دون اقتناع. تطلّعت إلى الجدول في فضول، بينما أصغت إلى المشرف يواصل:

- لا تخشي شيئا، ستستعيدين قدراتك سريعا ما أن تجدي نفسك على الحلبة.. وربّما تطلبين الانتقال إلى الفرقة المحترفة لاحقا!

كان اسم باورمان ضمن فريق المحترفين. ابتسمت شاكرة وهمست لنفسها ساخرة. لا بأس بالفرقة المتوّسطة أبدا.. سيكون ذلك كافيا في الوقت الحالي.

غادرت الحافلة شوارع هامبورغ وانعطفت باتّجاه الطريق الجبليّ، على أصوات الرّكّاب المرتفعة بالغناء. كان المنشّط قد اقترح لعبة مسلّيّة، بحيث تتداول كلّ مجموعة على الغناء، بلغتها الأمّ، على أن تكون أغنية حماسيّة!

استمرّت موجة الغناء، بالألمانيّة أوّلا، ثمّ بالفرنسيّة والإيطاليّة والإنجليزيّة، وقد كانت اللّغات كلّها مفهومة بالنّسبة إلى ليلى.. ثمّ جاء دور الصّينيّة والرّوسيّة والتّركيّة، وأصبحت المفردات مجهولة تماما! ثمّ توقّف الرّتل عند الفريق العربيّ. خلافا للفرق الأخرى، كان العرب ينتمون إلى بلدان مختلفة، وذات إرث حضاريّ وثقافيّ متباين. لم تكن ليلى تهتمّ بمسألة الغناء واختيار الأغنية التي يجدر بالفريق أداؤها، فثقافتها الشخصيّة أوروبيّة بالأساس، وانتماؤها التّونسيّ حديث. لذلك لم تكن ذاكرتها تستحضر شيئا، باستثناء النّشيد

الوطنيّ وبعض المقاطع الثّوريّة التي كانت تردّد في المظاهرات! كان الخلاف قائما بين سوسن ونجاة. وبينما كانت الفرق الأخرى تنشد، استمرّ الجدال بين المرأتين. كانت سوسن ترى أنّ مصر هي الأكثر إشعاعا بين بلدان الوطن العربيّ من حيث التّأثير والانتشار الفنّيّين، لذلك من البديهيّ أن يتمّ اختيار أغنية مصريّة! بينما اعترضت نجاة بضراوة.. لم يكن ذلك سببا كافيا في نظرها لطمس هويّة باقي أفراد المجموعة!

بعد نقاش حادّ، قرّرت كلّ منهما أن تؤدّي أغنيتها منفردة، فاختارت سوسن أغنية شبابيّة موقّعة، بينما عبّرت نجاة عن ثوريّتها بأغنية «آمال المثلوثي» التّونسيّة: أنا حرّ وكلمتي حرّة!

كان كلّ ذلك اللّغط ملهيا بالنّسبة إلى ليلى. أن تجد ما يشغلها عن هواجسها طيلة الرّحلة، فلا تحدّق في الظّلام الذي سحب رداءه على المشاهد الجبليّة الموحشة التي تحفّ الحافلة من الجانبين. اكتفت بالمتابعة دون تدخّل في مجريات النّقاش.. كان ذلك قبل أن تنقطع الأجواء الاحتفاليّة بشكل مفاجئ، مع اهتزاز الحافلة في حركة حادّة وغير متوقّعة.

توقّفت الحافلة على جانب الطّريق، مطلقة إشارة الطّوارئ الضّوئيّة، ونزل السّائق والمشرفون لاستطلاع الوضع. ثمّ سرعان ما صعد أحدهم ووجّه رسالة مطمئنة إلى الجميع. كانت إحدى العجلات قد انفجرت. لا شيء يدعو إلى القلق، سيتمّ تغييرها خلال وقت قصير. لذلك على الجميع النّزول الآن والانتظار جانبا.

نزل المسافرون واحدا بعد الآخر، وتجمّعوا في المساحة المضاءة أمام الحافلة. كانت مخروطات بلاستيكيّة برتقاليّة قد صفّفت لتحيط بالمنطقة، وتخطر السّيّارات المارّة بوقوع الحادثة. وقفت ليلى في

توتّـر، تتنقـل نظراتهـا في ذعـر بـين العربـات المسرعـة الـتي تطـوي الطّريـق المنحـدرة صعـودا ونـزولا عـلى يمينهـا، والجـرف السّـحيق الـذي لا يُـرى قـراره عـن شـمالها. ثـمّ أخـذ تنفّسـها يضطـرب وأوصالهـا ترتجـف. اقتربـت منهـا سوسـن في قلـق:

- ليلى، أنت بخير؟

أومأت بابتسـامة واهنـة. لكنّهـا لـم تكـن بخـير. تشـبّثت بـذراع سوسـن لتوقـف ارتجـاف أطرافهـا، لكـنّ مخاوفهـا لـم تخمـد. حدّقـت خـلال الأجمـات المظلمـة الـتي تغطّـي جوانـب المنحـدر، فـرأت نقاطـا حمـراء لامعـة تلـوح لهـا مـن بعيـد! شـدّت ذراع سوسـن بقـوّة حـتّى تأوّهـت.

- ما الأمر؟

- انظري هناك.. هل ترين عيون الذّئاب الحمراء؟

كان صوتهـا مرتعشـا، ووجهـا شـاحبا. أطلّـت سوسـن إلى حيـث أشـارت ليـلى ثـمّ قالـت ضاحكـة:

- لا أرى إلّا أضواء السيّارات البعيدة في سفح الجبل!

لكـنّ ليـلى لـم تهـدأ. شـعرت أوّلا بالـبرد يلفّهـا. كانـت محطّـة التزلّـج قـد غـدت قريبـة، عـلى مسـافة سـاعة ربّمـا. وهـواء المنطقـة ثلجـيّ، وإن لـم يكـن الثّلـج عـلى مرمـى البـصر بعـد. فجـأة أصبـح تنفّسـها عسـيرا وصدرهـا ثقيـلا. كنـت تشـعر بالاختنـاق وبأطرافهـا تتجمّـد. فزعـت سوسـن، وهـي تراهـا تشـهق طلبـا للأكسـجين، ويـزداد ارتجافهـا. هرولـت بسرعـة ونـادت الدكتـور فـوزي الـذي كان يقـف عـلى مقربـة.

- ليلى ليست بخير!

عاينها فوزي في قلق ثمّ صرخ بصوت عالٍ:

- هل هناك طبيب هنا؟ أو شخص يستطيع المساعدة؟

التفت الجميع في فضول وقلق، لكنّ أحدا لم يلبّ النّداء. ما من طبيب. اقترب باورمان في اهتمام، تطلّع إلى وجه ليلى الباهت وعينيها الغائرتين ثمّ قال جازما:

- إنّها حالة رهاب!

ثمّ أشار إلى سوسن:

- خذيها إلى داخل الحافلة رجاء!

صعدت البنتان إلى الحافلة عائدتين إلى مقعديهما، ثمّ تبعهما باورمان بعد لحظات. كان يحمل بطّانيّة وإبريقا حافظا للحرارة. أسدل ستائر نافذتها أوّلا والسّتائر القريبة والمقابلة، ثمّ فرد البطّانيّة، ولفّها بها. انحنى باتّجاهها لتصبح عيناه في مستوى عينيها.

- تنفّسي الآن.. اتبعي حركتي.. شهيق.. زفير! هكذا!

امتثلت ليلى في استسلام، أخذت تحاول التنفّس بالنّسق الذي يمليه، بينما كانت العبرات تسيل على وجنتيها بلا إرادة منها. بعد دقائق، كان تنفّسها قد انتظم. انكمشت داخل البطّانيّة ولم يزول عنها الارتجاف رغم ذهاب البرد.

- اشربي هذا!

كان الوعاء يحوي قهوة دافئة. ارتشفتها في هدوء رغم مرارتها اللّاذعة، وبدأت الدّماء المنسحبة تعود إلى وجهها. سألها في اهتمام:

- ما الأمر؟ هل لديك رهاب مرتفعات؟

هزّت رأسها نافية، ثمّ قالت في اضطراب:

- تعرّضت إلى حادثة منذ سنوات، على طريق جبليّة في سويسرا.. كنّا عائدين من رحلة تزلّج.. شقيقتي توفّيت في الحادثة.

هزّ رأسه في صمت، ثمّ قال مشجّعا:

- ستنسين الحادثة بعد هذه الرّحلة.. سنستمتع كثيرا، اتّفقنا؟

أومأت ببطء، بينما كان بقيّة الرّكّاب يأخذون مقاعدهم من جديد. نظر باورمان إلى سوسن وقال آمرا:

- إذا عاودتها الأزمة أخبريني على الفور!

ثمّ عاد بدوره إلى مقعده. أسندت ليلى رأسها إلى النّافذة، وأغمضت عينيها. كانت منهكة ومفرغة. سرعان ما أخذت حركة الحافلة المنطلقة من جديدة تهدهدها، فغلبها النّعاس، رغم القهوة.

أيقظتها سوسن حين توقّفت الرّاحلة عند المنتجع. كانت لا تزال تشعر بالدّوار. عند نزولها من الحافلة، ألفت باورمان ينتظرها.

- أنت أفضل الآن؟

ابتسمت وهي تعيد إليه البطّانية والإبريق. إنّها أفضل، لكنّ رغبة الاستغراق في النّوم كانت تسيطر عليها. لذلك، ما إن استلمت مفاتيح غرفتها المزدوجة وسوسن، حتّى غطّت في النّوم مرّة أخرى، دون تناول وجبة العشاء.

في الصّباح، شاغبتها سوسن وهما تستعدّان للنّزول إلى المطعم:

- لقد تلقّيت أمرا من البروفيسور باورمان بأن أكون ممرّضتك الخاصّة!

ضحكت ليلى. كان مزاجها أحسن بكثير، بعد ليلة نوم هادئة. أخذت سوسن تقلّد طريقة باورمان المتعالية في الحديث بإيماءات مضحكة، ثمّ أردفت:

- مغرور ومزعج!

- ألا يليق به أن يكون مغرورا؟ بروفيسور، وهو بعد دون الأربعين؟

أغاظتها ليلى متعمّدة، فهتفت سوسن:

- طبعا.. تهكّمي كما تشائين! أنت المستفيدة في القصّة!

بعد الإفطار، تسلّم الجميع بطاقات الدّخول إلى محطّة الرّياضات الشّتويّة، ثمّ توجّهوا إلى محلّ استئجار أدوات التزلّج. اختارت ليلى بدلة تزلّج مؤلّفة من قطعتين، معطف طويل يصل إلى ركبتيها وبنطال، ثمّ أخذت تجرّب الأحذية السّميكة، لتجد المقاس المناسب لقدميها. وضعت قفازيها الجلديّين، قبعتها الصّوفيّة على رأسها، والنّظارات على عينيها، وانضمّت إلى مجموعتها.

لوّحت لسوسن التي كانت تنطلق مع مجموعة المبتدئين لساعات متّصلة من التدرّب على وضعيّة «طرد الثّلج»، أوّل دروس التزلّج للمستجدّين، على حلبة شبه منبسطة في منطقة قريبة من المنتجع. أمّا المجموعة المتوسّطة، فقد كانت وجهتها الحلبة الزّرقاء. أوضح المدرّب:

- سنبدأ بالممرّات الأسهل، ثمّ نتدرّج في نسق تصاعديّ.. من يشعر منكم بالثّقة، يمكنه أن يجرّب الحلبة الحمراء بعد الظّهر.

كانت حلبات التزلّج توسم بالألوان حسب درجة انحدارها ومستوى صعوبتها. الحلبة الزّرقاء هي الأبسط، لا يزيد انحدارها عن خمس وعشرين درجة، تليها الحمراء بانحدار أقصاه أربعون درجة، ثمّ تأتي الحلبات السّوداء، للمحترفين والمغامرين.

وقفت ليلى أسفل التلّة تنتظر دورها لتتعلّق بالعامود المعدنيّ الآليّ الذي سيسحبها إلى أعلى المرتفع. راقبت بعينين مأخوذتين التلّة المكسوّة بطبقة سمكها متران على الأقلّ من الثلج المخمليّ النّاصع! على مدّ البصر، ترى المتزلّجين في خطّ واحد صعودا، ثمّ ينطلقون مثل المدافع المنفلتة هبوطا، كلّ حسب طاقته وخبرته. الأعمدة تتقدّم في مسار مستقيم صعودا وهبوطا، ولا تتوقّف، والمتزلّجون

يقفون في صفّ، يترقّبون مرورها، يتمسّكون بها، ثمّ يفلتونها حين يصلون إلى الارتفاع المناسب. جاء دورها، فتمسّكت بعامودها بإحكام، وراقبت وضعيّة زلّاجتيها، تحاول إبقاءهما متوازيتين، حتّى لا يختلّ توازنها. حين وصلت إلى المنبسط الأوّل في منتصف المسافة، أفلتت العامود كما أوصى المدرّب. والآن، أصبحت تستقبل المنحدر الأبيض بجسدها كلّه.

استعدّت، وجّهت الزّلاجتين نحو مسار الانزلاق، انحنت إلى الأمام وغرست عكّازيها في الثلج لتمنح جسدها دفعة قويّة، وانطلقت! كان انتباهها بداية منصبًّا على زلّاجتيها، تهتمّ بألا تتباعدا أو تتقاربا أكثر من اللّازم، ثمّ رفعت رأسها، تستكشف الأخطار المحيطة بها وتتجنّب حوادث الاصطدام.. وسريعا ما نسيت كلّ ذلك، حين ملأها إحساس التّحليق نشوة!

قبل أن تصل إلى أعماق التّجربة، كانت قد وصلت إلى السّفح! كبحت سرعتها قبل أن ترتطم بشبكة الحماية، وجرّت قدميها إلى أعمدة السّحب. رفعت نظراتها إلى أعلى التلّة وهي تترقّب دورها. قرّرت بسرعة. لم تكن المسافة كافية. ستصعد أكثر.

من أعلى الحلبة الزّرقاء انطلقت هذه المرّة. لم تحتج أن تراقب زلّاجتيها مرّة أخرى. كانت تنزلق مثل متزلّجة محترفة. لا شكّ أنّها قد تزلّجت طيلة حياتها! طارت على الحلبة، في مسارات متعرّجة، تنحني يمنة أو يسرة لتضع ثقلها على إحدى قدميها وتغيّر اتّجاهها بمرونة، ثمّ تعتدل لتخفّض من سرعتها وتمتّع عينيها بجاذبيّة المشهد، أو تثني ركبتيها لتقترب من الأرض كلّما أرادت أن تزيد اندفاعها في المسارات المستقيمة. كانت تتحرّك بعفويّة وتستعيد خبرات منسيّة، وتستمتع!

بسرعة، قرّرت أنّ عليها تجربة الحلبات الأكثر صعوبة. لقد عرفت الآن أنّها ليست مبتدئة على الإطلاق! كانت تحتاج أن تحلّق أعلى، أن ترتفع عن الأرض وتقفز فوق الكثبان! فكّرت، لا فائدة من المرور بالحلبات الحمراء، ستتّجه مباشرة إلى السّوداء!

تجاهلت المدرّب والمجموعة المتوسّطة التي كانت تكرّر الهبوط من المنبسط الأوسط على الحلبة الزّرقاء، ومشت في اتّجاه الغرف الزّجاجيّة المتسلّقة. صعدت إلى الغرفة، مع عدد من الأشخاص، وقد غمرتها الحماسة وتسارع وجيب قلبها. حدّقت في قامات المتزلّجين التي أخذت تتصاغر وتنكمش كلّما ابتعدت الغرفة في اتّجاه القمّة، حتّى صارت مجرّد نقاط متناثرة على امتداد الجبل.

إنّها الآن في القمّة. الحلبة أسفل منها طويلة ووعرة. انتابها التردّد. هل هي مستعدّة حقّا لتجرّب الحلبة الأكثر انحدارا؟ ماذا لو فقدت توازنها؟ طمأنت نفسها على الفور، إنّها تعرف التّقنيات كلّها، كيف تزيد من السّرعة وكيف تكبح اندفاعها، كيف تلتفّ وتراوغ في مسارات متعرّجة، وكيف تتوقّف أيضا إذا ما وجدت المنعطف حادّا وغير مريح. ثمّ ماذا لو سقطت؟ إنّ عمق الثلج كافٍ لتكون وقعتها مريحة وبلا ضرر! إنّها مستعدّة. يكفيها أن تفكّر الآن في تحليقها المرتقب، مثل صقر جبل ينقضّ على فريسته! اتّسعت ابتسامتها، ووقفت في وضعيّة الانطلاق.. ثمّ أفلتت العنان لزلّاجتيها.

لقد كان الطّيران من ذلك الارتفاع مدوّخا! استقبلتها هبّة ريح عنيفة، تكاتفت مع سرعتها الجنونيّة لتفقدها إحساسها بالأرض تحتها وبالعكّازين بين كفّيها! لم تكن تتوهّم. إنّها تطير! أطلقت صيحة منتشية، ثمّ حطّت زلّاجتاها على الثّلج بخفّة. لكنّها لم تكتف. جذّفت بقوّة لتنطلق مجدّدا، في اتّجاه السّماء، رغم المنحدر النّازل! إن كان للحريّة مرادف ماديّ، فهو ما تعيشه الآن!

على بعد مائة متر، كان هناك شخص يلوّح لها، ويشير باتّجاه المنزلق. كانت تقترب منه بسرعة. لم يكن بوسعها التوقّف. تفرّست في ملامحه المغطاة بالكامل تقريبا بالقبعة والنظارة والوشاح. باورمان؟ رفعت كفّها لتلوّح له بدورها، ثمّ استدارت لتواصل مسارها. لكنّها انتبهت في تلك اللّحظة إلى ما كان يشير إليه. كان المنعطف الذي أمامها يضيق في آخره، ويتحوّل اتّساعه السّابق إلى جدار ثلجيّ! لقد فهمت متأخّرة ما عناه. كان يأمرها باتّخاذ المسار الأيمن! لكنّ الأوان قد فات الآن لتغيّر خطّ انزلاقها. كانت الكثبان ترتفع على الجانبين، والجدار ينتظرها! مالت إلى المضيق المفتوح، المسار الوحيد الممكن، وحاولت كبح سرعتها. لكنّ الانحدار شديد، والأرض وعرة، كأنّ سمك الثلج هنا أقلّ من المناطق الأخرى! قرّبت زلاجتيها من بعضهما بعضا، وجمعت كفّيها أمامها، لتمنع الاحتكاك بالجدار وهي تعبر المضيق. يمكنها أن تفعل ذلك.

لقد مرّ كلّ شيء كما خطّطت. ضبطت مسارها لتكون وسط المضيق تماما، دون احتكاك، وهنّأت نفسها على البراعة التي أبدتها في اجتياز الأزمة. كان ذلك قبل أن تنحرف زلاجتها اليمنى بعد اصطدامها بقطع حجارة تفرش أرض المضيق، فيرتدّ جسدها كلّه ليصطدم بالجدار! فقدت توازنها، ووقعت على جانبها الأيمن، ولم تتوقّف عن الانزلاق! هذه المرّة، لم يكن هناك مفرّ من الارتطام بالكثبان الثّلجية التي ابتلعتها تماما.

سـمعت طرقـات عـلى بـاب غرفتهـا. قالـت دون أن ترفـع رأسـها عـن كتابهـا:

ـ نعم؟

دارت الأكـرة ودُفعـت الدّفـة، ثـمّ أطلّـت حنـان بابتسـامة واسـعة. رمتهـا ليـلى بنظـرة عابـرة وقالـت بـبرود:

ـ تريدين شيئا؟

ـ ما رأيك أن نلعب لعبة؟

هـزّت ليـلى حاجبيهـا وهـي مركّـزة بعـد عـلى قراءتهـا، ولـم يبـد عليهـا الاهتمـام. لكـنّ حنـان اقتربـت حـتّى وصلـت عنـد سريرهـا وواصلـت بحمـاس:

ـ نتبادل الأدوار!

أطلقت ليلى ضحكة ساخرة وقالت:

ـ هـل رأيـت هـذا في شريـط سـخيف؟ توأمـان تتبـادلان الأدوار وتسـخران مـن الجميـع؟ اعذريـني يـا عزيـزتي.. ليـس في حياتـك شيء يغريـني بالتّبـادل!

لكنّ حماس حنان لم يفتر. تابعت في إصرار:

ـ ليومـين فقـط! نمـرح قليـلا بينما نحـن في محطّـة التزلّـج، ثـمّ تسـتعيد كلّ منّـا هويّتهـا في نهايـة الرّحلـة!

قلّبـت ليـلى الفكـرة في رأسـها. إنّهمـا متطابقتـا الملامـح تقريبـا، غـير أنّ حنـان تضـع الكثـير مـن المسـاحيق، بينمـا تكتفـي هـي بملمّـع الشّـفاه

وخـطّ العـين. هـي تضـع نظّـارة طبيّـة، بينمـا حنـان تضـع عدسـات لاصقـة ملوّنـة، بغـرض الزّينـة لا أكـثر. لا يمكنهـا أن تجـزم بلـون عينيهـا الحقيقـيّ. الشّـعر، في نفـس الطّـول تقريبـا، ونفـس الانسـياب.. شـعرها أطـول قليـلا، لكنّهـا ترفعـه معظـم الوقـت، بينمـا تسـدله حنـان عـلى كتفيهـا. يمكنهـا أن تقـصّ أطرافـه بضـع سـنتميترات، ليكـون الطّـول مناسـبا. توقّفـت. لكـن مـا جـدوى هـذا؟ إنّهـا لا تسـتمتع أصـلا بالتّواجـد إلى جـوار حنـان وزوجهـا، فلمـاذا تتعـنّى لخـوض التّجربـة؟ قالـت أخـيرا:

ـ لست مهتمّة!

ضربت حنان بقبضتيها على ركبتيها في احتجاج، ثمّ تبدّلت لهجتها:

ـ تعجبـك حياتـك المهمّـة؟ دون أصدقـاء ولا علاقـات؟ اعـترفي، أنـت تسـتكثرين علـيّ فـراس، لأنّـني تزوّجـت قبلـك! ولأنّـك غـير مرغوبـة، جدّيّـة أكـثر مـن الـلّازم ومملّـة!

حدجتهـا ليـلى بنظـرة صارمـة، رغـم أنّ كلماتهـا لـم تجانـب الصّـواب تمامـا. اسـتفزّتها. لكنّهـا نجحـت في السّـيطرة عـلى أعصابهـا. لـن تنـال منهـا مـا تريـد. تلـك الفتـاة المدلّلـة وعديمـة الفائـدة! إنّهـا تتسـاءل حقّـا، منـذ عرفتهـا، كيـف تزوّجهـا فـراس؟ هـذا شيء لا يسـعها اسـتيعابه مهمـا حاولـت! قالـت في بـرود:

ـ عودي إلى غرفتك، ودعيني لحياتي المملّة!

انسـحبت حنـان أخـيرا، بعـد أن يئسـت مـن محاولتهـا. كانـت السّـاعة قـد تجـاوزت التّاسـعة مسـاء. الحيـاة في المنتجـع خاملـة في المسـاء. بعـد العشـاء، يـؤوي كلّ منهـم إلى غرفتـه، ثـمّ يسـتيقظون مبكّـرا، لاسـتقبال شروق الشّـمس مـن الشّرفـات. كانـت ليـلى تفكّـر في الخلـود إلى النّـوم، حـين عـادت حنـان مـرّة أخـرى. كانـت تحمـل في يمناهـا زجاجـة عصـير وفي يسراهـا كوبـا طويـل العنـق. قالـت وهـي تطـرق إلى الأرض في حـرج

وتغمغم معتذرة:

- لقد كنت وقحة قبل قليل.. ما رأيك لو نتصالح؟

ابتسمت ليلى رغما عنها. تلك الفتاة، إنّها توأمها.. لكنّها طفلة حقا! تصالحها بكوب عصير؟ لمَ لا؟ جلست حنان على طرف سريرها، ومدّت إليها كوبا ملأته للتوّ. تذوّقت ليلى المشروب، ثمّ سألت:

- عصير ماذا؟ إنّ مذاقه غريب!

قلّبت حنان الزّجاجة بين يديها، كأنّما تبحث عن قائمة المكوّنات:

- حقّا؟ إنّه مزيج من الفواكه.. جوافة ومانجو وخوخ.. ربّما كان طعم المانجو؟

مطّت ليلى شفتيها في استغراب، لكنّها واصلت احتساء مشروبها. قبل أن تنهي ثلثي الكوب، شعرت بثقل في رأسها، وأوشك الكوب أن يفلت من يدها. امتدت كفّ حنان لتأخذه عنها على الفور وهي تقول بابتسامة واسعة:

- تشعرين بالنّعاس، أليس كذلك؟ تمدّدي.. واسترخي!

استسلمت ليلى. كانت عيناها نصف مغلقتين، لكنّها ما عادت تقدر على رفع ذراعيها أو تحريكها. كانت تشعر بحركة حنان حولها، رغم حواسّها شبه المعطّلة. اقتربت، وبيدها المقصّ، فردت شعرها على كتفيها وأخذت تقصّ أطرافه بعناية. قالت مطمئنة:

- لا تقلقي.. ستكون قصّة شعري جميلة عليك!

بعد ذلك، نزعت حنان عدسات عينيها وأخذت تثبّتها في عيني ليلى. تدسّ إصبعها في بؤبؤها وترفع جفنيها بقسوة. لم تكن ليلى تستطيع الحركة أو الاحتجاج، لكنّ العبرات انسالت على وجنتيها في عجز، بينما لم يبد أنّ حنان ستنتهي من مهمّتها قريبا! استمرّت تُنكّرها في هيئتها، قليلا قليلا. بعد الشّعر والعينين، مرّت إلى أصباغ

الوجه، ثمّ طلاء الأظافر، انتهاءً بتبديل ملابسها. لم تنس شيئا. ثمّ اهتمّت بتنكّرها هي. رفعت شعرها، مسحت وجهها، ووضعت نظّارة ليلى الطبيّة على أنفها، ثمّ أخذت تتأمّل وجهها في المرآة وتضحك.

ـ هكذا تبدو الطّالبات المجدّات إذن!

ثمّ تنحنحت، وتظاهرت بالجدّيّة.

ـ ليس من العسير تمثيل دور الفتاة العاقلة.. لكنّني اعتقدت أنّ تمثيل الجنون سيكون مهمّة صعبة! لذلك أردت مساعدتك! العصير، إنّه يحوي جرعة مميّزة.. مزيج من أدوية الأعصاب والمسكّنات التي أتناولها في المصحّ. لن يشكّ أحد في جنونك في الغد! لكن يا للأسف، لن يكون بإمكاننا مواصلة الرّحلة، حين تبدأ نوبة جنونك الأولى! سيكون علينا أخذك إلى المصحّ على الفور!

ثمّ أطلقت ضحكة مجنونة.

***

فتحت ليلى عينيها مفزوعة. إنّها في سريرها. في المنتجع. على السّرير المجاور ترقد سوسن. تذكّرت بسرعة. الحادثة. لقد فقدت وعيها بعد ارتطامها بكثبان الثّلج. والآن.. إنّها تذكر كلّ شيء! دون تفكير، تناولت هاتفها، واتّصلت بالرّقم الأوّل الذي خطر ببالها.

رنّ هاتف فراس في إلحاح. فتح عينيه متثاقلا. الهاتف. تطلّع إلى السّاعة. الثانية صباحا! ثمّ طالع الرّقم الأجنبيّ، وأجاب على الفور. جاءه صوتها مرتجفا وتنفّسها مضطربا:

ـ لقد تذكّرت كلّ شيء!

ـ ليلى؟

ـ إنّها حنان! لقد وضعت لي مخدّرا ومزيجا من أدوية الأعصاب في العصير.. وتنكّرت في شكلي، وجعلتني أبدو مثل شكلها!

استمع إليها في ذهول، ثمّ أخذت ذاكرته تستعيد الصّور تدريجيّا. في تلك اللّيلة، أصيبت حنان بحالة من الهستيريا. لقد كانت بخير حتّى تلك اللّحظة. بدت شبه معافاة في الفترة الأخيرة، ممّا سمح برحلة التزلّج. لكنّ تلك الأزمة المفاجئة أفسدت كلّ شيء. خرجت حالتها عن السّيطرة، وكان عليهم أخذها إلى أقرب مصحّ في ساعة متأخّرة. كانت ليلى تواصل وقد تهدّج صوتها نحو البكاء:

ـ الدّواء، جعلني أفقد السّيطرة على حواسّي.. وأعصابي.. لقد كنت في حالة من الهستيريا، ولم أكن حتّى أستطيع أن أنظّم أفكاري أو أعبّر بشكل سليم.. تلك العبارة.. سنموت جميعا.. لقد كنت أردّدها دون توقّف!

لقد كانت ليلى، المصابة بالهستيريا.. وكانت حنان، من جاء إلى غرفته تلك اللّيلة! قال مهدّئا:

ـ جيّد.. لقد تذكّرت كلّ شيء.. لقد عرفنا الآن ما الذي حصل تلك اللّيلة.

لكنّها كانت قد استسلمت للبكاء وارتفع نشيجها. لبث يطمئنها:

ـ لقد انتهى كلّ شيء.. لا مزيد من الكوابيس بعد الآن. لا ذنب لك في الأمر.

ـ أنا آسفة.

همست فجأة باعتذارها ثمّ أغلقت الخطّ.

استلقى فراس على سريره وابتسم. كان ممتنّا لاتّصالها، رغم أنّه يدرك يقينا أنّها لم تكن تعي ما تفعل. لقد استيقظت من كابوسها، واتّصلت دون تفكير بالشّخص الوحيد الذي شاركته سرّ كوابيسها.

لو أنّها فكّرت للحظة واحدة، لما اتّصلت! السّاعة تشير إلى الثانية والرّبع. إنّها تلوم نفسها الآن، دون شكّ!

لكنّه يشعر بالارتياح. لقد حسب طيلة الوقت أنّ ليلى هي التي طرقت باب غرفته السّاعة العاشرة مساء، تلك اللّيلة! كيف له ألّا يخلط بينهما، وهي ترتدي نظّارة ليلى، وشعرها مرفوع على طريقتها، وترتدي نفس الملابس التي كانت عليها وقت العشاء؟ لكنّ الأسلوب لم يكن أسلوب ليلى.. لكن في تلك اللّحظة، أنّى له أن يميّز؟!

حين فتح الباب، فوجئ بوجودها. قالت بأسلوب جادّ:

- هل يمكن أن نتحدّث؟

ثمّ اقتحمت الغرفة دون أن تنتظر ردّه. قالت وهي تجلس على الأريكة، قرب الشّرفة:

- لقد فكّرت كثيرا، لكنّني لم أجد جوابا شافيا.. أنت وحنان لا يليق أحدكما بالآخر على الإطلاق! إنّها مدمنة، مجنونة.. وأنت طالب مجتهد، تأخّر تخرّجك مرّة بعد مرّة بسببها.. وهذا مثير للشّفقة!

تحوّلت انفعالاته من الدّهشة إلى الاستنكار ثمّ إلى الغضب. كيف تسمح لنفسها؟ كان لا يزال عند الباب، أشرع الدّفّة وأشار بصرامة:

- هلّا غادرت الغرفة رجاء؟ لا أريد أن أتحدّث معك في هذا الموضوع!

- لكنّك لم تردّ على سؤالي؟ هل هو التزام أخلاقيّ؟ واجب عائليّ؟ شهامة؟ ما الذي يبقيك إلى جوارها؟

- هذا ليس من شأنك! انصرفي رجاء!

وقفت في امتعاض، وسارت ببطء في اتّجاه الباب. وقفت أمامه قبل مغادرتها وقالت بلهجة مهدّدة:

- تذكّر أنّني قد طرحت عليك السّؤال.. وأنّك رفضت الرّدّ! لذلك لا

تلمني على ما سيحصل لاحقا!

بعد ساعتين، استيقظ المنتجع كلّه على نوبة حنان/ليلى الهستيريّة. ولم يعلم أبدا أنّ حنان من كانت عنده! لقد كانت تحتاج أن يطمئنها وحسب. كانت تريد أن تعرف إن كان يحبّها، أم تزوّجها على سبيل الشّفقة أو الإجبار! شعر بالتّعاسة. لقد ضنّ عليها بكلمة ربّما كانت تعني لها الكثير، وربّما منحتها بعض العزاء قبل موتها! تدحرجت عبرة على جانب وجهه واستقرّت على الوسادة. لكنّه لم يعرف! لم يعرف أنّها هي!

في الصّباح، اتّصل بنجيب. لم يكن قد نام جيّدا، وتجلّى الإرهاق في صوته. دردشا لبعض الوقت، مثل العادة، قبل أن يقول فراس في جدّية:

- عمّي نجيب.. هل يمكن أن أطلب منك شيئا؟

- طبعا.. تفضل!

- إذا اتّصلت ليلى، من الآن فصاعدا، لا تخبرها بأيّ شيء يخصّني.. إلّا إذا سألت.

لم يستوعب نجيب مغزى الطّلب. لقد كان يحدّثها كلّ مرّة عن زيارات فراس واتّصالاته، بشكل عفويّ، كما يحدّثها عن باقي أحداث يومه. لكنّه يفعل ذلك متعمّدا، لأنّه يدرك اهتمام ابن خالها لأمرها.. ويتمنّى لو أنّها تهتمّ أيضا. لكنّ طلب فراس لم يكن مفهوما على الإطلاق.

- هل حصل شيء؟ هل اتّصلت بك؟

- ليس تماما.. لقد اتّصلت على وجه الخطأ.

- على وجه الخطأ؟ ماذا قالت؟

- ستخبرك بنفسها لاحقا. لكنّني أعتقد أنّ الأفضل بالنّسبة إليها الآن

أن أختفي من الصّورة.. إنّها بحاجة إلى بعض السّلام النّفسي.. وكلّ ما حصل في الفترة الأخيرة يشكّل ضغطا عليها.

لم يفهم نجيب شيئا! لكنّه جارى فراس، وهو يخطّط للاستفسار من ليلى حين تتّصل لاحقا. سأله في فضول:

ـ هل تريد أن تعرف إن كانت تسأل؟

فكّر فراس لبرهة، ثمّ قال في حسم:

ـ لا.. سينطبق الأمر عليّ أيضا. لا تخبرني شيئا، إلّا إذا سألت!

ـ هل تفكّر في شيء محدّد؟

ضحك فراس. لم يكن واثقا ممّا يفعله. تحدّي إرادة؟ يختبر اهتمامها؟ يعطيها مساحة لتتأكّد من مشاعرها؟ أم يساعدها على نسيانه، ونسيان تجربة التباس هويّتها؟ ألم تسافر لتهرب وتنسى؟

ـ ليس بالضّبط.. إنّه مجرّد خاطر!

***

نزلت إلى مطعم المنتجع حوالي السّادسة صباحا. كانت تتضوّر جوعا. لم تكن قد أكلت شيئا منذ صباح الأمس. بعد إغماءتها القسريّة بين كثبان الثّلج، نامت خمس عشرة ساعة متّصلة، استردّت خلالها خلايا ذاكرتها الكثير ممّا كان في عداد المفقودين.

حين استعادت كامل وعيها، اكتشفت ما اقترفته. لقد اتّصلت بفراس! شعرت بالعار يجلّلها. كيف تجرّأت؟ وما الذي يظنّه بها الآن؟ على هاتفها، كان وقت الاتّصال شاهدا على وقاحتها. فكّرت في سخرية، الثّانية صباحا.. وقت مناسب للمخابرات الدّولية!

تناولت إفطارها على مهل، وقد تخلّلته فترات لا بأس بها من السّرحان. قبيل السّابعة والنّصف، نزلت مجموعة المركز إلى المطعم. دخل باورمان مع اثنين من زملائه، وبدا منهمكا في رواية تفاصيل الحادثة، للمرّة العاشرة ربّما منذ ظهر الأمس:

- رأيت قذيفة مقبلة في اتّجاهي.. قذيفة صاروخيّة لا يمكن إيقافها، لكن يمكن توجيهها على الأقل لتصيب هدفا أقل خطورة.. لوّحت لها وأشرت إلى المسار الأسلم.. لكنّها لم تهتمّ واندفعت إلى المنزلق الخطر.. وما هي إلا ثوانٍ حتى كان الارتطام المدوّي! انهارت الكثبان وردمتها تماما، لقد ظللنا نحفر في الثّلج أنا وإتيان ربع ساعة ربّما، حتّى أخرجناها.

في تلك اللّحظة، انتبه إلى وجودها في قاعة الطّعام، وقد دفنت رأسها في طبقها خجلا. اقترب منها ضاحكا:

- كيف حال قذيفتنا؟ أرى أنّك أصبحت بخير!

قبل أن تردّ، كانت سوسن قد وصلت مهرولة. بادرتها في عتاب:

- أنت هنا؟ لقد فزعت حين أفقت ولم أجدك في سريرك!

- لا شكّ أنّها كانت جائعة.. لم تأكل شيئا نهار أمس!

كان باورمان يواصل مداعبتها. وقفت معتذرة، وقد التهبت وجنتاها:

- سأكون في الخارج، وافيني حين تجهزين.

حملت طبقها وسارت في اتّجاه المخرج. فوجئت به يتبعها:

- ما الذي تنوين فعله؟

طالعته في استغراب.

- التزلّج!

- انسي الأمر! تعالي، عندي لك نشاط آخر يناسب قذيفة متحطّمة

على جدار ثلجيّ!

في الحديقة الخلفيّة للمنتجع، كان هناك سرير شبكيّ متأرجح، معلّق بين شجرتين.

- تفضّلي، سيكون هذا نشاطك الصّباحيّ.. تأمّل السّماء!

ضحكت. كانت أطرافها موجوعة بالفعل، ومفاصلها تئنّ، وصداع رأسها لم يذهب تماما. قدّرت أنّ الاقتراح لم يكن سيّئا في نهاية الأمر. هناك شيء آخر يمكن فعله في محطّة رياضات شتويّة، غير التزلّج! استلقت على السّرير، وتطلّعت إلى السّماء. كانت زرقتها شديدة الصّفاء، ولم تكن تتخلّلها سوى ندف بيضاء متفرّقة. حدّقت بعيدا، وشعرت ببصرها يسرح ويغوص في الزّرقة حدّ الدّوخة. سرعان ما استرخت عضلاتها، وأخذ نسق الأرجوحة يهدهدها. لم تشعر بخطوات باورمان وهو يبتعد، ليخلّفها تحلّق في عالمها.

بهدوء، أخذت مشاهد من ذاكرتها تنساب إلى وعيها. راحت تسترجع ماضيها، دون قلق أو اضطراب، مثل شابّة ناضجة تستعيد مواقف من طفولتها ومراهقتها، فلا تثير فيها سوى الحنين. كانت تتساءل، هل يغيّر اكتشاف ما كانت عليه شيئا في حاضرها؟ هل سيجعلها إرث سنواتها السّابقة المستردّ تتّخذ القرارات بشكل مختلف، أو تغيّر مواقفها؟ هل ستكون ليلى أخرى؟ لكنّها، في ذلك الوقت، على متن أرجوحتها، وفي كنف السّماء الصّافية الّتي تحتضنها، لم تشعر بأيّ اختلاف. لم تكن مجبرة على مواءمة حاضرها مع الماضي، لتستقيم هويّتها. لقد كانت ما كانت.. وهي الآن ما هي!

في أعماقها، كانت تشعر بموجات الارتياح تغمرها. لم تكن مضطرّة إلى أن تختار بين كونها حنان، أو كونها ليلى، أو كونها شخصيّة ثالثة ولدت بعد الحادثة. لقد كانت هي في كلّ تلك المراحل، كلّ منها شكل من أشكال وجودها، تجلّ مختلف لما تخفيه أغوارها السّحيقة. وكانت

كلّ مرحلة تخلّفها أكثر نضجا وأثبت قدما على متن الكرة الأرضيّة. هذا كل ما في الأمر. ابتسمت للسّماء، وفتحت ذراعيها لتعانق ذاتها القديمة الجديدة.

بعد برهة، فكّرت أنّ عليها الاتّصال بوالدها. ردّ منذ الرّنّة الأولى، وبدا في صوته القلق. انتابها الشكّ وهي تصغي إليه يستجوبها على غير العادة:

ـ أنت بخير؟ كلّ شيء على ما يرام؟

ـ هل اتّصل بك فراس؟

اغتنم نجيب الفرصة. لقد سألت، إذن بوسعه أن يخبرها دون أن يكون قد أخلّ باتّفاقه مع فراس! قال بسرعة:

ـ نعم، لقد اتّصل منذ ساعة.. وقال كلاما غامضا وغير مفهوم!

ـ ماذا قال بالضّبط؟

ـ قال إنّك اتّصلت على وجه الخطأ.

على وجه الخطأ؟ كادت ضحكة ساخرة تفلت منها. على وجه الخطأ! لو أنّها شاءت أن تجد لنفسها تبريرا، لما تجرّأت أن تدّعي اتّصالها على وجه الخطأ! لكنّه أوجد لها عذرا غريبا. سألت في فضول:

ـ وماذا أيضا؟

ـ طلب منّي ألّا أحمل إليه أخبارك بعد الآن.. وألا أحمل إليك أخباره أيضا.

استولت عليها الصّدمة. حسناء لقد كان من المفترض أن يكون هذا مطلبها هي منذ سفرها، بما أنّها كانت تريد الابتعاد والنّسيان. لكن أن يطلب فراس ذلك، والآن؟ لم تكن تجد تفسيرا. هل تراه يحسبها قد تغيّرت، بعد أن استعادت ذاكرتها؟ أم أنّ ليلى السّابقة لا تروقه؟ تذكّرت، لقد كان عدائيّا في فترة إقامتها الأولى عند خالها، ولم تتغيّر

معاملتـه إلّا حـين عـرف بفقدانهـا الذّاكـرة!

ـ ما الذي حصل بالضّبط؟

حاولت أن تضبط مسار أفكارها، لتقول مبتسمة:

ـ أبي، لقد استعدت ذاكرتي!

ـ ليـلى! هـذا لا يصـدّق! تهانينـا! هـذا أمـر يسـتدعي الاحتفـال! كيـف تشـعرين الآن؟ هـل أنـت بخـير؟ كيـف حصـل ذلـك؟ أخبريـني بـكلّ التّفاصيـل!

أخـذت تقـصّ عـلى والدهـا مغامـرة التزلّـج والارتطـام. ضحـكا طويـلا عـلى نزقهـا وتسرّعهـا، ثـمّ سـألت ليـلى فجـأة:

- كيـف عرفـت أنـذاك أنّ المتوفـاة هـي حنـان، رغـم التنكّـر؟ ألـم يـراودك الشـكّ في هويّـة النّاجيـة مـن التّوأمـين؟

ضحك نجيب وقال ببساطة:

- التنكّـر قـد يكـون مقنعـا حقّـا.. لكـن بعـد الحادثـة اختفـت آثـاره كلّهـا. النّظـارات تحطّمـت، والثّيـاب اسـتبدلت بثيـاب المستشـفى حـين دخلتمـا أنـت وحنـان قاعـات العمليّـات. حنـان رحمهـا الله نزفـت كثـيرا قبـل وصـول النّجـدة، ولـم يكـن إنقاذهـا ممكنـا. وقـد كنـت أنـا أفضلكـم حـالا. وبينمـا كنـت أنـت وفـراس في العنايـة المركّـزة، طَلـب مـنّي تأكيـد هويّـة الجثّـة. كان مـن اليسـير بالنّسـبة إليّ بـدون التنكّـر المربـك أن أميّز كلّا منكمـا. لكنّـني احتجـت إلى دليـل مـاديّ قاطـع حـتّى أجـزم في تلـك الظّـروف.. وقـد كانـت آثـار الإبـر عـلى ذراع حنـان ذاك الدّليـل

استـمرّت وصلـة اسـترجاع الذّكريـات المشـتركة ردحـا مـن الزّمـن. رغـم ذلـك، حـين أنهـت الاتّصـال، كانـت أقـلّ ارتياحـا ممّـا كانـت قبلـه. حاولـت أن تسـترجع مـا قالـه فـراس عـلى الهاتـف. لـم يبـد لهـا متغـيّرا أو مختلفـا.. لقـد حـاول أن يحتـوي انفعالهـا، تمامـا كمـا كان يفعـل في كلّ مـرّة قصّـت

عليه شيئا من كوابيسها. لماذا إذن؟

- ما زلت هنا؟ فتاة عاقلة!

أخرجها صوت باورمان من أفكارها. كان قد رحل منذ ثلاث ساعات، وهي لم تبارح مكانها. استقامت في حرج وقالت في امتنان:

- لقد كان نشاطا مفيدا.. شكرا لك!

- هل تفكّرين في التزلّج بعد الظهر؟

- ربّما.

- إذن من الأفضل أن تبقي مع المجموعة.. إن كنت ستجرّبين الحلبة السّوداء مجدّدا.

أومأت في رضا. لكنّها بشكل ما كانت قد فقدت شهيّتها لكلّ شيء. حاولت أن تقنع نفسها. سيكون ذلك للأفضل. ستنسى أمره تماما هذه المرّة.

***

بدا له اتّصال نجيب بعد ظهر اليوم نفسه مثيرا للشّكّ. لكنّه لبّى الدّعوة عن طيب خاطر. طرق الباب على السّاعة الخامسة بعد أن أنهى دوام عمله. فتح نجيب بأسارير متهلّلة ومزاج رائق. خمّن فراس أنّ خبر استرجاع ليلى ذاكرتها قد وصله لا محالة. قاده مضيّفه إلى غرفة المعيشة وجلس على الأريكة قبالته. على الطّاولة المنخفضة كان هناك جهاز حاسب آليّ مفتوح. قال نجيب في حماس:

- ليلى أرسلت صورا.. هل تريد أن تراها؟

ثمّ استدرك ضاحكا كمن تذكّر أمرا:

ـ لقد نسيت.. أنت لا تريد أن تعرف عنها شيئا! سأعود بعد لحظات.. شاي؟

أومأ فراس بابتسامة. بعد أن اختفى نجيب في المطبخ، حانت منه التفاتة عابرة، فوقعت عيناه على شاشة الحاسب الآليّ التي يظهر جزء منها من زاويته. دون عناء، يمكنه أن يميّز ألبوم صور تركه نجيب مفتوحا، عمدا أو سهوا. كانت تملأ الشاشة صورة ليلى، في بدلة تزلّج، وهي ترفع ذراعيها عاليا في حركة حماسيّة، والخلفيّة من ورائها مساحات ثلجيّة بيضاء. رفع حاجبيه دهشة. هو ذاك إذن! لقد استردّت ذاكرتها بسبب رحلة التزلّج! ضغط في اهتمام على لوحة المفاتيح ليتصفّح بقيّة الصّور. كانت هناك صورة جماعيّة، ليلى وزملاء عملها ربّما، أمام غرفة زجاجيّة متسلّقة.. ثمّ صورة أخرى، ليلى وإلى جوارها رجل فارع الطّول، ذو ملامح أجنبيّة. أغلق الصّورة على الفور وقد استولى عليه الضّيق.

ـ الشّاي!

حاول فراس أن يطرد مشاعر الاستياء التي انتابته ورسم ابتسامة ودودة وهو يتناول كوب الشّاي من نجيب ويقول:

ـ ما الذي أردتني من أجله إذن؟

ـ نعم، فلنتكلّم في المهمّ.. أريد أن أشتري قطعة أرض، أبني عليها عمارة سكنيّة ومكاتب.. جزء منها سيكون من أجل ليلى طبعا، حتّى تفتتح مشروعها الإعلاميّ الخاصّ بها.. ولم أجد غيرك أهلا للثّقة أعتمد عليه في هذه المهمّة..

هزّ فراس رأسه في اهتمام، ثمّ سأل:

ـ هل تفكّر في منطقة معيّنة؟ مساحة محدّدة؟

كان قد أخرج دفتره وراح يسجّل معايير نجيب وشروطه. حين

أنهى، سأله نجيب فجأة:

- كيف حال أمين؟ ألا ينوي زيارتنا قريبا؟

قال فراس ساخرا:

- إنّه يتعوّد تدريجيّا على حياة المدنيّة!

- هل يمكنني أن أخبر ليلى أنّه يعيش معك الآن؟ أعتقد أنّها ستهتمّ بمعرفة ذلك.

ثمّ أضاف ضاحكا:

- هذا خبر لا يعنيك بشكل مباشر!

ابتسم فراس، ثمّ قال بهدوء:

- أنت لا تأخذ طلبي على محمل الجدّ، أليس كذلك؟

كان من الواضح أنّ نجيب يأتي على ذكر ليلى في كلّ جملة بشكل مبالغ فيه، وكأنّ طلب الصّباح لم يكن! الصّور، ثمّ مشروع البناء الخاصّ بها، وأخيرا اهتمامها بأمر أمين. ابتسم نجيب وقال معترفا:

- عليّ أن أفهم أوّلا.. حتّى آخذه على محمل الجدّ!

تنهّد فراس، ثمّ قال بلهجة جادّة:

- سأكون أكثر وضوحا إذن! لعلّك تعرف أنّ ليلى التبست في هويّتها بعد الحادثة، وحسبت نفسها حنان لفترة من الزّمن.

- نعم، لقد ذكرت ذلك مرّة أو اثنتين، حين كنت في السّجن.. ثمّ لم تأت على ذكره مرّة أخرى، فظننت أنّ الشكّ قد ذهب!

- ليلى أمضت أكثر من سنتين، تعيش بذلك الاعتقاد.. أنّها حنان. ولم تتبدّد شكوكها إلّا منذ شهر تقريبا، قبل سفرها بأيّام قليلة.

- يا إلهي!

- طوال تلك الفترة، كانت حياة حنان تحاصرها، مثل قدر لا مفرّ

منه، لا خيار لها بشأنه.. تخيّل، أن تستيقظ ذات صباح، فتجد إلى جوارك زوجة، لا تذكر أنّك اخترتها أو خطبتها ولا كيف التقيت بها وتزوّجتها.. لكن لا مهرب من مسؤوليّتك تجاهها! هذا ما حصل مع ليلى بالضّبط.. فيما يخصّ علاقتي بها. هل تفهم ما أعني؟ لقد شعرت لكلّ ذلك الوقت، أنّ رجلا اسمه فراس، فرض عليها فجأة، وعليها تقبّل وجوده في حياتها، بلا حول لها ولا قوّة!

حدّق فيه نجيب في صدمة، بينما واصل فراس:

ـ إذن فإنّ أوّل ما تفكّر فيه بعد أن تبدّد الوهم وظهر اليقين هو أن تتخلّص من تبعات تلك الهويّة الوهميّة.. وهذا ما أبدو عليه بالنّسبة إليها.. رمزا من رموز النّظام السّابق، حين يتعلّق الأمر بثورتها!

قال ذلك بلهجة ساخرة ومرّة في آن.

ـ هل تفهم الآن، لماذا يجب أن أختفي من الصّورة؟ لقد تشبّثت بفرصة السّفر وهربت بأقصى سرعة، فرارا من الضّغط.. ولا يمكنني أن ألومها، بل لعلّي أتفهّم ولو بشكل متأخّر حاجتها إلى الابتعاد واسترداد أنفاسها. لذلك أسألك.. أن تفعل هذا من أجلها أوّلا.

أطرق نجيب في حيرة. هذا لم يكن يخطر له على بال.

ـ لكن.. هل انتهى كلّ شيء؟ ماذا بعد أن تنسى؟

قال فراس في استسلام:

ـ أنت تعرف، وهي تعرف أيضا، حقيقة مشاعري تجاهها. لم يكن هناك التباس من ناحيتي في أيّ وقت من الأوقات. لذلك سأنتظر، أن تصبح مستعدّة لتقبّل وجودي في حياتها مرّة أخرى!

ضرب نجيب كفّا بكفّ وهو يحوقل، ثمّ تنهّد.

ـ لعلّه خير!

كانت العودة إلى العمل بعد رحلة التزلّج مهمّة مضنية!

وصلت الحافلة إلى الجامعة قرابة السّاعة العاشرة مساء، وكانت ليلى قد أمضت رحلة الإياب كلّها نائمة تقريبا. ومع ذلك، فقد كانت تعاني من شدّ عضليّ في كلّ أنحاء جسدها صباح الاثنين. وقد طمأنها أنّ ذلك لم يكن حالها وحدها! في ممرّات المركز وفي قاعات الاستراحة، كان كلّ زملائها يشكون من آلام الظّهر والمفاصل!

على السّاعة العاشرة، حين دخل باورمان في جولته الصّباحيّة مثل عادته، لم تتمالك نفسها أن ابتسمت. كانت قد أمضت فترة ظهر يوم الأحد مع فرقة المحترفين. ثنائيّ فرنسيّ، إيطاليّ وثلاثة من الألمان من ضمنهم باورمان. وقد كانت رفقتهم مسليّة وممتعة أكثر ممّا توقّعت. لم تحلّق بشكل مندفع كما فعلت في يومها الأوّل، بل تحرّكت مع المجموعة بشكل منظّم، واستمعت إلى تعليمات مدرّبها الخاصّ، باورمان، بحذر وانتباه. لذلك لم يكن هناك المزيد من الحوادث.

- ما هذه الابتسامة الحالمة؟ سنركّز على العمل الآن! لا تنسي أنّني أنتظر تقريرك يوم غد!

ذلك الأسلوب الصّريح والمباشر، لقد ألفته الآن، لكنّها لا تملك إلّا أن تحمرّ خجلا في كلّ مرّة. فوجئت به يلقي بقصاصة على مكتبها. تطلّعت في فضول، فألفتها صورة. صورة لكومة ثلج تتخلّلها أطراف نافرة وزلّاجات متشقلبة!

- التقطها إتيان أوّل أمس!

احتاجت بضع ثوان لتدرك أنّها صورة ارتطامها! حين رفعت عينيها المشدوهتين، كان البروفيسور قد انصرف.

انكبّت على إنهاء تقريرها في تفانٍ، مستحضرة ملاحظاته السّابقة. وضعت عنوانا لتقريرها أعلى الصّفحة «خارطة اللّغات في زمن الثّورة»، ثمّ رسمت شبكة من الفقاقيع المتّصلة. فكّرت في اللّغة أوّل الأمر، اللّهجات بشكل أدقّ. كان بإمكانها تمييز عدد لا بأس به من اللّهجات التّونسيّة: لهجة العاصمة، ولهجات المناطق السّاحليّة والدّاخليّة والجنوبيّة. رسمت أسهما علائقيّة بينها، هي اتّجاه تدفّق تيّار الثّورة، من سيدي بوزيد، وصولا إلى تونس العاصمة. ثمّ أضافت لهجة المستعمر، اللّغة الفرنسيّة. لقد استعملها الثّوّار في اللاّفتات، وفي صرخة الاحتجاج الأكثر شهرة «ديقاج»، ارحل.

ثمّ تذكّرت نصيحته، تجرّدي! أضافت فقاعات أخرى.. لغة العقل، ولغة العاطفة، ولغة القانون، ولغة المواطنة، ولغة التّنمية الجهويّة. لقد تحدّث مختلف المتصدّرين للمشهد الإعلاميّ زمن الثّورة وبعدها تلك اللّغات، لمخاطبة الشّعب الثّائر، وتوجيه الرّأي العامّ. يمكنها أن تربط بشكل مباشر بين لغة التّنمية ولهجات المناطق الدّاخليّة التي اندلعت منها الثّورة. أمّا بالنّسبة إلى ما تبقّى، فعليها أن تضيف طبقة جديدة من الفقاقيع، تقابل فئات المجتمع.. المتضرّرون من النّظام السّابق، سيتكلّمون لغة الثّأر وتصفية الحسابات، والمتّصلون بالحزب الحاكم والمستفيدون منه سيتكلّمون لغة المصالحة والوطن للجميع. السّياسيّون سيتكلّمون حسب أجنداتهم الخاصّة والاتّفاقيّات فيما بينهم لغة العاطفة لكسب القواعد الشّعبيّة، ولغة العقل لمخاطبة النّخبة المثقّفة ولغة القانون لإثبات جدّيتهم أمام جميع الفئات!

نظرت إلى خارطتها التي أصبحت في فوضى الآن، وعبست. عليها أن تعيد رسمها من جديد، وتركّز على المعطى الثّاني.. وحدة اللّغة، والشّائعات!

إنّ وحدة لغة المناطق الدّاخليّة، لغة الحاجة إلى التنمية والشّعور بالتّهميش هو ما جعل كرة الثّورة تتدحرج وتشمل نطاقا واسعا من خارطة البلاد، قبل أن تشمل كامل التّراب التّونسيّ. لا يمكنها أن تجزم، هل كانت لغة العاطفة -التّعاطف مع البوعزيزي الذي أحرق نفسه- أم لغة العقل -لن نرفع الظلم إلّا إذا اتّحدت كلّ القوى الشّعبيّة- هي ما رجّح الكفّة وأدّى إلى اندلاع شرارة الثّورة؟ ليس من السّهل أن تحلّل نفسيّات مئات الآلاف من الأشخاص الذين اندفعوا إلى الشّوارع محتجّين. ربّما هو مزيج من هذا وذاك. وربّما هو شيء آخر تماما، مثل ذلك الذي شعرت به حين جرّبت بنفسها الخروج في المظاهرات.

ربطت بين شرارة الثّورة، وكلّ من لغات العاطفة والعقل والمواطنة مع فقاعة أخرى ظلّلتها بلون خاصّ. لغة الظّروف الشخصيّة! لا شكّ أنّ لكلّ شخص في ذلك الحشد أسبابا شخصيّة لا يعلمها أحد، تفسّر اتّخاذه قرارا في تلك اللّحظة للانضمام إلى الثّورة! لا شيء يمكن أن يفسّر الاستنفار العامّ الذي حصل. كان يمكن أن يمرّ الخبر مرّ الكرام. رجل أحرق نفسه، ثمّ انتهى الأمر! عليها أن تعترف، لا تقوم ثورة كلّ يوم من أجل رجل أحرق نفسه! مازالت تذكر في مرارة مشهد احتراق منتصر أمام ناظريها، إزاء تجاهل ولامبالاة عامّة. لقد كان هناك هاجس فرديّ خفيّ، هو ما جعل كلّ واحد من أولئك الذين خرجوا إلى الشّارع يستيقظ صباحا ويقرّر أنّه يريد أن يكون جزءا من الحراك الجماعيّ! ظرف إنهاك، استنزاف ماديّ، إحساس بالظّلم، مشاكل اجتماعيّة، أزمة عاطفيّة.. لكلّ واحد منهم زرّه الدّاخليّ

الخاصّ الذي ضُغط في ذلك الوقت بالذّات اتّفاقا!

توقّفت، وفكّرت مرّة أخرى. وحدة اللّغة، الشّائعات.

هل كانت الثّورة مجرّد شائعة في بدايتها؟ هل كانت فكرة إسقاط النّظام وليدة خرافة صدقتها الحشود بسذاجة؟ هل كان يحلم أحدهم بأن يرضخ الرّئيس ويتنحّى؟ ليست تونس بلدا ديمقراطيّا يسقط الوزراء فيه والرّؤساء بسبب المظاهرات! بل ديكتاتوريّة عريقة منذ زمن الاستقلال تُحكم بيد من حديد. بعد قرابة ثلاث سنوات من الثّورة، تقول الوثائقيّات التي تنقل وقائع ليلة ١٤ يناير، أنّ التنحّي لم يكن مطروحا.. بل مجرّد تهدئة للأوضاع وتقديم وعود بالتّنمية وتنازل عن التّرشّح لدورة رئاسيّة جديدة.

كيف.. كيف أصبحت الشّائعة حقيقة؟

أنهت تقريرها، وطوت الصّفحة.. لكنّ التّساؤلات لازمتها. حين جلست مع سوسن ونزار في فترة الاستراحة، سألت في اهتمام:

- هل يمكن أن تكون فكرة الثّورة مجرّد شائعة في البداية؟

بعد لحظات تفكير، قالت سوسن في سخرية:

- أظنّها شائعة حتّى النّهاية!

ضحك نزار وقد مرّت إليه عدوى السّخرية:

- ما هي الثّورة أصلا؟ إن كانت نجاح الشّعوب في تقرير مصيرها من خلال حركة احتجاجيّة، فهي شائعة بالتّأكيد!

فكّرت ليلى، مصطلح الثّورة تاريخيّا يطلق على الحركات الاحتجاجيّة التي تصنع تغييرا.. مثل الثّورة البلشفية أو الثّورة الفرنسيّة.. أمّا تلك الاحتجاجات التي تنتهي مقموعة، فهي توصف بأعمال الشّغب أو الانتفاضات الشّعبيّة. من هذا المنطلق، هل يمكن أن تُسمّى الثّورات

العربيّة ثورات من الأساس؟ كانت تستوعب سخرية زميليها. الثورة مجرّد شائعة، إذا استمرّ النظام يذبّح الشّعب ويهجّره حتّى اللّحظة!

عادت إلى أوراقها، وكبّرت رقعة بحثها. إذا خرجت من نطاق الحدود التّرابيّة التّونسيّة، سترى موجة الثّورة التي صُدّرت إلى البلدان الشقيقة، أو استنسخت، فخرجت في صورة مشوّهة. البلدان العربيّة التي تتكلّم اللّغة نفسها، لغة الضّاد، تتكلّم كذلك حكوماتها لغة الدّيكتاتوريّة وحكم الفرد.. تفشّت شائعة الحريّة، انطلاقا من سيدي بوزيد، وتلقّفتها الشّعوب المجاورة بلهفة، وصدّقتها. لكنّها ظلّت مجرّد شائعة في معظم البلدان التي جرّبت حظّها!

رتّبت أفكارها، وفصلت الخرائط بشكل واضح.. خارطة اللّهجات وانتشار الثورة داخل تونس، ثمّ شائعة الثّورة وتدحرج كرة الخيبات العربيّة، وأخيرا، خارطة اللّغات المجرّدة وتأثيرها على صناعة الرّأي العام. كانت أكثر رضا هذه المرّة.

في الغد، وقفت أمام باورمان في اعتداد. شرحت وجهة نظرها وطريقة استنباطها للخرائط، ثمّ توقّفت عند التّساؤلات المعلّقة. قرأت الاهتمام على ملامح مشرفها، ثمّ أنارت الابتسامة وجهه وقال مهنّئا:

- بعض النّقاط تحتاج تعمّقا أكثر، لكنّها بداية طيّبة!

-٢٦-

بعـد أسـبوعين، حـين أنهـت اجتماعهـا مـع باورمـان، سـألها فجـأة وبـدون مقدّمـات:

- هل تجيدين الطّبخ؟

تـردّدت، وتسـاءلت عمّـا يفكّـر فيـه بالضّبـط. هـل تـراه يزمـع دعـوة نفسـه للعشـاء عندهـا؟ لـم تكـن لتستغرب جـرأة كهـذه منـه. لقـد باتـت تعـرف أنّـه لا حـدود لجنونـه! ضحكـت في عصبيّـة وقالـت في إحـراج:

- ليس كثيرا.. بعض الوجبات البسيطة، لا أكثر!

- مثل ماذا؟

إنّه يصرّ على إحراجها. تمتمت في ضيق:

- بعض السّلطات والمشويّات والمعكرونة.

- المشويّات، هذا سيفي بالغرض.

حدّقـت فيـه غـير مسـتوعبة، بينمـا ضرب بكفّيـه عـلى ركبتيـه وقـال معلنـا:

- استعدّي لحفل شواء يوم الجمعة، في ساحة المركز!

هتفت في ذهول:

- هل سأعدّ الشّواء لكلّ موظّفي المركز؟

- ليس تماما. ستكون مسابقة، بيني وبينك. من يبِع أكثر هو الفائز.

- يبيع؟

شرح باورمـان الفكـرة. سـيحضّر كلّ منهمـا مشـويّاته، مـع مقبـلات

مختلفـة، ويعرضهـا بشـكل مغـرٍ كأطبـاق غـداء. مـن ينجـح منهمـا في تسـويق كميّـة أكـبر يكـون المنتـصر في التّحـدّي. كلاهمـا سـيحدّد قائمتـه وسـعر البيـع الخـاصّ بـه. سـألها في اهتمـام:

- هل تستطيعين تحضير مقبّلات أو صلصات تونسيّة أصيلة؟

فكّرت لبرهة، ثمّ قالت ضاحكة:

- هريسة الفلفل الأحمر الحارّ مثلا؟

- هـذا يبـدو مناسـبا. أيّ شيء مختلـف وخـاصّ بموطنـك سـيكون مفيـدا للتّجربة.

لـم تسـأل، مـا هـي التّجربـة بالتّحديـد. سـتفهم في وقـت لاحـق، مثـل العـادة.

عـادت إلى المكتـب وأعلنـت حالـة الاسـتنفار الشّـاملة. أخـذت معهـا سوسـن ونـزار وخرجـت للتسـوّق. مـرّت عـلى متجـر اللّحـوم، والبقالـة وسـوق الخـضر، واقتنـت مـا يلزمهـا مـن أجـل الوصفـات. في المسـاء، اتّصلـت بوالدهـا وسـجّلت تعليماتـه بخصـوص تحضـير المقبّـلات الـتي تنـوي إعدادهـا.. ورق البريـك المحشـوّ والمقـليّ، سـلطة الخضـار المشـويّة بالفلفـل الحـارّ، سـلطة الجـزر والثّـوم بهريسـة الفلفـل الحـارّ. كانـت سوسـن قـد تطوّعـت بتحضـير محـشيّ الملفـوف المـصريّ، بينمـا تعهّـد نـزار بتوفـير محـشيّ ورق العنـب الشّـاميّ والكبّـة!

صبـاح الجمعـة، كانـت صناديـق مقبّلاتهـا الشـهيّة جاهـزة ومعبّـأة بعنايـة. طالعتهـا في فخـر واعـتزاز ثـمّ أنهـت تصفيـف قطـع اللّحـم المتبّـل ببهـارات شرقيّـة، وانطلقـت في اتّجـاه المركـز.

عـلى السّـاعة الحاديـة عـشرة، خرجـت إلى السّـاحة، حيـث كان باورمـان قـد اهتـمّ بنصـب معـدّات الشّـواء. رصفـت صناديقهـا وجهّـزت الصّحـون والشّـوكات البلاسـتيكيّة، ثـمّ شرعـت في شـواء قطـع النّقانـق الحـارّة،

ولحـم الكفتـة المتبّـل وشرائـح لحـم الضّـأن. كانـت قـد قطعـت شـوطا لا بـأس بـه في مهمّتهـا، حـين ظهـر باورمـان يسـير عـلى مهـل وهـو يؤرجـح ثلّاجـة اللّحـم المحمولـة. توقّـف عندهـا وألقـى نظـرة انبهـار عـلى معدّاتهـا وأطباقهـا، مـلأ رئتيـه برائحـة الشّـواء ثـمّ هتـف مهنّئـا:

- هذا يبدو شهيّا.

ابتسمت ليلى في ثقة. إنّها شهيّة بالفعل.

- سأبدأ العمل إذن، حظّا موفّقا.

بسرعـة، اتّخـذ باورمـان مكانـه، وأخـرج شرائـح لحـم البقـر الطريّـة وشرع في شـيّها. راقبتـه ليـلى في اهتمـام. لـم يكـن في حقيبتـه شيء عـدا قواريـر الصلصـات الجاهـزة، وسـلطة خـسّ وطماطـم بسـيطة. هـل يمازحهـا؟ لقـد أمضـت أمسـيتين تعمـل عـلى مقبّلاتهـا التّونسـيّة، وجنّـدت زميليهـا لتحضـير وصفاتهمـا التقليديّـة الأصيلـة، وهـو يواجههـا بسـلطة وصلصـات السـوبر ماركـت؟

لا يهمّ. هذا سيجعل الفوز أيسر بالنّسبة إليها.

عـلى السّـاعة الثّانيـة عـشرة، بـدأ الموظّفـون في التّوافـد عـلى السّـاحة. كان باورمـان قـد أعلـن بالأمـس عـن حفـل الشّـواء، وطلـب مـن الجميـع التفاعـل مـع الحـدث وتنـاول وجبـة غدائهـم في سـاحة المركـز. بسرعـة، تحلّـق عـدد كبـير مـن الموظّفـين حـول محطّـة شـوائها، في فضـول واهتمـام. كانـت قـد علّقـت لافتـة بسـعر الوجبـة، خمسـة عـشر يـورو. كان السّـعر مدروسـا، باعتبـار كلفـة المـواد الأوّليـة والجهـد المبـذول في الطّبـخ، وهامـش ربـح بسـيط.

تلقّـت طلبـات كثـيرة في الدّقائـق الأولى، وانضمّـت إليهـا سوسـن لتسـاعدها في توزيـع الأطبـاق وقـد تهافـت الجميـع عـلى قائمـة طعامهـا الشرقيّـة المسـيلة للّعـاب. كان بوسـع كلّ مشـترٍ أن ينتقـي نوعـين مـن

اللّحوم وثلاثة أصناف من المقبّلات حسب رغبته. في المقابل، كانت محطّة باورمان شبه خالية، عدا عدد قليل من زملائه كانوا يمازحون بينما يواصل تحريك مروحته على اللّحم الذي تأخّر نضجه. رمقته ليلى في سخرية، ما كان عليه الاستهانة بها والمجيء متأخّرا. ستسبقه في التحصيل لا محالة.

بعد انقضاء نصف السّاعة الأولى، كان تهافت الشّراء قد خفت، وبدأ الموظّفون يتفرّقون من حولها. مرّت بضع دقائق من الخمول، لم تبع خلالها طبقا واحدا، بينما شرع تيّار المشترين يتّجه إلى محطّة باورمان. تطلّعت في دهشة. كانت شرائحه جاهزة الآن، قطع شهيّة مشويّة بعناية، يرفعها من الشّبكة المعدنيّة بحركة بهلوانيّة ماهرة، يرميها في الهواء ثمّ يتلقّاها برشاقة، يضعها على الطبق ويرسم فوقها أشكالا من الصّلصة! كان يقدّم عرضا متكاملا، يحصد الإعجاب من الجميع!

خلال الدّقائق التي تلت، انقلبت الموازين. كانت كميّة باورمان تنفد بسرعة، بينما مازالت صناديقها ملأى. كان سعر طبق باورمان أقلّ من سعر طبقها بثلاثة يورو، وهو أمر مفهوم نظرا للمكوّن الوحيد الذي يحويه الطّبق، وهو اللّحم! فليكن، ستجرّب تخفيض سعرها أيضا تماشيا مع المنافسة. ثمّ فكّرت في غيظ، أيّ عرض يمكنها أن تقدّم لتشدّ انتباه الزّبائن؟ كان من العبث أن تحاول رمي قطع اللّحم في الهواء، ستنتهي كلّها على الأرض!

على السّاعة الواحدة والنّصف، أخذت ليلى تجمع ما تبقّى من الأكل في وجوم. كان الموظّفون قد عادوا جميعا إلى مكاتبهم. اقترب باورمان مبتسما وقال:

- هل يمكنني الحصول على طبق؟

رفعت رأسها وطالعته بنظرة متشكّكة، ثمّ عبّأت طبقا بسخاء، فقد كان ما لديها كثيرا. أخذ باورمان يتناول وجبته بهدوء، بينما انهمكت ليلى في تنظيف المكان من مخلّفات تجربة الشّواء. سمعته يقول:

- هذا اللّحم لذيذ، لكنّ تتبيلته لاذعة، وغير مناسبة للذوق الألمانيّ، والأوروبيّ بشكل عام.

قالت في اعتراض:

- لقد خدعتني! لقد طلبت أن أعدّ صلصة الفلفل الحارّ!

- نعم، لقد فعلت. ليس بنيّة خداعك، ولكن من أجل التّجربة! تعالي نحلّل ما حصل.

تقدّم باتّجاه سلّة الفضلات وألقى نظرة. قال آمرا:

- اقتربي!

أطلّت ليلى بدورها. كان نصف أطباقها ينتهي تقريبا إلى السلّة! دقّقت النّظر، الصلصات الحارّة، المحاشي، الكفتة المتبّلة.. كانت تلك المكوّنات التي لم تلائم ذائقة زبائنها. بينما كانت صحون باورمان نظيفة تماما، وقد التهم زبائنه كلّ ذرّة من مكوّنات الطّبق!

كان يجب أن تعلم. كلّما كان الطّعام غريبا ومختلفا، انخفضت حظوظه في نيل إعجاب أكبر قدر من المعجبين! هناك من الأوروبيّين من يحبّذ الأطعمة الشرقيّة وتتبيلاتها اللّاذعة، لكنّها ليست القاعدة. القسم الأوفر منهم يفضّلون المذاق المعتاد البارد لوجباتهم الاعتياديّة.

- في البداية، كان هناك إقبال على أطباقك الغريبة، من باب الفضول والتّجربة.. ثمّ تناقص شيئا فشيئا حتّى اختفى. هذا ما يسمّى بخوارزميّة خليّة النمل. في البداية، يجرّب النمل كلّ مصادر

الغـذاء، ويبحـث عـن أفضلهـا. ومـع الوقـت ينتظـم النّمـل كلّـه عـلى خـطّ واحـد في اتّجـاه المصـدر المناسـب. ولقـد كانـت شرائـح العجـل الـتي أعددتهـا مناسـبة لمعـدة النّمـل في المركـز!

أومأت ليلى في اقتناع، في حين أضاف باورمان:

- سأنتظر تحليلك، كالعادة.

***

رغـم فشلها في تحـدّي الشّـواء، فقـد أمضـت ليـلى أمسـية طيّبـة. كانـت قـد دعـت زملاءهـا العـرب والآسـيويّين -ممّـن تحتمـل معدتهـم الوجبـات الحـارّة- عـلى وجبـة عشـاء سـخيّة بعـد انتهـاء الـدّوام. في سـاحة المركـز، جلسـوا يتسـامرون أمـام أطبـاق الشّـواء والمحـاشي والسّـلطات اللّاذعـة. اسـتمرّت الأجـواء مرحـة ومنبسـطة، حـتّى قـال نـزار ضاحـكا وهـو يلتهـم قطعـة ورق عنـب ملفـوف:

- هـذا منطقـيّ، مـن لـم يتعـوّد عـلى التعامـل مـع النّـار، فسـيحرق حتمـا أصابعـه!

كان الجميـع يعـي تمامـا مـا يرمـي إليـه نـزار. ولـم تكـن الضّحكـة المفتعلـة إلّا تمويهـا لحقيقـة مـا يمـور بـه باطـن الشّـابّ، الـذي فقـد في السّـنوات الأخـيرة وطنـا وعائلـة وسـندا وانتمـاءً، مـن حـسرة وحنـين. لـم تكـن الأخبـار الـتي تصـل عـن الثّـورة السّـوريّة ومـا آلـت إليـه المـدن والقـرى مـن دمـار، والشّـعب من تـشرّد وفاقـة، مطمئنـة أبـدا. الإحصاءات تعـدّ أكـثر مـن مليـون سـوريّ قـد فقـدوا المـأوى منـذ انـدلاع شرارة الثّـورة الحارقـة. الآن، يسـخر نـزار مـن سـذاجة قومـه الذيـن أقدمـوا عـلى اللّعب بنـار أحرقـت بيوتهـم وأجسـادهم كلّهـا، لا أصابعهـم وحدهـا!

علّقت نجاة في جدّيّة:

- هـذا ليـس منطقيّـا أبـدا! والأمـر هكـذا، هـل يجـب عـلى الشّـعوب أن تستسـلم لجلّاديهـا في خنـوع ولا تقـاوم، حـتّى لا تحـترق بنـار الثّـورة؟ تلـك ضريبـة وجـب أن تُدفـع عـلى طريـق الحريّـة!

كانـت النّظـرات في عيـون نـزار وسوسـن وفـوزي تتمايـز في درجـات المـرارة والسّـخرية. لقـد دفعـت مـصر وسـوريا وليبيـا واليمـن حـتّى ذلـك الوقـت ثمنـا فادحـا لحريّـة لـم تُكتسـب! كان مـن اليسـير عـلى نجـاة أن تنظّـر، وقـد عاشـت أكـثر الثّـورات سـلميّة وأقلّهـا دمويّـة وخسـائر بشريّـة.

لـم تكـن ليـلى قـادرة عـلى مواجهـة زملائهـا بنفـس الجـرأة. إنّهـا لا تعـرف تلـك التّجربـة، أن تكـون مـشرّدا في وطنـك، عـدوّا لحكومتـك، ضحيّـة الأيـدي الـتي يفـترض بهـا حمايتـك.

رجعـت إلى شـقّتها بالسّـكن الجامعـيّ، وهـي مشـغولة التّفكـير بتجربـة باورمـان، وعلاقتهـا بالثّـورات المعلّقـة والمنهكـة. كانـت متعبـة بعـد يومهـا الحافـل. لكـنّ مزاجهـا اعتـدل فجـأة، حـين رنّ هاتفهـا. كان أمـين. عرفـت منـذ الوهلـة الأولى أنّ شـيئا مـا قـد تغـيّر. أمـين الـذي يفـرّ عـادة مـن مواجهـة عتابهـا ونقدهـا يبـادر بالاتّصـال! لا شـكّ أنّـه يحمـل مفاجـأة مرضيـة. قـال في ثقـة:

- لقد تطوّعت للجنديّة.. سألتحق بوحدتي الأسبوع المقبل.

كان قـد وفى بوعـده. تـرك حيـاة التـشرّد، واتّخـذ قـرارات حكيمـة بخصـوص مسـتقبله. ابتسـمت وهـي تقـول:

- لقـد عرفـت أنّ الجيـش يناسـبك، منـذ رأيـت انضباطـك وحماسـتك في الفرقـة الكشـفيّة.. تهانينـا.

شعرت بالحماس يسري في صوته وهو يردف:

- لقـد فكّـرت جيّـدا، ووجـدت أنّ الالتحـاق بالجيـش هـو فرصـتي

الوحيدة المتبقّية لاستكمال أحلامي الثّوريّة! لقد كان الجيش حاضرا، جنبا إلى جنب مع الشّعب في كلّ المناسبات الحاسمة.. واتّخذ القرارات المناسبة لدعم الثّورة الشّعبيّة. أشعر الآن أنّني أريد الانتماء إلى هذه المؤسّسة النّبيلة والقويّة، لأكون قادرا في المستقبل على حماية من يهمّني أمرهم.

كانت هناك صور انتشرت في فترة الثّورة، وتناقلتها مواقع التّواصل بكثافة، لسيّدة عجوز تقبّل يد جنديّ امتنانا لمواقف الجيش الجليلة وحمايته للمتظاهرين، وأخرى لطفل يتطاول على أطراف أصابعه ليقدّم وردة عرفانا لجنديّ يعتلي دبّابة. كانت رمزيّة الجيش حاضرة بقوّة في وجدان الشّعب. وكان هناك تثمين إعلاميّ وشعبيّ على مرّ السّنوات الماضية لبقاء الجيش على الحياد وتجنّبه الخوض في دهاليز السّياسة.

ابتسمت ليلى وهي تستمع إلى أحلام أمين الشّاعريّة والمثاليّة. لم يتغيّر فيه شيء، مثل طفل يحتفظ بصندوق أمنياته، يفتحه كلّ مساء ليتأكّد من بقاء قصاصاته الملوّنة في جوفه، ثمّ يغمض عينيه وينتظر أن تتحقّق. هكذا هو أمين. إنّها تحسده على براءته التي لم تفارقه وهو على أبواب الثّلاثين، وعلى طفولة قلبه التي لا تشترى بثمن.

صباح الغد، دخلت المكتب بابتسامة واسعة. كان اتّصال أمين مصدر بهجتها. جلست أمام أوراقها، ثمّ استسلمت لفيض الأفكار التي تزاحمت في رأسها. كان عليها أن ترتّبها وتسكبها على الورق، وتعدّ تقريرا متماسكا يرضي مشرفها صعب المراس.

لازمها مثال «خليّة النّمل». تدبّ نملات طوال النّهار في رأسها على مسار واحد، تلاحق إحداها آثار الأخرى. الأفراد داخل الوطن الواحد، والشّعوب في البلدان المختلفة، هل كانت مثل النّمل، يتتبّع

بعضها خطى البعض الآخر؟ لقد بدا مسار الثّورة مغريا، لتلك النّملات/الشّعوب التي راقبتها نظيراتها وقد سبقت بتنفيذ التّجربة، ووجدت «مصدر الطّعام» المناسب لها.. الحريّة! لكنّها سرعان ما أدركت أنّ الوجبة التي لاءمت معدة الجارة كانت لاذعة للغاية بالنّسبة إلى معدتها!

تفرّقت النّملات وتشرذمت، ولم يبق من سابق وحدتها إلّا الأثر.

بعد يومين، وهي تشرح تحليلها أمام باورمان، انتابها إحساس غريب بالضيق. قالت فجأة بعد أن فرغا من نقاش التّجربة:

- هل يمكن أن أسأل، ما هو الهدف من كلّ هذا؟

- الهدف من ماذا؟ التّجربة؟

- أقصد، هذه الدّراسة.. عن الثّورات العربيّة!

ابتسم باورمان، كان يشعر بأنّها قد اقتربت أكثر من عالمه وهي تواجهه بذلك السّؤال الصّريح.

- دورنا كأكاديميّين هو أن نحلّل الظّواهر والأحداث والتحرّكات الشعبيّة، ونستنبط منها قراءة للواقع، للمجتمعات، وللتحوّلات التّاريخيّة، ونضع نظريّات وتوقّعات استشرافيّة للمستقبل.

- لكنّني لست أكاديميّة، أنا صحفيّة! ودوري هو تبليغ المعلومة، توجيه الرّأي العام ورفع مستوى الوعي!

- نعم، هذا جزء من دورك، وبوسعك، كصحفيّة قادرة على التّحليل والغوص فيما تحت سطح الحدث، أن تكوني أكثر تأثيرا وتألّقا!

سكتت لبرهة، ثمّ قالت تستدرك:

- لم يكن هذا مغزى السّؤال. هذه التّجارب وما ينجرّ عنها من تحليلات واستنتاجات.. أنت تعرفها كلّها مسبقا، ويمكنك أن تكتب

الدّراسـة بنفسـك، لتكـون عـلى قـدر مـن الاحـتراف والدّقّـة.. فلمـاذا تضيّـع وقتـك الثمـين معـي؟ تفتعـل التّجـارب لتقـودني في مسـار تـدرك نتائجـه تمامـا؟

- هـذا ليـس صحيحـا. أنـا لا أدرك النتائـج تمامـا! قـد أبـدأ التّجربـة بفكـرة معيّنـة، ثـمّ تنتهـي إلى نتيجـة مغايـرة! وتلـك مـيزة التّجـارب التّفاعليّـة. إنّهـا لا تتوقّـف عـلى مـن يضـع بنودهـا وقواعدهـا، بـل عـلى مـن يفـكّ رموزهـا ويسـبر أغوارهـا! كـم مـن سـؤال يطرحـه الأسـتاذ في الاختبـار، وهـو يضـع إجابـة نموذجيّـة في رأسـه، ثـمّ يفاجئـه الطّلبـة بفهـم مختلـف وإجابـات غريبـة وإبداعيّـة. هـذا هـو شـأننا تمامـا. أنـت لسـت أداة في هـذه الدّراسـة، أنـت تصنعينهـا!

لانـت ملامحهـا قليـلا. كانـت مخلّفـات أمسـية الأمـس قـد تكاتفـت مـع اسـتنتاجات التّجربـة المـرّة لتعمـل عـلى إحباطهـا. اسـتمعت إلى باورمـان وهـو يواصـل:

- التّجربـة نفسـها، مـع شـخص آخـر، كانـت لتعطـي نتائـج مختلفـة. طبيعـة انتمائـك وإيمانـك بقضايـا بعينهـا، يجعلـك تفكّريـن بطريقـة خاصّـة. أنـت تفكّريـن بعقلـك وقلبـك وذاكرتـك وآمالـك، بـكلّ ذاتـك! بينمـا أفكّـر أنـا بشـكل محايـد وأكاديمـيّ بحـت، بـلا مشـاعر أو دوافـع شـخصيّة.

ضحكت، ثمّ قالت في شك:

- وهل هذا شيء جيّد، أن أفكّر بمشاعري؟!

- ليس تماما!

ضحك بدوره ثم أضاف بجدّيّة:

- لا ضرر مـن المشـاعر، مادامـت تدفعـك إلى نقـد الواقـع بغـرض الإصـلاح.. لكنّهـا تصبح خطـرة حـين تشـدّك إلى مركـز الدّفـاع، غـيرة عـلى

مـا تحبّـين، ورفضـا للاعـتراف بالخلـل!

-٢٧-

مـرّت الشّـهور متسـارعة، وغرقـت في روتـين العمـل، المثـير لا الرّتيـب! لقـد كان في جعبـة البروفيسـور باورمـان المزيـد مـن المفاجـآت مـن أجلها، والكثـير مـن التّجـارب الـتي تتخـذ منهـج بحـث غـير تقليـديّ عمـادا لهـا. شـعرت في تلـك الفـترة أنّهـا تعيـش تجـارب حياتيّـة مكثّفـة، وتـتزوّد بتقنيـات دراسـة للنّفـس البشريّـة، تكيّفهـا وردود أفعالهـا، لا عهـد لهـا بهـا. كان باورمـان يسلّحها بأسـاليب جديـدة عليهـا تطبيقهـا في تحقيقاتهـا الصّحفيّـة في وقـت لاحـق.

عـادت مسـاء الجمعـة إلى شـقّتها بالسّـكن الجامعـيّ، واسـتعدّت ليومين مـن الاسـترخاء والكسـل. كانـت قليـلا مـا تغـادر السّـكن، تتسـوّق مـن المتجـر الصّغـير آخـر الشّـارع حاجياتهـا القليلـة، وتقـضي نهارهـا ممـدّدة عـلى الأريكـة، محتضنـة حاسـبها الآليّ، أو تطالـع كتابـا. أحيانـا تزورهـا سوسـن، فتمضيـان جـزءا مـن الأمسـية أمـام شريـط مـا، وفي صبـاح الأحـد، تتمشّـيان سـاعة أو نحوهـا في طرقـات الحديقـة.

تناولـت عشـاءها بمفردهـا، وهـي تتصفّـح أخبـار السيّاسـة التّونسـيّة. لقـد كان والدهـا يقـرأ عليهـا كلّ صبـاح عـلى مائـدة الإفطـار مقـالات المنافسـة، وقـد عزفـت عـن متابعـة المسـتجدّات لفـترة بعـد وصولهـا إلى هامبـورغ. والآن، عـادت لتتابعهـا بشـغف، كأنّمـا تعـوّض نقصهـا، تسـدّ فـراغ الوجبـات الخاليـة مـن الرّفقـة، تقـرأ الأخبـار وتتخيّـل صـوت والدهـا يلقـي بهـا عـلى مسـمع منهـا.

في السّـاعة الثّامنـة، اتّصلـت بـه. هـذا جـزء مـن الرّوتـين اليومـيّ. اتّصـال يـدوم بضـع دقائـق، تطمـئن عـلى الأحـوال وتسـمع الجديـد والمثـير في

حياة السّفير السّابق ورجل الأعمال المتقاعد، ثمّ تتلو تقريرا مختصرا عن تقدّم مهمّتها البحثيّة، وربّما تسرد بعض النّوادر أيضا.

أصغت طويلا إلى رنين الجرس على الجانب الآخر، دون ردّ. فكّرت، هل يكون قد أوى إلى فراشه مبكّرا اللّيلة؟ أم تراه غلبه النّعاس على الأريكة وهو يشاهد برامج المساء؟ لم يسبق له أن فوّت مكالمتها المعتادة. أعادت الكرّة بضع مرّات، ثمّ فكّرت. لا شكّ أنّه مشغول الآن. سيتّصل بها لاحقا، حين يجد اتّصالاتها الّتي لم يردّ عليها.

ما إن فتحت عينيها في الصّباح التّالي، حتّى تلبّدت سحب القلق في رأسها. تحقّقت من هاتفها. ما من اتّصالات واردة. غلبها النّعاس بالأمس دون أن تتمكّن من الحديث إليه. غادرت إلى الجامعة في وجوم، وانغمست في أعمالها على الفور، محاولة ألّا تنجرف إلى منحدرات المخاوف والظّنون. كان الوقت لا يزال مبكّرا لتتّصل. ربّما يفزع إن رنّ هاتفه صباحا على غير العادة.

حوالي السّاعة العاشرة، تركت مشاغلها واتّصلت من جديد.. دون جدوى. هذه المرّة، تسلّلت الهواجس لتحتلّ مساحات وعيها. لم تستطع أن تركّز في شيء من عملها بعد ذلك. داومت على الاتّصال كلّ بضع دقائق، وقد استبدّ بها التّوتّر. ثمّ راودها خاطر. لو أنّ شيئا ما أصاب والدها، بمن يمكنها الاتّصال لطلب المساعدة؟ لامت نفسها لأنّها لم تحصل على رقم جارتها أمّ أحمد!

كانت تجرّب الاتّصال مرّة أخرى، حين فتح الخطّ فجأة، وجاءها صوت رجل:

- ليلى؟

- أين أبي؟ هل هو بخير؟

قال فراس مطمئنا:

- إنّه بخير الآن.

- ما الذي حصل؟

ساد الصّمت لبرهة. بدا أنّه يفكّر في جدوى إخبارها أو إخفاء الوقائع عنها. حسم أمره أخيرا وقال:

- غيبوبة سكّر.

شهقت في فزع. إنّها تعرف عشقه للحلويّات، مع أنّه انتظم أخيرا والتزم بالنّظام الغذائيّ الذي أمر به طبيبه. فكيف ينساق في طيش مع شهواته حتّى يصل إلى الغيبوبة!

- وضعه مستقرّ الآن، لا داعي للقلق.

- كيف.. عرفت بالأمر؟

- حين اتّصلت به بالأمس ولم يردّ، جئت لزيارته. حارس العمارة فتح الباب بعد أن طرقت طويلا بلا طائل.. حين دخلت إلى الشّقة وجدته مغمى عليه. أخذته إلى الطّوارئ، وقد تمّ التعامل مع وضعه سريعا.. لقد استقرّ تماما الآن.

استمعت إلى روايته للفاجعة في اضطراب، ثمّ قالت بسرعة:

- سأركب الطّائرة في أقرب وقت.. سأحاول الحجز هذا المساء.. هل يمكنك الاعتناء به حتّى ذلك الحين؟

قاطعها بلهجة حازمة:

- لا داعي لذلك. إنّه معي في شقّتي، سأهتمّ بأمره. متى من المفترض بك العودة؟

- بعد شهر.

- إذن حافظي على جدولك ولا تقلقي من أجل نجيب.

سكتت. لم تدر إن كان يجدر بها أن تصدّقه.

- هل يمكنني الحديث إليه؟

- إنّه نائم.. سأجعله يتّصل بك حالما يستيقظ.

همست في خفوت:

- شكرا لك.

كانت تعلم في قرارة نفسها أنّها لم تكن لتعتمد على غير فراس في مثل هذه الحالات. وهي تفكّر منذ حين في الشخص المناسب لتتّصل به، كان اسمه يعود إلى وعيها في إلحاح. تعرف من حديث والدها أنّه يزوره كثيرا، وعلاقتهما قد توطّدت بشكل واضح في الشّهور الأخيرة.

بعد ساعة، رنّ هاتفها. كان والدها المتّصل. ضحك في محاولة منه لتبديد مخاوفها:

- ليس هناك ما يستحقّ القلق، أنا بخير الآن.

قرّعته مثل أمّ تخاطب ولدها:

- غيبوبة، يا أبي.. إنها غيبوبة! كيف وصلت إلى هذه الحال؟

- خرجت للمشي بعد ظهر الأمس، ولم أشرب الماء بالقدر الكافي.. بعد أن صعدت الدّرج حتّى الطّابق الثّاني، أحسست بالإنهاك والدّوخة.. وما إن تخطّيت عتبة الشّقة حتّى فقدت الوعي.. ولا أذكر شيئا بعد ذلك، حتى استيقظت في المشفى!

زفرت. على الأقلّ، لم تكن الحلوى سبب أزمته. لم يتهاون في اتّباع تعليمات الطّبيب. لكنّ بقاءه وحده ليس حلّا. لو أنّه يرضى بالسّفر إليها!

- أنا بخير، أؤكّد لك.. لكنّ فراس يصرّ على بقائي عنده.

- نعم، لا يجب أن تبقى وحدك ليلا ونهارا.

هتف متأفّفا:

ـ حسنا، حسنا.. سأبقى بضعة أيّام فقط، حتّى يطمئنّ الجميع!

ـ بل شهر واحد، حتّى أرجع.. اتّفقنا؟

رغم وعده القديم بألّا يحدّثها بشيء عن فراس، فقد كان والدها يخبرها بالكثير عنه، كلّ يوم! كانت إقامته عنده خلال الأسابيع الماضية تعلّة كافية. لقد أرادها أن تعرف مقدار اهتمام مضيّفه به، وقد عرفت. كانت تدرك أنّها قد غدت مدينة لفراس بالكثير.

انتهت فترة البحث ذلك الأسبوع، وكان عليها العودة إلى تونس أخيرا. ستّة أشهر انقضت بكلّ مغامراتها وتحدّياتها ومتعتها وتعبها. ذلك الصّباح، فاجأها رفاقها في المركز بإعداد حفلة صغيرة في قاعة الاستراحة، لوداعها. كانت تعلم مسبقا أنّها ستشتاق إلى كلّ شيء في هامبورغ، الجامعة والأصدقاء، وأيضا الهواء النّقيّ والخضرة الدّائمة، والحضارة والانضباط الألمانيّين! كان كلّ شيء يذكّرها بحياتها السّابقة في جينيف.

لكنّ الفرق، بين رحلتها الأولى إلى تونس من جينيف، ورحلتها الثّانية من هامبورغ، شاسع! إنّه مثل الفرق بين رحلة الطّير المهاجر شتاءً إلى وجهة لا يعرفها ويخشاها، وبين رحلة عودته ربيعا إلى موطنه يسبقه الحنين.

بعد الظّهر، كان باورمان ينتظرها من أجل التّقرير الختاميّ. استمع إلى ملخّص أعمال الفترة المنصرمة بابتسامة خفيفة، ثمّ وضعا معا خطّة مبدئيّة للأعمال التي تنتظرها في تونس. حين أنهيا نقاشهما، كانت السّاعة تشير إلى الخامسة مساءً. كانت قد حجزت رحلة مسائيّة،

لتكون عند والدها في اللّيلة نفسها. بينما كانت تجمع حاجياتها، كان باورمان يرقبها في صمت. وقفت، مستعدّة للمغادرة، وخمّنت أنّ لحظات الوداع تبدو دراميّة أكثر ممّا توقّعت. كان صمته الطّويل غامضا ومربكا.

تكلّم أخيرا بلهجة جادّة:

- هل تعلمين؟ أنت شخصيّة مثيرة للاهتمام على الورق، شددت انتباهي منذ الوهلة الأولى.. لكنّك أكثر إثارة في الواقع. وأنا ممتنّ لهذه الفرصة التي سمحت بالعمل معك.

أطرقت ليلى في خجل من إطرائه المفاجئ. بينما واصل باورمان:

- لا أريد لهذا اللّقاء أن يكون الأخير. إن كنت ترغبين، فهناك وظيفة شاغرة بالمركز تناسب اهتماماتك البحثيّة. سيكون من دواعي سروري أن أواصل العمل معك.

كان عرضه مفاجئا ومغريا. لكنّها لم تقدر على اتّخاذ قرارها على الفور. قالت بتردّد:

- سأفكّر في الأمر.

قرأت الخيبة على ملامحه. لم تستقبل عرضه بالحفاوة التي تليق به. هزّ رأسه بهدوء وقال:

- نعم، افعلي رجاءً.

موطني.. موطني!

لا نريدْ، بل نعيدْ

مجدنا التليدْ، مجدنا التّليدْ!

كان الوقت متأخّرا حين وصلت. السّاعة تتجاوز الحادية عشرة ليلا، وقد جاء والدها لانتظارها في المطار هذه المرّة، رغم إلحاحها عليه بألّا يفعل. كان بوسعها أن تتدبّر أمرها. لقد فعلت ذلك سابقا، وهي غريبة لا تعرف أحدا.. فكيف وقد غدت مواطنة كاملة الأهليّة! كانت تحمل همّ غيبوبته الأخيرة، وتشفق من خروجه وحيدا مهما كانت الوجهة. ولم تكن ترغب في أيّ حال من الأحوال أن يصحبه فراس لاستقبالها! لذلك سرّها أن يرجع إلى الشقّة قبل عودتها بأيّام. ومع ذلك، فقد كانت وجلة وهي تتجاوز بوّابة الوصول، تتطلّع إلى الصّالة وتتصفّح وجوه المستقبلين. تنفّست في ارتياح حين لمحت والدها يلوّح لها. لقد جاء بمفرده.

على الطّريق، وهي تراقب الشّوارع المظلمة والهادئة في تلك الآونة من اللّيل، كانت تبتسم بلا إرادة منها. تتذكّر رحلتها منذ ثلاث سنوات خلت، من المطار، في وقت حظر التجوّل مع السّائق المتذمّر، وانطباعها الأوّل عن الرّبيع التّعس، فتتّسع ابتسامتها. هذه المرّة، كانت قادرة على رؤية كلّ شيء بعيون أخرى.

حين يمدح أحدهم جمال شيء وحلاوته أمام أصحابه، من الدّارج أن يردّ البعض بتلك العبارة المجاملة: عيونك هي الحلوة! وتلك العبارة على بساطتها، تلخّص كلّ شيء بالنّسبة إليها في تلك اللّحظة. الجمال نسبيّ، جدّا! تحتاج عينين من نوع خاصّ لتبصر مواطن الجمال في أشياء بعينها، لا يلمحها آخرون، لا يشاركونك الخلفيّة والثّقافة والتّاريخ، مهما حاولوا ودقّقوا. تساءلت، متى أصبحت

«عيونها حلوة»، لترى بسهولة جمال الأشياء من حولها؟

كانت الشّقّة كما خلّفتها منذ ستّة أشهر، لم يطرأ عليها أيّ نوع من التّغيير. وكان من المريح، أن ترجع إلى مكان يمكنها أن تطلق عليه اسم «وطن». على سريرها، نامت قريرة العين، وهدهدتها أحلام سعيدة حلوة.

حين استيقظت صباحا، ألفت والدها يجلس قريبا من الشّرفة، يتصفّح جريدته، كما عهدته دوما. راودها إحساس ممتع بأنّها لم ترحل يوما. كأنّ سفرها كان حلما طويلا، وهي قد عادت إلى الواقع الآن. استمعت إليه مثل الأيّام الخوالي، يثرثر بخصوص الأخبار والسّياسة، في شغف وانتباه مضاعفين. كان إحساسها بالتّفاصيل الصّغيرة مختلفا. كأنّما تخزّنها في حرص لتستحضرها كاملة في أوقات وحدتها المستقبليّة.

قال نجيب وهما يتناولان الإفطار المتأخّر:

ـ لقد نفّذت طلبك ولم أخبر أحدا بموعد وصولك.. لكنّني دعوت الجميع اليوم لقضاء السّهرة.

رفعت رأسها عن طبقها وسألت دون تفكير:

ـ الجميع؟

ـ منال وياسين، أمين وفراس.. والحاجّة فريدة بالتّأكيد.

تعلم أنّ أمين قد أخذ فسحة لأسبوع واحد، وسبقها بالوصول. أومأت بابتسامة. كانت قد سرحت مع أفكارها لبرهة. تتردّد إن كان عليها أن تخبره بعرض باورمان على الفور. لكنّها لا تملك بعد إجابة على السّؤال التقليديّ المتوقّع: وما رأيك أنت؟ هذا القرار يرجع في النّهاية إليها وحدها. تعرف أنّ أباها لن يضغط عليها لترفض إن هي وافقت. لكنّه سيناقش دوافعها بموضوعيّة، ويترك الخيار لها.

ستؤجّل الأمر في الوقت الحالي، ريثما تتّضح رؤيتها.

في المساء، وصلت منال أوّلا، تصحبها الجدّة، ثمّ فراس وأمين معا. لم يحضر ياسين. ولعلّ الجميع قد وجد ذلك أفضل. لم يكن على وفاق مع أخويه منذ حصلت الأزمة. لم يسامحه فراس أبدا على توريطه في مسائل الشّركة التي لا تهمّه، بينما اعتبر أمين أنّ علاقتهما انتهت في ذلك اليوم، حين اختار كلّ واحد الطّريق التي تناسبه.

اجتمعت العائلة في غير المعيشة، استغلّت الجدّة الفرصة لتوزّع عبارات العتاب على أحفادها المقصّرين في زيارتها. قالت وهي ترنو إلى ليلى:

- لقد كانت عندي حفيدة واحدة، وبعد سفرها لم يعد يسأل عنّي أحد!

تعلّلت منال بالحمل الذي أثقلها، واعتذر فراس لأنّ العمل يلتهم كلّ وقته، في حين داعبها أمين الذي لم يكن مشمولا بالعتاب، بحكم ارتباطه بفرقته العسكريّة:

- تريدين نصيحتي يا جدّتي؟ تزوّجي! ما دمت في صحّة جيّدة، جدّدي شبابك. سآخذك إلى مأوى العجزة، تعرّفي هناك على أرمل وحيد، ثمّ خذيه ليقيم جوارك. ماذا قلت؟

بحركة خاطفة لا تتلاءم مع ثقلها المعتاد، انحنت الحاجّة فريدة لتلتقط فردة حذائها، وسدّدتها في حرفيّة باتّجاه أمين، لتصيبه في مقتل. انحنى متأوّها، وقد اختلط الضّحك بالدّمع، ثمّ اندفع محاولا

الفـرار مـن الفـردة الثانيـة الـتي كانـت تحلّـق بدورهـا في اتّجاهـه، بينمـا أتبعـت الجـدّة القذيفـة بوابـل مـن الشّـتائم الأصيلـة الـتي لا تجيدهـا إلّا الجـدّات.

دار أمـين حـول الأريكـة، ثـمّ اسـتقرّ قـرب ليـلى، وقـد أخفى وجهـه وراء وسـادة، مسـترقا النّظـر باتّجـاه العـدوّ. مـن مخبئـه، همـس إلى جارته:

ـ ما الذي يشغل بالك؟ لقد لاحظت شرودك منذ وصلت.

التفتـت ليـلى في تـردّد، ثـمّ أطرقـت تحـرّك الملعقـة في فنجـان القهـوة، وتختلـس نظـرات حـذرة إلى ضيوفهـا المنشـغلين بمناكفـة الجـدّة واسـترضائها. همسـت أخـيرا:

- لقد عرضت عليّ وظيفة في ألمانيا.

أطلـق أمـين صيحـة اسـتنكار بشـكل مفاجـئ جعلـت العيـون تلتفـت إليهمـا، بينمـا التهبـت وجنتـا ليـلى ودفنـت رأسـها في فنجانهـا، ثـمّ وقفـت وسـارت باتّجـاه مائـدة العشـاء، تتشـاغل بترتيـب الصّحـون والملاعـق. بعـد لحظـات، لحـق بهـا أمـين. قـال في عتـاب:

- هل تنوين الفرار؟

أشاحت عنه في إعراض، وزفرت.

- هل أخبرت فراس؟

التفتت إليه في حدّة:

- ولمَ أخبره؟

- ربّما يمكنه أن يساعدك في اتّخاذ القرار.

كان يبـدو جـادّا الآن. هـل هـذا مـا جـادت بـه قريحتـه مـن اقتراحـات؟ اسـتدارت، فالتقـت عيناهـا بعيـني فـراس القاسـيتين. كان يتابـع باهتمـام حوارهـا مـع أمـين، لكـنّ همسـهما لا يصـل إليـه. لـم تكـن قـد ردّت، حـين

ارتفع صوته فجأة:

- الرجاء منكم الانتباه.. لدى أمين إعلان هامّ!

استدارت الرّؤوس لتحدّق في أمين بنظرات مستطلعة، وسألت ليلى في فضول:

- أمين، ما الأمر؟

حدج أمين فراس في شيء من الضيق، ثمّ ما لبث أن ابتسم. تجاوز بسرعة حرجه، ومشى حتّى توسّط القاعة، واتّخذ هيئة الرّجل المهمّ. تنحنح أخيرا ثمّ أعلن بأسلوب مسرحيّ:

- هناك فتاة، أفكّر في خطبتها.

علت الهتافات والتّهاني من الجميع. أمين آخر العنقود، يفكّر في الزّواج أخيرا. هتفت ليلى في فضول:

- من سعيدة الحظّ؟ هل أعرفها؟

أومأ ببطء وقال:

- نعم، تعرفينها.. نسرين، من فرقة الكشّافة.

صفّقت ليلى في جذل. لقد خمّنت في وقت مضى أنّ عاطفة ما تجمع نسرين بأمين، وها أنّ حدسها قد صدق.

أضافت منال:

- الجيش فرصة مناسبة لك، على الأقلّ، ستوفّر مصاريف مأكلك وملبسك وإقامتك.. وبعد سنتين ستكون وضعيّتك الماديّة مريحة أكثر، لتكون قادرا على الزّواج.

قالت الجدّة في انزعاج:

- وكأنّ ما يفكّر فيه الذّاهب إلى الحرب هو المال! هذا ما يشغلك أنت يا صغيرتي!

أشاحت منال بوجهها، وزفرت في ضيق، بينما توجّهت نظرات الجدّة إلى فراس:

- ماذا عنك؟ ها أنّ أخاك الأصغر سيتزوّج أخيرا.. ما الذي تنتظره؟

سرت موجة من عدم الارتياح بين الحضور. بينما قال فراس بعد تردّد قصير:

- سأفعل يا جدّتي، لا تقلقي.. في الوقت المناسب.

عند منتصف اللّيل، كانت السّهرة قد شارفت على الانتهاء. انصرفت منال مع الجدّة منذ ساعة، ودخلت ليلى المطبخ، تنهي جلي الصّحون وترتيب مخلّفات العشاء، بينما كان يتناهى إليها صوت أمين الصّاخب وهو يلاعب والدها لعبة إلكترونيّة. حين أنهت عملها، ألقت نظرة على غرفة المعيشة. من موقفها، كان تلمح فراس من زاوية جانبيّة، يستلقي في استرخاء على مقعده ويطالع اللّاعبين بابتسامة مستمتعة، مثل أب يراقب أولاده يلهون!

لقد فعلت كلّ شيء، حتّى لا تفكّر بأمره. لقد هربت. وظنّت أنّها إن هي فعلت فإنّها ستنسى. لكنّها وهي تقف الآن قبالته، تراقبه خفية، تدرك أنّها لم تنس شيئا. وأنّ المشاعر التي خنقتها وأدانتها مازالت حيّة في فؤادها. لقد كان كلّ ذلك عبثا. حتّى وهي تقلّب عرض باورمان وتحاول اتّخاذ قرارها، يقفز اسمه في ثنايا عقلها في إصرار، يشوّش عليها ويربكها. انتبهت حين التفت باتّجاهها، كأنّما شعر بنظراتها، فاستدارت بسرعة واختفت داخل غرفتها.

فتحت درج المنضدة. لقد كانت هناك، أين تركتها. مفكّرة سوداء. تنهّدت وهي تخرجها من مكمنها. مرّرت كفّها على الغلاف الممزّق، وقلّبت الصّفحات في سرحان، ثمّ سارت في تصميم في اتّجاه غرفة المعيشة. مازال والدها منسجما مع أمين في لعبته الصّبيانيّة

الحماسيّة. اقتربت من الأريكة، وجلست ببساطة، ثمّ ودون تردّد، مدّت المفكّرة في اتّجاه فراس وقالت:

- أعتقد أنّ هذه لك.

التفت إليها في استغراب، ثمّ امتدّ كفّه ليستقبل الكرّاس. بدت على ملامحه المفاجأة.

- أين وجدتها؟

- في غرفة حنان.

قالت ذلك ونظراتها مثبّتة على الشاشة، حيث تتقافز شخصيّتا رسوم متحرّكة وتتلاكمان، كأنّما تفرّ من دهشته وفضوله واستفساراته المتوقّعة. نعم، لقد مرّ على ذلك زمن طويل. يفضّل ألّا يسأل الآن متى وجدتها وكيف، ولماذا احتفظت بها كلّ هذا الوقت.

من حسن الحظّ أنّه لم يفعل.

سمعت حفيف الورق، فاسترقت نظرة باتّجاهه. كان يتصفّح المفكّرة باهتمام، كأنّه يراها للمرّة الأولى. مرّت دقائق من الترقّب من طرفها، والاستكشاف من جانبه، قبل أن يرفع رأسه، ويعيد إليها المفكّرة. قال بابتسامة:

- إنّها ليست لي!

هتفت في دهشة:

- ماذا؟

هل يمكن أن تكون قد أخطأت؟ ليست له؟ لمن هي إذن؟ من يتكلّم في تلك المذكّرات عن حنان؟ هل يكون أحد ما قد «ألّفها»؟ مذكّرات مختلقة؟ لماذا يوجد اسم فراس على الصّفحة الأولى؟ هل حاول أحدهم تضليلها؟ أم أنّها تسرّعت في الاستنتاج؟ هل كانت

ما قرأته الحقيقة؟ أم مجرّد أحداث متخيّلة؟ لم تعد متيقّنة ممّا يمكنها تصديقه. كلّ شيء يبدو قابلا للمساءلة الآن. ما اعتبرته حقائق في الماضي، لا يبدو كذلك الآن.. وخاصّة، رأيها في فراس. إنّه لا تعرف عنه ما حسبت أنّها تفعل. كانت الأفكار تتدافع في رأسها وتنعكس على صفحة وجهها، في حمرة وجنتيها، جفاف حلقها، وجحوظ عينيها.

قال فراس وقد أدرك ما يدور في خلدها:

- لقد كانت لي في الماضي.. لكنّها لم تعد تعنيني الآن. هذا ما قصدته.

استرجعت أنفاسها، وخمد البركان. هزّت رأسها وقد استوعبت. لم يكن هناك داعٍ للهلع. فلتعد كلّ الوقائع إلى أماكنها في دماغها. تطرد الآن من رأسها الأسئلة المشوّشة والاستنتاجات المتهافتة. كانت المفكّرة بين كفّيها مرّة أخرى. سألته بغتة:

- لا تريدها، لأنّك تريد أن تنسى؟

- لا أريدها.. لأنّني نسيت!

تذكر حديثهما ذات عصر، من وراء الحاجز، عن الذّكريات والنّسيان. لقد نسي، وهي تذكّرت كلّ شيء. لقد حقّق كلّ منهما أمنيته، خلال الوقت الذي فصل تلك الجلسة وهذه. ارتسمت على شفتيها ابتسامة فاترة. لقد كان ذلك للأفضل.

عادت، والعود أحمد.

كان مكانها بالجريدة في انتظارها. استقبلتها زبيدة بالأحضان والقبلات، وأحاطت بها الابتسامات من كلّ جانب. لازمها إحساس ممتع بالنّشوة طيلة أسبوعها الأوّل. إنّها في وطنها الآن.

كان ذلك قبل أن تخبو جذوة الحنين، وتتفتّح عيناها على حقيقة الوضع الرّاهن.

كانت آخر ذكرياتها، قبيل الرّحيل، مؤلمة. مشهد منتصر وهو يهوي من عامود الكهرباء ثمّ يحترق، لم يكن من المسلّي تذكّره. لكنّه كان يأتي إلى ذاكرتها قسرا، مرارا وتكرارا، كلّما ورد ذكر حالة انتحار جديدة! كانت متلازمة «محمّد البوعزيزي» قد انتشرت، واستفحلت في صفوف الشّباب، ولم يعد من النّادر أن تسمع عن حالات الاحتراق الاختياريّة. وكأنّ شباب الثّورة قد انتخب بالإجماع أبشع صور العذاب -الاحتراق حتّى الموت- بوّابة للعبور إلى العالم الآخر!

لكنّ أيّا من تلك الحالات لم يخلق ثورة جديدة!

كان يتأكّد لديها كلّ يوم أنّ تلك الهبّة الشعبيّة الرّهيبة نسيج وحدها، ولم يبد أنّها قابلة للتكرار في وقت قريب. لقد باتت هناك منابر حرّة كثيرة، يتبوّأها متكلّمون أحرار، مفكّرون وسياسيّون ورجال دين، لكنّ أيّا من المواعظ والخطب العصماء لم تصنع تغييرا، أو تحرّك ضميرا، أو تدفع عجلة الثّأر أو النّسيان! لم تكن هناك حركة، أدنى حركة، في أيّ اتّجاه كان! لوهلة، بدا أنّ الشعب الذي ثار وقام عن بكرة أبيه إثر حادثة الاحتراق التّاريخيّة الخالدة، قد أنهك خلال

ثلاث سنوات، بالوعود والترقّبات، والخيبات وطول الأمل، ولم يعد له طاقة إلّا للتذمّر والشكوى!

لم تعد السّياسة مثيرة ومرغوبة. لم يعد المواطن العاديّ، الذي مارس بغزارة حقوق التّحليل والتّأويل في الشّهور الأولى للهوجة الثّوريّة، يجد في صدره نفسا يصلح إهداره على الشّأن السّياسيّ! مثل كلّ نزوة، تنازل التّونسيّ العامّيّ عن حقّه في التّصدّر للإفتاء السّياسيّ. عادت هموم الحياة اليوميّة لتسيطر على انتباه النّاس، فتأسرهم في شعابها وتشدّهم من حلبة السّياسة قسرا. لقد انتبه الجميع، بعد ثلاث سنوات من التجربة، ألّا فائدة.

وكانت العبارة التي تتردّد في الأفواه، في المترو، في سيّارة الأجرة، في المحكمة، في السّوق وفي الشّوارع: لو بقي النظام السّابق! على الأقلّ كنّا حافظنا على الأمان الذي كنا نعيش في كنفه، على الأقلّ كان الاقتصاد منتعشا، على الأقلّ كانت السّياحة مزدهرة، على الأقلّ كانت الشّرطة تسيطر وتخفّض من مستوى الجريمة، على الأقلّ...

وذات يوم، بادرتها زبيدة، بشكل مفاجئ:

إن كانت هناك إمكانية تعاون مع المركز الألمانيّ، لا تعودي إلى هذه البلاد! ابقي هناك يا عزيزتي، مادامت لديك فرصة جيّدة. لا شيء يستحقّ البقاء هنا!

حدّقت ليلى فيها في ذهول. لم تكن تصدّق أنّ الوضع قد تداعى، خلال ستّة أشهر فقط، هي زمن غيابها، لينحدر إلى القاع! أم تراها لم تلتقط الإشارات التّحذيريّة التي سبقت الانهيار التامّ؟

مرّة أخرى، تواجه نظرة أمين القاتمة، كأنّه يقول من جديد: ألم أقل لك؟

لقد كانت نظرته التّشاؤميّة أيّام الاعتصام قد غدت رأيا عامّا

مشتركا ومستشريا بدرجة عالية. لقد فهمت أنّ اختياره الانضمام إلى الجيش كان في الحقيقة هروبا إلى الأمام. لم يعد يتحمّل أن يكون جزءا من كيان عاجز، بعد أن هدهدته أحلام صناعة التّاريخ! لقد أيقن أنّ الأحداث التّاريخيّة لا تصنع إلّا مرّة كلّ ربع قرن، وما من حدث عظيم ينتظره عند المنعطف. لذلك اختار القطيعة مع الحلم.

أمين الذي عرفته بأفكاره الطّوباويّة الجامحة، تحوّل إلى شابّ مستسلم، كأسه مترعة بالمرارة، تسكنه أحلام «أرضيّة» وبسيطة. الوظيفة والزّوجة والشّقّة. حين التقيا للمرّة الأخيرة قبل رحيله ليلتحق بفرقته، سألها:

- هل أظلم نسرين بطلب الزّواج منها في هذا الوقت؟

سألته بدورها في قلق:

- هل أنت متردّد؟

- أشعر أنّني لا أصلح لإقامة عائلة والالتزام بمسؤوليّات زوجة وأطفال! لذلك أشفق عليها من المستقبل الذي ينتظرها مع رجل مهزوم.

أطلق ضحكة صفراء ليخفّف من تشنّجه، فقالت ليلى بجدّيّة:

- ألا تعتقد أنّ هذا الرّجل المهزوم قد سئم حياة الوحدة، وهو يبحث عن السّكن والمودّة والرّحمة في نصفه الآخر؟ أظنّ أنّ الزّواج سيكون خير دواء لك، ولانهزاميّتك.

ضحك من جديد، ثمّ قال ساخرا:

- أراك أصبحت خبيرة في الزّواج فجأة!

لا تدري لماذا انقلب مزاجها إلى المرارة في تلك اللّحظة، لتقول في

سخرية بدورها:

- لماذا لا تسأل فراس؟ إنّه الخبير في الزّواج بيننا!

- فراس؟ خبير في الزّواج؟ هل أنت جادّة؟ إنّه خبير في شيء آخر.. إبرام العقود الفاشلة! لقد كان عقده الأوّل لمهمّة جليسة أطفال.. وعقده الثّاني إنقاذ ثروة القاسمي. ما عدا ذلك، فهو مسكين!

ابتسمت في استهانة. طبعا، سيدافع عنه، فهو شقيقه. سمعت أمين يقول مستنكرا ردّة فعلها:

- هل تعتقدين أنّني سأدافع عن فراس لمجرّد كونه أخي؟ تعرفين أنّني لست من هذا النّوع.

ثمّ أضاف في مرارة:

- اسأليني رأيي في ياسين مثلا، وسترين!

نعم، إنّها تعرف أمين. لا يحابي ولا يجامل. لكنّها لم ترد أن تصدّق دفاعه عن فراس. سألها فجأة:

- أنت لم تختاري العودة إلى ألمانيا بعد، أليس كذلك؟

راودتها حينها فكرة الهرب. باورمان كان يهديها فرصة الانسحاب إلى أرض محايدة، دون أن يبدو ما تفعله تخاذلا أو استسلاما. لو أنّها تتخذ قرار البقاء في ألمانيا، فلن يلومها أحد! لكن ماذا عن عهدها وواجبها تجاه الله والوطن؟ كفى يا ليلى، لقد كان مجرّد قسم كشفيّ، وأنت لم تستمرّي مع العشيرة طويلا على أيّ حال! فما بالك تتمسّكين بذلك العهد، وكأنّه دستورك الشّخصيّ؟

تتعالى داخلها أصوات حادّة تزعق فيها بالشّيء ونقيضه. هل تكون نشازا في الجوقة العامّة؟ لم تعد تلمح الأمل، في أيّ مكان من حولها، فكيف يمكنها أن تحتفظ بجذوته متّقدة داخلها؟

في الأسبوع التّالي، وطيلة ثلاثة أيّام، خرجت إلى الشّارع، ووقفت عند مدخل المسرح البلديّ، وأخذت تستوقف المارّة من الشّباب في العشرينات. وتسألهم السّؤال ذاته: ما الذي يجعل شبابا في مقتبل العمر، يعتبر المستقبل -نظريّا- أمامهم، ولديهم أحلام من المفترض بها أن تجعلهم يحبّون الحياة ويقبلون عليها، يفكّرون في الانتحار؟ *

لقد كانت الثّورة أملنا الذي ربطنا به مستقبلنا كلّه، فلمّا فشلت، شعرنا بالهزيمة، والأحلام التي كانت ممكنة قبلها غدت مستحيلة، ماديّا وحتّى نفسيّا.

هل يمكن لمن نزل إلى الشّارع ثائرا، وخلع الرّئيس وطرده خارج البلاد، وحاز الوطن ملء كفّيه، أن يرجع ليعانق الأحلام الأرضيّة، شقّة ووظيفة وزوجة؟ ما هذه التّفاهة؟

انهيار الثّورة كان ضربة قويّة لإيماننا بكلّ شيء. لم تعد هناك أرض صلبة نقف عليها، سواء في الدّين أو التّفكير أو الطّموح أو العلاقات.

كنّا نعلق كلّ حياتنا على الثّورة. كلّ شيء جميل سيحصل حين تنجح الثّورة. لكن احزري ماذا؟ الثّورة لم تنجح.

أحسسنا للحظة أنّنا الجيل المختار، نحن الذين كتب لنا أن نبدأ على أسس سليمة ونظيفة، ثمّ اصطدمنا بالواقع. أيقنّا أنّنا كنّا واهمين.

الأفكار القديمة كلّها أثبتت فشلها، فأصبح من الملحّ توليد أفكار جديدة. تجد نفسك تحتاج أن تجرب كل شيء حتّى تبني أفكارك وثوابتك وأهدافك لتصل إلى السلام الدّاخليّ. لكن للأسف ليست كلّ

---

* اقتباس من بحث استقصائي للكاتب والمدوّن محمد خميس.

التّجارب مريحة، وليس من الهيّن أن تدخل إليها كلّها وتغادرها في أمان.

في السّابق، كنت أجد المدمن غبيّا وأحتقر من يتعاطى الحشيش. حاليّا، يمكنني أن أجد مبرّرات لكلّ منهم وأتعاطف معه. نفس الشيء ينطبق على المنتحر.

أنا لا أريد أن أكون نسخة مكرّرة من أبي، ولا من أخي الأكبر. إذن ماذا أريد أن أكون؟ لا أعرف. إذن ما جدوى البقاء على هذه الأرض؟

هذا الجيل يحتاج أن يرى معجزة بعينيه، مثل معجزات الأنبياء، حتّى يسترجع ثقته وإيمانه المفقودين.

إن أسعد شيء قد يحدث، أن يصبح لهذا الجيل همّ وظيفي في الحياة، بعيدا عن همومه المعرفية والإدراكية المؤلمة حدّ الموت. أتمنى فقط أن يكون لي في يوم من الأيام طموح يقتصر على وظيفة مرموقة، أو زوجة جميلة وأولاد. فقط أتمنى أن يكون هذا طموحي، فضلا عن تحقيقه.

حين جلست ليلى أخيرا إلى مكتبها في نهاية التّجربة، تراجع محتوى الشّهادات وتجمّعها، هالها ما حصّلته من تصريحات. لو أنّها أهملت الأسماء، فربّما حسبته تقريرا مسترسلا كتبه شخص واحد! أيقنت حينها أنّ الثّورة، لو كانت لها حسنة واحدة، فهي إهداء الأمل للأجيال الشّابّة. ولو أنّ لها سيّئة واحدة، فهي سرقة الأمل بعد فترة يسيرة، دون أن يكون قد استوفى الوقت المطلوب للحضانة والفقس. لقد أنتجت العمليّة كلّها جنين أمل مشوّها، كُتب له الإجهاض!

ذلك المقال، قرّرت أن تكتبه بالعربيّة. كان الأوان قد حان لتتجرّأ وتتحدّى نفسها.. أو تتحدّى كلّ الذين أشاروا عليها بالرّحيل! إنّهم يحسبونها الأجنبيّة التي يجدر بها الفرار إلى موطنها الأصليّ إذا ما

ساءت الظّروف في بلد الضّيافة! وإنّها لتستشعر مسؤوليّتها عن تلك النّظرة المجحفة. أليست تواصل التّعبير عن أفكارها بلغة الأجانب؟ إن كانت تريد اعترافهم بمواطنتها، فلتقنع نفسها أوّلا.

اقتحم الخوف حياتها، ذلك اليوم، دون سابق إنذار، ودبّ ببطء في ثناياها حتّى استحكم. لا تذكر أنّها قد ارتعبت من قبل، كما فعلت منذ ذلك الصّباح، وبنسق متزايد. غدت تقوم على الترقّب للأنباء الجديدة، وتبيت على القلق ممّا تخفيه ليلة نوم مضطربة، قد يكون صباحها له ما بعده.

كان ذلك منذ صحت من سباتها، ليقابلها وجه نجيب ممتقعا، وهو يقبض على جريدته الصّباحيّة، في مجلسه المعتاد قرب النّافذة. لم يرفع رأسه بالابتسامة التي لا تفتر على شفتيه، حتّى أيّام سجنه، ليستقبل مجيئها، بل قال بلهجة حازمة، فيها شيء من الارتجاف:

ـ اتّصلي بأمين رجاءً.

مرّت إليها عدوى القلق. التقطت هاتفها على المنضدة وسألته بينما تتّصل:

ـ ما الأمر؟

ـ لقد انفجر لغم على شاحنة عسكريّة، في منطقة القصرين.

يعرف كلاهما أنّ وحدة أمين تغطّي ولاية القصرين. ويعرفان أيضا أنّ المنطقة غير مستقرّة منذ الثورة، وقد ازداد الأمر سوءا في الفترة الأخيرة. بعد بضع رنّات، ردّ أمين. قال متضاحكا:

- ما الأمر، ماما ليلى؟

- ماذا؟

- لقد اتّصل بابا فراس منذ حين، فشعرت بأنّ والديّ يسألان عنّي!

تجاوزت تعليقه وقالت رغم حرجها:

- أنت بخير؟ هل كلّ شيء على ما يرام؟

قال مطمئنا:

ـ أنــت تعنــين الانفجــار؟ لا شيء يدعــو إلى القلــق.. لــم تكــن هنــاك خســائر بشريّــة.

ـ ما الذي حصل بالضبط؟

ـ ليســت لــديّ معلومــات دقيقــة بعــد. لقــد كنّــا في الثكنــة، ووصلنــا الخــبر كمــا وصــل إلى وســائل الإعــلام. إنّــه مجــرّد لغــم.. منــذ عهــد المســتعمر عــلى الأغلــب.

تنهّــدت ليــلى، وهــي تنهــي المحادثــة. لكنّهــا باتــت تعلــم ألّا ســبيل إلى الارتيــاح بعــد الآن. حــين يكــون لديــك قريــب في الطّيران، فســيرتجف فــؤادك مــع كلّ حادثــة طائــرة، وحــين يقيــم صديــق لــك في منطقــة مهــدّدة، فســتفزع مــع كلّ كارثــة طبيعيّــة تصيبهــا، وحــين يكــون شــقيقك عــلى الجبهــة، فســتتوقّع الأســوأ مــع كلّ اشــتباك عســكريّ! وقــد كان أمــين ابــن خالهــا وصديقهــا، وبمثابــة شــقيقها الأصغــر.

تابعــت باهتمــام التطــوّرات في جهــة القصريــن في الأيّــام التّاليــة، وقــد اتّخــذت الأحــداث منحــى تصاعديّــا. لــم يعــد تقريــر والدهــا الصّباحــيّ كافيــا. بــات عليهــا الاطّــلاع بنفســها عــلى التّحاليــل والنّقاشــات السّياســيّة والتوقّعــات المرتقبــة للوضــع. بعــد يومــين، وقــع اغتيــال وكيــل أوّل، بنــيران صديقــة، حســب التصريحــات الرّســميّة.. مــع أنّ الهمســات الجانبيّــة تؤيّــد احتمــال تنكّــر إرهابيّــين في زيّ عســكريّ واندساســهم داخــل الوحــدة!

ثــمّ انفجــر لغــم جديــد، بعد أسبوع واحــد مــن الانفجــار الأوّل، مخلفا ضحايــا هــذه المــرّة. لقــي عســكريّان حتفهمــا، عــلى مســافة كيلومــترات

قليلة من مدخل مدينة القصرين بعد أن انفجرت العربة العسكريّة مثل سابقتها! لم يعد التذرّع بالألغام القديمة التي زرعها المستعمر مجديا.

وفي كلّ مرّة اتّصلت فيها بأمين، كان يطمئنها ويطيّب خاطرها. الجيش لن يقف ساكنا أمام هذه التّهديدات العلنيّة، وسيلقّن المتمرّدين درسا لائقا. الجيش ليس مؤسّسة هشّة يسهل اختراقها والعبث مع مسؤوليها، سيتوصّل في وقت يسير إلى أصحاب الفعلة ويحاسبهم. الجيش قد اتّخذ الإجراءات الاحترازيّة اللّازمة، لن تتكرّر عمليّات كهذه في المستقبل!

تستمع إليه وهو يصدح بجملة الرّسائل الجاهزة التي ربّما لقّنها إيّاه قادته مع بقيّة المجنّدين، ليحملوها إلى ذويهم، وتستشعر موجات الخوف الخفيّة في ثنايا صوته. وهل يمكن للمرء إلّا أن يرتجف فرقا في مواجهة الموت؟ لقد كان الضّحايا شبابا في مثل سنّه، وربّما عرف بعضهم، من قريب أو بعيد، واختلط بهم في بعض المناسبات. فهل يمكن ألّا يجتاحه الرّعب ليلا وهو يرابط في موقعه، أو يستلقي في سريره القاسي، محدّقا في سقف المهجع، ويفكّر، كان يمكن أن أكون محلّه؟

ولم يكن بيدها إلّا أن توصيه، في كلّ مرّة، بأن ينتبه لنفسه، ويأخذ حذره، وتدعو له طويلا بأن يحميه الله من كلّ سوء، فيناكفها ضاحكا:

- عسى أن ينفعنا غطاء رأسك بشيء على الأقلّ، يا حاجّة ليلى! ربّما تكون دعواتك مقبولة وقد صرتِ إلى الله أقرب!

لكنّ مزاحه لم يكن يسلّيها أبدا.

ولم يتخلّ أمين عن أسلوبه المتفائل. ذكّرتها نبرته بوالدها أيّام حبسه. لقد كان للحبس في الوطن، زمن الثّورة، طعم آخر. وقد كان

للدفاع عن الحدود زمن الثّورة أيضا طعم آخر. كان أمين بشكل ما يحقّق حلمه! يفي بعهده تجاه الوطن، ويصنع شيئا من أجل ثورته.

فكّرت ذلك اليوم، أنّ العهود التي يقطعها المرء على نفسه مخيفة. وذلك القسم الكشفيّ البسيط، قد لا يأخذه الكثيرون على محمل الجدّ. قد يكون بالنّسبة إلى معظمهم مجرّد إجراء شكليّ، عبارة جوفاء، كلمات منسّقة يتوجّب التلفّظ بها لاستلام المهمّة. لكنّها شعرت بثقل العهد على ضميرها. وأمين شعر بذلك أيضا. لأنّه لم يقطع الوعد على أحد آخر، بل على ذاته وحدها.

فاجأها اتّصاله ذات مساء. لم يكن يتّصل في العادة، كانت هي من يفعل، وقد كان يتأفّف من حرصها الزّائد عن الحاجة. كان يهرب من قلقها، تماما كما كان يفعل أيّام الاعتصام. لكنّه اتّصل بنفسه ذلك المساء، ليقول أنّه بخير! كان ذلك كافيا لتعلم أنّه لم يكن بخير. رغم إلحاحها، لم يبح بشيء من «أسراره العسكريّة». خمّنت أنّ التعليمات لا شكّ صارمة، لكنّها أدركت أنّه على مشارف مهمّة خطرة. طلب منها ألّا تتّصل في الأيّام الآتية. سيكون خارج نطاق التّغطية.

حمّلته بوابل من الدّعاء، ولم يتذمّر أو يمزح هذه المرّة، بل أمّن بحرارة. ثمّ اختفى.

ستكون تلك آخر مرّة يصلها صوت أمين عبر الأثير.

بعد أيّام، استيقظ الوطن كلّه على الفاجعة. ثمانية عسكريّين، من أصحاب الرّتب والمجنّدين المتطوّعين، هاجمتهم مجموعة مسلّحة أثناء تمشيطهم لجبل الشّعانبي. ألقيت على العربات العسكريّة قنابل ورصاص كثيف، حتّى لقي الثمانية مصرعهم. كان كمينا محكما، لم يتوقّعه الجيش ولم يحسب له حسابا، لم يتّخذ إجراءات كافية

لتلافيه، ولم يمكنه أن يفعل شيئا لحماية الشّباب الثمانية من مغبّته.

خلال السّاعات الثّمانية والأربعين التي سبقت إعلان قائمة الشّهداء، دأبت ليلى على الاتّصال بأمين، والغصّة تتصاعد لتسدّ حلقها تدريجيّا. أبت أن تصدّق أو تستسلم، رغم جرس الإنذار الذي لم يفتأ يرنّ في رأسها منذ اتّصاله الأخير، ورغم إحساسها المؤلم بقرب الفاجعة. احتفظت بالأمل حتى آخر رمق، حتّى وصلها اتّصال منال، لتزفّ إليها النّبأ وسط الشّهقات والعبرات.

كان ياسين قد تلقّى اتّصالا رسميّا من النّاطق باسم الجيش الوطنيّ، يبلّغه بصفته وليّ أمين باستشهاده في الحادثة الأليمة!

ما كان مخاوف وهواجس بالأمس، بات اليوم حقيقة صارخة.

لقد رحل أمين، نهائيّا.

في منزل الحاجّة فريدة، أقيم سرادق العزاء، في انتظار وصول جثمان الشّهيد. ولولت الجدّة وضربت فخذيها بكفّيها في حسرة، وسط النّساء المتّشحات بالسّواد، وذكرت النّحس الذي يلازمها ويطارد أولادها وأحفادها.

جاء ممثّلون رسميّون عن الحكومة والأحزاب السّياسيّة لتقديم التعازي، وتصدّر ياسين المشهد، رغم غيابه التّام من حياة أخيه بعد انفراط عقد الأخوة. وقف ببدلته السّوداء الأنيقة وربطة عنقه الفاخرة، يصافح الكبراء وعلية القوم ويجدّد عهده مع الوجاهة والفخامة. كان المصاب بركة بالنّسبة إليه، فقد أعاده إلى الواجهة، وانتشله من هوّة النّسيان السّحيقة.

وقف فراس إلى جواره، منكسرا، وقد ترك رحيل أخيه الأصغر ندبة عميقة في صدره. لقد تقاربا في الفترة الأخيرة وهما يتشاركان الشّقّة الصّغيرة، كما لم يتقاربا من قبل في القصر الكبير الفاره.

ما تبادلاه من أحاديث خلال ستّة أشهر، يفوق حجم الكلام الذي وجّهه أحدهما إلى آخر خلال سنوات أمين التّسعة والعشرين. عرف أحدهما الآخر متأخّرين، ورأبا صدع الأخوّة بينهما بعد سنوات من الجفاء. لقد كان هناك زمن اعتبر فيه فراس أمين طفلا ومراهقا، لم يكن فيه للحديث الجادّ معه مكان. ثمّ سنوات عجاف فقد خلالها فراس صلته بكلّ أفراد عائلته وانزوى في قوقعة صلبة من اللّامبالاة. ثمّ زمن فرّ فيه إلى سويسرا ليطارد أموال والده المهرّبة. وجاء زمن أخير، قصير الأمد، حاول خلاله أن يعوّض عمّا فات، ولكن هيهات!

في وقت متأخّر من تلك اللّيلة، كانت الدّار قد خلت أو كادت من المعزّين. اجتمع أفراد العائلة حول الجدّة مرّة أخرى، دون أمين. قال ياسين فجأة وقد افترّت شفتاه عن ابتسامة مزهوّة:

- لقد تحدّثت مع كاتب الدّولة بشأن أبي.. وقد وعد خيرا.

لم يتردّد وهو يصافح الرّجل الذي جاء معزّيا أن يوشوش في أذنه، يطلب تدخّله من أجل والده المحبوس ظلما في قضيّة فساد ملفّقة! لقد كان على الوطن أن يثمّن تضحيات الشّهداء، وما من شيء يعوّض الأب المكلوم في فلذة كبده. لذلك وجبت إعادة النّظر في قضيّة نبيل القاسميّ، إكراما للشّهيد!

ضربت الحاجّة فريدة كفّيها ببعضهما وهي تحوقل، ولم يعلّق أحد. لكنّ هواء الغرفة كان مشحونا بالتوتّر. وقف فراس وغادر الغرفة على الفور. في حين زمّت ليلى شفتيها في ضيق. لم يكن جثمان أمين قد وُرِيَ التّراب بعد، وياسين يعلن مهلّلا أنّ العفو في طريقه إلى والده! ألم يكن بإمكانه أن يمثّل الحزن ولو قليلا؟ ألم يكن بمقدوره أن يحترم حزن عائلته، ويخفي لهفته على اغتنام الفرصة التي جاءت على طبق من دماء؟

بعد دقائق، خرجت إلى الحديقة. كان السّكون يسيطر على الممشى المظلم، ونسيم صيفيّ فاتر يحرّك أوراق أغصان شجيرات الزّيتون واللّوز التي تؤنس الجدّة في شيخوختها. مشت في شرود، تدور في حلقات مفرغة وقد فاض صدرها بالحزن واللّوعة. لقد بكت كثيرا في غرفتها حسرة وألما، منذ وصلها الخبر. لم يكن بوسعها أن تتقبّل النّهاية التّراجيديّة لحلم أمين الوطنيّ. لقد أراد أن يصنع لحظات تاريخيّة. لكنّه لقي حتفه وهو في بداية المسار.

لم تهوّن عليها سوى فكرة واحدة. لقد كان أمين وفيّا لعهده حتّى الرّمق الأخير، لقد أدّى واجبه كاملا تجاه الوطن. وهل هناك أجزى من الموت في سبيله؟ كانت كلمة «الشهيد» قد تكرّرت كثيرا على مسامعها منذ الأمس. لقد مات ورفاقه دون مالهم وأهلهم، فتمنّت له قبول الشّهادة. إنها تحسبه صادقا، وترجو أن يكون شهيدا حقّا.

تناهى إليها فجأة نشيج خافت، يشقّ سكون الحديقة. اقتربت في حذر، حتّى لمحت فراس. كان يجلس على مقعد حجريّ في ركن مستتر خلف أجمة ورد، ورأسه بين كفّيه. خمّنت أنّه ربّما أكثر شخص على سطح البسيطة وجعا لفقدان أمين. حدّقت في اتّجاهه لبرهة، ثمّ تراجعت. لم يكن يجدر بها مقاطعته. كانت قد مضت خطوة في الاتّجاه المعاكس، حين سمعت صوته.

- ليلى!

رغم التزامها الحذر، كان قد انتبه إلى وجودها. عادت أدراجها، حتّى صارت على بعد بضع خطوات من مجلسه. وقفت عاقدة ذراعيها أمام صدرها، وفكّرت أنّ عليها مواساته. لكنّها كلّما همّت بالحديث، شعرت بالاختناق، وبالعبرات تحرق مقلتيها.

استمرّ الصّمت الكئيب دقائق أخرى، قبل أن يقول فراس أخيرا في

مـرارة:

- لم أكن أعرف أنّ غيابه سيكون بهذه القسوة.

كتمـت أنفاسـها، وقـد صـارت دموعهـا تسـيل دون صـوت عـلى وجنتيها، بينمـا تابـع فراس:

- إنّـه أخـي الـذي لـم أعرفـه إلا منـذ شـهور! وكيـف لي أن أدّعـي أنّـني عرفتـه في المـاضي؟ لـم يكـن أحدنـا يهتـمّ للآخـر، ولا يعـرف شـيئا عـن حياة الآخـر.. مـا يحزنـه ومـا يفرحـه، مـا يشـغل تفكيره ومـا يطمـح إليـه. كانـت أوّل مـرّة يسـألني فيهـا عـن رأيي في شيء يخصّـه، منـذ ثلاثـة أشـهر، تخيّـلي! كان ذلـك حـين فكّـر في الانضمـام إلى الجيـش. قبـل ذلـك، لـم يكـن حـتّى يطلـب رأيي في لـون قميـص أو علامـة تجاريّـة لحـذاء. لقـد كنّـا نعيـش في عالمـين منفصلـين تمامـا. أضعنـا سـنوات ثمينـة مـن طفولتنـا وشـبابنا.. ولـم ننتبـه إلّا متأخّريـن، متأخّريـن جـدّا. حـين عرفـت أمـين أخـيرا، وحـين استشـعرت معـنى أن يكـون لي أخ أشـاركه كلّ شيء.. رحـل فجـأة!

أغمضـت عينيهـا. كان فـراس قـد استسـلم للبـكاء الآن، بينمـا سرحـت هـي في أفكارهـا. لقـد وصلـت هـي متأخّـرة جـدّا للتعـرّف إلى حنـان. في الحقيقـة، لقـد فاتهـا القطـار تمامـا. فـراس عـلى الأقـلّ صنـع ذكريـات جميلـة مـع أمـين، في الشّـهور الأخـيرة، سيسـتحضرها كلّمـا اسـتبدّ بـه الحـزن، لتكـون لـه خـير عـزاء. لكنّهـا لـم تجـرؤ عـلى الجهـر بأفكارهـا أمامـه. كان موضـوع حنـان قـد غـدا مـن الممنوعـات في حديثهـا معـه. باغتهـا صوتـه، وهـو يصبـح أقـرب بشـكل مفاجـئ.

- ليلى.

فتحـت عينيهـا لتجـده قـد وقـف قبالتهـا، عـلى مسـافة متريـن، ورغـم الظّلمـة، كان بإمكانهـا أن تميّـز بريـق عينيـه. قـال بصـوت متعـب:

- هل أكون قد وصلت متأخّرا.. مرّتين؟

ازدردت لعابها، وقد شعرت بجفاف مفاجئ في حلقها. إنّها تدرك ما يرمي إليه. ارتجفت شفتاها، لكنّها لم تنطق. هل تراه وصل متأخّرا.. إليها؟

أنقذها رنين هاتفها. حدّقت في الشّاشة. كان والدها يتّصل. قالت بسرعة:

- عليّ المغادرة الآن.

ثمّ استدارت لتسير بسرعة في اتّجاه البوّابة، حيث كان نجيب ينتظرها.

ركبا السيّارة في صمت. أسندت ليلى رأسها إلى النّافذة، واستغرقها التّفكير من جديد. هل تصل متأخّرة هي الأخرى.. مرّتين؟ لقد تأخّرت مرّة، لتلتقي بعائلتها، بعد أن فقدت من فقدت. فهل تتأخّر مرّة ثانية، وتولّي واجباتها ظهرها؟ زفرت وأغمضت عينيها، فظهر في الظّلام بريق عيني فراس الحزينتين. ضمّت ذراعيها إليها، وانخرطت في البكاء من جديد.

***

في التّأبين الرّسميّ، وضعت توابيت العسكريّين الثمانية مغطاة بعلم البلاد المفدى، في ساحة الثّكنة العسكريّة في القصرين. وقف رئيس البلاد، وجملة من الوزراء والمسؤولين العسكريّين، تعلو وجوههم نظرة إباء مشوبة بالحزن، تليق بالحدث العظيم، وتردّد النّشيد الرّسميّ في خشوع مهيب:

حماة الحمى يا حماة الحمى هلمّوا، هلمّوا لمجد الزّمن

لقد صرخت في عروقنا الدّماء نموت، نموت، ويحيا الوطن!

ثمّ ألقى الرّئيس كلمة مؤثّرة، عن النّخوة والاعتزاز، والإرهاب والصّمود، وهدّد وتوعّد، ثمّ شكر ومجّد، ثمّ هنّأ وعزّى. بعد ذلك، تلا شيخ بجبّة وعمامة آيات من ذكر الله الحكيم، ودعا وأمّنوا. ثمّ صدحت موسيقى عسكريّة جنائزيّة، بينما انحنى الرّئيس أمام التّوابيت واحدا إثر الآخر، وقلّدها أوسمة شرفيّة. أخيرا، حُملت النّعوش إلى الشّاحنات المصفّحة، لتنطلق كلّ منها في موكب مهيب إلى وجهتها، حيث تنتظر كلّ شهيد عائلته.

عصر ذلك اليوم، وصل جثمان أمين إلى العاصمة. خارج منزل الجدّة، تزاحم المشيّعون والمعزّون، الوطنيّون والفضوليّون، المعارف والجيران والمتعاطفون، وكلّ من وصله الخبر من المارّة. كان الزّقاق غاصّا بالخلق، بعد أن فاضت بهم غرف المنزل وساحته وحديقته الواسعة. وحين نزل الجنود بزيّهم الرّسميّ بالنّعش هرولت الحاجّة فريدة إلى الفناء، بعد أن تناهى إليها اللّغط، تسندها كلّ من ليلى ومنال. تطوّعت بعض النّسوة للولولة والعويل، فنهرتهن السيّدة الكبيرة بلهجة حاسمة:

ـ ولدي عريس، لا يزفّ إلّا بالزّغاريد!

ارتفعت الزّغاريد والتّكبيرات من كلّ حدب وصوب، بينما رفع الجثمان فوق الرّؤوس، وسار في تيّار هائل من البشر، يشيّعونه إلى مثواه الأخير.

خــلال الأيّــام الــتي تلــت، فقــدت ليــلى شــهيّتها لــكلّ شيء. غــدت معالـم الحيـاة باهتـة وجافّـة. أينمـا حلّـت، كانـت تقـرأ عـلى الوجـوه خيبة وبـرودا. تشـعر بالأحـلام المـوؤودة تفـارق أصحابهـا، مثـل أرواح هائمـة لا تجـد لهـا مسـتقرّا. تشـعر بالهزيمـة وقـد عشّشـت في القلـوب والـرّؤوس، معلنـة انحسـار ا لأمـل الـذي جـاءت بـه الثّـورة وعـزّزه الجيـش، فكيـف وقـد انتكـس الاثنـان؟

لقــد كانــت الانتصــارات في البدايــة مدوّيّــة، لــكلّ القيــم المثاليّــة والمبـادئ الطّوباويّـة الـتي ظلّلـت الشـعب تحـت سـقف واحـد زمـن الهبّـة الهـادرة. وقـد كانـت الهزائـم مدوّيـة أيضـا، فمـا عـاد هنـاك إيمـان بـشيء ولا تعلّـق بـشيء. كلّ مـن وضـع أمـل نجاحـه وارتباطـه وتحسّـن وضعـه بالثّـورة، وجـد نفسـه مكانـه لـم يتحـرّك إنشـا واحـدا. لقـد كانـت أحـلام العامّـة وآمالهـم تسـتند عـلى دعامـة واحـدة، حـين انهـارت الدّعامـة، سـقط السّـقف عـلى رؤوس الـكلّ.

لازمتها في تلك الأيّام أسئلة وجوديّة مؤرقة.

هـل يجـب أن نمـوت ليحيـا الوطـن؟ ألا يمكـن أن نحيـا، ويحيـا معنـا الوطـن؟

لماذا يموت الأوفياء والصّادقون، ويحيا الخونة والفاسدون؟

كان سراح خالهــا قــد أطلــق، خــلال أيّــام، بقــرار عفــو خــاصّ طــال أهــالي شــهداء الوطــن، تكريمــا لهــم.

وكانــت العناويــن الــتي تغطّيهــا مقــالات ركنهــا بالجريــدة تــكاد تقتــصر عــلى موضوعــين اثنــين: عنــف الدّولــة، وغــلاء المعيشــة! كانــت ظاهــرة

العنف البوليسيّ تجاه كلّ من تسوّل له نفسه التّظاهر والاحتجاج قد استشرت من جديد، وكأنّ حرّيّة التّعبير والتّظاهر لم تعد مكفولة بالقانون. وكأنّ إنجاز الثّورة الوحيد قد صودر بكلّ وقاحة. في المقابل، تواصل الأسعار ارتفاعها بنسق جنونيّ، لتكبّل أصحاب الدّخل المتواضع.

لكنّ والدها، محترف التّفاؤل، حافظ على ابتسامته الدّائمة، في بلد كانت تسمّى في زمن المخلوع «بلد الفرح الدّائم»! يقول مهوّنا كلّما واجهته بسحنتها الكئيبة:

- لا تنسي أنّ الثّورة أفرزت تعدّدية حزبيّة، ومنابر إعلاميّة حرّة، ومكّنت من كتابة دستور جديد، وسمحت بحريّة التّعبير للقاصي والدّاني! لولا الثّورة، لما كنت تدخلين المصالح الحكوميّة والمؤسّسات العامّة، ولا حتّى تتجوّلين في الشّوارع آمنة بحجابك! منذ ثلاث سنوات لم تكن حتّى حريّة اللّباس مكفولة.. فما بالك بالحريّات السّياسيّة! انظري إلى ما تكتبينه في صفحة التّحقيقات. أنت لا تقدّرين ما تنعم به الصّحافة اليوم من طول ذراع ولسان! اليوم، يمكنك الكتابة في أيّ موضوع وكلّ شأن، دون خوف من رقابة أمنيّة وتكميم أفواه! عزيزتي، علينا أن ننظر إلى الجزء الملآن من الكأس، ونعمل على مواصلة ملء الجزء الآخر.. بصبر ويقين، ودون استعجال.

تذكر الآن نظرتها للمتظاهرين، منذ سنتين ونصف، وهي تقف أمام محلّ السّتائر مع سحر. لقد قالت الكلمات نفسها آنذاك. «الدّيمقراطيّة طبخة تحضّر على نار هادئة، ولا ينبغي استعجالها». وهي تستمع إلى والدها، لم تعد واثقة، كم ينبغي على المرء الانتظار حتّى تُجنى ثمار الثّورة ناضجة وحلوة، فلا يتّهم بالاستعجال؟

رغما عنها، كانت موجة اليأس قد وصلت إليها، وغمرتها حتّى قمّة

رأسـها. لأوّل مـرّة منـذ عودتهـا، شرعـت تفكّـر في عـرض باورمـان بجدّيّـة. كان يهـيّئ لهـا فرصـة الفـرار المناسـبة، مـن كـمّ الكآبـة الـتي تحيـق بهـا. إنّـه يمثّـل بوّابـة الخـروج مـن «لعبـة الثّـورة» قبـل أن تتكبّـد خسـارة فادحـة في مراحلهـا الأخـيرة.

انتشلتها زيارة نسرين لها في المكتب، ذات صباح.

لـم تكـن قـد التقتهـا منـذ الرّحلـة الخلويّـة الـتي جمعتهمـا في جزيـرة جالطـة. لمحتهـا بشـكل خاطـف أثنـاء مراسـم العـزاء، لكنّهمـا لـم تتحدّثـا باسـتفاضة. عانقتهـا وبكـت كلتاهمـا، وكأنّ ذكـرى الرّجـل الـذي كان السـبب في اجتمـاع شـملهما عـادت حيّـة في الوجـدان المنهـك. بعـد أن اسـترجعت نسريـن أنفاسـها، شرحـت سـبب مجيئهـا:

ـ نريـد في فـوج الكشّـافة أن نفعـل شـيئا مـن أجـل أمـين، حـتّى لا يُمحـى أثـره. جمعنـا الصّـور الـتي احتفـظ بهـا كلّ منّـا مـن الرّحـلات والأنشـطة الـتي شـارك بهـا.. وقـد فكّـرت فيـك، ربّمـا تكـون بحوزتـك متعلّقـات شـخصيّة أو صـور خاصّـة يمكنـك المسـاهمة بهـا؟

خمّنـت ليـلى أنّ نسريـن قـد تكـون مـن أشـدّ النّـاس وجعـا لرحيـل أمين. لقـد كانـا عـلى أبـواب الخطبـة والارتبـاط، لذلـك لـم تفاجئهـا المبـادرة. لكنّهـا انتبهـت إلى أنّهـا لا تملـك أيّ ذكـرى مـن أمـين يمكنهـا أن تفيـد بهـا. قالـت بعـد تفكـير:

ـ سأحاول إيجاد شيء من أجلك.

بعـد أن غـادرت نسريـن، لبثـت ليـلى تحـدّق في الهاتـف لدقائـق. لـم تكـن قـد رأت فـراس بعـد ذلـك اللّقـاء اللّيـلي، في حديقـة منـزل الجـدّة، يـوم تلقّـي الخـبر القاتـل. والآن، عليهـا أن تتّصـل بـه، فهـو الوحيـد الـذي بإمكانـه أن يجيـب طلبهـا. تعـرف مصـدر تردّدهـا. إنّهـا لـم تـردّ أبـدا عـلى سـؤاله ليلتهـا، ولـم تكـن قـد حسـمت أمرهـا بخصوصـه. اسـتجمعت

شجاعتها أخيرا، واتّصلت. بعد رنّتين، جاءها صوته. شرحت له بسرعة ما طلبته نسرين، فقال ببساطة:

- سأمرّ عليك غدا بالجريدة، وأترك لك مفتاح الشّقة. أغراض أمين مازالت في غرفته، يمكنك أخذ ما ترينه مناسبا منها، قبل أن نتبرع بما تبقى.. ثمّ اتركي المفتاح في صندوق البريد.

فكّرت وهي تنهي المكالمة، لقد بدا متماسكا أكثر ممّا توقّعت.

في الغد، حين رجعت من مقابلاتها، أخبرتها زبيدة أنّ فراس قد مرّ بها، وترك المفتاح كما وعد. انتابها الشكّ، هل يحاول تجنّبها الآن؟ إنّه يعرف بالتّأكيد أنّها لا تتواجد في المكتب صباحا.

تناولت غداءها في مقرّ الجريدة كالعادة، ثمّ اعتذرت لقضاء حاجة خاصّة، وخرجت باتّجاه شقّة فراس. حين فتحت الباب، فاجأتها أناقة المفروشات ورائحة النّظافة. كانت تلك زيارتها الأولى لها. هل نسيت أنّه مهندس معماريّ؟ كان من البديهيّ أن تكون شقّته بتلك المواصفات. بيد أنّها رسمت في ذهنها صورة لما تكون عليه شقّة شابّ أعزب عادة، فما بالك بشابّ أعزب منهار وفي حداد! تساءلت حينها، هل هو كذلك حقّا، منهار وفي حداد؟ لم تكن غرفة المعيشة المرتّبة بنوافذها الواسعة والمطبخ اللاّمع المطلّ عليها تعكس شيئا من ذلك.

فتحت الباب الثّاني على يمينها، كما أوصى فراس. كانت تلك غرفة أمين. وجدتها مرتّبة هي الأخرى. بدا أنّ يد فراس قد مرّت من هنا منذ وقت قريب. لم تتوقّع أن يكون قد اهتمّ بتوضيب حاجيات أمين وفرزها بتلك السّرعة. حسبت أنّه سيحتاج فترة نقاهة طويلة من حزنه المزمن. لكنّها كانت مخطئة.

كانت هناك صناديق معبّأة، فيها ملابس وكتب وأحذية. انتبهت

إلى صندوق منفرد، قرب الباب، تعلوه قصاصة بخطّ يد فراس، كان قد وضعها من أجلها: «أظنّ هذا يفي بالغرض». أخذت تتفحّص محتويات الصّندوق. كانت هناك عدسة تصوير رقميّة وألبومات صور، بالإضافة إلى حاجات أمين الكشفيّة، زيّه الرّسميّ، شاراته وأوسمته، ثمّ أوراق ملفوفة. فتحتها، لتجد لافتات الشّعارات التي كانت تُرفع في المظاهرات. كان هناك الكثير منها. وضعتها جانبا، ثمّ تناولت عدسة التّصوير، وأخذت تتفرّج على الصور.

استغرقتها الصّور، فلم تشعر بالوقت يمرّ. أمضت ساعة أو نحوها تتأمّل المشاهد التي التقطتها عدسة أمين على مرّ السّنوات الماضية. كان هناك القليل من صوره الشّخصيّة، والكثير من صور المظاهرات والاعتصامات والوقفات الاحتجاجيّة والرّسومات الحائطيّة المتمرّدة! كيف نسيت ذلك! لقد كان أمين «شاهدا على الثّورة» بامتياز. يمكنه أن ينال اللّقب دون منافسة! لم تكن تفوته حركة احتجاجيّة واحدة في العاصمة وأحوازها.

أعادت ترتيب الأغراض في الصندوق، ثمّ حملته وانصرفت. سيفي ذلك بالغرض فعلا.

ركبت سيّارة أجرة، فلم يكن حملها مناسبا لركوب المترو. طوال رحلة الإياب، لازمتها فكرة ملحّة. يجب أن تفعل شيئا بإرث أمين الثّوري. الصّندوق الذي يستقرّ على المقعد إلى جوارها يلخّص تاريخ الثّورة، منذ اندلاعها وحتّى شهور قليلة خلت. يمكنها أن تعيد رسم الأحداث بدقّة، بالاستناد إلى ما خلّفه أمين. لكن ما الذي بوسعها عمله بها؟

حين خطت باتّجاه بنايتها، شاهدت سيّارة فراس متوقّفة عند رأس الشّارع. لم تكن قد وصلت إلى المدخل بعد، حين لمحته يظهر

من هناك، ويتّجه إلى سيّارته مولّيا إيّاها ظهره. لم يرها. وقفت تراقبه في شكّ، وهو يدير المحرّك وينطلق. لقد تأكّد لديها إحساس الصّباح الآن. إنّه يتعمّد تجنّبها! لقد عرف أنّها ستذهب بعد الظّهر إلى شقّته، فاستغلّ فرصة غيابها لزيارة والدها!

صعدت بصندوقها حتّى الطّابق الثّاني. استقبلها والدها بابتسامة باشّة، سألها عمّا تحمله، ثمّ أخذ يحدّثها عن نباتاته. كان اهتمامه الحديث برعاية النّباتات قد بات تسليته المفضّلة. كانت الشرفة قد غدت حديقة معلّقة مليئة بالأصص التي تحوي مختلف مزروعات نجيب. وفي ذلك اليوم، كانت بوادر الجفاف قد ظهرت على نبتة الأكاسيا ومال جذعها.

خمّنت، لم تبد عليه أدنى نيّة بإثارة زيارة فراس أمامها.

دلفت إلى غرفتها واتّصلت بنسرين.

- لقد أحضرت الأغراض التي طلبتها. لكنّني أفكّر بشيء آخر، غير التّكريم العادي...

- ماذا تقصدين؟

- ما لديّ هنا يكفي لإقامة معرض صور فوتوغرافيّة محورها تاريخ الثّورة!

- هذه فكرة لامعة!

- هل تظنّين؟ إنّها مجرّد فكرة، ولا أعرف كيف يمكن تنفيذها.

- سنفكّر معا في الأمر.

في الأيّام التّالية، التقت نسرين بضع مرّات. عرضت عليها محتويات الصّندوق الدّسم، فعكفتا على فرزها وفكّرتا معا طويلا في فكرة المعرض. كانتا تحتاجان قاعة عرض بمساحة كافية، ويمكنهما

تقاسم مصاريف طباعة الصّور بحجم مناسب وتأطيرها. فكّرت ليلى أنّ بوسع فراس مدّ يد المساعدة. قد تعهد إليه بتصميم ديكور القاعة الدّاخليّ، وربّما أمكنه تدبّر أمر حجز القاعة أيضا، بحكم علاقاته في كليّة الفنون الجميلة. لا شكّ أنّه قد حضر أو نظّم عروضا فنيّة مشابهة في وقت سابق.

حين حدّثت نسرين باقتراحها، أيّدتها بحماس. كان من الجيّد إشراك أفراد العائلة وكلّ المقرّبين من أمين في المشروع. هذا ليس مشروعهما الخاصّ. إنّ الغرض منه أكبر من مجرّد تثمين علاقات شخصيّة أو ملكيّة فكريّة. كان ذلك واجبهما في زمن الفتور وانخفاض الهمّة، التّذكير بتضحيات الشّهداء ومواقف الشّجعان.

- سأخبر جدّتي وأبي أيضا، ربّما يرغبان في المشاركة!

أجرت اتّصالات عدّة ذلك اليوم، وأخّرت اتّصالها بفراس. كانت تشعر بثقل في صدرها، كلّما فكّرت أنّه قد صار يحاول تلافيها. لكنّه كان يردّ على اتّصالاتها ببساطة. لا يبادرها بشيء، وينتظر حتّى تشرح حاجتها. لم يختلف الأمر ذلك المساء. استمع إليها في صمت، ثمّ قال في اهتمام:

- سأجرّب الاتّصال بوزارة الثّقافة.. قد يهمّهم الحدث.

وهي تستلقي في سريرها تلك اللّيلة، كانت تشعر بشيء من الضّيق. هل تكون قد تأخّرت في الرّدّ حتّى ما عاد ينتظرها؟ لقد بدا مختلفا مؤخّرا، متباعدا وجافّا. ألم تكن كذلك تجاهه أيضا؟ ممّ الشكوى إذن؟ لقد حقّق رغبتها وتوقّف عن مطاردتها بنظراته وأسئلته الملحّة. فما الذي تريده الآن؟ تساءلت، هل كانت تلك رغبتها حقّا؟ هل يراودها النّدم الآن؟

***

هل كان ينتظر رحيل أمين ليدرك معنى الحياة أخيرا؟

كان قد اتّخذ قرارات، منذ ثلاث سنوات، ثمّ جمّد تنفيذها. لقد احتاج أن يعبر كلّ تلك الدّهاليز الملتويّة، فيتوه عن نفسه سنتين مغتربا ووحيدا، ثمّ يرجع منتكسا ومقهورا، ثم يهذّب شعث قلبه ويكتشف معاني الأخوّة، قبل أن يهوي من ارتفاع ساحق، ويتلقّف نفسه بمعجزة قبل الارتطام المدوّي! أيّ هاتف جاءه في نومه وهمس: هذه ليست النّهاية؟ ليس واثقا. لا يذكر أحلامه منذ زمن، منذ غادرته الكوابيس لم يعد يحلم. وتلك راحة في حدّ ذاتها. لكنّه استيقظ من سباته ذات صباح وقد أدرك أنّ هذه لا يمكن أن تكون النّهاية!

لقد خسر الكثير حتّى الآن من الالتفات إلى الماضي، كأنّ في قدميه ثقلا يشدّ خطواتهما إلى الوراء. وقد اتّخذ قرار الإفلات من قبضة الذّكريات المؤلمة بفضلها. ليلى. لكنّها تأبى أن تكون جزءا من مستقبله. هل يمكنه الآن أن يستأنف مشوار الحياة رغم جناحيه منتوفي الرّيش؟ لقد كانا جناحيه.. ليلى وأمين. وقد فقد كليهما خلال السّنة الأخيرة. وهل كان قد امتلك أحدهما فيما مضى؟

كانت ليلى حلما جميلا. وكان أمين اكتشافا متأخّرا.

ذلك الصّباح، منذ أسبوعين، اتّخذ قرارا آخر، وهو يفتح عينيه صباحا على رؤيا لم يرها في الحلم، لكنّها تجسّدت إيمانا في قلبه ويقينا في عقله. هذه حياته هو، وليست حياة أيّ كيان آخر. سيدخلها أناس كثر، يعبرون ويرحلون. وسيأتي يوم رحيله أيضا، في وقت ما. وليس يليق بتلك الحياة التي وهبت له أن تضيع هباء، لأنّه خُلّف وحيدا مثل صبيّ تائه!

ذلك الصّباح، فتح غرفة أمين التي لم يجرؤ على ولوجها منذ

غادرها صاحبها. اتّخذ جملة من القرارات السّريعة تباعا. لن تكون حياته بعد الآن شبح حياة. ستكون حياة حقيقيّة، مشبعة بذاتها، مستقلّة ومتصالحة مع واقعها. بدأ بتنظيف الغرفة وترتيبها. لم يبك مرّة أخرى وهو يمرّ بعينيه وأصابعه على أشياء أمين. كان يفكّر بشكل مختلف الآن. إنّه يغبط أمين، لأنّه كان قادرا على فعل ما يريد على الدّوام. لقد كانت قيمه التي آمن بها نصب عينيه حتّى النّهاية. إذن تلك حياة قد عاشها صاحبها كما يجب، ولا شكّ لديه أنّ النّدم لم ينازعه حتّى الرّمق الأخير. هنيئا له.

ذلك الأسبوع، ذهب لزيارة والده. لم تكن زياراته متواترة، خشية أن يلتقي ياسين عنده. لم يعد يخشى لقاءه بعد الآن. لقد تواجها أثناء العزاء، وكادا يتشاجران. لم تعد رؤيته تعني له شيئا. لقد تباعدت طرقهما منذ ثلاث سنوات، وقد افترقت إلى الأبد بعد رحيل أمين.

بدا نبيل منهكا، رغم خبر اقتراب حريّته السّعيد. فكّر فراس، لقد فقد ولده في نهاية الأمر، وهذا سبب كافٍ للانهيار. قال نبيل في مرارة:

- هل كان عليه التطوّع مع الجيش؟ لقد ضيّع حياته هباءً. عاش مغفّلا ومات كذلك!

ردّ فراس في برود:

- لقد كان بطلا، صادقا مع نفسه ووفيّا لمبادئه. لا أظنّك قد عرفته يوما. لقد كان معدنه أصليّا، ونحن المزيّفون!

حدّق فيه نبيل غير مصدّق. لكنّ فراس لم يعد يأبه. سيلقي كلماته في وجوههم، ولن يسكت أمام قدحهم في الشّهيد!

لقي ياسين، وهو يغادر قاعة الزّيارة. تبادلا نظرة طويلة لاذعة، تلخّص ما آلت إليه العلاقة بينهما، ثمّ سارا كلّ في طريقه دون أن

ينطـق أحدهمـا بكلمـة.

جاءه اتّصالهـا، مثـل إشـارة ربّانيّـة. سـيفعل شـيئا مـن أجـل أمـين. فكرة المعـرض كانـت ملهمـة. بخوضـه التّجربـة كان يعلـن انتهـاء حـداد قلبـه عـلى فقيديـه. سـيكرّم أمـين كمـا يليـق بـه وبثورتـه، ويطلـق سراح ليـلى مـن قفـص مشـاعره. لقـد حسـب فيمـا مـضى أنّ خلاصـه في النّسـيان، لكنّـه اليـوم يؤمـن أنّ الذّكـرى بعـض منـه ومـن وجدانـه: لا يمكنـه أن يمسـحها ويمحوهـا، لكنّـه سـيحاول أن يعيدهـا إلى حجمهـا وموقعهـا الطّبيعيّـين عـلى سـلّم أولويّاتـه. لـن تطغـى ذكرياتـه عـلى حـاضره بعـد الآن، وسـتبقى حيـث يجـب أن تكـون، عـلى سـلّم الزّمـن، جـزءًا مـن خبراتـه الماضيـة.

أولـم يكـن يعـتزّ بذكرياتـه في وقـت مـضى؟ تلـك المفكّـرة الـتي ظهـرت فجـأة بـين يـدي ليـلى أعـادت إليـه وعيـه بذاتـه القديمـة. كان يكتـب، حـتّى لا ينـسى. لقـد كان كلّ حـدث يمـرّ بـه قيّمـا لذاتـه. كان يعيـش بتلـك الطّريقـة. وكان عليـه أن يمسـك المفكّـرة بـين يديـه بعـد ثمـاني سـنوات من اختفائهـا حـتّى يـدرك كلّ ذلـك! الآن، لـم يعـد يريـد أن يكـون عـلى أحـد النّقيضـين، متطرّفـا في التشـبّث بالذكّريـات أو متطرّفـا في نبذهـا. سـيعيد للأشـياء حجمهـا الطّبيعـيّ، ولـن ينجـرف وراء مشـاعر غـير منضبطـة.

تذكّـر، تلـك المفكّـرة، لقـد اختفـت مـن درج مكتبـه فجـأة. تزامـن ذلـك مـع انهيـار حنـان وإمعانهـا في الجنـون. لقـد كان منشـغلا في تلـك الأيّـام، فلـم ينتبـه لغيابهـا. كيـف انتهـت إلى غرفـة حنـان؟ هـل كانـت هـي مـن سرقهـا؟

***

جاءها اتّصال فراس بعد يومين. قال على الفور:

- لقد فكّرت في الأمر، لا نحتاج قاعة مغلقة لا يرتادها إلّا المهتمّون بالفنّ.. بل مكانا مفتوحا. ساحة أو حديقة، يمرّ بها عدد كبير من النّاس كلّ يوم!

بدا لها الاقتراح منطقيّا. كان هناك عدد من المواقع الممكنة، حديقة الحبيب ثامر، قرب محطّة الحافلات المركزيّة بالعاصمة، شارع الحبيب البورقيبة، أو ساحة القصبة، حيث عدد من الوزارات والدّوائر الحكوميّة والمؤسّسات العامّة. لدواعٍ أمنيّة، ولضمان استقرار المعرض أطول فترة ممكنة، وقع الاختيار على الحديقة. لم تكن تأمن تدخّل الشّرطة لتقويض المعرض كما تدخّلت بالقوّة مع المعتصمين.

ذهبت مع نسرين لمعاينة المكان. كان هناك بعض الباعة المتجوّلين المتفرّقين على امتداد الطّريق الذي يشقّ الحديقة ويصل بين مدخليها الرّئيسيّين. بين البابين، ينساب التيّار البشريّ في مختلف ساعات النّهار. ألهمهما توزّع الباعة ومواقعهم. كان هناك من سبقهما بتحرّي المراكز الاستراتيجيّة لاقتناص أكبر عدد من الزّبائن. اختارتا الموقع المناسب قرب المدخل الجنوبيّ، ساحة مستطيلة ذات مساحة كافية، في خلفيّتها أشجار وارفة الظّلال. كان تيّار العابرين الأهمّ يمرّ من هناك، وهناك أيضا يتجمّع أكبر عدد من الباعة.

بعد أسبوعين، كان كلّ شيء جاهزا. نصب سرادق ضخم قرب مدخل الحديقة، تحسّبا للأيام الممطرة والمشمسة على السّواء، وعملت أياد كثيرة على ترتيب اللّوحات الفوتوغرافيّة في فضاء المعرض. كان عدد من الكشّافين قد انضمّ إلى الفريق ليتداول الجميع على الاهتمام

بالمعرض منذ الصّباح وحتّى غروب الشّمس.

لم تستطع ليلى أن تتغيّب كثيرا عن عملها، لكنّها كانت تمرّ بالسّاحة كلّما سنحت الفرصة، لتراقب سير العمل. أمّا نسرين، فقد تفرّغت للمعرض تماما، وكأنّه مشروعها الخاصّ. كان فراس قد وضع مخطّطا دقيقا لما يجب أن يكون عليه المعرض، محدّدا موقع كلّ لوحة وكلّ لافتة. وعلى مدخل الخيمة، علّقت لافتة تحمل شعار العرض «كي لا ننسى».

ومنذ شرع الفريق في الإعداد للمعرض، كان النّاس يتوقّفون في فضول، أثناء مرورهم بالحديقة، يلقون نظرة على الصّور واللّافتات، وتظهر علامات التأثّر على وجوههم. كان البعض يجهش بالبكاء أمام صورة بعينها، تعيد إليه ذكرى خاصّة. وكان البعض الآخر يبتسم بمرارة، مسترجعا مواقف مضت، وصارت في طيّ النّسيان. وكانت العيون تعانق اللّوحات في حبّ أحيانا، وفي حنين، وكثيرا في أمل. تمرّ في مُقلها حياة كاملة، صاخبة ومزدحمة بالمشاعر. تلك الصّور لم تكن قطّ خاصّة بصاحبها، ولقد كانت مشاركتها واجبا.

كانت اللّوحات قد استقرّت في مواقعها ذلك العصر، حين مرّت ليلى على المعرض، تلقي نظرة تفقّديّة. سارت بين الصّور المعلّقة تتأمّلها واحدة واحدة، تملأ منها عينيها. كانت تعرف كلّ واحدة منها، بعد أن أمضت ساعات طويلة في فرزها وانتقاء التي تصلح منها للعرض. لكنّها كانت مذهلة بحجمها الكبير، وقد صارت جزءا من إخراج مسرحيّ يروي قصّة شعب وجلّاد ووطن.

توقّفت فجأة أمام لوحة تعرض مسيرة احتجاجيّة ما. كانت هناك الكثير من القبضات الملوّحة في الهواء، والأفواه المنشّقة عن صرخات غضب وثورة. كانت الأجساد في الصّورة تبدو وكأنّها تتحرّك بشكل

متزامـن ومتناسـق، مثـل هبّـة رجـل واحـد. لبثـت تحـدّق في الوجـوه، تتعـرّف إلى هـؤلاء الغربـاء الذيـن التحمـوا في سـاحة المعركـة، فمـا عـاد يمكـن تمييـز أحدهـم عـن الآخـر. فجـأة شـهقت، وغطّـت فمهـا بكفّهـا. بـلى، كان بإمكانهـا تمييـز وجـه هنـا. وجههـا هـي! تسـمّرت في صدمـة. كيـف يمكـن أن تكـون ملامحهـا في تلـك الصّـورة الـتي التقطهـا أمـين عرضـا لمجموعـة مـن المتظاهريـن؟ لا يمكـن أن يكـون قـد ميّزها في ذلـك الزّحام! لكـن هـا هـي ذي، صورتهـا وسـط المشـهد، في خضـم المسرحيّـة، شـاهدة عـلى أنّهـا كانـت جـزءا مـن التّاريـخ الـذي تخلّـده الصّـور!

سـالت دمعـة صامتـة عـلى وجنتهـا. لـم تصـدّق أنّهـا مثـل الآخريـن، وجـدت قصّتهـا الشـخصيّة في حكايـة الوطـن الكبـير. تتذكّـر الآن، حاجتهـا إلى الذّوبـان في هـمّ أكـبر، فـرارا مـن همومهـا الذّاتيّـة. تتذكّـر هتافهـا المـرّ، لتغطّـي عـلى صـوت عذابهـا الباطـنيّ. لقـد عرفـت عـلى امتـداد الرّحلـة، أنّ عليهـا أن تبـدأ بنفسـها، ترمّـم صدعهـا الدّاخـليّ لتكـون لبنـة صلبـة في بنيـان الوطـن. لقـد اكتشـفت في لحظـة تجـلٍ، أنّ قطـع الآجـر الهشّـة والمحطّمـة لا تصلـح لإقامـة صرح شـامخ، فمصـيره إلى الانهيـار مهمـا ارتفـع!

تتأمّـل مـن جديـد في تلـك الوجـوه الـتي تحيـط بذاتهـا القديمـة في الصّـورة. هـؤلاء مثلهـا تمامـا، ذوات مهشّـمة وأرواح ممزّقـة، تعذّبهـم همـوم شـخصيّة متباينـة، وقـد حسـبوا لوهلـة أنّ قضيّـة الوطـن تجمعهـم. وقفـوا في وجـه جلّادهـم المشـترك، صرخـوا وهـدّدوا، ينفّسـون عـن غضـب مكبـوت وغيـظ مكتـوم. فلمّـا رحـل الجـلّاد، تفرّقـت بهـم السّـبل. اكتشـفوا أنّهـم لـم يكونـوا يومـا عـلى قلـب رجـل واحـد. تحسـبهم جميعـا وقلوبهـم شـتّى، مشـغولة بهمـوم شـخصيّة. لقـد كانـت لحمتهـم التّلقائيّـة مؤقّتـة. لقـد كان بنيانهـم المرصـوص ظاهـرا ينخـره السّـوس داخـلا.

زفرت بقوّة. إنّها تعرف الآن ما عليها فعله.

شعرت فجأة، بخطوات تتوقّف خلفها. خطوات متسلّلة بلا وقع. رغم السّنوات التي انقضت، ورغم الحركة المستمرّة من حولها في أرجاء المعرض، إلّا أنّه مازال بإمكانها الإحساس بوجوده. اضطرب تنفّسها، وهي تنتظر ردّة فعله. حين طال الصّمت، قالت بهدوء:

- هل أعجبتك الصّورة؟

خطا فراس إلى الأمام، حتّى صار في مستواها، وقال:

- هذه الصّورة تقول الكثير، لمن يستطيع أن يقرأ لغتها.

التفتت إليه في فضول. هل تراه ميّز ملامحها بين الجماهير؟ وهل يكون قد وقف على الاستنتاج نفسه؟ هل قرأ كلاهما مفردات اللّغة نفسها، أم يتوهّم أحدهما أو كلاهما أنّه قد حاز الفهم؟

وضع فراس كفّه على صدره وتنهّد، ثمّ قال:

- الثّورة، يجب أن تبدأ ها هنا.

ابتسمت، واعتراها إحساس لذيذ بأنّهما - أخيرا - على نفس الموجة، ينظران في الاتّجاه ذاته، ويفكّان شيفرة لغة لوحة صامتة بالدّقّة ذاتها! انتبهت في تلك اللّحظة إلى أنّ فراس كان قد سبقها بأشواط. كلّ شيء فيه كان ينطق بالثّقة والعزيمة، صوته، شكله ولغة جسده. لقد كان تجاوزه للأزمة سريعا وفعّالا، وكأنّه يراقب هدفا واضحا أمام عينيه. يمكنها أن تجزم بأنّ الرّجل الذي أمامها الآن ليس ذات الرّجل الذي ظلّ يبكي على الأطلال سنوات أربع بعد رحيل زوجته الأولى! سرى القلق داخلها عند ذلك الخاطر. هل تراه يحسبها الآن جزءا من الماضي الذي خلّفه وراء ظهره؟

جاءها صوته فجأة:

ـ هل ستسافرين مرّة أخرى؟

لمعت عيناها ببريق الإثارة، وابتسمت وهي تقول في ثقة:

ـ سوف أبقى هنا.

في الخلفيّة، كانت نغمات نشيد شجيّ تتصاعد من مسجّل نسرين:

سوف نبقى هنا   كي يزول الألم

سوف نحيا هنا   سوف يحلو النغم

موطني موطني   موطني ذا الإباء

موطني موطني   موطني يا أنا!

تمّت بحمد الله

أينَ المَفرّ

صدر للكاتبة:







لو أنّ لها أن ترسم صورة مبسّطة عن حياتها، منذ وعت بها، لقالت إنّها سلسلة من الصّدمات. كلّ صدمة ترسم لها مسارا مغايرا وتبعث في وجودها معاني كانت في غفلة عنها. كان عليها أن تفتّش عن الصّدمة التّالية لتجد طريقها. كانت تمشي متلفّتة منتبهة لأبسط الأحداث، تبحث عن بوادر الصّدمة فيها.. وتتساءل: هل تصلح هذه بذرة لزوبعة تهزّ أركان حياتها الرّتيبة؟ وكلّما هيّئ لها أنّ الصّدمة آتية، تشبّثت بها وقالت ها هي ذي! لكنّها سرعان ما تشيح عنها حين تجدها عقيما من دوافع التّغيير.مَثلها في ذلك كمثل صيّاد يصطاد السّمكات ثمّ يلقي بها في البحر، يترقّب سمكة أكبر. حتّى وقفت ذات يوم وقالت: هذه صدمتي، هذه أكبر!


9 789778 200492



تصميم الغلاف:
عبد الرحمن الصواف

